الانشقاق المشرِّف

(روايــة)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

وبه نستعين

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

[الأحقاف/١٥].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

[فصلت/٣٣].

صدق الله العظيم

– إن من يجعل من الثورة السلمية أمراً مستحيلاً .. سوف يجعل من الثورة الدموية أمراً حتميّاً.

–جون ف كندي–

٢٠١٢/١٢/٢٣م

الانشقاق المشرِّف

تــأليف

حسام وفائي (تورنتو – كندا)

ترجمة: عبد الله بن محمد

(اسم مستعار لكاتب سوري مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية)

يرصد ريع هذا الكتاب لصالح (المنظمة السورية – الكندية للإغاثة الإنسانية)

Syrian-canadian foundation for humanity (SCFH)

Canada, Torento

شكر وتقدير

يعرض هذا الكتاب قصصاً حقيقية لأشخاص شجعان بشكل لا يصدَّق، قاتلوا، وبعضهم لا يزال يقاتل في سبيل الحرية والإصلاح في سوريا.

لقد كانت تجاربهم مؤثرة جداً ومأساوية في أكثر الأحيان، ولكنها كانت دائماً ملهِمة.

وأكرّس هذا الكتاب لتخليد ذكرى الذين سقطوا في ميدان النضال، والشجعان الذين ما زالوا يناضلون في سبيل الحرية والديمقراطية.

وقد قمت بتغيير بعض الأسماء وذلك لحمايتهم وحماية عائلاتهم من نقمة عصابات الأسد الإجرامية وانتقامها، سواء في سوريا أو خارجها.

وأودُّ أن أخص بالشكر أصدقائي الذين ساهموا ببذل وقتهم ومواهبهم في قراءة الكتاب وإبداء التعليقات البنّاءة.

وإنني لأقدِّر أسمى تقدير جهود كلٍّ من كريستين ودونا وعدد كبير آخر لما بذلوه في مرحلة إعداد الكتاب.

وأخصُّ بالشكر ماري مورفي التي تبنَّت القضية كما لو كانت قضيتها الشخصية، وساهمت بوقتها وموهبتها من دون حدود.

مقدمـــة

أخذ الربيع العربي العالم على حين غرة في مطلع عام ٢٠١١م حيث شهدت بعض الدول في الشرق العربي الواحدة تلو الأخرى انتفاضات مدنية مطالبةً بالإصلاح، وتفاوتت نتائج تلك الانتفاضات من بلد لآخر، وقد خطت كلها (إلا واحدة) خطوات ملموسة نحو الديمقراطية.

فقد جرت في مصر يوم ٢٣ أيار ٢٠١٢ ولأول مرة منذ ٥٠٠٠ سنة انتخابات حرة بشهادة المراقبين الدوليين، وتم في ليبيا الإطاحة بطاغية حكمها أكثر من أربعين عاماً.. وكانت سوريا هي دولة الرفض الأكثر تعنتاً.

ففي سوريا يرأس الدكتاتور الفعلي زمرة أقلية تتمتع بامتيازات غير محدودة، فقد عانت الأغلبية الساحقة من السكان الحرمان لأكثر من أربعة عقود، فبات من الصعب الحصول على الضروريات الأساسية للعيش، والكماليات غير موجودة حتماً، ولم يكن لهم أي رأي في إدارة شؤونهم الخاصة، وساد الفساد معظم مرافق الدولة، بل كلها، وأصبح هو الأمر الطبيعي على كافة المستويات.

وقد حدث وما تزال تحدث الأهوال الشنيعة من قبل قوات النظام وأذنابهم من خطف من خطف وتعذيب وقتل جماعي وحشي لكل من يطالب بالإصلاح الاجتماعي والسياسي، حتى أن روسيا والصين اعترفتا بارتكاب الحكومة السورية أشنع الفظائع بحق شعبها..

يستند هذا الكتاب على تجربة عائلتين، وبعض من حولهما، وسرد ما عانوه من أهوال خلال هذه الفترة (فترة الانتفاضة بدءاً من ١٥ آذار ٢٠١١).. وبسردنا لقصة هؤلاء الأشخاص نأمل أن نساهم في بدء أحداث التغيير الديمقراطي في وطننا الحبيب.[١]

(١) لقد قدَّمت بعض الترجمات والشروحات لبعض الكلمات والتعابير العسكرية في الحواشي لإيضاح المضمون.

الحدود السورية – اللبنانية

١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١١

ظهر للحيظات خيال إنسان على قمة تلة ثم اختفى خلف الجانب المظلل من التلة. جثم الرجل في محاولة منه للاندماج بمحيطه مدفوعاً بالخوف والرهبة، فانحدر إلى الوادي بأنفاس مقطوعة، وعلى الرغم من برودة الطقس فقد كان يتصبب عرقاً.

لا توجد علامات جغرافية تميز الحدود بين سوريا ولبنان، فالمنطقة الحدودية متعددة التلال مع بعض الشجيرات المتناثرة هنا وهناك لم تتغير عبر القرون، إنها منطقة خالدة شهدت تاريخ الإنسان منذ بدأ التاريخ.

عبرت هذه الأرض جيوش وأقوام لا حصر لهم، فمنهم من استقر وأقام فيها ومنهم من عبر وغادر، لقد مرَّ الصليبيون بهذه الأرض وأنشأوا فيها قلعة Krak Des Castle في مطلع القن الثالث عشر. كما سافر عبرها عدد لا يحصى من القوافل بحثاً عن الرزق والتجارة، فأنشأت بعض المراكز الحضرية منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، إذ بدأ الإنسان يطمح لتأمين احتياجاته المعيشية الضرورية، وتخلى عن الحياة الهمجية ليتبنى الحياة الحضرية.

على هذه الأرض ترعرع التسامح الديني، وفيها ظهرت ديانات التوحيد السماوية (اليهودية، المسيحية والإسلام) وعليها تم وضع أسس التنمية والتطور وشريعة السلوك الأخلاقي.

انحدر الخيال عن التل مقطوع الأنفاس، يلتفت يمنة ويسرى خشية ممن قد يطارده. هدأ الضجيج و، وخفت صوت إطلاق الرصاص ووجد الخيال نفسه في أسفل

التل محاطاً ببعض الشجيرات فخلد إلى الراحة مستنداً إلى شجرة أملاً بالتخفي والتماهي مع المحيط.

وتسابقت في ذهنه ذكريات قصيرة مؤثرة من الخوف، الفوضى، الدماء والحزن، لعلمه أنه قد نجا من الجحيم غير أن عدداً كبيراً آخر لم يكونوا من المحظوظين..

وفي مخبئه هذا بحث في جيوبه عن بقية من طعام لتسد رمقه دون جدوى، وأخيراً تحسس قطعة خبز يابسة في جيب سترته، قضم منها لقمة وأحسَّ بطعم غريب في حلقه لم يتبين أنه كان تراباً أم دماً يابساً جامداً.

تحفل الحدود السورية اللبنانية بنقاط عبور لا حصر لها عبر التلال والحقول، لكن أقربها إلى مدينة تلكلخ السورية حيث كانت تتمركز الوحدة التي انشق عنها أحمد (الفرقة الرابعة المدرعة) كانت نقطة (البوقاية) في وادي خالد، وأسند لهذه الوحدة العسكرية مهمة سحق المظاهرات السلمية في تلك المنطقة. وكانت الأوامر صريحة (أطلق لتقتُل). أخذ أحمد يفكر ملياً بقراره بالانشقاق وانعكاس هذا القرار على مستقبله، هل يستمر في الخدمة العسكرية الإلزامية ليكمل الشهور الخمسة المتبقية ثم يتابع مهنته كمهندس؛ أم أن القدر صرفه باتجاه آخر لا يرحم.

راح أحمد يتذكر الأحداث في الأربع والعشرين ساعة الماضية، تذكر كيف أن قائد وحدته كان يصيح من فوق عربة ناقلة الجنودBMP [١] ويتواصل مع القناصة المنتشرين على أسطح المنازل، بدأ المشهد من دون أي عنف، فقد ظهر المتظاهرون يحملون علم

---

(١) آلة حربية برمائية روسية الصنعBoyevaya Mashina Bekhoty.

الاستقلال السوري ويهتفون بسقوط النظام (نظام الأسد)[1]، لقد كان الحشد سلمياً ومؤلفاً من نساء وأطفال ورجال، وكانت مسيرتهم تطالب بالإصلاح الإداري والديمقراطي وحرية التعبير والمساواة أمام القانون. وقف عدة مئات من الناس في إشارة المواجهة لوحدة أحمد المتمركزة هناك، واستمرت الهتافات من الخلف، واستمر المتظاهرون بالمسير ببطء حتى أصبحوا في مواجهة الوحدة العسكرية التي كان أحمد أحد أفرادها. وبدا أن الحشد مستعد لتحدي القوة العسكرية، واستمروا بالهتافات المعادية للأسد (رجالاً وأطفالاً ونساءً). وترددت أصداء هتافات في الشارع السكني حيث البنايات المنخفضة والدكاكين المغلقة.

كان المدخل الغربي للشارع مفتوحاً على أرض زراعية، وكانت كتيبة من الفرقة الرابعة تتقدم ببطء من ذاك الاتجاه، وقفت أربع ناقلات جنود مدرعة وسدَّت الطريق، تبعها باصات مليئة بالجنود المدججين بالسلاح وعلى أهبة الاستعداد للمواجهة المسلحة، على مسافة لا تزيد عن ٣٠٠ متر من المتظاهرين..

اشتدت طرقات قلب أحمد في صدره وبدا له أن مهمة الوحدة التي يخدم فيها هي مواجهة وقمع المظاهرات بأي وسيلة. لا سيما وأن هذه الوحدة قد أُرسلت من مدينة الرستن إلى تلك البلدة التي لا يتجاوز عدد سكانها عشرين ألفاً، وكان من المفترض أن تكون هذه الوحدة لإثارة الذعر والخوف لدى في المواطنين. وقد استخدم نفس الأسلوب في مناطق أخرى من سوريا حيث تم قمع المظاهرات بشراسة ووحشية لإسكات أي صوت يطالب بالحرية.

---

(١) استولت عائلة الأسد على الحكم في سوريا منذ أكثر من أربعة عقود، قام حافظ الأسد (والد الرئيس الحالي بشار) بحركة انقلابية عام ١٩٧٠م، وحوَّل الدولة كلها إلى ما يشبه ملكية شخصية، وتولى بشار الحكم بعد وفاة والده عام ٢٠٠٠م.

صرخ الرائد آصف مصدراً أوامره: «أطلق، أطلق، ماذا تنتظرون..؟» وفي تلك اللحظة تردد رجاله بالإطلاق، ونادى أحدهم: «على ماذا نطلق؟».. وفجأة سقط مجند على الأرض والدم ينبض بغزارة من جبهته، صعق أحمد من المنظر، وأدرك أن المجند قتل برصاصة قناص من خلفه، وبسرعة تحول المنظر إلى مشهد واقعي حيث سقط مجند آخر وقد فتح ظهره بطلقة من قناص آخر والدم يتفجَّر من عنقه. قبع أحمد آملاً أن لا يكون في مجال رؤية القناص واحتمى بجانب العربة المصفَّحة.. شدَّ سلاحه Ak47 (كلاشينكوف) على ظهره مهيئاً نفسه للخطوة التالية، وما إن انزلق إلى جانب الطريق حتى كانت طلقات الأسلحة الآلية تمزّق أجساد المتظاهرين الذين كانوا يصرخون بذعر ورعب.

لقد تمَّ إعدام الصفوف الأمامية من المظاهرة من دون أية شفقة وبوحشية، وعندما حاول بعضهم الفرار من هذه المذبحة قتلوا بطلقات نارية في رؤوسهم من الخلف.. تقدمت القوات النظامية باتجاه المتظاهرين وأطلقوا القنابل المسيلة للدموع مما أشاع الفوضى والذعر بينهم. حدثت هذه المواجهة بين قوات النظام والمتظاهرين السلميين على أطراف مدينة تلكلخ على الطريق الرئيس المؤدي إلى ساحل. تتمتع هذه المنطقة بتربة زراعية غنية، غير أن أحداث اليوم مزَّقت الروابط بين الأرض والإنسان.

استغلَّ أحمد هذه الفوضى العارمة ونزل في خندق صغير، إذ تبع مجرى قناة زراعية حيث دخلها وركض إلى الطرف الآخر من الأنبوب غير آبه بما ينتظره على الطرف الآخر وقد صمَّم على عدم الرجوع لأن حكم الانشقاق كان الإعدام حتماً ومن دون أية محاكمة. وأدرك أن كلَّ ما سمعه من الجنود السنيين عن قتل المدنيين الأبرياء، والقناصة الذين يقتلون الجنود الذين أبَوا أن يطلقوا النار على المتظاهرين كان واقعياً.

خرج أحمد من الطرف الآخر لأنبوب تصريف مياه الجدول يركض من دون أي هدف محدد مفضِّلاً الموت رمياً بالرصاص على إطلاق النار وقتل الأبرياء، ولم يعد يعي المسافة التي قطعها ركضاً في محاولةٍ منه لتحاشي القذائف خلفه، وكان يدرك أن عدداً غير قليل تصرَّفوا مثله، التفت يمنةً فوجد القتل لا يزال مستمراً، فوجد زملاؤه يسقطون قتلى حينما استدارت عربةBMP باتجاههم وأخذت بإطلاق النار محولةً الجنود إلى أشلاء لا حياة فيها.

زاد وجود التلال المحيطة من تشوش أحمد لدرجة أنه لم يكن يدرِما إذا كان قد عبر الحدود إلى لبنان والتي لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلو مترات عن تلكلخ أم لا، لم يكن قد خطط لذلك ولا يدر كيف يحدد موقعه، كل ما كان يعلمه أن الحدود تقع إلى الجنوب من تلكلخ، واستمر بالركض بطريقة لم يعتقد أنه يستطيع الركض بهذه السرعة، مدفوعاً بالخوف وتعلقه بالحياة والنجاة بنفسه، وساقه حدسه إلى الجانب الآخر لأحدى التلال، حيث شاهد بعض التلال منتشرة إلى الجنوب مع بعض التجمعات السكنية الصغيرة مبعثرةً في الوادي.. توقف أحمد قليلاً ليعيد تقييم موقعه خشية أن يقع في أيدي عناصر من السلطات اللبنانية، تلفَّت حوله باحثاً عن أي تواجد لإنسان أو علامة تنذر بالخطر مما يهدد تقدمه، فلاحظ وجود شجرة على يمينه على ذروة التلة على بعد حوالي ٢٠٠ متر من موقعه وانطلق راكضاً باتجاهها آملاً في مكان آمن متخفياً بظلال الأشجار من حوله، وصل إلى الهدف (الشجرة) وانزلق بجانبها متيقناً أنه داخل لبنان..

فكَّر أحمد مليّاً بالخطر الجديد فيما إذا دخل لبنان، حيث الخوف من إلقاء القبض عليه من قِبل أعضاء في حزب الله[١] الذين كانوا يتربَّصون بالجنود السوريين الفارِّين من جحيم الحرب. فقد سرت شائعات في الأيام القليلة الماضية عن انشقاق بعض

---

(١) حزب الله: حزب شيعي عسكري يتمركز في لبنان.

العناصر من الرستن ودخولها لبنان، ولم يعد يسمع عنهم شيئاً إلى أن أذاع التلفزيون السوري صوراً لأشلائهم ووصفهم التلفزيون بأنهم إرهابيون، وقد أشيع بأن هؤلاء كانوا أفراداً من الفرقة السادسة. وقد ثبت أن حزب الله أرسل عدداً من مقاتليه لمساعدة الجيش النظامي السوري في قمع المنشقين وتصفيتهم جسديّاً.

تمكَّن أحمد من موقعه من أن يمسح المنطقة والوادي، وسمع من بعيد أصوات خافتة لبعض الطلقات مما جعله يطمئن لبعده عنها.

استمر في مسح ما حوله مخططاً لحركته التالية. وقرر المكوث قليلاً في موقعه لا سيما وأن لباسه العسكري سوف يجذب انتباه عناصر حزب الله أو حرس الحدود اللبنانية، وقرر الانتظار حتى حلول الليل ثم يقرر الخطوة التالية، تمدَّد أحمد مستظلاً بالشجرة.

كان الوقت منذر ببرودة شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وفي البداية لم يكن هناك أية رياح، غير أن الغيوم الخفيفة كانت تحجب أشعة الشمس قليلاً، كان ذلك اليوم الخامس والعشرين من تشرين الأول، وهو عيد ميلاده الثامن والعشرون مما اعتبره فألاً حسناً. لقد كان بعيداً عن أهله وأحبائه، يقضي عيد ميلاده كمنشق عن الجيش في مناطق غير مألوفة لديه.

شعر أحمد بفراغ كبير، وتذكَّر والديه في حلب، وكيف سيرتكس والده لانشقاقه وهو الضابط الذي شارك في حرب ١٩٧٣، وقبلها في حرب ١٩٦٧ الكارثية، حيث انتصر الجيش الإسرائيلي على الجيوش العربية واحتلَّ هضبة الجولان السورية وشبه جزيرة سيناء المصرية اضافة للضفة الغربية لنهر الأردن في حرب خاطفة لم تدم سوى ستة أيام.

فكَّر في والدته التي غلبت عليها عاطفة الأمومة وكانت قلقة عليه حين سيق إلى الخدمة الإلزامية، وكانت مصرَّةً على أن يرسله والده إلى كندا ليبدأ حياةً جديدة هناك قريباً من أخته ناهد وزوجها فريد المقيمان في تورنتو. لقد كان فخوراً بأخيه الأصغر وليد الذي التحق بالجامعة في شهر أيلول وبدا واعداً في دراسته، لقد كان أحمد فخوراً بأسرته مما زاد ألمه وتشوشه بأخذه قرار الانشقاق. فكر في تردده في الزواج، ولماذا انتظر طويلاً ريثما تخرج من الجامعة، وتأجيل الزواج ريثما ينهي خدمة العلم الإلزامية. تخبَّطت هذه الأسئلة في رأسه، ومع أنه يعي الأجوبة عليها غير أنه كان مقتنعاً بأن هذه الورطة لم تكن إلا من خياره هو.

بدت الأراضي الزراعية من خلف صفراء مما يدل على موسم سابق جاف، ولم تكن الأمطار في الفصل المقبل لتنقذَ أيّاً من المحاصيل الزراعية. ولم يكن جني الثمار إلا من أشجار الزيتون القوية، وفي الطرف الجنوبي للتلة لمح بعض قطع الأراضي اللبنانية والمحاط بعضها بجدار حجري لتحديد حدودها، وكان بعضها إمّا مهجوراً أو خارج الموسم.

بدأت الغيوم السوداء تتجمع بالأفق منذرةً بالمطر تعلن غضب الله وتتوعد بمطر غزير يغرق التلال ويروي الأراضي في وادي خالد التي طال انتظارها للأمطار. شعر أحمد بالتعب، ولم يعد يعرف هل هذا الإرهاق هو نتيجة الجري الحثيث لساعات سابقة أم للعطش الشديد، أم للجوع، أم لأي شيء آخر. و بقي قابعاً في ظل الشجرة ولم يعد العالم في عينيه مكاناً آمناً ومُفرحاً، ولم يمنعه الإرهاق النفسي من الرغبة بالانشقاق والهرب ليكون في مكانٍ آخر، كان يأمل أن يكون ما مرَّ عليه حتى الآن مجرَّد كابوس سينقضي سريعاً، واستسلم أخيراً للإعياء والإرهاق، ولقد كان منهكاً لدرجة أنه لم يعد يفكِّر في أمنه، وفي الحقيقة فإنه لم يعد يهتم بذلك، وغَطَّ في نوم عميق في أحضان الفضاء والطبيعة.

استيقظ أحمد بعد مدَّةٍ لا يعرفها، إذ أنه أعطى ساعته للرائد آصف مقابل أن يحصل على إجازة قصيرة لزيارة أهله في حلب. لعن نفسه بهدوء وشعر بقشعريرة تسري في بدنه عندما سقطت بعض قطرات من المطر من شجرة الأرْز التي يستظل بها. شعر بألمٍ شديد في خاصرته اليسرى، وتلمس بإصبع يده اليمنى خاصرته اليسرى فشعر برطوبة دافئة، ولما نظر إلى يده وجدها مضرَّجة بالدماء، وتذكر أنه أثناء هربه أصيب بشظايا قذيفة على جانبه الأيسر، كما شاهد ثقباً مع آثار حرق حوله في سترته العسكرية، وتأكد أن الإصابة سطحية نظراً لعدم سقوطه مثل باقي زملائه.. وقرر أن يضغط على مكان الجرح لإيقاف النزيف، وأقنع نفسه بأنه سليم من كلِّ أذيَّة، وفكَّر في ما قد يحدث لوالدته لو علمت بإصابته.. وعليه أن يعتني بنفسه لأن والدته لديها ما يشغلها بأخيه وليد الموجود في حلب مع والديه.

لم تكن حياة أحمد قاسية بهذا الشكل، فهو ابن مدينة، ولد وعاش في حلب، وكانت أولى خبراته خارج البيت عندما صحب والديه في سن الثانية عشر برحلة إلى الشاطئ، ولا يزال يذكر كيف علمه والده طريقة إشعال النار وكيف يتعايش مع محيطه. غير أن هذه التجربة مرت منذ زمن بعيد، أما التدريب العسكري فلم يعلمه شيء عن العيش خارج حدود الثكنة ولا عن كيفية الحفاظ على حياته في ظروف قاسية، وقد سيق إلى الجندية فور تخرجه من الجامعة، فلم يتلقَ أي تدريب عملي سوى ذلك المعسكر الذي تعلم فيه كيفية تشغيل بندقية الـ Ak47 وكيف يتناول وجبة متواضعة دون الحد الأدنى من القيمة الغذائية، لأن قائد المعسكر والضباط كانوا يسرقون الطعام، وكان الرائد آصف يأمر المجندين ليأخذوا الطعام المسروق وبعض المعلبات إلى بيته.

شعر أحمد بأنه خارج المجموعة، وأخذ يتصور والده مقطب الجبين بغضب لأنه كثيراً ما كان يشجع أحمد على الخشونة وتحمُّل مسؤولية أفعاله، فكر أحمد أنه ولا بدَّ قد

خيَّب أمل والده فيه، فقد أمضى ست سنوات في الجامعة بعد عودته من كندا حيث أمَّل أن يكمل تعليمه الجامعي ثم يعيش هناك. غير أن الأمور لم تسر حسبما رغب في تورنتو. حيث اضطر لإعادة بعض مواد الثانوية العامة، وعمل بشكل مؤقت في أحد المطاعم غير أنه تأكد أن هذا العمل لا يليق به وهو لم يخلق لمثل هذا العمل، ومع ذلك فقد استمر في الدراسة إلى جانب عمل لم يكن مقتنعاً به.

عرف أحمد أن والده كان متيقنا بأنه لن يسير على خطا والده، وقد قبل الوالد بواقع الأمر، وأدرك أحمد أن نظام الأسد في سوريا لم يسمح لغير البعثيين[١] أو من هم خارج نطاق الطائفة العلوية في الدخول إلى الدائرة الصغيرة المحيطة بالنظام، وتم إبعاد هؤلاء عن أية ترقيات في الجيش. وفي واقع الأمر فإن الجيش قد تحول إلى مدافعين عن نظام الأسد تحت قيادة الأقلية العلوية[٢] والضباط البعثيين، وكنتيجة لذلك فإن احتمالات ترقية أحمد كضابط في الجيش كانت ضئيلة أو معدومة، وهذا يندرج على كل الضباط السنيين.

تلمَّس أحمد منديله فوجده مشبعاً بالدم، فحلَّ نطاق بنطاله ورفعه ليزيد الضغط على الجرح في محاولة لإيقاف النزيف مما جعله أكثر اطمئناناً. استطلع المنطقة حوله فرأى أن المطر قد أعطاه فرصة المسير قدماً لأن أكثر الفلاحين دخلوا بيوتهم، وكان جلُّ ما يبتغيه مكاناً آمناً يختبئ فيه ولقيمات من الطعام، وقف على قدميه بعد عناء وسار على أرض مفروشة بالحجارة وعلى جانبيها أشجار باسقة، توقَّف قليلاً ليلتقط أنفاسه ورأى

(١) حزب البعث: هو حزب يمزج في أيديولوجياته فكرة القومية العربية، والاشتراكية العربية، إضافة إلى أفكار مضادة للإمبريالية. يدعو حزب البعث إلى النهضة والانبعاث ووحدة الوطن العربي.. وشعاره المطروح: (وحدة — حرية – اشتراكية).

(٢) العلويين والنصيرية: هي فرقة من الشيعة الباطنية والمتواجدة في شمال غرب سوريا وجنوب غرب تركيا، وقسم بسيط جداً في طرابلس بشمال لبنان.

عن قرب كوخاً صغيراً يبدو أنه مهجور منذ فترة، كان باب الكوخ مفتوحاً وبناؤه متواضع مؤلف من بعض الحجارة والأخشاب، دخل أحمد الكوخ بكل حذر خشية وجود إنسانٍ ما مختبأ فيه، حمل بندقيته ووجهها باتجاه الباب، وبعد بحث استقصائي حذر للبيت تبين أنه مهجور وخالٍ من السكان. وبعد أن بحث في المكان اختار نقطة مراقبة جانب إحدى النوافذ يكشف فيها كل ما حوله خشية قدوم مَن قد يكون ممن يخشاهم. نظَّف بندقيته ببعض التبن الذي كان متناثراً في أرض الغرفة، واشتمَّ رائحة روث بعض الحيوانات مما جعله يعتقد أن المزارع كان يستعمل هذا المكان كزريبة للحيوانات، تساقطت بعض قطيرات الماء من شقوق في سقف الكوخ، جلس في مأمنٍ وفتَّش الذخيرة لديه فوجد أربعة مخازن مليئة، فحص جرحه فوجده سطحياً ولم يعد مؤلماً فاطمأن للوضع بصورة عامة.

فكَّر أحمد مليّاً في حلٍّ عملي لأزمته التي وقعت عليه دون إنذار، واستغرب عدم تزويد الجنود بطعامٍ مجففٍ للطوارئ، أو نواظير، أو حتى علبة إسعافات أوَّليَّة، وكل ما كان لديه سكين صغير مما يستعمله الجنود السويسريون كانت أخته ناهد قد أهدته إياها عند مغادرته كندا. ولحسن الحظ فقد كانت تلك السكينة تحوي بوصلة صغيرة تمكِّنه من تحديد اتجاهاته. عادت القشعريرة تهزُّ بدنه، وشعر بحاجة قصوى لبعض الطعام أو على الأقل شراب ساخن يدفئه، ولم يخلع ثيابه لتجف خشية أن يقع في ظرف غير مستحسن أو قد يصاب بانخفاض شديد في حرارة جسمه، لم يستطع أحمد أن يقاوم الإرهاق الشديد والعناء، وغلبه النعاس فاستسلم للنوم دون أن يكترث لما قد يحصل خارج الكوخ..

أفاق أحمد من نومه العميق على رعشات تهز جسده، ولم يكن يعلم كم مضى عليه من وقت وهو نائم، فتح عينيه ليرى أشباح أطفال يتحلَّقون حوله. لم يعد يسمع صوت المطر، حاول الإمساك ببندقيته التي كانت إلى جانبه عندما استسلم للنوم فلم

يجدها إلى جانبه، ثم سمع صوتاً بدا عميقاً يسأله «هل هذا سلاحك..؟؟». فالتفت باتجاه مصدر الصوت ليستوضح عن السائل، فوجد رجلاً عملاقاً يسد باب الغرفة.. أجابه أحمد «نعم.. إنه لي..» اقترب الرجل من أحمد وناوله البندقية وقال له «أهلاً بالسوريين الأحرار في هذا البيت، ولكن لسوء الحظ لا يمكن أن تتوقع هذا الترحاب من كل السكان هنا..» إذ يوجد عناصر من حزب الله يترصدون السوريين المنشقين.. ثم قدَّم له نفسه «اسمي محمد، ويدعونني أبو عبدو، وهؤلاء أولادي» وأشار إلى عددٍ منهم. اطمأن أحمد لواقعه الجديد، وتمنَّى لو أمَّن له مضيفه بعض الطعام والمأوى، ففاجأه أبو عبدو بقوله بأن عليهم أن يذهبوا إلى البيت للإقامة هذه الليلة، ثم سوف ينقله إلى أماكن أكثر أمناً تحاشياً لعصابات حزب الله.. فسأله أحمد باستغراب: ولكن أين أنا؟؟ فأجابه أبو عبدو بأنه في قرية كفر نون على بعد حوالي ١ كيلو متر من الحدود، وإلى الجنوب تقع بلدة (منجز) ويصلنا بها طريق زراعي ضيق، وللعلم فإن قريتنا صغيرة جداً وفيها عدد قليل من بيوت المزارعين. فشكره أحمد لحسن ضيافته، ولما حاول أحمد النهوض عجز عن ذلك لشدَّة تعبه، فقام أبو عبدو وساعده في النهوض، وعندها لاحظ أبو عبدو إصابة أحمد فطلب من ابنه الكبير أن يذهب ويحضر (أم باسم) من بيتها، وحذَّره أن ينطق بكلمة واحدة عن ضيفهم.

دخل أبو عبدو وأحمد المنزل بعد عناء، وبدا أحمد واهناً لكثرة ما فقد من دم، رفع أبو عبدو أحمد بقوة وأجلسه على فرشة ملقاة على أرض الغرفة، فسلَّم أحمد على من في البيت بقوله: «السلام عليكم..» فردَّ عليه صوت أنثوي: «وعليكم السلام..»، سرت قشعريرة في جسده ثم انتابه تعرُّق غزير، حاول جاهداً مغالبته دون جدوى، وجلس على الفرشة وقد غشّى عينيه بعض الغشاوة كما لو كان يحتضر، تزاحمت الأفكار في رأسه المشوش ثم فقد الوعي.

حـلـــــب

١٦ تشرين الأول ٢٠١١

جلس عصام وزوجته عبير يرشفان قهوة بعد الظهيرة كعادتهما على شرفة بيتهما في الطابق الثالث في إحدى البنايات في شارع فيصل، وراحا يستمتعان بآخر أيام دافئة في حلب قبل حلول الشتاء.. لقد كان شارع فيصل من أجمل شوارع مدينة حلب حيث الأشجار الباسقة على جانبيه ومساحات مستطيلة مزروعة بالأشجار والزهور في منتصف الشارع، غير أن كل شيء تغير الآن، فقد قرر المحافظ أن يزيل الحديقة في منتصف الشارع، ويحول الشارع إلى ممر للسيارات والشاحنات باتجاه واحد مما لوث الجو والبيئة، فتغطت معظم البنايات بالسخام، وتعالت أصوات زمامير السيارات حتى أقلقت نوم النائمين وهدوء من يرجون السكينة. لاحظ أحمد هذا التحول المفجع حال عودته من كندا وصعق لما لاحظه من تدهور في البيئة، لاسيما أن السيارات لا تحوي أي منظمات تلوُّث في عوادمها، وإن وجدت فإن مستوردي السيارات سريعاً ما يزيلونها أو يعطلونها.

كان عصام وعبير يستمتعان في بدء حياتهما الزوجية بالجلوس على الشرفة والتحادث بحب وحنان، يخططان لمستقبل أولادهما أو لزيارة أقارب أو أصدقاء، أما وإن التلوث البيئي والصوت المزعج من الشارع فقد جعلهما يرفعان الصوت ليتمكنا من فهم ما يقال.. لا سيما وأن الأولاد قد كبروا. استمر عصام وعبير على ممارسة هذا التقليد اليومي بشرب القهوة بعد الظهيرة على شرفة المنزل رغم التغير الكبير الذي قد حصل في الشارع جراء قرار اتخذه المحافظ انطلاقاً من فساده وطمعه، مما أوقع معظم سكان الشارع بأمراض تنفسية ونفسية لم تكن في الحسبان.

يقطن حلب حوالي خمسة ملايين ساكن، واشتهرت المدينة بأنها قلب سوريا الاقتصادي (الصناعي والتجاري والزراعي) نظراً لموقعها المميز في قلب العالم القديم. لقد كانت حلب ولا زالت الممر الرئيس لثقافات ولغات وأقوام عريقة، ولهذا استهدفها الطامعون في موقعها منذ القدم، ولقد تغيرت التركيبة السكانية منذ عدة سنوات فقد هاجر إليها سكان الريف المجاور سعياً وراء الرزق. وبشكل طبيعي فقد تشكَّلت تجمعات سكانية في مناطق مختلفة من المدينة تستقبل المهاجرين الجدد.

ولقد تعاضدت المصالح الاقتصادية المشتركة بين التجار الفاسدين ورجال النظام الأشد فساداً، فكان من نتائج هذه الشراكة الفاسدة أن عمَّت الرشوة وفقد بعض التجار أي أخلاقيات في التعامل دون أن يخضعوا إلى محاسبة أو مساءلة أو عقاب، فما من مناقصة أو صفقة في الدولة إلا وترسو على أحد التجار الفاسدين وشريكه المسؤول الأشد فساداً، فغدت الرشوة والغشُّ من الأمور البديهية في التعامل، وكان الخاسر الوحيد في هذا الجوِّ الفاسد هو المواطن المسكين. ومن مظاهر هذا الفساد إنشاء عدد كبير من البنايات الشاهقة دون مراقبة أي ضمير أو مقاييس السلامة والأمان في البناء، فما فتئت تلك البنايات أن تهدمت تلقائياً ودفنت تحت أنقاضها عدد لا يستهان به من السكان الأبرياء. وكان الهدف الأساس لتجار البناء هو إنقاص كمية المواد الأساسية وذلك لتوفير المبلغ المتفق عليه مع مسؤول البلدية ليغض الطرف عن المخالفات اللامتناهية. واعتبر التجار الفاسدون أن الجريمة من الفضائل، وأن الخداع والكذب هو شطارة ومهارة في التجارة. لا سيما في غياب أي مساءلة، ومن سيكون السائل سوى تلك الأقليات الحاكمة الفاسدة.

بدأ الفساد يعم المدينة من جراء تشابك المصالح بين التجار الفاسدين ورجال النظام الأشد فساداً، وخاصة في أعقاب الانتفاضة في حماه[١] عام ١٩٨٢، حيث سحق رفعت الأسد[٢]، الشقيق الأصغر لحافظ الأسد، الانتفاضة بوحشية لا نظير لها.. فقد دمرت الوحدات الخاصة معظم المدينة القديمة وسوَّتها بالأرض ودفنت ما يقارب /٤٢٠٠٠/ من سكانها تحت الأنقاض، وبنى مكانها بنايات شاهقة لإسكان الأقليات العلوية التي استقدمت من الساحل وقُراه. وقد تركت هذه المذبحة في نفوس السوريين ذعراً وخوفاً من نظام لا يرحم، واستطاع تغيير التركيبة السكانية حسب إرادته، وشاع الفساد في البلاد وبين العباد، ولم يعد النظام يخشى على نفسه من أي محاولة لتغيير الواقع الجديد، ولا سيما وأن النظام استخدم رجال الدين الفاسدين لإلهاء المواطنين بأمور سطحية تافهة، فشجع بناء المساجد (تقرباً إلى الله) فبنى في حلب من المساجد الكبيرة والشاهقة أكثر من المدارس، إذ أن النظام اعتبر أن إلهاء الناس في الأمور السطحية في المساجد وتحت إشراف رجال دين معتمدين من النظام أسلم على مستقبل النظام وبقائه في السلطة.

عاش عصام حياته في حلب قابعاً خلف مكتب بوظيفة هامشية في الجيش، يحضر أحياناً بعض الاجتماعات أو الدورات التدريبية التي لا قيمة لها.. وقنع بذلك لأنه كان دائماً قرب زوجه وأولاده، ولم يُضطر للانتقال بأسرته من مكان لآخر.. وما إن انتهى من شرب قهوته حتى قلب الفنجان رأساً على عقب يحضّره لكي تقرأ عبير مستقبل زوجها وأسرتها في قعر الفنجان، رغم أنهما لا يصدقان أي كلمة قيلت أو ستقال من

---

(١) حماه كانت مسرح الأحداث عام ١٩٨٢، حيث قام نظام الأسد بتدمير جزء كبير منها، وقتل ما يقارب ٤٢٠٠٠ من سكانها الأبرياء.

(٢) رفعت الأسد: الشقيق الأصغر للرئيس حافظ الأسد، وهو المنفذ الحقيقي لمذبحة حماه عام ١٩٨٢م.

قراءة قعر الفنجان، غير أنها عادة استحكمت بهما، لا سيما وأن عبير كانت كثيراً ما تجد في قعر الفنجان بعض الأخبار السارة والبشائر المفرحة.. غادر الزوجان الشرفة ودخل عصام ليتوضّأ تحضُّراً لصلاة العصر.

وفجأة قرع جرس الباب تبعه طرقات عنيفة على الباب، دهش عصام لهذا القرع والطرق على الباب لا سيما وأن جميع الأقارب يعرفون أن هذا الوقت هو وقت قيلولة، ولا أحد يزورهم في ذلك الوقت. وما إن فتح عصام الباب حتى رأى رجلين يلبس أحدهما الزي العسكري الرسمي، بينما بدا الآخر وكأنه مجرم حرج لتوِّه من السجن، دفع الرجل الثاني عصام وأزاحه عن الباب ودخل الشقة دون استئذان، أدرك عصام للتو أن هذا الرجل أحد عناصر المخابرات الجوية تلك الزمرة من الجيش التي لا تعلم أي شيء عن تجميع المعلومات الاستخبارية عن القوى الجوية، وكانت هذه الزمرة تتصرف بأي شكل تراه مناسباً من دون الرجوع إلى أي سلطة أعلى ومن دون أية مساءلة من أي مرجع حكومي. لقد تمتعت هذه الزمرة بحصانة عجيبة فهي تستطيع اعتقال، سجن، تعذيب أو حتى قتل أي فرد من أفراد المجتمع من دون سبب أو مبرر.

وقف الرجلان بصلافة في مدخل الشقة، وهرعت عبير إلى غرفة النوم فور سماعها أصوات غريبة في الشقة، وقف أبو أحمد (عصام) مشدوهاً معقود اللسان من هول المفاجأة ولم يجرؤ حتى على مصافحتهما.

سأل الرجل المدني وهو يجول بناظريه في أنحاء الشقة: «هل أنت العقيد عصام الهندي» واستمر في النظر داخل الغرف من دون أن يكترث لحرمة المنزل وسكانه وخصوصية المكان وقدسيته، لم يكلِّف نفسه حتى أن يقدم نفسه ووظيفته وما هي مهمته هنا.. ولسوء الحظ فقد اعتاد الشعب السوري على هذا النمط من رجال المخابرات الذين يتعاملون مع المواطنين بفوقية وصلافة مما ينشر الذعر بين المواطنين ويقطع أي أمل في

التفكير بأي تغيير.. لقد كان الرجل ذي اللباس يحمل رتبة متواضعة على يده، ومع ذلك لم يُبدِ أي احترام لعصام ذي الرتبة العليا.

كرَّر الرجل المدني بصوتٍ عالٍ ويحمل لهجة مرعبة: «لقد سألتك.. هل أنت العقيد عصام الهندي» فأجاب عصام بصوت خافت مع بعض التأتأة: «نعم، أنا العقيد عصام.. هل من شيء خطأ..؟» تكلم الرجل المدني بكل استعلاء وصلافة: «أنا مَن أسأل هنا.. أنت تجيب.. ألم تفهم ذلك بعد.. هل شاهدت أحمد مؤخَّراً؟؟» أجاب عصام ولا زال معقود اللسان: «ابني أحمد.. إنه يؤدي خدمة العلم في الشام..».

سأل الرجل المدني: «نعم، ابنك عصام، هل شاهدته في اليومين الأخيرين..؟» وكان يحملق في عصام بعينين ثاقبتين. أجاب عصام: «لا.. لم أشاهده..». غير أن الرجل المدني لم يُعر الجواب أي اهتمام، بل اندفع إلى داخل الشقة ودفع عصام بكتفه وكأن لا وجود له. دخل الرجل ذو اللباس العسكري إلى المطبخ، وتحرك الرجلان بسرعة يفتشان غرف الشقة الواحدة تلو الأخرى يبحثون عن أمر لا يعلمه سواهما. ساد الشقة جو من الخوف والذعر والمجهول.. كان عصام يعلم أن هذه الممارسات من رجال النظام هي أمر روتيني يومي ترمي إلى إثارة الرعب والخوف والذعر في قلوب كل من تسوِّل له نفسه التفكير بأي عمل مناهض للنظام.

«لقد قتل ابنك أحمد من قبل الجماعات السلفية الإرهابية، وسوف يدفن بكل الاحترام والتقدير العسكريين.» تكلم العنصر المدني من دون أن يُبدي أي اعتبار لمشاعر الأبوين، وبدا وكأنه يعطي نبأً طبيعياً أو حتى نشرة الأحوال الجوية. كاد عصام يسقط على الأرض من هول الخبر المفجع، وصرخت زوجته عبير من الغرفة المجاورة وخرجت بعد أن رفعت الحجاب عن رأسها وأسرعت للحاق بزوجها الذي كان بالكاد بتمسَّك

بالباب، خرج عنصر الأمن من الشقة من دون أن ينبث بكلمة تعزية أو يبدي أي اعتبار أو احترام لمشاعر و عواطف الأبوين..

علم المواطنون السوريون من خلال محطات التلفزة الحكومية عن وجود بعض القلاقل في جنوب البلاد (درعا..) وما دعا النظام للاعتراف بهذه القلاقل وإذاعتها على الملأ هو معرفته التامة بأن معظم السكان يملكون صحون لاقطة ويمكنهم تلقي الأخبار من المحطات العالمية، والأسوأ أن الرئيس بشار الأسد كان يدرك مدى خطورة شبكة التواصل الاجتماعي وما تحمله من أخبار أمنية..

لقد كان الربيع العربي الذي بدأ في تونس وامتدَّ إلى ليبيا فمصر فاليمن والآن في سوريا، كان هذا الربيع من أكبر هموم الأنظمة الدكتاتورية العربية والتي استقرَّ حكمها (إلى الأبد..) حسب اعتقاد حكامها. لقد ورث بشار الحكم عن أبيه المتوفى في حزيران عام /٢٠٠٠/. وكان بشار كوالده، لم يكن ليسمح بأقل اقتراح بالإصلاح أو التغيير مهما صَغُر.. أدارت أسرة الأسد الحكم في البلد كعصابة مافيوية بكل قسوة وشراسة. لقد اعتبرت أسرة الأسد أن سوريا مجرد إقطاعية لهم ولبعض من حواشيهم الأقلية العلوية، فلقد وزعت المناصب السيادية على أفراد الأسرة وبعض المقربين من العلويين، وأحياناً كمظهر ديكوري فقط كانت تعطي بعض المناصب لبعض السنيين الفاسدين، وكان من نتيجة ذلك أن أحكمت أسرة الأسد السيطرة الكاملة على مقدرات البلد الاقتصادية، أما القوة العسكرية فكانت بيدهم ودون منازع مما جعل القيام بأي حركة انقلابية (كما جرى في الحركات الانقلابية العديدة في الخمسينات والستينات من القرن الماضي) أمراً مستحيلاً.

بدأت الانتفاضة في مدينة درعا على الحدود مع الأردن عندما كتب بعض الأطفال الصغار على سبورة الصف (الشعب السوري يطالب بالحرية)، وذلك لأنهم تأثروا على ما يبدو بما كان يجري في الدول المجاورة.. لم يمرر نظام الأسد هذه العبارة البريئة كأمرٍ

عابر، بل انتفض بكل شراسة ووحشية واحتجز الأطفال من بيوتهم وأُخذوا إلى مقر المخابرات حيث ضُربوا، وعُذبوا، وسُحبت أظافرهم من أصابعهم، بل واغتُصِب بعضهم.. وأُعيد الأطفال بعد أيام من اختطافهم وتحت إصرار أُسَرهم بالسؤال عنهم، وكانت رسالة قوية للأطفال وأهلهم وكل من تسوِّل له نفسه أن يتخطى الخطوط الحمراء التي ترسمها الدولة لأمنها. وكانت هذه المعاملة الوحشية للأطفال قد أرست جذور الانتفاضة، فقد تجمَّع السكان بعد صلاة الجمعة لكي يُظهروا تعاضدهم مع الأطفال وأهليهم، وليُبدوا امتعاضهم للمعاملة الشرسة التي تلقوها من رجال الأمن. غير أن رجال النظام حوَّلوا هذا التجمُّع إلى حمَّام دم، حيث تمَّ إطلاق النار بشكل عشوائي على المدنيين العزَّل، فقد اعتلى القناصة أسطح البنايات المجاورة وأطلقوا أعيرتهم النارية على رؤوس المدنيين، كما لو أنهم يريدون أن يُلقِّنوا الشعب كلَّه درساً دفع ثمنه سكَّان درعا؛ أنَّ هذه أخر مظاهرة تخرج في سوريا.. وعلى عكس ما أراده النظام وتوقعه، بعد خمسين عاماً تقريباً من الحكم الدكتاتوري، والفساد الإداري والمالي، وغياب العدالة الاجتماعية، وارتفاع نسبة البطالة أكثر من أي دولة مجاورة، وارتفاع الأسعار المرعب، وردة الفعل الشرسة والشنيعة الإجرامية لكتابة الأطفال الأبرياء على السبورة، فقد غدت درعا الشرارة التي كان ينتظرها الناس وطال انتظارها، لإشعال الثورة السورية.. وتتابعت المدن في تأييدها لانتفاضة درعا، مما دعا النظام لإحضار وحدات خاصة مدرَّبة على القصف العشوائي مما أدى إلى تدمير عدد كبير من المنازل والأبنية فوق سكانها، وعندما فشل النظام بإخماد الثورة في درعا هبَّت كلٌّ من حمص، اللاذقية، جبلة، البوكمال، جسر الشغور، القامشلي، وريف دمشق، وخاصة الضحايا القدماء للنظام ؛ سكَّان حماه لمناصرة درعا..

كانت المظاهرات تخرج يومياً ليلاً ونهاراً، وكانت مظاهرات سلمية في عمومها، وكانت كلها تقابل بوحشية وشراسة من رجال النظام. تصاعد عدد القتلى والجرحى إلى أن بلغ عدَّة آلاف، وانتشرت حالات الاغتصاب للفتيات والفتيان على السواء، وعمَّ

الاختطاف، كل تلك الأدوات كانت بيد النظام لقمع الاحتجاج والتظاهر ولكن دون جدوى.

عانت كل المدن والقرى إلا حلب، إذ هدَّد رجال التجارة المتنفذين عمَّالهم بالطرد وحرمانهم من مصدر رزقهم أو ما هو أسوأ بكثير إذا سوَّلت لهم أنفسهم بالتجمُّع أو التظاهر، لقد أرهب تجَّار حلب عمَّالهم وموظفيهم، مما وفَّر على النظام مغبَّة إرسال قواته إلى حلب. وعندما حاول بعض المغامرين التحرك قُمعوا بشكلٍ وحشي من قبل شبيحة النظام هناك.

تمَّ حجب أية معلومات عن أفراد الجيش عمَّا يحدث في سوريا، وكل ما أعلموهم إياه أن هناك مؤامرة كونية ضدَّ سوريا، وأن هناك أُناس سلفيون ومتدينون متطرفون يهاجمون الناس ويقتلونهم دون شفقة، ويخربون البنية التحتية للدولة، وقد وُضع الجيش تحت النفير العام لمواجهة العدو المدعوم من أعداء سوريا والمجتمع المدني.

لم يستوعب النظام وأزلامه أنه في هذا العصر والأوان، وفي توفر أجهزة الاتصال ووسائل الإعلام، أنه يجعل من تعتيمه على الأحداث مدعاة للاستهزاء والسخرية، وكان شغل الناس الشاغل تحميل أفلام الفيديو المسجلة من الهواتف النقالة على شبكات التواصل الاجتماعي، فاضحةً أعمال وممارسات النظام الوحشية واللاإنسانية، ولم يكن يخفى على بعض عناصر الجيش ما كان يجري من قتل عشوائي وميداني من دون محاكمة أو مساءلة أي عنصر عن أي خطأ ارتكبه. وفي شهر تشرين الأول من عام ٢٠١١ أذاعت منظمة الأمم المتحدة أن عدد القتلى قد بلغ /٣٥٠٠/ فرداً، منهم /٣٠٠/ طفل لم يتجاوز بعضهم عدة أشهر من العمر، إضافة إلى عشرات الآلاف من المعتقلين، لأسباب مدَّعاة.. فانشقَّ عن الجيش عناصر من أهل السنة.

توقف الزمن في هذه اللحظة بالنسبة لعصام الذي لا يزال يتمسك بالباب، وقفت زوجته (عبير) متعلقةً بكتفيه، شعر بألمٍ في الصدر وتألُّمٍ شديد في عضلاته، وفجأة أفلتت كتفيه وانسحبت إلى غرفة الجلوس، حيث جلست على الأريكة المفضَّلة لدى زوجها، فتبعها عصام، وبعزيمة غير مسبوقة توقفت عبير عن البكاء وأمسكت القرآن وقلَّبت صفحاته بحثاً عن سورة (يس) وشرعت في التلاوة، وعمَّت البيت سكينة وهدوء عجيبين، أغلق عصام الباب بهدوء وتابع وضوءه وكأن شيئاً لم يكن.

لقد شاع في عهد الأسد انقطاع الكهرباء والمياه وكأنها جزء من مكونات الحياة في سوريا، إذ بدا اعتيادياً أن تنقطع الكهرباء لنصف النهار أو أكثر، وإذا ما توفرت الكهرباء فانقطاع الماء هو السائد. وأدى الفساد إلى نقص بعض المواد الأساسية للحياة، وتأقلم الشعب في سوريا على الواقع والتعايش مع هذا الوضع والنقص المتعمد وذلك بشراء مولدات كهربائية صغيرة، أو وضع خزانات ماء على الأسطح، والتي كانت هدفاً لقناصة النظام، مما حرم السكان من نقطة الماء المدخرة على السطح.

انسدل الظلام مع قدوم الليل على بيت الهندي، فأوقدت عبير الشموع إذ بدأ التقنين الكهربائي، لم يتكلم عبير وعصام عن أحداث ذلك اليوم ولم يخبرا أحداً من الأهل والأصدقاء بذلك، أدى عصام الصلاة وعاد إلى غرفة الجلوس يراقب زوجته التي لا زالت تقرأ القرآن. وفجأة رفعت عبير رأسها كما لو أنها أوحي لها أو أنها شعرت بغُصَّة شديدة في حلقها، وقالت بصوت يكاد يكون مسموعاً:

– «أبو أحمد.. أشعر بشيء غريب..» نظر إليها عصام مستفسراً وتابعت: «أنا كأُم، لا أشعر إطلاقاً بما تشعر به الأم الثكلى..»، لم يعرف عصام كيف يجيبها، فقد كان مشوَّش الذهن مشتتاً، بين كونها مريضة أو تحاول أن تقنع نفسا بعكس الواقع.. وتابعت عبير قائلةً: «أنا واثقة من أن أحمد لا يزال حيّاً، وهؤلاء كانوا يكذبون علينا»

اعتدل أحمد في جلسته وشعر بضيق نفسي من تفسير عبير غير المقنع، وشرع يقول: «ما هذا الذي تقولين يا أم أحمد، يبدو أن القصة كلها أثَّرت على حكمتك، فلم تعودي تميزي بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي، ولا يمكن لأحد أي يغير في ما حدث أي شيء.. قال هده الكلمات و أتبعها بزفرة كادت تمزق أضلاعه.. على الأقل نحن نعلم أنه كان يقوم بواجبه ويخدم وطن..» غير أن عبير قاطعته بنبرة حادة: «لا تتكلم معي بهذه الطريقة كما لو كنت غبية.. وإذا كان قد قتل فبسبب محبوبك الأسد الذي كان يقترف جرائم القتل.. غير أنني أعرف ابني.. صحيح أنه ناعم ولطيف غير أنه لا يمكن أن يضعني في هذا الموقف.. الجميع يعرف يا أبا أحمد بأن نظام الأسد يرتكب المجازر في كل من حمص ودرعا وفي كل أنحاء سوريا، الجميع يتكلم عن الانشقاق عن هذا لنظام المتعفِّن.. أنا أعلم أن ابني حي.. ومن المحتمل أن يكون قد غادر إلى تركيا..».

- «اسكتي يا عبير» قالها عصام ردّاً على ما وصمت به عبير نظام الأسد بالدكتاتورية «إنك تتكلمين بطريقة لا معقولة.. لقد قضى أحمد وكل ما يحتاجه الآن هو صلواتنا والدعاء له برحمة من الله، توقفي عن الكلام عن الحكومة، ألا تعلمين أن للحيطان آذان، وأنه لا يزال عندنا الابن الأصغر لرعايته والاعتناء به..».

صحت عبير وكأنها عادت إلى واقعها، ورغم أنها شعرت بثقل كلمات عصام عليها غير أنها لم تثنها عن اعتقادها الجازم بأن ابنها لا يزال حيّاً، وأنه حتماً قد هجر هذا النظام الآثم، فنهضت عبير وذهبت إلى غرفة النوم، كشفت غطاء السرير واندست تحته واستمرت بقراءة القرآن بهدوء، وبدأت بالدعاء إلى الله أن يحفظ ابنها، وقرأت آية الكرسي.. أمضى عصام ليلته معتكفاً يصلي ويتعبَّد في غرفة الجلوس حتى صلاة الفجر وعندها استسلم لنوم عميق على الأريكة.. صدح صوت المؤذِّن للفجر «الله أكبر.. الله أكبر..» في أرجاء المدينة التي لفَّتها ريح الصبا الباردة في شهر تشرين الأول، ورغم أن حلب مدينة كبيرة مترامية الأطراف فإنها ليست كغيرها من المدن الكبيرة التي لا تنام معظم ساعات الليل، فإن سكان حلب يخلدون للنوم مطمئنين، وتبدأ مخازنها ودكاكينها بالعمل في ساعات الصباح المتأخرة، وخاصة بعد شيوع القنوات الفضائية على التلفزيون، حيث

يتسامر السكان حتى ساعات متأخرة من الليل، وقد تغيرت بعض العادات القديمة في المجتمع، إذ كان الأهل والأصدقاء يتزاورون في أمسيات حلوة يتبادلون فيها أطراف الأحاديث وأخبار أفراد الأسرة، والواقع أن التلفاز قد فتح على المجتمع آفاق التعرف على ما يجري في دول العالم من أحداث وهم قابعون في مساكنهم، وقد مكنهم ذلك من استكشاف آفاق جديدة كانت شبه معدومة من قبل، وغدا التلفزيون عنصر تغيير قوي في المجتمع السوري، وبالرغم من أن اقتناء الصحون اللاقطة للقنوات الفضائية ممنوع رسمياً، إلا النظام غضَّ الطرف عن ذلك في محاولة منه لإلهاء المجتمع في أمورٍ أخرى، والحفاظ على الحالة الاجتماعية مستقرة، وساهم النظام في إقناع المجتمع أن المكوث في البيت والالتهاء بالتلفزيون قد يمنعهم من التفكير بما يجري حولهم من فساد حكومي مستشرٍ، وقد أثّر التلفزيون في المجتمع السوري بعدة أساليب، من جهةٍ قلَّص من العلاقات الاجتماعية واللقاءات المشتبه بها، ومن جهة أخرى فقد فسح المجال أمام المجتمع للاطلا ع على ما يدور حولهم في المجتمعات المجاورة ومعرفة درجة التخلف الذي يعانيه المجتمع السوري، وبذلك أفشل التلفزيون محاولات النظام في السيطرة على ما يشاهده المواطنون.

وفي الوقت الذي حاول الأسد وزمرته الحاكمة حجب بعض القنوات عن المجتمع لكي لا يتأثر بما يشاهده من نظام وتنظيم في الدول الأخرى، وكان شغل النظام الشاغل تحديد ما يمكن للمواطن أن يشاهده.. كان العالم في ذات الوقت يخطو إلى الأمام خطوات عملاقة وجبارة.. لا يوجد في سوريا محطات تلفزيون بالكابلات، وكل ما كان يبث بالقنوات الحكومية كان يبث عبر الـArabsat، ومن الطريف أن أسس الثورة في سوريا بدأت من تلك الصور التي بثها التلفزيون عن بعد آلاف الكيلومترات..

قرية كفر نون

-داخل الحدود اللبنانية-

تقع قرية كفر نون في أقصى شمال لبنان على الحدود بين البلدين، وتربطها بمدينة تلكلخ السورية القريبة جداً منها روابط أسرية واجتماعية واقتصادية وتجارية متينة جداً، وانقسمت العائلات إلى رعايا لدولتين مختلفتين (سوريا ولبنان) إثر التقسيم الجائر الذي قام به الاستعمار الفرنسي واستمر هذا الانقسام حتى بعد خروج فرنسا من المنطقة وحصول الدولتين على استقلالهما، ولقد عانت لبنان كثيراً من هذا الانقسام وتشكلت فيه فرق وأحزاب، ظاهرها الديمقراطية وباطنها التقسيم والتشرذم، فهناك المسيحيون (وهم عدة مذاهب)، والدروز، والمسلمون السنة، والمسلمون الشيعة، والأرمن، وغيرهم الكثير من الملل والنحل، مما شكل قنبلة موقوتة تنتظر الصاعق للانفجار.

وقد حافظ الدستور اللبناني على توازن معقول بين المسلمين والمسيحيين، فوزَّع المناصب الحكومية العليا على أساس ديني وبشكلٍ مُرْضٍ للجميع (صوريّاً)، وازداد عبر السنين أتباع المذهب الشيعي في الجنوب اللبناني المهمَل جدّاً، والذي لم يحظَ بأية رعاية حكومية من مدارس، ومستوصفات وطرق وآبار لمياه الشرب، أدَّت هذه الزيادة السكانية لأتباع المذهب الشيعي إلى خلل في التركيبة السكانية من دون أن يلتفت الحكّام إلى هذا الخلل، وتشبثوا بظاهر الدستور غاضِّين أبصارهم عن الخطر القادم في المستقبل.

ويمكن تشبيه الوضع الديموغرافي والسياسي في لبنان بالوضع في إسرائيل، حيث ينصُّ القانون على أن يكون رئيس الدولة يهوديّاً دون أي اعتبار للإثنيات المتعددة التي تشكِّل المجتمع اللبناني.

وفي بدء عام ١٩٧٥ اشتعلت في لبنان نار حرب أهلية ضارية استمرت سبعةً عشر عاماً وكلَّفتهم مئة ألف قتيل، مما حدا بجامعة الدول العربية بالطلب إلى الحكومة السورية لإرسال قواتها إلى داخل لبنان، لتهدئة الأوضاع وإنهاء الحرب وحماية المسيحيين، وكانت تلك الفرصة التي يتوق لها النظام السوري لفرض هيمنته على لبنان وتغيير التركيبة السياسية فيه، فباتت كل القرارات السياسية تُتخذ في دمشق وتنفَّذ في لبنان.

وخلال تحكم الجيش والمخابرات السورية في لبنان، كان الحكّام اللبنانيون عبارة عن دمىً في يد النظام السوري، ومن شذَّ عن طاعة دمشق كان ينتهي بتصفيته جسديّاً، أو في أفضل الظروف نبذه سياسيّاً، وساعد النظام السوري على إنشاء وتشكيل وتأسيس ميليشيا شيعية هي حزب الله بدعمٍ سخي من إيران، وهكذا أصبح في لبنان دولة داخل دولة، والدولة الرسمية عبارة عن مجموعة دمى فاشلة، مشلولة الرأي والإرادة، وحزب الله أكثر عدداً وعتاداً، وعمد النظام السوري أن يُظهر حزب الله كقوة متميزة في المنطقة، يهدد بها من لا يذعن لرغباته وإرادته، حتى أن الحرب التي دارت رحاها بين إسرائيل وحزب الله صيف ٢٠٠٦، والتي دمرت إسرائيل فيها أكثر من نصف البنى التحتية في لبنان من جسور ومحطات كهرباء ومرافئ ومحطات ضخ المياه اعتبرتها سوريا انتصاراً ساحقاً لحزب الله على إسرائيل.

وبالرغم **من** أن الجيش السوري غادر لبنان رسمياً عام ٢٠٠٥ في أعقاب اغتيال رفيق الحريري رئيس الوزراء، والمدعوم من دول الخليج وخاصة السعودية، غير أن سوريا فعلياً تركت في لبنان جهازاً استخباراتياً قوياً جداً ومؤثراً في الحياة اليومية في لبنان إضافة إلى حزب الله. وكلاهما يعمل لمصلحة النظام السوري من دون أي تردد، وقد ظهرت السيطرة والهيمنة التامة من النظام السوري على لبنان في عملية تصفية رفيق الحريري والذي حاول أن يخرج قليلاً عن طاعة سوريا، والاستمتاع بقدر ولو ضئيل من الاستقلالية في

اتخاذ القرار، والأنكى من ذلك أنه حتى حزب الله كان أحياناً يدفع ثمناً فيما لو تصرَّف بشكل مستقل، كما حدث في حادثة اغتيال أحد قادة حزب الله في دمشق (عماد مغنية)، وكان أن تم اتهام المخابرات الإسرائيلية (الموساد) بالاغتيال.. وبذلك يتضح أن أجهزة الأمن السورية نشطة وفعّالة في لبنان كما هي في سوريا..

بدأ أحمد يستعيد صحته تدريجياً رغم التعب والإرهاق الشديدين، ورغم الرؤية المشوشة، والفكر الضائع عن الواقع، فلم يكن يدري أين هو، ومن هؤلاء الغرباء من حوله، ولم يكن يتصور إلا أنه في حلب ينعم بدفء وعطف حضن والديه، ثم بدأ تدريجياً يستعيد وعيه وتتضح الرؤيا لديه. حاول محمد (أبو عبدو) أن يساعده في النهوض، غير أن الألم الشديد في خاصرته اليسرى منعه من الانتصاب كاملاً، جال بنظره فيما حوله في عتمة الغرفة ولاحظ أنه يرتدي بيجاما.. غير أنها تعود لشخص آخر، وما إن لمح حذاءه العسكري في زاوية الغرفة حتى عادت إليه الذاكرة بأنه جندي، وبدأ يتذكر من هو وأين هو مما جعله يشعر بالخوف من المجهول الذي ينتظره.. ساعده محمد (أبو عبدو) في الجلوس مستنداً على بعض الوسائد، فشكره أحمد ببعض عبارات الاعتذار عمّا سببه لهم من متاعب. كانت (أم عبدو) واقفة على بعد خطوات قليلة منهما تحمل في يدها صينية عليها كؤوس الشاي تنتظر ريثما يستقر أحمد في مجلسه، قدّمت له كأس الشاي فشكرها مع الاعتذار عما سبَّبه لهما من الإزعاج، فما ردت سوى بابتسامة رضى وترحيب وقدمت نفسها له على أنها سميرة والمعروفة لدى الجميع باسم (أم عبدو)، وأشارت إلى طفل يبلغ من العمر اثني عشر عاماً وقالت: «هذا ابني عبدو»، فبدا عبدو سعيداً بوجود ضيف في البيت مع بعض الفضول لمعرفة ماهية ذلك الضيف، ثم أضافت سميرة: «لدينا أربع بنات، ثريا، هالة، أحد، وفاطمة، وكلهن أصغر سناً من عبدو» وكنَّ يصطففن خلف أخوهن أحمد من دون أن ينبسن بكلمة. ارتشف أحمد الشاي المعطر بالنعناع وبدأ يشعر بدفئه يسري في عروقه، نظر أحمد إلى مضيفه قائلاً: «أنا مدين لك بالكثير.. وأعلم

أنني كنت عبئاً ثقيلاً على الأسرة..» وحاول أن يكمل عبارات الامتنان لولا أن قاطعه (أبو عبدو) قائلاً أن لا حاجة للشكر أو الاعتذار بين أفراد الأسرة الواحدة، فصمت أحمد من دون أن يزيد أية عبارة لكي لا يحرج مضيفه..

تساءل أحمد: «هل نمت طويلاً؟؟.. لا أذكر إلا وأنت تساعدني في دخول منزلك.. ولا أذكر أي شيء بعد ذلك»..

فأجابه عبدو بلطف ممزوج بالعطف: «ثلاثة أيام» وانتظر ردة الفعل، فدُهش أحمد وقال: «ثلاثة أيام!!» ولا غرابة أن جسمه متيبِّس وغير قادر على الحركة، وقد ساعدت تلك السكينة والنوم الطويل على استعادة بعض الحيوية لأعضائه المنهكة، كما ساعدته على تذكر بعض الأحداث التي مرَّت حديثاً، وقال مستغرباً: «لم أكن لأعتقد أن أحداً يمكن أن ينام تلك الفترة الطويلة، ربما لم يفعل هذا إلا أهل الكهف» في إشارة منه إلى سورة الكهف في القرآن الكريم، حيث تروي السورة قصة عدد من المؤمنين الذين هربوا من المشركين وناموا في الكهف مدة ثلاثمئة سنة، ولما أفاقوا أراد الله أن يتم معجزته ويريهم مدى تغير الزمان والمكان والحكّام فأعثر عليهم وتمت المعجزة.... فابتسم الجميع، وشعر أحمد أنه بين أناس من أهل الكرم. ثم أردف أبو عبدو قائلاً: «لقد اعتنت بك أم باسم بشكل جيد، فهي قابلة في القرية وهي التي ساعدت سميرة في ولادة جميع أولادنا»، وأضافت سميرة: «إنها سيدة رائعة، وتحترم خصوصية مرضاها..». حملق الأطفال في أحمد كما لو أنهم مشدوهين من ضيف غريب في البيت، فلا هو من الأهل ولا هو صديق.. إنه غريب كليّةً، احتضنته الأسرة واعتنت بجروحه وغذَّته حتى استعاد صحته، واستغرب الأطفال لكنته الغريبة عليهم، إنه جندي مصاب من بلد خلف التلال تسمى سوريا، والتي زاروها في أحد الأعياد في زيارة لأحد أقاربهم هناك.

كان الأطفال ينظرون إلى أحمد ويشبهونه بأحد الأبطال الذين كانوا يسمعون عنهم من جدِّهم حينما كانوا يزورونه في بيته ويقص عليهم بعض الحكايا حتى يناموا.. ربما كان بطلاً يافعاً بعد..!!

لقد كان أحمد مربوع القامة، حليق الذقن، يشع الشباب من عينيه الخضراوين، ولكنه لم يكن قوياً مفتول العضلات كأبطال الأساطير.. وقد بدا لهم نحيفاً وخاصة بعد أن خسر بضع كيلوغرامات من وزنه إثر خدمة العسكرية نظراً لرداءة الطعام وعدم توفره في أغلب الأوقات، وخلال تلك الأيام القليلة الماضية..

تابع أبو عبدو قائلاً: «لم نتمكن من نقلك من هنا في الأيام القليلة الماضية، وكان سكان القرية حذرين جداً ويراقبون كل حركة تحسباً لأي خطر» وكأنه يشير إلى وجود شبيحة من حزب الله أو من سوريا، وأضاف: «كما أنه بلغنا من شباب القرية أن السلطات اللبنانية تعيد أي عسكري منشق وتسلمه للسلطات السورية، ورغم أن عدداً وفيراً قد دخل البلد وانتشروا في كل مكان، ومع ذلك فقد تمَّ إلقاء القبض على عدد لا بأس به منهم».. تكلمت سميرة قائلةً: «بلغني أن عدد اللاجئين السوريين في وادي خالد حوالي /٢٠٠٠/، ولا أعتقد أن بإمكانهم أن يعيدوهم جميعاً نظراً لارتباطات عائلية مع السكان هنا..».

قال أبو عبدو: «لقد نشرتُ إشاعة أن ابن أخي من حمص يقوم بزيارتي هنا.. لأن الجميع يعلم أن لي أقارب في سوريا، ويمكنك الإقامة هنا للوقت الذي تريد، فهذا بيتك، آملاً أن تقدِّر الإمكانات المحدودة لدينا..».

حاول أحمد أن يبدو شجاعاً وقوياً فقال: «لا أريد أن تواجه أنت وأسرتك متاعب بسببي..» مع أنه ضمنا كان يتمنى أن يبقى في ضيافته وأن يساعده مع أهل القرية في المغادرة خارج لبنان..

فانبرت ثريا ببراءة الأطفال قائلة: «سوف يقتلونك إن عدت إليهم» معبرةً عما سمعته من أحاديث الكبار، وكانت تحيط أختها الصغرى فاطمة بيدها خشية عليها من أي أذىً قد يلحق بها.. وترقرقت بعض الدموع في عينيها وعيني أخواتها خشيةً على أحمد وعلى أسرتهم وخوفاً من المجهول.. فنهرهن أخوهن عبدو قائلاً: «اصمتوا يا بنات، ودعوا الضيف يرتاح.. ولا تخيفوه بأحاديثكن السخيفة» فرمقه أبوه بنظرة عطف وابتسامة رضىً عن تصرفه أمام الضيف.

تابع أبو عبدو حديثه قائلاً: «هناك دوريات على طرفي الحدود على مدى أربع وعشرين ساعة، كما زرع الجيش السوري بعض الألغام ليعيق انشقاق الجنود والتسلل إلى لبنان، كما أنهم يحاولون إيقاف تسرب الأسلحة عبر الحدود إلى الجيش السوري الحر..».

فسأل أحمد مستغرباً: «الجيش السوري الحر.. لم أسمع بهذا من قبل.. من هم؟؟».

فأجابه أبو عبدو: «إنهم مجموعة من الشباب المجندين الذين انشقوا عن الجيش النظامي.. وهم مثلك رفضوا إطلاق النار على المواطنين الأبرياء من أبناء وطنهم وجلدتهم..».

تحلق الأطفال حول أبيهم وضيفه وجلست سميرة إلى جانب زوجها تصغي لأقواله وتحاول المشاركة في الحديث فقالت: «لقد غير أبو عبدو وعبدو ثيابك عندما كنت نائماً وغسلت ثيابك العسكرية»، مما أشعر أحمد بالخجل لاطلاع أحمد وأبوه على بعض

جسمه، غير أنه كان مقتنعاً بأن الحلول البديلة لديه محدودة أو معدومة. ونظراً لوضعه الصحي حالياً فإن أي تخطيط مستقبلي لا يبدو واقعياً، وإذا أراد البقاء حيّاً فهو بحاجة إلى مساعدة أحمد وأهل القرية.. عندئذٍ نهضت سميرة وقالت: «لا بد وأن ضيفنا العزيز يشعر بالجوع.. لا سيما وأننا جميعاً نشعر بذلك..» وغادرت الغرفة متجهة إلى المطبخ لإعداد الطعام، فلحقها عبدو قائلاً: «أجل.. نحن نتضور جوعاً».. فابتسم محمد قائلاً: «الحمد لله أن ضيفنا قد تحسَّن» وشعر بفخر واعتزاز أنه قدَّم الرعاية لإنسان بأمس الحاجة إليها، فقد قدَّم له المأوى، الحماية، الرعاية الصحية، والآن الطعام والغذاء..

نادت سميرة بناتها لمساعدتها في إعداد الطعام، بينما بقي عبدو جالساً بجوار أحمد، وسأله بكل براءة: «هل قتلت أي شخص في الجيش؟؟» فابتسم أحمد وشعر بألم في خاصرته وأجابه مؤكداً: «أبداً.. ولم تكن ابتسامتي لأنك قلت ما يضحك.. ولكنني ابتسمت لأنني رفضت أن أقتل أحداً.. وهذا ما جاء بي إلى هنا.. ولو أنني رضيت بقتل الأبرياء لبقيت في الجيش..» وأضاف: «وعندئذٍ لم أكن لأتشرَّف بمعرفتك وأسرتك الكريمة» وربَّت على رأس عبدو بيد حانية شفيقة.. وما هي إلا لحظات حتى فاحت رائحة الطعام من المطبخ وامتلأ المنزل برائحة أثارت شهية الطعام لدى أحمد الذي كان بأشد الحاجة والشوق إليه، فصدر عن معدته وأمعائه أصواتاً أثارت عاصفة من الضحك بين عبدو وأبوه وأحمد.. ودخلت البنات الصغار يحملن صحون الزيتون واللبنة والجبنة والمخللات والخبز الطازج، وصحن آخر مليء بالبيض المقلي مع حبات الصنوبر، فعبق الجو برائحة التوابل المشهورة في أطباق الريف السوري واللبناني، وما إن اكتملت الصحون على المائدة حتى لاحظ الأولاد كيف أخذ أبوهم قطعة من الخبز غمسها في الحمُّص مع اللحمة المقلية وناولها أحمد، فبدأ الجميع بتناول الطعام بشهية وحماس، وخاصة الأطفال فرحين بوجود ضيف كريم يشاركهم الطعام. وقالت سميرة معتذرة: «يؤسفنا أن تكون المائدة متواضعة بهذا الشكل إذ لم تتح لنا فرصة التسوق هذا اليوم..». وتبادل الجميع

بعض الحديث إلا أن أحمد شرد بذكرى الأيام الخوالي في حلب وشعر بخفقات خفيفة في قلبه تذكره بخطيبته نجوى، والتي مضى على خطبتهما ثلاثة أعوام في انتظار أن ينهي خدمة العلم ليتم الزفاف، لقد كان أحمد ونجوى يعيشان مع أسرتيهما في نفس الحي منذ طفولتهما، وكانت عائلة نجوى ميسورة الحال وذات علاقات متينة بالمسؤولين في ظل الفساد الشائع في البلد، وقد عارض أهلها في البدء فكرة الخطبة تعالياً منهم على المستوى الاجتماعي لأسرة أحمد، كانوا يعتبرون أن أباه مجرد ضابط صغير في الجيش لا يتعدى عمله تلقي الأوامر دون أية سلطة بإصدارها. وتحدت نجوى أهلها بإصرار على الخطبة، وكان أحمد يشك في أن تصبح نجوى جزءاً من مستقبله، ولم يعِ كيف لم يفسخ هو الخطوبة بنفسه.

كان النقاش بين الخطيبين الشابّين يحتدم أحياناً، وجل الخلاف كان على حفلة الزفاف الفارهة التي كانت نجوى تحلم بها، حتى أنها اقترحت ذات مرة على أحمد أن تستدين أسرته بعض المال لقاء رهن بيتهم لكي يتحقق حلمها، وكانت هذه نقطة خلافية مزمنة بينهما، فكانت تطلب شقة واسعة في منطقة متميزة من المدينة، وكان أحمد (بإمكانيات أسرته المحدودة) متيقناً أن أحلام نجوى غير واقعية وأفكارها غير ناضجة، ورغم حبه الشديد لها فقد كان يرى أنه من الصعب على نجوى أن تعيش بواقعية في حدود إمكانياته، ولسوف تكون حياتها بائسة معه إذا ما استمرت بالمقارنة مع حياة أهلها، وكان يأمل أنه بمجرد أن ينهي خدمة العلم الإلزامية فإنه سوف يبدأ بممارسة مهنته ولسوف ينجح ويحقق لنجوى كل ما تطمح إليه، ولكن واقع الحال كان غير ذلك، إذ إن عمله كمهندس في بلد عشش فيه الفساد لا يمكن أن يوفر له إلا معيشة مقبولة،، هذا فيما لو حالفه الحظ وعمل في شركة خاصة.

أُنشئت في عهد حافظ الأسد عدداً من الجامعات في سوريا، وكان الهدف الرئيس منها الدعاية لبناء عدد من الجامعات، دون أي اعتبار لنوعية التدريس ومستوى الخريجين، ولم يكن هناك أي نظرة مستقبلية لعدد الخريجين وما يتطلبه سوق العمل، فراحت الجامعات تخرِّج الآلاف من الأطباء والمحامين والمهندسين دون أن توجد لهم فرص عمل تستوعبهم.

لعب الفساد والوساطة والمحاباة دوراً كبيراً في الحصول على مقاعد في الجامعات بكل فروعها وأقسامها، ولعبت الرشوة دوراً في حال فشل الوساطة والمحاباة، واستمرت الرشوة والابتزاز حتى بعد التخرج من الجامعة لكي يحصل الخريج على وظيفة تليق بشهادته، فكان أخو نجوى أحد هؤلاء الذين التحقوا بكلية الطب بأسلوب ملتوٍ لم يخلُ من الرشوة والدفع مقدماً لكي يحصل على العلامات اللازمة لنجاحه في الدراسة ويحصل على لقب (دكتور)، رغم أنه لم يلتحق بأي مستشفى تعليمي للتدريب العملي.

كانت الجامعات السورية في الستينات من القرن الماضي من أشهر الجامعات في الشرق الأوسط، وكان يرد إليها الطلاب من كافة أنحاء الوطن العربي وخاصة الأردن والعراق ودول الخليج، ولسوء الحظ فلقد انعكست الصورة الآن بشكل شنيع، فقد وضعت الجامعات السورية في ذيل اللائحة التي تصدر كل عام عن مستوى الجامعات الـ /٦٠٠٠/ في العالم، ولذلك ترى الخريجين يعانون الأمرَّين إذا ما قرروا السفر إلى الخارج لإكمال تعليمهم العالي، ولم تأخذ معظم الجامعات العالمية بنتائج التخرج من الجامعات السورية على محمل الجد، مما أدّى إلى رفض معظم المتقدمين للسفر إلى الخارج من الجامعات المحترمة، وهذا ما دعا بعض الخرِّيجين الذين غامروا بالسفر إلى الغرب للعمل في التجارة الحرَّة (إن كان لديهم ما يكفي من المال لذلك..) أو للعمل في مجالات دنيا لا تحتاج إلى شهادات جامعية.

وفجأة قاطعت سميرة حلم اليقظة الذي شغل أحمد وسألته عن أسرته: «من أين أنت؟؟ هل أنت متزوج؟؟ هل لديك أولاد؟؟». فاستيقظ أحمد من حلمه وعاد إلى الواقع: ها هو في بيت (أبو عبدو) محاطاً برعايته ورعاية أسرته في قرية من قرى جبال لبنان، فأجاب برقَّة: «أنا من حلب.. كلا.. لم أتزوج بعد غير أن لدي خطيبة.. والداي إنسانان عظيمان، فوالدي ضابط متقاعد ووالدتي مدرِّسة..».

فسألته ثريا: «هل لديك صورة لعائلتك أو خطيبتك؟؟».

فنهرها أخوها عبدو طالباً منها الصمت كيلا تزعج الضيف، مع أنه كان يشوق لسماع جواب ضيفه.

تذكَّر أحمد أنه التقط صورة مع أسرته فور إنهائه التدريب الأولي في الجيش، كما أنه تذكر أنه يحمل صورة لنجوى في جيبه، ولما حاول أن يخرج الصورة من جيب سترته أدرك أنه يلبس البيجاما.. فنهضت سميرة بسرعة وأحضرت سترته العسكرية وكيس يحوي بعض المقتنيات التي أفرغتها من الجيوب قبل أن تغسلها، واعتذرت من أحمد لتصرفها من دون إذنه. فتح أحمد الكيس وأخرج محفظةً فيها بعض الصور، فأعطى أبو عبدو صورة عائلته وصورة نجوى لسميرة، فتراكض الأطفال والتفُّوا حول أمهم لرؤية صورة نجوى، وفقال أحد الأطفال: «يا إلهي إنها جميلة جداً..»، وقالت فاطمة مضيفة: «وهل هي بجمالي؟؟».

وقال عبدو: «تبدو سعيداً جداً بأسرتك...» فأجاب أحمد: «نعم كنت كذلك قبل أن أعرف الخدمة الإلزامية..» وأشار بأصبعه إلى الصورة: «هذا والدي عصام.. وهذه والدتي عبير.. وهذا أنا في الوسط.. وهذا أخي وليد إلى يسار والدتي، أختي ناهد متزوجة من فريد ويعيشان في كندا..».

فقاطعه محمد (أبو عبدو): «كندا.. هناك العديد من سكان قريتنا هاجروا واستوطنوا مونتريال، ولديهم أعمال ممتازة وبيوت فارهة، ولا يزال معظمهم يقضون عطلة الصيف هنا في القرية.. لماذا لا تذهب أنت إلى هناك..؟؟».

فأجاب أحمد: «لقد ذهبت، ولكنني لم أستطع أن أوفِّق بين الدراسة والعمل..» وبدا صوته وكأنه ينمُّ عن حسرة لأنه لم ينجح كما يرغب. ومع أن ناهد وزوجها فريد حاولا جهد المستطاع أن يقنعاه بالاستمرار، غير أنه تاق لأسرته وبيته وأسلوب العيش في حلب مع أصدقائه وأقاربه وجيرانه.. وأهم من هذا وذاك نجوى التي عارض أهلها بشدة وعنف فكرة مغادرتها سوريا، وخاصة أنها ستعيش مع شاب ذو مصير مجهول...

وهنا انبرى محمد (أبو عبدو) قائلاً: «بإمكانك البقاء هنا في منزلنا المتواضع كل الفترة التي تحتاجها ريثما تشفى من إصابتك..»، وهزت سميرة رأسها موافقة على دعوة زوجها..

فردَّ أحمد قائلاً: «لقد كنتم لطفاء وكريمين معي فوق طاقتي لأرد لكم هذا المعروف.. عير أنني لا زلت بحاجة لمساعدتكم في بعض الأمور التي سأبحثها معكم لاحقاً..».

أجابه أبو عبدو: «على الرحب والسعة.. في أي وقت تراه مناسب وتكرمني بالطلبات.. ولا يزال هناك بعض الطيبة في بعض الناس في هذه الحياة.. ما عساه أن يكون مصير الناس ما لم يلبُّوا رغبات بعضهم بعضاً في وقت الحاجة..؟؟».

أمضى الاثنان يومهما يتحادثان ويقارنان أسلوب العيش في بلديهما.. وراح محمد (أبو عبدو) يقص على أحمد قصة جده الحاج عبد القادر الذي خدم مع الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى في جزيرة (غاليبولي) Gallipoli حيث حارب البريطانيين

والإفرنسيين من موقع على شاطئ شبه الجزيرة.. لطالما أحب الأولاد قصة جدهم الأكبر والذي عاد بعد الحرب كبطل مغوار، فقد إحدى يديه في الحرب مما جعله أسطورة القرية، وهذا ما دعا محمد أن يسمي ابنه الأكبر عبد القادر حسبما قالت سميرة وهي ترمق ابنها بنظرة إعجاب وأمل.

حضرت (أم باسم) بعد الظهر لتكشف عن جرح مريضها أحمد وتتأكد من سلامته.. ولكونها القابلة في القرية فقدد حظيت باحترام ومحبة الجميع إضافة لمكانة اجتماعية مرموقة.. وسُرَّت بالتحسن السريع لوضع أحمد الصحي بضيافة تلك الأسرة الطيبة.

وفي المساء أحضر عبدو (بناءً على طلب والده) دجاجتين من القن ، وقام أبو عبدو بذبحهما وإعطائهما لسميرة التي نقعتهما بالتوابل والأعشاب وقامت بشوائهما وتقديمهما للعشاء. وأمضى أحمد أمسية مع الأسرة يداعب الأطفال الذين اعتادوا عليه ويتحلقون حوله معظم الوقت كما لو كانوا يستذكرون بطولات جدهم الحاج عبد القادر التي طالما سمعوا عنها من والدهم، ثم قامت سميرة بفرش المراتب على الأرض، وأحكم محمد إغلاق الباب وأطفأ الأنوار، وخلد الجميع إلى النوم بعد أن تبادلوا تحية المساء: «عمت مساءً أخي أحمد..» ، فأجابه: «عمت مساءً أبو عبدو..».

استلقى أحمد في فراشه وأخذ يحملق في النجوم المتناثرة في السماء وفي القمر الذي يضيء القرية والكون حوله، وراح يفكر فيما عليه أن يعمل لكي يحقق السعادة للجميع.. وأكثر ما أقلقه اتخاذ القرارات الصعبة والتي تحتاج إلى جرأة متناهية، وعليه هو وحده تحمل مسؤولية هذه القرارات بغض النظر عن النتائج.. لقد كانت قصة البطل الحاج أبو عبدو حافزاً له في المضي قدماً لاتخاذ قراراته.. فلا غُنم بلا غُرم. وتحمُّل المسؤولية يحدد مدى النضج..

لقد كان قرار انشقاقه عن الجيش ومغادرة سوريا أشبه ما يكون بالمعجزة، فقد أنقذ بعض الأرواح بعدم المشاركة في قتل الأبرياء.. ولكن هل كان هذا كافياً.. حتماً لا.. أعطاه هذا التفكير بعض الاعتزاز والفخر بنفسه، ولا شك أن أسرته ستفتخر وتعتز بصنيعه.. ثمَّ غطَّ في نوم عميق نتيجة الإرهاق والضغط النفسي والجسدي، وراح يحلم بنجوى، والنجوم والقمر، وأسرته وأخوه وأخته في كندا، وفجأ عاودته ذكرى سيارة الـ BMP وإطلاق الرصاص على المواطنين العُزَّل نساءً وأطفالاً ورجالاً، والرائد آصف يوجِّه مسدسه إلى رأسه... أفاق أحمد مذعوراً يتصبب عرقاً بارداً ويتنفَّس بصعوبة، تلفَّت حوله ليعرف مكانه، وما إن اطمأن إلى أنه لا يزال في بيت محمد (أبو عبدو) حتى استلقى ثانيةً وغطَّ بالنوم بعد أن استسلم للإعياء والإرهاق.. انتفض أحمد من النوم على قرع باب الدار، هرع محمد (أبو عبدو) وفتح الباب ليجد الدكتور كمال أمامه يستأذنه بالدخول، بدا الدكتور كمال كرجل في منتصف العمر، بدأ الشيب يزحف إلى صدغيه مع بعض الصلع الخفيف، ولم يكن ليعير المظهر الخارجي أي اهتمام، وإنما الرعاية بالمريض هي التي تربط الطبيب بالمريض، فرحَّب به محمد بحرارة ودعاه للدخول، ورفع صوته عمداً لتعلم زوجته بقدوم ضيف.. فحاول أحمد جاهداً النهوض واستعادة وعيه، واطمأن لطريقة الترحيب التي استقبل بها محمد الدكتور كمال. فبدأ الدكتور كمال بالاعتذار على مقدمه مبكراً، فرد محمد بالامتنان ودعاه لتناول الإفطار، فأبدى رغبته بفنجان قهوة تعدُّه (أم عبدو) فرحَّبت سميرة وبدأت بإعداد القهوة.. فسار الدكتور كمال باتجاه أحمد الذي انتصب واقفاً مرحباً به وتصافحا كما لو كانا يعرفان بعضهما من أمد بعيد. بدأ الدكتور كمال متسائلاً: «لا بد وأن يكون هذا بطلنا من سوريا الذي أخبرتني عنه أم باسم، مما جعلني أقلق على جرحه إذ ظننت أنه ربما كان مصاباً بالتهاب مما قد يهدد بتجرثم في الدم، ولهذا أسرعت بالحضور باكراً، إضافة إلى أن هذه مناسبة طيبة أن أقابل وأتعرف على ضيفك العزيز» فابتسم الجميع وشعر أحمد ببعض الحرج من هذا الإطراء.

لم يستغرب محمد من ملاحظة الدكتور إذ أن أحمد كان يعاني من فقد وعي كامل عندما ضمدت جرحه (أم باسم).. «بالتأكيد.. لقد ذكرت لنا ذلك..» أجاب محمد، وبلهجة اعتذار قدم محمد كلاً من الدكتور كمال وأحمد للتعرف على بعضهما، ونوَّه بأن الدكتور كمال يعرف وربما عالج كل شخص في شمال لبنان.

فابتسم الدكتور كمال معقِّباً: «لا شك أنني أعرف كل الساكنين هنا، والآن بِتُّ أعرف عدداً لا بأس به من السوريين، سواءٌ كانوا جنوداً منشقين أو مدنيين أصيبوا جراء القصف العشوائي عليهم من قبل جنود النظام، وكنت ولازلت أعالجهم منذ بدء الثورة في الربيع»، عندئذٍ علم أحمد أن الدكتور كمال قادر على معالجة جروحه، وربما يساعده في أمور أخرى مستقبلاً.

كان الدكتور كمال في أوائل السبعينات من عمره، وبدأت تظهر عليه علائم التقدم بالسن، فلباسه المتواضع يوحي بسلوكٍ غير استعلائي وكثرة عمله المتواصل في المنطقة.

دخلت سميرة الغرفة تحمل فناجين القهوة التركية على الصينية وقدَّمت الفنجان الأول للدكتور كمال احتراماً لمكانته وسنِّه، ثم لأحمد ضيف المنزل ثم لزوجها، وأخذت هي الفنجان الرابع وجلست إلى يمين زوجها على الأرض من دون أن تساهم في المحادثة (حسب التقاليد المتبعة في الريف..)، استأذن الدكتور كمال بشرب كأس الماء قبل أن يشرب القهوة، لأن من الآداب المتبعة أن لا يشرب الضيف الماء بعد القهوة وإلا عُدَّ ذلك عدم رضا عن نوعية القهوة أو طريقة تحضيرها، فقدمت سميرة كأس الماء للدكتور كمال مشفوعا بابتسامة، وابتدأ الدكتور كمال الحديث بأنه عالج في الليلة الماضية جندياً سوريا من مدينة القصير قرب حمص، ومع أنه أصيب بطلق ناري في قدمه فقد تمكن من الهرب والتخفي والسير لمدة سبعة أيام ريثما قطع الجبال الشرقية للبنان المغطاة بالثلوج،

ووصل بوضع مأساوي، غير أنهم تمكنوا بفضل الله من معالجته والاعتناء به، ثم أضاف: «أتوقع له شفاءً تاماً بإذن الله، وسوف أقدمكما لبعض في أقرب فرصة»..

حاول أحمد أن يستكشف بحصافة الدوافع خلف مساعدة الدكتور كمال للجنود والمدنيين السوريين وما هو اتجاهه السياسي.. ولكنه بقي صامتاً مصغياً، وفي هذه الأثناء استيقظ الأولاد وانضموا إلى التجمع الأسري، فجلست الفتيات بجانب أمهن بينما جلس عبدو بجوار أبيه.. وما إن فرغ محمد من شرب قهوته حتى قلب الفنجان رأساً على عقب لكي تقرأ له سميرة طالعه وتبعه أحمد مستذكراً ما كان يفعله والده على شرفة البيت بعد عصر كل يوم..

طلب الدكتور كمال أن يبدأ الكشف على أحمد، فكشف قميصه عن خاصرته اليسرى ليظهر الضماد الذي وضعته أم باسم، رفع الدكتور كمال الضماد وقام بفحص الجرح وسأل أحمد بعض الأسئلة أجاب عليها أحمد بصوت خفيض، وعندها افرجت أسارير الدكتور كمال قائلاً: «لا أرى أي مشكلة أو عقبة هنا.. لا شك وأن أم باسم قد قامت بعمل ممتاز كالمعتاد، وأتوقع أن تتماثل للشفاء خلال بضعة أيام»، ونهض ليحضر بعض المراهم من سيارته، خرج إلى السيارة وأحضر بعض المراهم، وأعطى بعض التعليمات لاستعمال المرهم فوق الجرح بعد تنظيفه، ونصحه بأن يأخذ ثلاث حبات فيتامين C يومياً لتساعد على شفاء الجرح، ووضع الأدوية إلى جانب أحمد والتفت إليه وعلامات الجد بادية على وجهه قائلاً: «أحمد.. إن بقاءك هنا لفترة طويلة لن يُجدِ بك نفعاً.. إن رفاقك يعيدون تجمعهم ليغادروا لبنان..».

استغرب أحمد هذه الصراحة المفاجئة من الدكتور كمال من دون أي مقدمات، وجال في خاطره سؤال مهم عن عدد الرفاق في لبنان، أو من منهم يعود إلى وحدته العسكرية، أو من منهم قد صادفه خلال خدمته العسكرية في العامين الماضيين.

فتساءل محمد معترضاً: «ماذا تعني بذلك يا دكتور.. أحمد بأمان هنا وبإمكانه أن يمكث هنا كل الفترة التي يريدها»، فأجاب الدكتور كمال مع هزة رأس لطيفة: «أنا أتفهم قصدك الطيب يا محمد، ولكني أعتقد أن قرب كفر نون من الحدود يجعلها غير آمنة وعرضة لاقتحام الشبيحة عبر الحدود أو عناصر من حزب الله الذين يتصيدون كل المنشقين هنا، ولذا فإنني أرى حفاظاً عليه وعلى سلامة أسرتك عليه أن يبدأ بالتنقل» لأنه يعلم تماماً أن بقاء أحمد لديهم سوف يكون خطراً على محمد وسميرة والأولاد، ولا سيما وأن الشائعات كثرت عن مصير المتعاطفين مع الجنود المنشقين.. فهم محمد دون أن يلفظ ببنت شفة مقصد الدكتور كمال.. وسأل أحمد الدكتور كمال: «و أين يمكنني أن أذهب؟؟».

وتماشياً لسماع الأطفال الحديث جذب الدكتور كمال يد أحمد وقال له: «سوف تأتي معي لمقابلة الآخرين، فلقد حددت عدداً من البيوت في المنطقة ووزَّعت إخواننا السوريين والسوريات عليهم حسب ما يحتاجون من رعاية طبية.. وقد قررنا أن يبقى المدنيون عندنا ريثما تهدأ الأحوال، أما الجنود فالخطر محدق بهم إن بقوا في لبنان، وهم يغادرون إما إلى تركيا أو إلى الأردن، وما إن يصلوا إلى إحدى الدولتين إلا وينضموا إلى الجيش السوري الحر، معظم المنشقين إما مجندين أو رتباء، وهناك نقص شديد في عدد الضباط، وأعتقد أن خبرتك ذات فائدة لأمثال هؤلاء..» قال الدكتور هذه الكلمات بغية تشجيع أحمد على اتخاذ القرار..

تذكر أحمد أنه ضابط في الجيش السوري رغم أنه لم يشعر في يوم من الأيام — كما لم يشعر أي من زملائه السنيون– بموقعه الإداري كضابط في الجيش.. إذ أن أصغر جندي أو رقيب علوي يمثِّل موقعاً وقوة ونفوذا أكثر من أي ضابط سنِّي مهما كانت رتبته في الجيش، فقد تمتع العلويون بالجيش بميزات وسلطات غير قابلة للنقاش أو التصدي لها،

كما أن الضباط السنيون حرموا من كثير من التدريبات العسكرية بشكل متعمد لكي لا يكتسبوا أي خبرة ويبقوا دون الأفراد العلويين خبرة وتدريباً، وبذلك يشعرون دائماً بالإحباط والدونية.. وهنا شعر أحمد بمسؤولية تجاه الأفراد السنيين في الجيش النظامي..

وتابع الدكتور كمال بتردد قائلاً: «على كل حال.. إن لم تكن ترغب بالانضمام إلى الجيش السوري الحر فبإمكاننا تأمين مخرج آمن لك إلى أية جهة ترغبها..» ولاحظ في وجه أحمد تعابير التردد والخوف المبرر نتيجة ما مرَّ به من أهوال.. فسأله أحمد من دون تردد: «كيف يمكن أن نصل إلى تركيا؟» في محاولة منه لدراسة الاحتمالات. فأدرك الدكتور أن أحمد لا يزال مصدوماً مما عاناه خلال الأيام القليلة الماضية.. فتابع الدكتور كمال قائلاً: «حسناً يا بنيَّ.. القرار يعود لك.. أنت وحدك من يقرر الخطوة التالية.. لقد ساعدنا الكثيرين على تخطي الحدود إلى تركيا عن طريق جسر الشغور متفادين المرور في الطريق الدولي (دمشق – حلب)، ووصلوا بسلام إلى أنطاكيا حيث استقبلهم العقيد محمود الأتاسي المسؤول عن الجيش السوري الحر هناك، أو بإمكاننا نقلك إلى طرابلس ثم إلى لارناكا في قبرص عن طريق البحر..» ثم توقف فجأة خشية أن يكون قد أذاع بعض الأسرار بشكل سريع.. وخاصة إذا ما تم القبض على أحمد واعترف تحت التعذيب والتنكيل بكل هذه الأسرار..

سأل أحمد بتردد وبراءة: «يبدو أن أيّاً من الحلَّين أسوأ من الآخر.. وكيف لي أن أدخل قبرص من دون جواز سفر أو تأشيرة دخول؟؟».

وبينما كان عبدو ينصت بإمعان لحديثهما قال متفاعلاً: «كم أنت محظوظ أن تستطيع القتال إلى جانب إخوانك في سبيل بلدك..» فوقعت كلمات عبدو البريئة والمفعمة بالحماس على أحمد كالصفعة التي أيقظته من أنانيته، فكيف له أن يؤثر نفسه على غيره، وخاصة تلك الأسرة التي أحاطته بالرعاية والعناية وأنقذت حياته.. أليس

جندياً؟؟.. أليس زملاؤه يحاربون نظاماً شرساً وحشياً في سبيل حرية وطنهم. وتذكر أحمد فخره واعتزازه بنفسه ووطنه والقضية التي يحارب من أجلها زملاؤه «حرية الوطن والمواطن من هذا النظام الطائفي البغيض..» وقرر الذهاب مع الدكتور كمال من دون أي تردد. بادره الدكتور كمال بعد أن لمس فيه الإرادة على المضي قائلاً: «علينا أن نتحرك الآن.. أعتقد أن بإمكانك الترحال وسنتحدث في طريقنا إلى (منجز).. حيث يوجد مكان آمن لك هناك..» وما إن رنَّ جرس هاتف الدكتور كمال حتى فتحه وقرأ رسالة خطية تنبؤه بوجود عدد كبير من الجرحى وعليه الحضور فوراً.. فأمر أحمد بجمع حاجياته والتحرك بسرعة.. شعر أحمد بضيق الوقت لدى الدكتور كمال، وتمنى لو بقي في هذا البيت ينعم بالراحة والأمان، غير أن هذا غير ممكن وإلا سوف تتعرض الأسرة لما لا يحمد عقباه.. غادرت سميرة الغرفة وعادت مسرعة تحمل الزي العسكري نظيفاً لأحمد، وذهب محمد أيضاً وعاد مسرعاً يحمل البندقيةAk47.. امتشقها أحمد وعادت إليه نفسية الجندي الفخور بنفسه ووطنه.. دهش الأولاد بهذه الجلبة والسرعة التي سوف يغادرهم بها ضيفهم العزيز أحمد..

وعندما حاول أحمد تغيير البيجاما ولبس الزي العسكري، رجاه أحمد أن يحتفظ بالبيجاما نظراً لضيق الوقت.. وقام بمساعدته بلبس الزي العسكري فوق البيجاما. وهرع الدكتور كمال إلى سيارته بعد أن ودَّع الأسرة.. ووقف أحمد يشكر مضيفيه جميعاً على الرعاية والعناية الفائقتين أملاً أن يتمكن من ردِّ جزءٍ من الجميل.. فرفع الأولاد وأبيهم أيديهم بالوداع داعين له بأن يحفظه الله من كل مكروه.. وأضافت سميرة: «نتمنى لك السعادة مع نجوى..»..

انحدرت بعض الدموع من عيني أحمد وهو يودع هذه الأسرة الطيبة، وفجأة صرخت سميرة: «توقف.. خذ هذا الكيس من الطعام والفواكه..» وناولته كيساً مليئاً..

وحالما دخل أحمد السيارة (Rav4) ذات الدفع الرباعي انطلقت بهما مخلفةً سحابة من مزيج الغبار وسخام العادم.. وعاد الألم إلى خاصرة أحمد مع كل اهتزازة ورجَّة من السيارة على الطريق الزراعي.. وابتدر أحمد قائلاً: «إنهم أناس طيبون جداً..» وظلَّ ينظر في المرآة إلى أسرة أبو عبدو يلوِّحون بأيديهم إلى أن غابوا عن النظر بعد أن انحرف الدكتور كمال بالسيارة في طريق آخر..

وافقه الدكتور كمال مضيفاً: «نعم.. إنهم كملح الأرض».. وتابع: «لقد عشت في المملكة المتحدة لعدة سنوات، ومع ذلك غادرتها وعدت إلى هنا أملاً أن أساعد بعض الناس هنا في هذا الجزء من لبنان..».. وبالرغم من ذكر سميرة لنجوى وتمنياتها لهما بالسعادة غير أن أحمد كان يشعر بأن نجوى ليست على قائمة الأولويات في هذه اللحظة.. وسيطرت على فكره صورة والديه وماذا قيل لهما عنه..؟ وماذا سيكون رد فعل والده عندما يعلم أن ابنه قد انشق عن الجيش. وطلب من الدكتور كمال ببراءة: «أريد أن أتصل بأهلي في حلب..» معتقداً أن الاتصال بسيطاً ويخلو من أية مصاعب..

فاجأه الدكتور كمال مقطباً حاجبيه: «أعتقد أنها فكرة غير محمودة العواقب، لأن معظم الهواتف في سوريا تخضع لمراقبة المخابرات.. وقد ذكر لنا أحد الأشخاص من إدلب أن والده وأخوه اعتُقِلا وعُذِّبا بشدة بعد اتصاله بهم بفترة وجيزة.. فإن كنت تثمِّن حياة أسرتك.. فالأفضل أن تتصل بطريقة غير اعتيادية.. عن طريق السكايب مثلاً..».

فاستغرب أحمد قائلاً.. «سكايب.. وما هو السكايب الذي تتكلم عنه؟» فشعر الدكتور كمال ببعض الاعتزاز بخبرته التكنولوجية و كونه يفوق من هو أصغر من سناً في هذا المجال وقال: إنه يشبه الهاتف إنما عن طريق الإنترنت.. فبإمكانك أن تتكلم وتشاهد من تتكلم معه على شاشة الكمبيوتر.. ولكن يجب أن يكون لدى كلا المتحدثين جهاز كمبيوتر واتصال بالشبكة الدولية.. هل تعلم إن كان لدى والديك جهاز كمبيوتر..؟».

«نعم.. نعم..» أجاب أحمد: «أخي وليد لديه كمبيوتر، غير أني لا أعلم إن كان يعرف عن هذا الشيء (سكايب)» لقد حاول أحمد أن يتعلم على الكمبيوتر مراراً غير أنه بقي يماطل ولم يعي كيف أن هذا الجهاز يمكن أن يساعد في الانتفاضة السورية.. وسأل: «وكيف لي أن أُعلم أخي بضرورة حصوله على السكايب أو أتأكد من أن لديه هذا الشيء..؟».

أجابه الدكتور كمال: «دع ذلك لي.. هل لديك عمّاً أو أي قريب خارج سوريا..؟».

أجاب أحمد: «نعم.. لدي أخت تعيش في كندا».

«وهل تعرف رقم هاتفها..؟» سأل الدكتور كمال.

«نعم.. إنه معي هنا في محفظتي..» واستخرج فوراً دفتراً صغيراً وأعطاه رقم هاتف ناهد.. فأوقف الدكتور السيارة وأخذ هاتفه الجوال وطلب الرقم فوراً.. وما إن سمع الجرس يقرع على الطرف الآخر من الخط حتى أعطى الهاتف لأحمد.. وما إن سمع صوتاً أُنثويّاً على الهاتف: «ألو.. من هناك؟!» حتى عرف أنه صوت أخته ناهد..

«أنا أحمد يا ناهد..»..

فصرخت من شدة فرحها: «أحمد.. أحقاً أنت أحمد.. هل أنت بخير..» وامتزج كلامها بحشرجة البكاء..

«نعم أنا بخير يا ناهد..» قال أحمد وكأنه يحاول التركيز على المحادثة.. «ولكن لماذا تبكين؟ هل حصل أي مكروه لأسرتنا؟ هل الجميع بخير في حلب؟»

أجابت ناهد: «أنا أسفة يا حبيبي.. نعم الكل بخير.. وقد بلغهم أنك قُتلت من قِبل الإرهابيين.. لقد كنا نتحادث على الهاتف بشكل دائم بعد أن بلغهم خبر مقتلك من الجيش..» وتابعت ناهد بنفس الحماس والشوق: «قل لي هل أنت بخير..؟؟ لا زالت ماما مؤمنة بأنك حيّ غير أن بابا قد حطمه الخبر المفجع..».

وذكَّره الدكتور كمال أن يسأل أخته إن كان لدى أخيه وليد سكايب، فسألها أحمد.. فأجابت بالإيجاب بأنه قد حصل عليه حديثاً.. وبأنهم يتحادثون عبره يومياً.. فأشار إلى الدكتور بالإيجاب..

فطلب إليه الطبيب أن يذكر لأخته موقعه وأن تسجل اسم المستخدم على سكايب الذي لدى الطبيب.. فطلب إليها أحمد أن تسجل على ورقة اسم الدكتور كمال على سكايب، ورجاها بأن تعطيه لوليد بأقرب وقت ممكن، وأن يتوقع منه مكالمة غداً.. فقال له الدكتور: «قل لها أنك سوف تتكلم الساعة التاسعة صباح غد حسب توقيت حلب.. غير أن على وليد أن يرسل دعوة للدكتور على السكايب..».

«نعم.. نعم.. فهمت عليك.. غداً الساعة التاسعة صباحاً وعليه أن يرسل رسالة دعوة للدكتور، وسوف أنضم إلى محادثتكم» أجابت ناهد.

رمق أحمد الدكتور كمال بنظرة ذهول، وأدرك الدكتور مغزى هذه النظرة فسارع بالقول: «نعم سوف تنضم إليكما في المكالمة، وسوف ترى أسرتك كلها بآن واحد..». وسمع صوت أخته ناهد تنهي المحادثة قائلة: «اعتنِ بنفسك يا أحمد.. وأسأل الله أن يحميك من كل سوء..» وعكس صوتها مدى فرحتها وغبطتها بسماع صوت أخيها بعد كل ما قيل عن قتله..

وما إن أقفل الطبيب الهاتف حتى وصلت رسالة نصيَّة أخرى قرأها وزاد من سرعة السيارة، مخلِّفةً وراءها سحابة من التراب ودخان العادم قائلاً: «علينا التحرك... فالوقت يتداركنا..» فلم يعترض أحمد لمعرفته التامة بضرورة وصول الطبيب إلى مكان آخر لإنقاذ مريض أو مصاب.. لم تكن (منجز) بعيدة جداً، فقد قطعوا المسافة عبر بعض التلال الصغيرة وبعض شجيرات الحمضيات المنتشرة على سفوحها..

شردت أفكار أحمد بعيداً.. وكان لديه حدس داخلي بأن القدر سوف يحدد المستقبل القريب، قد يكون ذلك الحدس نتيجة شخصيته المقهورة من ظلم وطغيان أزلام النظام، مما أدى إلى طريقته في التفكير، أو قد يكون نتيجة معتقداته الدينية.. وأيقن أن تلك الرحلة القصيرة في سيارة الدكتور كمال سوف تكتب مستقبله.. فاستسلم لقدره ومشيئة الله.

الجيش السوري الحر

بدأت سيارة الدكتور كمال بدخول مشارف مدينة المنجز، والتي لاحظ أحمد فوراً أنها أكبر من (كفار نون) نسبياً وأكثر تعداداً بالسكان.. ولاحظ خلال تلك الرحلة القصيرة شرود ذهن الدكتور كمال بعد استلام الرسالة النصية الثانية على الهاتف...

وبينما كانت السيارة تعبر زقاقاً ضيِّقاً قال الدكتور كمال بنبرة أمر: «حالما تتوقف السيارة افتح الباب وادخل البناية واصعد إلى الطابق الثاني». توقفت السيارة بعد انعطاف بسيط أمام بناء ذي ثلاث طبقات وشرفات ضيقة تكاد تكون متلاصقة، وحبال غسيل معلقة بينها وبين أعمدة الهاتف والكهرباء.. عاود الدكتور كمال أوامره: «اصعد إلى الطابق الثاني واقرع الباب رقم٤، عليَّ الذهاب فوراً وسأراك لاحقاً». وما إن صعد أحمد درجات السلم برشاقة ممزوجة بألم، حتى انطلقت سيارة الدكتور كمال مسرعة وغابت عن النظر.. أضاء أحمد نور الدرج ليتبين طريقه إلى حيث أمره الدكتور كمال «الطابق الثاني.. الباب رقم ٤» وما إن اقترب من أحد الأبواب لقراءة رقم الباب حتى انطفأ النور بشكل تلقائي، فجأة فتح أحد الأبواب وجذبه شخص ضخم بقوة إلى داخل الشقة دون أن ينبس ببنت شفة وأغلق الباب خلفه بهدوء.. فذهل أحمد بهول المفاجأة والسرعة والدقة في التنفيذ.. فطمأنه الشخص الضخم قائلاً: «استرح الآن، فأنت مع إخوتك هنا..» عقدت المفاجأة لسان أحمد ولم يدرِ ما عليه أن يقول أو أن يفعل، نظر إلى الردهة فلاحظ وجود غرفة واسعة ينبعث منها أصوات بعض الرجال.. حاول التركيز إلا أن المفاجأة أذهلته وشلَّت تفكيره.

كرر الرجل الضخم قوله بلهجة حلبية مألوفة: «أخي.. نحن هنا أسرة واحدة.. دعني أقدم لك باقي الأخوة.. اسمي جمال أو الرقيب قباني تحت إمرتك سيدي الملازم..» وأتبع كلامه بابتسامة جعلت أحمد أكثر اطمئناناً.

بدى جمال شاباً قوي البنية واثقاً في نفسه في أوائل الثلاثينات من عمره.. ودخلا الغرفة المشبعة بدخان السجائر حيث جلس بعض الشباب يحتسون الشاي، وكان أحدهم أمام الكمبيوتر وشخص آخر ظهره للباب، وهناك باب صغير يؤدي للشرفة، أما النافذة المطلة على الأبنية المجاورة فكانت مغلقة وعليها تنسدل ستارة منعاً لرؤية الجيران ما بداخلها.

قال جمال مداعباً الشباب: «أقدم لكم الملازم الثاني أحمد الهندي، وهو من حلب.. وأحذركم أيها الشباب فقد فاق عدد الحلبيين عددكم».

وقف الشابان باحترام ومدا يداهما لمصافحة أحمد.. إنهم الأربعة منشقون عن النظام، وكلهم اختاروا هذا النهج لرفضهم قتل المدنيين الأبرياء، واعتبر النظام الدكتاتوري المتوحش أنهم عصوا أوامر القيادة وأنهم خونة.. لقد اختاروا طريقاً صعباً وعواقبه وخيمة وخطرة، وكانوا جميعاً يدركون الثمن الذي قد يدفعوه للحصول على حريتهم وحرية أبناء الوطن، ولكنهم عجزوا عن البقاء في الجيش النظامي وتحولهم إلى مدمني القتل وسفك دماء الأبرياء.. تقدم الأول والذي كان يجلس وراء الكمبيوتر قائلاً: «أنا المجند فادي الخطيب من درعا..» وصافح أحمد.. فصافحه أحمد مبتسماً بأدب خجول..

وتقدم الشاب الآخر مقدماً نفسه: «وأنا علي سليمان من بانياس..» وانكمش أحمد على نفسه قليلاً حال سماعه اللكنة التي تحدث بها علي سليمان..

لاحظ جمال ما يعتمل بنفس أحمد لدى سماعه لكنة علي، فسارع بالقول: «نعم سيدي، إنه واحد منَّا.. صحيح أنه علوي، ولكن لا ضرورة أن تميزه عنا.. فهو سوري قبل كل شيء.. وعلينا أن ندرك ونعي تماماً شيئاً مهماً، ألا وهو أن نضالنا ليس مبني على انتماء ديني ومذهبي أو إيدلوجي.. نحن هنا جميعاً أبناء وطن واحد، وسوف ينضم لنا آخرون بإذن الله.. نحن سوريون.. سوريون أحرار فرُّوا من الطغيان والظلم والتمييز الطائفي.. كلنا يطلب الحرية والعدالة وحق الاختيار.. هذا كل ما يجمعنا..» قالها جمال بكل الاحترام لأحمد ولكن بتصميم وثقة.

تقبل أحمد المحاضرة الموجزة.. ولكنه لم يكن مقتنعاً ضمنياً، واستغرب كيف أن رقيباً يملك تلك الرؤية البعيدة وهذا التصميم والتفكير المسؤول، فلم يعتد قط على سماع أي سوري يتكلم عن الحرية والعدالة وغير ذلك من الأفكار المتحررة.

فهز أحمد رأسه موافقاً وقال: «معك كل الحق يا جمال.. فنضالنا ضد الأسد وزبانيته وليس ضد الطائفة العلوية.. أنتم إخوتنا وأخواتنا.. وقد عانوا من ظلم النظام وفساده بقدر ما عاناه غيرهم، بل كانت أشد قسوة على بعض العائلات من باقي فئات المجتمع..» ذكر أحمد ما ذكره لكي يثبت بطلان ما أراد النظام أن يرسخه في أذهان الناس، من أن السكان السنيين سوف ينتقمون من العلويين شر انتقام، وأن الأمور ذاهبة باتجاه الحرب الأهلية..

تكلم جمال بلهجة آمرة: «دعونا نجلس أيها الرجال.. هلّا أعددت لنا بعض الشاي سيد فادي..» فجلس الرجال حول طاولة مربعة صغيرة في وسط الغرفة وذهب فادي إلى المطبخ لإعداد الشاي.. انفرجت أسارير أحمد وشعر بطمأنينة عارمة، إذ أن الشباب هنا انشقوا عن الجيش يرجون الانعتاق عن الظلم والطائفية البغيضة التي حقنها النظام بين أفراد الشعب، وأن هدفهم أن يستعيدوا كرامة وشرف وطنهم، وأسرهم

وأنفسهم.. وأضاف جمال قائلاً: «سوف ينضم إلينا الدكتور كمال لاحقاً، كان عليه أن يذهب لمساعدة بعض الإخوة السوريين..» وأردف: «لقد قدم هذا الطبيب الشيء الكثير لهذه الانتفاضة ورجالها، لا رغبة منه في الانحياز لطرف دون آخر، وإنما إيماناً مطلقاً منه بقسم ابقراط الذي أقسم عند تخرجه بأن يساعد بني البشر أياً كانوا وأينما كانوا.. أتمنى أن يحفظه الله لأنه عالج تقريباً كل الشباب المنشقين الفارين من ظلم وبطش النظام، مدنيين كانوا أو عسكريين..».

عاد فادي يحمل صينية كؤوس الشاي ووضعها فوق الطاولة، فسأل جمال أحمد: «كم ملعقة سكر؟؟» فأجاب أحمد: «اثنتين من فضلك..» ثم التفت جمال إلى أحمد قائلاً: «أنا على ثقة أنك لم تسمع أو تقرأ الأخبار بشكل مستمر، إذ إن التعتيم الإعلامي أشد ما يكون في الجيش.. غير أني سوف أعطيك ملخصاً معقولاً عما يدور حولنا..» وناوله ورقة من جريدة يعود تاريخها إلى ١٢ كانون الأول ٢٠١١.. وكان المقال كالتالي:

[بلغ عدد القتلى حتى الآن خمسة آلاف قتيل، جاء هذا في تقرير للجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، والذي أكد أن هذا الرقم موثَّق من قبلهم وأنه يشمل مدنيين عزَّل وجنود رفضوا إطلاق النار على المدنيين الأبرياء.. وثبت أن هؤلاء الجنود أعدموا بإطلاق النار عليهم من الخلف وبالرأس مباشرة كلما تردد أحدهم بإطلاق النار، ومن بين الضحايا أكثر من ٣٠٠ طفل. ويعتقد السوريون أن هذا الرقم غير دقيق، فالضحايا أكثر من ذلك بكثير، إذ يزيد عدد الضحايا عن عشرة آلاف قتيل، كما ثبت احتجاز أكثر من خمسة عشر ألفاً من المواطنين في السجون، وضعف هذا العدد مجهول المصير، وهناك ما يقارب من خمسة وعشرين ألف لاجئ هربوا بأرواحهم وأولادهم إلى الدول المجاورة كتركيا ولبنان والأردن.

بدأت المقاومة المسلحة بانشقاق عدد من الجنود الذين رفضوا قتل الأبرياء والمدنيين المتظاهرين، وهم في غالبيتهم من المجندين السنيين الذين يقضون خدمة العلم الإجبارية. ولا يزال نظام الأسد يدعي ويلوم الغرب بالتعاون ودعم المخربين لقلب نظام الحكم، ويصفهم النظام بالسلفيين والقاعدة وغير ذلك. وتتناقض هذه المزاعم مع الواقع. وأما واقع الأمر فإن النظام على استعداد للدفاع عن نفسه ولو كان الثمن حرباً أهلية ماحقة، كل ذلك للبقاء على رأس السلطة.

وما كان ظهور الجيش السوري الحر إلا نتيجة اليأس في محاولة منه للحفاظ على المدنيين الأبرياء. فانشقوا حاملين معهم أسلحتهم الخفيفة وكل ما يمكن حمله للدفاع عن أسرهم وأفراد الشعب من قبضة جيش النظام والأجهزة الأمنية المتوحشة الذين قاما بقتل عشوائي شرس لسحق الانتفاضة. وقد غدا القتل العشوائي للمدنيين العزل أمراً طبيعياً في أكثر المدن والبلدات في طول سوريا وعرضها، تركت جثث وأشلاء القتلى في الشوارع دون استطاعة الأهالي من دفنها لأن القناصة كانوا يستهدفون كل من يحاول الاقتراب من جثث القتلى.. وبقيت تلك الجثث والأشلاء حتى يعم الظلام المنطقة فيعمد الناس إلى سحب موتاهم تحت جنح الظلام والخوف من الانتقام، ودفنهم قبل الفجر. واستمرت تلك الدوامة يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع حيث يتزايد عدد القتلى تباعاً، وغدت المقابر مرتعاً للقناصة إذ يطلقون النار على كل جنازة، ومع كل ذلك فقد أعلن الأسد عبر مقابلة تلفزيونية مع قناة ABC الإمريكية قائلاً: «إنه غير مسؤول عن أي قتلى» وطبعاً كذّبت الدول العربية هذا التصريح واعتبرته كذبة وخدعة.

واسترسل المقال باحتمال حدوث كارثة إنسانية إذا استمر النظام بفعلته، لا سيما في حال غياب القرار الموحد عن المعارضة..

قرأ أحمد المقال بذهول كما لو أنه لم يسمع به من قبل ولم يتوقع حدوث مثل هذه الكارثة، وفي الواقع فإن أي مواطن سوري يعيش ضمن الحدود السورية لا يجرؤ على الاطلاع على تقرير يدعو للازدراء مثل هذا التقرير الذي يشير إلى النظام بصورة عامة، وإلى بشار الأسد بصورة خاصة. مما جعل أحمد مرتاباً من وجوده بين هؤلاء الغرباء وهو يقرأ التقرير عامداً متعمداً، وبدأ يفكر ما إذا كانت هذه مصيدة له، وهل ينتظرون ردة فعله، وشكّ أن تكون هذه العواطف الأخوية من هؤلاء الشباب مجرد مهزلة..

تذكر أحمد لتوه ما لقنه أبوه ذات يوم عن كيفية تصرفه فيما إذا جوبه برأي مخالف لرأيه من آخرين، تذكر ما يجب عليه قوله لكي لا يتورط في النقاش ويأخذ طرفاً معيناً ويتحاشى أن يتحمل مسؤولية الجدال القائم. تذكر كيف تكلمت أخته وزوجها في كندا (عندما كان بزيارتهما) بحرية مطلقة عن النظام الدكتاتوري الذي يحكم سوريا، واستغرب يومها من صراحتهما المطلقة وحاول الدفاع عن وطنه (سوريا) وجادل أخته وزوجها بأن النظام في كندا ليس ديمقراطياً صافياً كما يدَّعيان، غير أنه ضمنياً كان يتمنى لو عاد إلى حياته الرتيبة المعتادة في سوريا ويتجاوز كل الأخطاء التي يرتكبها النظام و زبانيته.

وفجأة ابتدره جمال بالسؤال: «حسناً.. ماذا تعتقد يا سيدي..؟؟».

فتلعثم أحمد قبل أن يجيب عن هذا السؤال المفاجئ: «نعم.. أعتقد أنني أرى إلى أين تسير الأمور.. أعتقد أن الثورة غير قادرة على حسم الأمر.. فالنظام يملك القوة ويعرف كيف يتلاعب بالمسرح الدولي.. تماماً كما فعل الأسد الأب في الثمانينات من القرن الماضي..».

عقد هذا الجواب ألسنة الرفاق الثلاثة، رغم أن سلوكهم كان يبدي رأياً آخر، فكيف يمكن لأحمد أن لا يحس بآلام الآخرين.. فانبرى جمال كعادته وطلب من فادي

وعلي أن يتركاه مع أحمد على انفراد، فغادر الاثنان الغرفة وأغلق جمال الباب وراءهما، وعاد إلى أحمد يخاطبه بتحدٍ: «هل فقدت عقلك يا رجل.. هل فقدت كل أحاسيسك أم فقدت رجولتك؟؟» ولاحظ الخوف بادٍ في عيني أحمد من تلك المجابهة، واستمر جمال بالتحدي: «هل غيرت رأيك عن وجودك هنا ومعنا.. أرى أن عليك أن تتصرف كضابط وقائد هنا، وإلا فإنني سوف أتشرف بأن أقوم بالواجب نيابةً عن النظام» مشيراً بذلك إلى قتل المترددين في قتل الأبرياء من قبل عصابات وزبانية النظام.. وبذلك سيطر جمال على الجو العام في الغرفة.. واستمر بالكلام قائلاً: «هؤلاء الشباب يتوقون لقيادتك إياهم ولرؤيتك ونصيحتك... هل لديك أي فكرة عن المخاطر التي قد يتعرضون لها.. وخاصة ولسوف يلتحق بنا آخرون وسيكونون جميعاً تحت قيادتك..» واستمر يتكلم كضابط صف يكلم الجنود: «عليك أن تلملم نفسك وتفكر كرجل يملك القيم النبيلة ومستعد للموت في سبيل هذه القيم، كيف يمكن للجنود أن يتبعوك إذا لم تكن تملك زمام مسؤولياتك كضابط.. كلنا يعلم أنك ضابط مجند كغيرك من المجندين، غير أنك تحمل الرتبة ونحن بحاجة إلى السلطة التي من المفترض أن تكوّنها أنت..».

توقف جمال عن محاضرته وراح يستجمع أفكاره وما إذا كان أحمد يشكل عبئاً على المجموعة، وما إذا كان الدكتور كمال قد أخطأ بإحضاره إليهم، وهل أحمد جدير بالثقة، وهل يمكن له أن يؤثر سلباً على نفسية المجموعة.. في هذه الآونة صمت أحمد طويلاً وعلا وجهه الارتباك والتردد، وهو يعلم علم اليقين أن الارتباك والتردد ليسا من صفة الضابط القائد. وتذكر أن الطمأنينة التي شعر بها في بيت محمد (أبو عبدو) قد انقضى عهدها.. جال بصره في وجه جمال باحثاً عن جواب لهذه المحاضرة الطويلة، وشعر بخجل وتفادى لقاء بصريهما مباشرةً.

يتمتع بعض الناس في هذه الحياة بموهبة خاصة، ألا وهي إمكانية تصنيف من يقابلونهم فوراً، وقد اكتسبوا هذه الموهبة إما من خبرة طويلة بمعاشرة الناس أو مجرد موهبة داخلية لقراءة وتصنيف الآخرين.. وكان جمال خلال خبرته في الجندية قد صادف الآلاف من الأفراد وضباط الصف والضباط فاكتسب خبرة كبيرة في تحديد شخصية الأفراد، ومنشأهم، وبلدتهم وحارتهم التي كانوا يسكنونها، ومستوى ثقافتهم، والمستوى الثقافي والاجتماعي لأسرهم.. إلى آخر ما هنالك..

استمر جمال بمحاضرته قائلاً: «إني أشتمُّ منك رائحة إنسان لم يستعد لهذه المعركة بعد.. وأنك تظن أن هذا الكابوس سوف ينقشع عنا قريباً ثم تعود إلى حياتك الهنيئة الرتيبة، الخاملة غير المنتجة.. ولكن دعني أؤكد لك، سواءٌ أعجبك هذا أم لم يعجبك، من المحال أن تعود إلى الوراء، لأنك منشق، وعقاب المنشق القتل.. هل تفهم هذا؟؟... وفي هذا النظام اللعين، لست الوحيد الذي سوف يعدم، بل الأمر يتعدى إلى مجمل أفراد أسرتك الذين سوف يد فعون الثمن.. ولذا أقول لك وأرجو أن تستوعب ما أقول ؛ انضج و عش في عالم الواقع، املك مصيرك وقرارك، كن رجلاً وامتلك زمام حياتك، وإلا سوف تتسبب بخسارة حياة آخرين من حولك.. هذه فرصتك لتغير واقعك وأرجو ألا تضيع هذه الفرصة..» توقف جمال للحظات شعر فيها أن أحمد قد بدأ يستثار ويقلق، وتمنى أن تكون هذه الكلمات قد حققت الغرض المطلوب، ثم تابع فوراً قائلاً.. «سأكون بجانبك من الآن فصاعداً، ولا أبالي إذا أخذت أوامري منك طالما أنها في مصلحة الشباب وأن كل عمل نقوم به منصب في هدف واحد ألا هو السير بسوريا قدماً نحو الحرية والديمقراطية. فإذا كان بإمكانك تحمل هذا العبء فإني أعدك بدعمي المطلق لك..».

شعر أحمد بثقل كلمات جمال في هذه المحاضرة، وضمناً شعر بالإهانة والإذلال، ولا سيما عندما فكر بما قد يكون رد فعل والده إذا علم أنه تلقن درساً من ضابط صف

أقل رتبة منه، وأسوأ من ذلك ماذا لو كان المجند والعريف قد سمعا المحاضرة من وراء الباب، ولكنه احترم جمال وأدرك أن هذا الرقيب شجاع وراسخ الإيمان بقضيته، كما أدرك أن جمال يملك كل الصفات القيادية التي يتمناها كثير من الضباط وهو شخصياً يفتقدها كلها أو معظمها ألا وهي النضج والمسؤولية والالتزام بالواجب، إذ كان جمال يحوزها كلها، بل ويحسن إدارتها بشكل يدعو للإعجاب... ومن الواضح فإن جمال يبدو ملائماً أكثر من أحمد في قيادة المجموعة.. وأدى هذا الإدراك العقلاني إلى أن يتخذ أحمد من جمال قدوة ومدرباً رغم تعاكس الرتب العسكرية. كما أنه أدرك أن جمال لن يتوانى عن دعمه في أي قرار يتخذه، ولا يزال عرض جمال الذي قدمه لأحمد خلال الكلمات الأخيرة قائماً مما جعله يستوعب حراجة موقفه، وأن عليه أن يقف صامداً وإلا فلن يحترمه أحد إلا جمال.. وقف جمال فجأة ومد يده لمصافحة أحمد الذي بادله بدوره المصافحة من دون أن ينبس أحدهما بكلمة.. غير أن الصمت أبلغ من الكلام.. فقد شعر كلاهما برابطة قوية تجمعهما معاً.

تعثر أحمد قليلاً ليستعيد بعضاً من كرامته وموقعه وخاطب جمال قائلاً: «شكراً جمال لكلماتك الحكيمة، إنني أحترم استشارتك وسوف أعتمد عليك في كل مأزق أمرُّ به في الأيام القادمة.. وأرى أننا (أنا وأنت) سوف نشكل فريقاً متميزاً، شكراً جمال لصدق كلماتك وصراحتها، وشكراً لإرشاداتك..» وأضاف: «أنت رجل حكيم يا جمال..».

خطا جمال خطوة نحو الوراء وحيَّا أحمد تحية عسكرية وبادله أحمد بمثلها، وسأله: «ماذا علينا فعله الآن؟؟».

أجاب أحمد: «سوف أدعو الشباب» وفتح الباب فوراً، ودعا علي وفادي للانضمام إليهما. دخل الشابان الغرفة وشعرا بالاطمئنان واستعادا ثقتهما والتزامهما

بالقضية، جلس الثلاثة حول الطاولة وبقي أحمد واقفاً إلى جانبهم.. قال علي بلغة قيادية: «اتصل الطبيب وأخبرنا بحاجته لمساعدتنا في نقل بعض الجرحى حالما يقترب من البناية بعد لحظات..».

فالتفت فادي إلى أحمد وسأله: «أين سلاحك سيدي؟؟ هل أحضرته معك؟؟ فقد تمكن معظم المنشقين من إحضار بعض الأسلحة معهم.. لقد ارتفعت أسعار الAk47 في وادي البقاع منذ بدء الثورة بشكل كبير إلى حدِّ ٢٠٠٠ دولار للقطعة..»، فتذكر أحمد أنه نسي سلاحه في سيارة الدكتور كمال عندما غادرها مسرعاً ودخل البناية.. وذكر ذلك للشباب.. فطمأنه جمال قائلاً: إن فادي سيؤمن له قطعة السلاح حالما يصل الطبيب.

سأله أحمد بشكل مفاجئ: «متى فررتم يا شباب من الجيش؟؟».

أجاب علي بأنه حضر مع الرقيب.. وتلاه فادي بنفس الإجابة، غير أن جمال انبرى قائلاً: «نحن لم نفر من الجيش.. نحن لا زلنا نخدم شعبنا ووطننا..» وكان صوته مفعماً بالقوة والعزيمة، فتمتم أحمد كلمات ووعد نفسه بأن يستخدم هذه العبارة فيما لو سئل مستقبلاً..

استمر جمال قائلاً: «سوف ننتظر الدكتور كمال ونرى ما بجعبته من أخبار لنا.. وآمل أن يكون لديه بعض الأوامر من الشمال فقد بدأنا نضجر..» ونظر إلى أحمد واستطرد قائلاً: «علينا أن نفعل شيئاً.. فإخواننا وأخواتنا يقتلون في سوريا على يد جلاوزة النظام وشبيحة الأسد ونحن جالسون من دون أن نعمل شيئاً.. ننعم بالأمان وكل ما نفكر به ماذا سنأكل غداً» ونمَّت لهجته عن قوته والتزامه بالعمل..

فسأل أحمد ببراءة: «وماذا في الشمال؟؟».

فأجابه: «الشمال هو تركيا.. أو بالأحرى قيادة الجيش السوري الحر حيث يقيم العقيد محمود أتاسي، وكان من أوائل من فضل خدمة الشعب السوري وليس نظام الأسد البغيض، إنه رجل عظيم، وذو رؤية مستقبلية رائعة، ومهتم جداً بشؤون قوات الجيش الحر مما يجعله قائداً ناجحاً» وبدت العبارة الأخيرة كما لو أنها موجهة لأحمد مباشرةً..

فسأل أحمد مستفسراً: «لم أسمع باسم العقيد محمود أتاسي. من هو وما هي خلفيته العسكرية.. يبدو من كلامك أنه ضابط محترف.. هل هو المسؤول عن المنشقين..؟؟».

أجاب جمال: «إنه من حمص، وهو المسؤول عن الجيش السوري الحر، يقيم في أنطاكيا بتركيا حيث مقر قيادته.. هناك العديد من الضباط في الجنوب غير أنهم يديرون عملياتهم بأنفسهم، ونأمل في أن نوحد القيادات تحت إمرة شخص واحد بالقريب العاجل.. لقد بلغ تعدادنا خمسة عشر ألفاً، ولا يزال عشرة آلاف آخرون لاحقون بركب الانشقاق» قالها جمال كما لو أراد أن يستحث أحمد لإلقاء أسئلة أخرى.

فسأل أحمدة في محاولة لمعرفة المزيد: «ماذا تعني بذلك..؟؟».

«يتألف الجيش الحر من شباب تطوعوا لمحاربة نظام الأسد الاستبدادي. فيما استمر باقي الناس في الانشغال بأعمالهم، أو أنهم لجأوا إلى الاختباء والتواري عن الأنظار من دون أن يظهروا لنا أو للنظام.. وهؤلاء هم من نريد أن نخرجهم من مخبئهم ليحاربوا إلى جانبنا..».

فسأل أحمد مستغرباً: «وكيف لك أن تعيدهم إليك؟؟».

أجاب جمال فوراً: «لقد بحث عنا البعض ووجدونا والتحقوا بنا، ولا يزال البعض يبحث عنا، وسنجدهم ويجدوننا».

وفي هذه اللحظة رن جرس الهاتف الجوال الخاص بعلي فأجاب باختصار شديد: «نعم».

أجابه الصوت على الطرف الآخر من الخط: «نحن على بعد خمس دقائق من موقعك، نحتاج إلى مساعدة في أسفل الدرج مع الاحتراس الشديد كالمعتاد».

أجاب علي باقتضاب شديد: «حسناً.. نحن في طريقنا..» أقفل علي الهاتف وأبلغ الثلاثة الآخرين (أحمد، جمال وفادي): «الدكتور على بعد خمس دقائق وهو في طريقه إلينا مع مصاب في السيارة..».

أمر جمال رجاله بصرامة: «خذوا مواقعكم، ابق معي علي.. وأنت يا فادي خذ موقعك في المراقبة. وأنت سيدي ابق مع فادي وساعده في الإشراف والمراقبة».. وبلمح البصر تحرك الجميع وأخذوا مواقعهم..

قبع فادي تحت نافذة الشرفة حاملاً بندقيته مع ناظور قنص، وفتح النافذة المغلقة جزئياً بما يكفي لمراقبة ومشاهدة الشارع والأسطح المحيطة به.. والتفت إلى أحمد قائلاً: «سيدي هل لك أن تراقب من خلال باب الشرفة، وابحث عن أي شخص بلباس عسكري أو مدني يدعوك للريبة..!!» نهض أحمد بسرعة وفتح شباك الشرفة ببطء شديد وعناية، وكان شديد التوتر حرصاً على سلامة زملائه والقادم الجديد مع الدكتور.

هرع جمال وعلي إلى مدخل البناية وركنا في ظل الدرج ينتظران وصول الدكتور.. وصلت السيارة كما هو متوقع ودخلت في الزقاق الضيق وتوقفت عند الباب.. فتح

الجنديان البابان الخلفي والأمامي وأخرجا من السيارة جندياً سورياً وامرأة وطفلاً صغيراً (فتاة) وحمل جمال الامرأة ورفع علي الطفلة على كتفيه، وأجهد الجندي نفسه باللحاق بهما يعرج على رجله الجريحة.. عبر الجميع مدخل البناية وأضاءوا النور الخافت، كان أحد المدنيين الاثنين يئن متألماً، ركن الطبيب سيارته في الزقاق المجاور وأخرج من السيار صندوقين إضافة إلى حقيبة طبية وهرول مسرعاً إلى البناية بطريقة يعجز عنها كثيرون في نصف عمره، وكان خلال تحركه ينظر يمنةً ويسرةً مخافة أن يكون قد تعقبه أحد رجال النظام.

وما إن دخل الجميع الشقة حتى هرع كل منهما للقيام بواجبه المعتاد.. فحمل جمال وعلي سريرين ميدانيين ووضعاهما في منتصف الغرفة، ثم دخل الطبيب يلتقط أنفاسه من صعود الدرج، واتجه فوراً إلى الطفلة ذات الأربع سنوات والتي لم تكن تتحرك إطلاقاً، وكانت ثيابها غارقة في الدماء، مما جعل من الصعب تحديد مكان إصابتها بدقة، وكانت السيدة (المفترض أنها أم الطفلة) في حالة شبه غيبوبة كاملة، ترتعش من الألم وبطريقة هستيرية، وما إن أدركت مكانها حتى صاحت على ابنتها: «هالة.. هالة.. حبيبتي، اصحي، أفيقي أرجوك.. وسأعطيك بعض الحلوى.. أرجوك أن تفيقي يا حبيبتي..» وكان صياحها يزيد تدريجياً.. كان الجندي ذو الساق الجريحة قادراً على الحركة.. فقام وجلس على الكرسي بوجهٍ مدمىً ومعفَّر..

أُخذ أحمد بهذا المنظر وكاد أن يُغمى عليه لولا أن تمالك نفسه خشيةً من الرجال المحيطين به. حاول أن يتابعهم بالعمل مُظهراً الهدوء والقدرة ومشى باتجاه الطبيب والطفلة التي حظيت بأقصى رعاية من الطبيب نظراً لحالتها الحرجة.. حاول أحمد مد يد المساعدة للطبيب، غير أن هذا نهره قائلاً: «لقد نسيت سلاحك في سيارتي، وكدت أن أتعرضت بسببه إلى مصاعب جمة فيما لو أوقفت وسُئلت من قبل رجال الأمن.. اذهب وأحضر

البندقية فوراً فقد خبأتها خلف المقعد الأمامي ملفوفة ببطانية.. وأحضر لي الصندوق من الخلف، واحمله بعناية شديدة لأنه يحوي البلازما.. خذ مفاتيح السيارة من جيب سترتي الأيمن.. خذها.. وعد إليَّ بسرعة..».

أشار جمال لفادي بأن يلحق بأحمد.. هرع الاثنان على الدرج.. انعطف فادي يميناً لأنه يعرف المكان جيداً.. وما إن وصلا السيارة حتى أخذ فادي المفاتيح وفتح باب السيارة وحمل البندقية برشاقة وخفة وأعطاها لأحمد، ومدَّ يده إلى الخلف وحمل الصندوق، وأقفل السيارة بسرعة عجيبة ودسَّ المفاتيح في جيبه، وهرع الاثنان عائدان إلى البناية، فيما كان فادي أثناء ذلك يبحث حوله عن غرباء أو مشبوهين أو أي حركة مشبوهة، ودخل الاثنان الشقة، وكان الطبيب في هذه الأثناء يفحص الطفلة بدقة بحثاً عن الجرح الذي سبب لها كل هذا النزيف.. وفجأة تمتم: «ها هو.. لقد اخترقت الرصاصة صدرها من الأمام إلى الخلف، والحمد لله أنها كانت في الكتف الأيمن وليس في الأيسر قريباً من القلب..» شرع الآخرون بمأنة المرأة والجندي الجريح، وكانت المرأة تغيب عن الوعي للحظات ثم تعود غير أنها لم تكن أبداً بكامل وعيها، وكانت تئنُّ بصوت خافت، وقد تبين أن جزءاً من عظم الجمجمة قد تهشَّم بفعل القذيفة التي أصابتها والدم يتدفق من رأسها، لا يمنعه من التدفق إلا منشفة وضعها الطبيب لكي يسيطر على النزيف.. ولو بشكل بدائي.. أصدرت صوتاً كما لو أنها تحاول أن تنادي ابنتها ولكن الصدمة النفسية وغزارة النزيف والدم الذي فقدته قد أثر فيها بشكل كبير، وأصبح تنفسها سطحياً، ثم فارقت الحياة فتوقف الأنين وانسدلت يدها إلى جانبها، وغدى جسدها بلا حراك..

أدرك الرجال أن الطبيب الذي فضَّل معالجة الطفلة كان يعلم مسبقاً أن حالة المرأة ميؤوس منها، إذ أن إصابتها رأسها كانت بسبب قذيفة انشطارية أُطلقت من سلاح قناص، مما سبب لها تلفاً في الجمجمة والدماغ من الصعب الشفاء منه. وكان مقدار الدم

الضائع خلال فترة النقل كفيلاً بأن يفقدها أي أمل في الحياة، لذا كانت أي محاولة لإنقاذها محكومة بالفشل..

لم يدر أحمد كيف يرتكس لهذه المأساة، فقد تتالت الأحداث في رأسه حتى كاد أن يصاب بالدوار، فرغم أنه لا يعرف المرأة ولا الطفلة ولا الجندي الجريح، غير أنه شعر ببعض الذنب لعجزه عن القيام بأي عمل.. وأكثر من هذا فقد شعر بالخزي والعار.

بدا له أن القبضة الحديدة التي يمارسها نظام الأسد وزبانيته في قمع المظاهرات السلمية قد اجتاحت البلد كاملاً، وأنه أعجز من أن يقدم أي معونة تذكر.

كان لهذا المنظر وهذه الفظائع التي يرتكبها النظام بحق شعبه قد استحوذت على كيانه وروحه كاملين.. فقد فكر أن أحداثاً كهذه تشاهد في الأفلام السينمائية فقط، أو يمكن القراءة عنها في الصحف.. وكان فقد هذه المرأة حياتها أمام عينيه أمراً لا يمكن أن يتحمله.. هزَّ هذا المنظر ثقة أحمد بإمكانيات الثورة المتواضعة، وباحتمال إصابته شخصياً بما قد ينهي حياته، وحدث نفسه بأن شخصاً واحداً يمكن أن يرتكب هذه الجرائم البشعة بعد فقد ضميره، ألا وهو من لم يشهد هذا المنظر.. وكاد أن يصاب بانهيار نفسي غير أنه بذل قصارى جهده ليبقى متماسكاً، إذ إن عليه أن يقبل بواقعه ودوره كما حدده له جمال بقوة وصدق. وأدرك شغف جمال بالقضية، ووعد نفسه بهدوء بأنه يلتزم بقيادة الآخرين، ونظر لهذا الحادث على أنه قدره المحتوم، وأن هذا المنظر المرعب الذي شهده منذ لحظات سوف يبقى محفوراً في ذاكرته إلى الأبد على مدى حياته.

تحرك جمال فوراً من دون إضاعة أي وقت عالماً بما يجب عليه عمله تجاه المرأة المتوفاة، فأحضر شرشفاً نظيفاً وغطى به جسد المرأة كاملاً وخاصة وجهها، وأمره الدكتور بأن يتصل بأبي زاهر في الدكان تحت البناء وهو سيتولى أمرها. ومن قبيل الشكليات وضع

الدكتور سماعته فوق المريضة ناحية القلب لكي يتأكد من وفاتها، والتفت إلى الطفلة المصابة لكي يركز اهتمامه عليها..

بعد لحظات عاد جمال ومعه أبو زاهر وشابان آخران وثلاث نساء محجبات، فتعاون الجميع لإيصال التابوت المكشوف الغطاء إلى المنزل وهم يرددون بعض الآيات القرآنية. وضعوا التابوت على الأرض ولفُّوها بالقماش الأبيض الذي كان ببطن التابوت وهم جميعاً لا يزالون يرتِّلون بعض الآيات القرآنية.. حمل الرجال التابوت والتفت أبو زاهر للطبيب يسأل عن اسمها إن كان يعرفه، فأجاب بالنفي، وأنه لم يجد أي وثيقة لديها تشير إلى أي معلومات عنها.. غير أن هذه الطفلة هي ابنتها واسمها (هالة)..

ردد أبو زاهر بكلمات الرحمة عليها ودعي للطفلة بالشفاء، وعندئذ قال له الطبيب: «ما إن أفرغ من علاجها سوف أرسلها لكم لكي تعتنوا بها..».

فأجاب أبو زاهر: «على الرحب والسعة.. أنا واثق أن أم زاهر سوف تكون ممتنة جداً للعناية بها.. أرجو أن تعلمني حالما تفرغ من علاجها..».

فأجاب الطبيب: «حالما تستقر حالتها الصحية، وأتوقع ذلك في المساء.. وسوف أعلمك بذلك..».

تمتم أبو زاهر والأسى يعتصر قلبه: «أسأل الله أن يعين إخوتنا السوريين على هذه المصيبة التي نزلت بهم، أي حكم وحشي يمكن أن يفعل هذا بشعبه..؟!» فسارع جمال بالإجابة: «فقط نظام الأسد الطائفي العنصري اللاإنساني يمكنه ذلك..».

غادر أبو زاهر والشباب الشقة يحملون الكفن والجثمان بداخله، وركز الطبيب اهتمامه على الطفلة، ولما شعر أنه أجرى كل ما يمكنه فعله، التفت إلى الجندي الجريح،

ففتح الضماد وغسل الجرح بالمطهرات، فصرخ الجندي من الألم، ثم كشر محاولاً مقاومة الألم والدموع تسيل من عينيه وانتفخت أوداجه، واحتقن وجهه من الألم ومن محاولته مقاومته، فحاول الدكتور كمال حقنه بالمورفين ليخفف ألمه، غير أنه رفض ذلك مؤثراً مريضاً آخر على نفسه، إذ أنه يعلم تماماً أن لا بد وأن تكون إصابة بعض الجنود الآخرين أشد من إصابته. استمر الدكتور بالعمل الجراحي لإخراج الطلق الناري تفادياً لحدوث اختلاطات وخيمة فيما إذا بقي الطلق الناري داخل جسمه، جثا جمال بجانب الطبيب ممسكاً الجندي بقوة ليمنع حركته ومحاولاً تهدئة المريض.. وبعد لحظات من الألم والمعاناة انفرجت أسارير الطبيب قائلاً: «ها هي.. لقد أخرجتها..» ورفعها بالملقط.. ثم قام بتضميد الجرح.. ثم تمتم ببعض عبارات التشجيع للجندي وطلب إلى جمال أن يساعده في الاستلقاء على الأريكة.. وما إن فرغ من الجندي حتى عاد إلى الطفلة، أعاد فحصها.. وشعر بالراحة والاطمئنان بأنه عمل كل ما يمكن عمله.. وقال للشباب: «سوف تكون بخير وهي بحاجة إلى راحة الآن..» آملاً في تحسن حالتها الصحية.

راقب أحمد تتابع الأحداث المتلاحقة أمامه وهو لا يكاد يصدق ما مرَّ أمام عينيه في لحظات: الدم، الألم، الوفاة، تحول الفتاة الصغيرة في لحظات إلى يتيمة، فلم يعد يستطع تحمل كل هذا التسارع، فارتمى على كرسي ووضع كفيه مغطياً وجهه وبكى بصمت أليم متسائلاً عن الإنسانية، كيف يستطيع الإنسان تحمل كل ما حدث أمامه، وبدت له الحياة هشة يمكن أن تنتهي بلحيظات، هل لكل هذا من معنى، وهل تخلت المدنية والحضارة عن هذه المنطقة من العالم، هل غابت اللباقة والحشمة عن بني الإنسان. وشعر بالذنب لأنه عاش بعد تلك الإصابة البسيطة، ولأنه لا حيلة له في تغيير مجرى الأحداث. شعر جمال بما يعتمل في مخيلة أحمد، فرفعه وحمله إلى الغرفة المجاورة حيث يوجد شبه سرير، وقال له: «سيدي أنت بحاجة لبعض الراحة. لقد كان يوماً طويلاً وشاقاً

بالنسبة لك.. عليك أن تستريح في السرير» ومدده.. فالتفَّ أحمد حول نفسه.. دثَّره جمال ببطانية وخرج من الغرفة..

وما إن أغلق جمال الباب حتى حملق أحمد في الظلام الداكن، ومسح دموعه وراح يصغي للأصوات الصادرة من الشارع، واشتمَّ رائحة العفن المتراكمة في الغرفة لعدم تعرضها لنور الشمس، وراحت أفكاره تتأرجح بين مكانه هنا والمكان الذي يتمنى أن يكون به في حلب بين أهله ونجوى خطيبته، لم يستطع أحمد أن يتخلص من الأفكار المحيطة، حاول جاهداً التغلب على القنوط واليأس اللذان يعتملان فينفسه، غير أن التعب والصدمة كانتا أعتى من كل محاولاته. فكر ملياً في جمال وإرادته الصلبة وتعجب من قدرته على الصمود والصلابة وكيف أنه دائم الحركة مدركاً ما عليه فعله، ولا شك أن قراراته الحازمة والآنية تجعل منه صفات أسطورية لبطل قومي، وهنا اقتنع بأن الشخوص الأسطورية موجودة فعلاً في هذه الحياة. لقد كان جمال شخصية جبارة ولا بد أن الناس يتناولون أخباره في أحاديثهم في المقاهي، ولا بد أن هؤلاء الناس يشعرون بالفخر والاعتزاز لمعرفتهم برجال من أمثال جمال، ولا بد وأن بعض المدن تقيم تماثيل لرجال مثله، بطل شجاع يتخطى كل العقبات أو يموت محاولاً تخطيها..

تقلب أحمد في سريره ساعات من دون أن ينجح في إغماض عينيه للنوم، فقد كانت وفاة تلك المرأة تشغل كل تفكيره، وأخيراً وبعد أن أخذ منه الإعياء مأخذه استسلم آملاً في أن يصحو نشيطاً بنفسية وروح جديدتين..

لا زال العالم يراقب بكل سلبية مجريات الأحداث الدرامية في سوريا، فالأرواح تزهق والدماء تسيل من دون رحمة أو شفقة أو إنسانية من قبل نظام شرس متحدياً ومنتهكاً كل الأعراف وكل حق من حقوق الإنسان. واستمرت المظاهرات السلمية تخرج إلى الشوارع يومياً رغم معرفتها التامة بالنتائج الكارثية التي قد تنجم عنها، واستمر

الأبطال الشجعان رجالاً ونساءً وأطفالاً بالمطالبة بالحرية والعدل والمساواة.. واستمروا بدفع الثمن من دمهم وأرواحهم وباستمرار المظاهرات، واستمر القمع الوحشي من قبل النظام وزبانيته، بدأت أعداد كبيرة بالانشقاق عن النظام لعجزهم عن تحمل قتل أبناء الوطن وإراقة الدماء البريئة المتطلعة إلى حياة حرة كريمة. وفي محاولة من النظام للحد من الأعداد المنشقة، فقد قام بذبح ثمانين جندياً دفعة واحدة كانوا يحاولون الانشقاق، وذلك بتاريخ ١٩/ ١٢/ ٢٠١١، بما في ذلك ضابط كبير وتسعة من عناصره المقربين لديه، ولسوء الحظ فإن الجامعة العربية لم تستطع عمل شيء أو اتخاذ قرار للحد من هذه المأساة.

أما الدول الغربية فوقفت عاجزة عن التحرك في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وذلك لاستعمال كلاً من روسيا والصين حق النقض على كل القرارات المزمع إصدارها لإدانة النظام على استخدامه القوة المفرطة في قمع المظاهرات السلمية.. ويبدو وكأن العالم قد تناسى الكارثة الإنسانية التي تجري في سوريا، وهذا ما جعل الثورة ورجالها أشد عزماً وتصميماً على المضي قدماً في نضالهما، غير آبهين بعدم اكتراث الغرب أو تلاحم روسيا والصين مع النظام.

لقد بدا واضحاً أنه لا حل لهذه المأساة إلا بسقوط النظام، فقد انتفض الشعب بعد أكثر من أربعين سنة من الظلم والطغيان والجور، ولم يعترض على انتفاضة الشعب إلا بعض المنافقين والوصوليين والانتهازيين. فالشعب كله ثائر والدولة مستمرة بالقتل الوحشي، ولسوء الحظ فإن جامعة الدول العربية لازالت تقف موقف المتفرج، وتعطي النظام الفرصة تلو الأخرى للاستمرار بوحشيته وصلفه. ولم تعطِ العقوبات الاقتصادية التي فرضها الغرب على النظام أية نتائج ملموسة على أرض الواقع، حتى أن بعض الدول المجاورة كالأردن ولبنان نأتا بنفسيهما عن فرض العقوبات الاقتصادية التي أمرت بها جامعة الدول العربية.

وقد لوحظ أن بعض الفعاليات الاقتصادية والتجارية في كل من دمشق وحلب استمرت في دعم النظام، إما بدافع المنفعة الاقتصادية والتجارية أو بتأثير من رجال دين مرتبط بعضهم بأجهزة الاستخبارات، والذين يستطيعون التأثير على أتباعهم، وذلك بإقناعهم بأنهم يمارسون تقاليدهم الدينية بحرية مطلقة، وقد كان هذا المفهوم الديني الموجه من السلطة الشرارة التي أشعلت الثورة في أحداث الثمانينات من القرن الماضي في حماة خاصة وسوريا عموماً.

وبسرعة ودهاء غير النظام آنذاك تكتيكه، فقد شجع الانخراط في الممارسات الدينية (المراقبة والمخترقة من الأجهزة الأمنية..) بحرية نسبية، طالما أن هذه الممارسات لا تتجاوز الخط الأحمر الذي رسمه النظام بكل دقة وعناية.

[ونشرت الصحف يوم ١٩/ ١٢/ ٢٠١١ مقالاً فحواه «أن النشطاء السياسيون رصدوا مقتل /١١٤/مدنياً يوم الاثنين في الوقت الذي وافق فيه الرئيس بشار دخول مراقبين دوليين حسب مبادرة جامعة الدول العربية. وكان من بين القتلى/٨٠/عسكرياً منشقاً أو حاولوا الانشقاق عن الجيش». ونقلت قناة الجزيرة عن اللجنة العامة للثورة السورية نبأ مقتل /٧٢/جندياً حاولوا الانشقاق في إدلب، وقام النظام بإخفاء جثامين الضحايا، كما نقلت القناة ذاتها عن ذات المصدر عن قيام الطائرات العسكرية بقصف مناطق في حمص حيث قتل ستة أشخاص يوم الاثنين ١٩/ ١٢/ ٢٠١١].

وفي صباح اليوم التالي حضر أبو زاهر وأم زاهر بصحبة سيدتين ونقلوا الطفلة المصابة معهم مؤكدين أنهم سيقدمون لها كل الرعاية والعناية التي تحتاجهما..

وودعوا الشباب بالشقة داعين لهم بالنصر والسلامة.

آل القدسي

حلب – بيت مصطفى قدسي

مصطفى قدسي صديق قديم لعصام هندي، نشأ الرجلان وترعرعا في حارة السفاحية من أحياء حلب القديمة، عاش أجدادهما في تلك الحارة من مئات السنين، حيث يعرف الجيران بعضهم بعضاً، وكانت تلك الحارات تفخر وتعتز بتاريخها، وخاصة ما قدموه للتجارة والصناعة والاقتصاد في حلب..

أنهى الرجلان المرحلة الثانوية وتخرجا معاً، وكان هم العائلتين منصباً في تثقيف أولادهم وحصولهم على شهادات علمية تؤمن لهم مستقبلاً مستقراً ومكيناً. لم تكن العائلتان من الطبقة الأرستقراطية في حلب، ولكن العلاقات الأسرية والاهتمامات والمصالح الاقتصادية وضعتهما في طبقة ميسوري الحال..

وبعد حيازتهما على شهادة الثانوية العامة افترق الصديقان (مصطفى وعصام) ومشى كل منهما بطريق مختلف، حيث التحق عصام بالكلية العسكرية ليغدو ضابطاً، في حين مشى مصطفى في سلك التحصيل الجامعي وغدا أستاذاً في ثانويات حلب، وحافظ كلا الصديقين على علاقتهما الأخوية مدى عمرهما، وحتى بعد أن أصبح لكل منهما أسرة، وانتقالهما بأسرتيهما للسكن خارج حي السفاحية، واستمر الصديقان في اللقاء على الأقل أسبوعياً.. كانا يجلسان في بعض المقاهي يتذاكران أيام الصبا والشباب، أيام كانا يرتعان في أزقة الحي ويلعبان في خندق القلعة، ويلعبان كرة القدم تحت أقواس مدخل القلعة الأثرية، وكثيراً ما كانا يتسلقان هضبة القلعة ويتسكعان في أسواق المدينة العريقة، بدءاً من سوق الزرب إلى سوق العبي، فسوق العطارين فالسقطية حتى يصلا باب أنطاكية، ثم يعودا أدراجهما حي القلعة والجلوم فالسفاحية..

تخرج الشابان من ثانوية المأمون (أقدم ثانويات حلب وأعرقها..) وكانت تسمى مدرسة السلطانية، تيمناً باسم بانيها السلطان العثماني عبد الحميد الثاني.. واستمرت علاقتهما الودية وتوطدت علاقة أسرتيهما الصغيرتين، حيث كان الرجلان يجلسان على الشرفة يلعبان (النرد)..بينما تتلهى السيدتان بالدردشة وببعض قصص الجيران، وتراقبان الأطفال يلعبون ببراءة أمام أعينهن، وكانت تلك أجمل ذكريات العائلتين.

اجتمعت العائلتان في إحدى الأمسيات على غير المعتاد عليه، فقد اجتمعتا في بيت مصطفى بقلب مشوب ببعض البشائر.. دخل عصام وزوجته عبير ومعهما ابنهما الأصغر وليد بيت مصطفى وزوجته لمى، وتغيب عن الحضور كلاً من ابنهما أحمد الذي كان يؤدي خدمة العلم وابنتهما ناهد المتزوجة في كندا. أما مصطفى فقد كان له ابن اسمه عدنان يقارب أحمد بالسن، وابنة اسمها زهراء تصغره بأربع سنوات، وكانت ذات شخصية محببة تفرض وجودها بنضج تفكيرها وثقتها بنفسها، ظهر ذلك جلياً من خلال ممارستها وظيفتها كمعلمة..

تخرجت زهراء من جامعة حلب تحمل شهادة جامعية بالأدب الإنكليزي، واستمتعت بعملها الذي أتقنته عن رغبة منها، وكانت تعطي بعض الدروس الخصوصية بعد الدوام لزيادة دخلها المحدود نسبياً.. وزاد في فضائلها جمال لافت بعينين خضراوين وبشرة نقية صافية وملامح وجه جذابة، إضافة إلى شعر أسود مسدول على أكتافها.. ويبدو أنها أخذت هذه الصفات الخلقية وراثة عن والدها.. وكانت زهراء ترفض كل من تقدم لخطبتها من شباب مرموقين، من دون أن يدري الوالدان سبب الرفض.

كانت زهراء تعشق أحمد منذ الصغر، غير أن هذا الحس البريء كان مشوباً بما كانت تأخذ على أحمد من أنه غير ناضج ولا يتحمل المسؤولية.. وأما أحمد فكان يرى

أن زهراء تنظر إليه كأخ أكبر، وبالتالي فلم يأبه لأحاسيسها، ومع ذلك فإن زهراء كانت ترى أن الزمن كفيل في أن ينضج أحمد، وربما يكون لهما مستقبل معاً..

استلمت الأسرتان رسالة من ناهد وبأنها سوف تكلمهم عبر السكايب في هذه الليلة، ولم تتمكن أسرة الهندي من إجراء المكالمة من بيتهم خشية مراقبة الأجهزة الأمنية وما قد يعقبها، وحتى في بيت القدسي فقد يطرأ ما لا تحمد عقباه.. وكان عصام شديد التوتر وعصبي المزاج إضافة إلى أن عبير (زوجته) كانت تكرر على مسامعه أن ابنها لا يزال حياً.. وكانت عبير قد ذكرت لأصدقائهما مصطفى ولمى النبأ المفجع بمقتل أحمد على أيدي الإرهابيين، حسبما نقله لهما ضابط الأمن في تلك الزيارة المشؤومة. وقد فرحت زهراء بقدوم أصدقاء الأسرة والخبر الذي نقلته ناهد عن أحمد، غير أنها كتمت مشاعرها بذكاء ولباقة. كانت عبير ومنذ فترة طويلة ترى في زهراء عروساً ملائمة لأحمد، ولكنها لم تأخذ الأمر بجدية، وخاصة أنه قد تقدم لخطبة نجوى وعقدا العزم رغم ما أبدته عبير من اعتراض كما هي حال كل الأمهات، فلا بد وأن تجد الأم عيباً أو أكثر في الفتاة التي اختارها ابنها.. تناولت الأسرتان الشاي وبعض الحلويات والفواكه ثم نهض عصام ووقف على الشرفة ليمارس عادته بتدخين سيجارة علَّها تخفف من قلقه واضطرابه.

فسأل مصطفى مازحاً: «ألن تقلع عن هذه العادة السيئة؟!».

فأجابه عصام: «لا زلت تسألني نفس السؤال كلما التقينا، ولا أزال أكرر لك الجواب. لقد تلفت أعصابي ولم أعد أحتمل هذا الضغط النفسي.. إضافة إلى أنني أستمتع بالتدخين أيما متعة..».

فعاد مصطفى ليسأله: «لا أدري كيف خدمت في الجيش تلك الفترة الطويلة وهذه حالتك وتلك أعصابك».

فأجاب عصام بصوت تشوبه حشرجة: «إنه عمل بسيط وسهل وليس ذو قيمة، فلم يكن لدينا ما نفعله، لأن الأسد كان يضع ثقته كاملة بطائفته، فحصدوا الرتب العليا واجتازونا في الدورات التدريبية، وفُضِّلوا علينا نحن السنيين باحتلال المراكز القيادية.. وهكذا فبإمكان أي شخص أن يمضي عشرون وثلاثون سنة في الجيش طالما أنه لا يتأفف ولا يذكر الأسد ونظامه بأي نقد، ولا يسأل أي علوي عما يفعل حتى ولو كان أدنى منه رتبة».

وفجأة دخلت زهراء الشرفة، وقطعت عليهما الحديث معلنةً بدء المحادثة بالسكايب مع ناهد وأنها وعدت أن تشرك أحمد بالمحادثة الهاتفية المتلفزة، أجاب عدنان رنين السكايب وظهرت صورة ناهد على الشاشة، فسلمت ناهد وردوا سلامها جميعاً وبصوت واحد تقريباً. فبادرتهم ناهد تشرح لهم أنها اضطرت للتأخر في محاولات عديدة لتعقب الخط مع أحمد على السكايب، واتصلت بالطبيب واضطرت لتغيير الاسم على السكايب.. ولكن الحمد لله بأن كل شيء قد تمَّ، وإنها الآن بانتظار الاتصال من أحمد.. وفي هذه الأثناء رن الجرس مؤذناً بمكالمة ثانية على الخط من الدكتور كمال، أجاب عدنان المكالمة الثانية والكل يتوق لسماع وصوت ورؤية وجه أحمد، وملأت صورتي أحمد وناهد شاشة الكمبيوتر.. وابتدرهم أحمد بالسلام، وما إن رأت عبير وجهه غير الحليق حتى انفجرت بالبكاء وانهمرت الدموع من عيني عصام قائلاً: «الحمد لله يا ولدي على سلامتك.. كيف حالك؟؟ هل أنت بخير؟؟».

فأجاب أحمد: «الحمد لله أنا بخير.. والأمور أفضل الآن..» وسمع نصيحة جمال بعدم ذكر إصابته البسيطة لئلَّا يقلق الأهل.

وبغريزة الأم التي لا تحيد عن الواقع سألته عبير: «يبدو أنك قد خسرت بعض الوزن.. ألا تأكل جيداً.. ومتى يمكنك العودة إلينا؟؟ لقد تاقت نفوسنا لرؤياك..».

فتردد أحمد بالإجابة ثم قال: «ليس قريباً يا أمي» إذ أنه هو ذاته يجهل الجواب على هذا السؤال.

وانخرطت زهراء بالمحادثة وقالت متحمسة: «نريدك أن تبقى هناك فترة، وأن تقوم بما عليك فعله، فنحن نعتمد عليك وعلى زملائك الأبطال الأشراف..» وتفاجأت بما بدا على أحمد من تغيير.. فقد بدا أن سلوكه وتصرفه أكثر جدية إضافة إلى نقص الوزن. وأكد أحمد للأسرتين أنه بخير محاولاً تجنب الحديث عما يقلقهم.. وشعرت زهراء بزهو للتغيير الذي طرأ على أحمد من خلال تلك التجربة التي لا بد وأنها علمته الشيء الكثير وحوَّلت مجرى تفكيره وحياته.. لامست كلمات أحمد قلب زهراء وتمنت لو اختلت به على انفراد.. وتوجه أحمد بالسلام لأخته ناهد شاكراً لها صنيعها، وسألها كيف تجري الأمور في كندا..

فأجابته ناهد: كلنا بخير أخي الحبيب.. كندا بلد عظيم وأرى أنه يجب عليك أن تفكر جدياً بالعودة إليها..

فقاطعها عصام قائلاً: نعم يا ولدي.. نِعم الرأي.. وبإمكاني أن أرسل للك بعض المال لكي تؤمن مصاريف السفر..

تجاهل أحمد النقاش متعمداً وسأل: «كيف نجوى، هل رآها أحد منكم مؤخراً..؟؟».

وقع هذا السؤال على أذني زهراء كالصاعقة، وغار قلبها بين جنبيها وأدركت أنه لا يزال يذكر خطيبته، ومع هول الصدمة فقد أجابته باتزان: «نجوى بخير.. وقد صادفتها منذ يومين تقود سيارتها..».

أدركت عبير حراجة الموقف فقالت مقاطعة: «نجوى بخير يا ولدي.. إنها مشغولة مع أسرتها كما تعلم.. فعليها أن تحضر جميع الحفلات وأن تشارك قهوة الصباح مع باقي الرفيقات والصديقات ولذا فهي بخير.. ولكن أعطني وعداً يا حبيبي أنك ستعود إلى كندا..» وبدت وكأنها ترجوه أن يفعل مما أحرج عصام.. فربت على كتفها..

وفجأة سأل أحمد: هل بإمكانك تأمين مكالمة لي مع نجوى على السكايب.. فرد عليه وليد بحماسة: «أنا سوف أتصل بها بعد هذه المكالمة».

وما إن سمع أحمد صوت وليد حتى ابتدره سائلاً: «كيف أنت يا وليد.. ما هي أخبار دروسك في الجامعة؟».

فرد وليد مبتسماً: «كل شيء على ما يرام.. لا تقلق بشأني..».

فسأله أحمد دون الشعور بالخوف أو التردد: «هل لا تزال تخرج مظاهرات في الجامعة.. وهل هناك أمور أمنية جديدة لديكم..» فاستغرب الجميع هذه الصراحة بالسؤال على عكس ما هو معهود في أفراد الشعب السوري المقهور والمضطهد.

أجاب وليد: «ليس هناك الكثير في حلب إلا من بعض المظاهرات الصغيرة في الجامعة من شباب درعا وريف حلب.. فرجال الأمن منتشرون في كل مكان».

وهنا انخرطت زهراء في الحديث قائلة بعناد: «لا تتوقع الكثير من الحلبيين، فمعظمهم إما شبيحة وإما جبناء..».

فنهرها والدها مصطفى قائلاً: «اسكتي يا زهراء.. فأحمد الآن ليس مهتماً بالتحليل السياسي» فتبسم أحمد كما لاحظ الجميع على الشاشة.. وتابع قائلاً: «ليس هناك أي وقود للتدفئة منذ بدء العقوبات الاقتصادية، ويبيع بعض التجار ضعاف النفوس

هذه الأساسيات بعشرات أضعاف ثمنها الاعتيادي لكي يجنوا الأرباح الباهظة.. ويتم تقنين الكهرباء عشرة ساعات يومياً فلا نستطيع استعمال التدفئة الكهربائية.. وهذا واقع الحال هنا..» فجاء صوت أحمد عبر السكايب موافقاً: «نعم يا عمي مصطفى حبذا لو يدري أهل حلب ما يجري هنا وعبر الوطن جميعاً، فقد قتل أكثر من خمسة آلاف مواطن أعزل.. إن الخوف من أهم المعضلات في شعبنا.. غير أنني لم أعد خائفاً.. ولن أسافر إلى كندا إذ أن لدي ما أفعله هنا، وبعون الله سوف أقوم به مع زملائي هنا لنطهر البلاد من نظام الأسد الظالم..» صعق الجميع بكلام أحمد، وانطلقت زهراء معربة عن موافقتها على كلام أحمد: «أنا أوافق يا أحمد.. علينا أن نناضل حتى النهاية»، غير أن والدتها لمى نهرتها قائلة: «ماذا تقولين له.. إن لديه مستقبلاً.. بإمكانه السفر إلى كندا، فلِمَا عليه أن يغامر بحياته..؟؟».

وفجأة قال أحمد للأسرتين: «أود أن أعرفكم على أصدقائي الشرفاء والشجعان»، وبدأ يقدم زملاءه الواحد تلو الآخر وكلهم كانوا يؤيدون ما قاله أحمد، وبدا الرقيب جمال أكثرهم حجة وإقناعاً، إذ قال بلهجة قيادية: «إن أحمد هنا بين إخوته، وسوف نبذل قصارى جهدنا في العناية ببعضنا..».

فجاء صوت عبير بلهجة الترجي: «أرجوك أن تعتني به، فلم يعتد حياة الجيش».

غير أن عصام كان أشد حزماً وقوة من عبير، فقد اشتمَّ رائحة الثورة من كلام أحمد وجمال وزملائهما وقال له: «كم أنا فخور بك يا أحمد وبما قمت به.. وكل ما أطلبه منك هو أن تكون حذراً، فهذا النظام كما أعرفه لن يقف عند حدٍّ أبداً.. وسوف يقتل أي عدد كان في سبيل الحفاظ على سطوته ومكاسبه التي حققها لأكثر من أربعين عاماً..».

فأكد له أحمد مجيباً: «لا تقلق يا ولدي.. سوف أكون بخير هنا.. علينا أن نذهب الآن.. وسأعلمكم إن كان بإمكاني الاتصال بكم لاحقاً.. بلغوا تحياتي لكل من عندكم، وليحفظكم الله..» وزالت صورة أحمد عن شاشة الكمبيوتر، وبقيت صورة ناهد التي انغمست بدردشة عادية قبل إقفال الخط، ثم غادر الرجال إلى غرفة الجلوس.

قال مصطفى مؤكداً: «الحمد لله يا أبا أحمد.. يبدو أن أحمد بصحة جيدة ونفسية عالية، أرجو أن تطمئن عليه.. وادعُ له ولزملائه بالنصر..».

وانضم باقي أفراد الأسرتين للرجلين في غرفة الجلوس مفعمين بالأمل والرجاء، ويبدو أنهم لم يعودوا يهتمون (بعد هذه الحادثة) لأمورهم الشخصية.. بل جل اهتمامهم انصبَّ على مستقبل سوريا الغامض.

مضت الأمسية في نقاشات واستعراض لما قد يحدث في سوريا، فمنهم من توقع تدخلاً عسكرياً كما حصل في ليبيا والعراق، وبعضهم اعتقد أن العقوبات الاقتصادية سوف تؤثر على الحياة بصورة عامة.. وساهم الجميع في النقاش إلى أن ودعوا بعضهم وخلدوا إلى النوم كلاً في منزله يحلمون بمستقبل أقل ظلمة رغم الثمن الباهظ الذي سيدفعه الشعب من دمه وشبابه وقوت يومه..

حاول وليد مراراً وتكراراً الاتصال بنجوى كما وعد أخاه أحمد، دون طائل، فترك لها رسالة صوتية على جهاز التسجيل..

أما زهراء فكانت مفعمة بالغبطة لرؤيتها أحمد، لا سيما وأنه تكلم بلهجة مسؤولة ومشبعة بالإيمان الراسخ بقضية الثورة وعدالة مطالب الثوار.. وشعرت بالفخر والاعتزاز به حتى أنها تمنت أن يكونا معاً في المستقبل..

وأسلمت نفسها للنوم مؤمنة أن سوريا تخوض غمار ثورة عارمة لتخليص البلاد من الفساد والتبعية والمحسوبية والطائفية التي فرضها نظام مجرم شرس ولا يعرف الرحمة ولا الشفقة..

نـداء الـواجب

منجز – لبنان

دخل أحمد غرفة الجلوس ليلتحق بالآخرين الذين أصبح عددهم أربعة، بعد أن انضم إليهم جندي مصاب في رجله، اسمه حسان، من مدينة حمص، انشق حسان عن فرقته في الرستن، وجرَّ نفسه رغم إصابته بقدمه عبر الجبال والثلوج إلى الطرف الآخر من الجبال إلى لبنان، حيث التقطه بعض رجال الدكتور كمال. كان حسان شاباً لطيفاً جداً، منطوٍ على نفسه معظم الوقت لا يتكلم إلا إذا سُئل، غير أنه كان قارئاً نهماً يلتهم كل ما يصل إليه من مادة مقروءة (كتاب، مجلة، جريدة، أو حتى قصاصة ورق لمنتج ما..) وبدا بعد الإصابة أكثر انعزالاً، ولم يكن متحمساً للعودة للقتال.. كانت الغرفة مفعمة بدخان السجائر ورائحة الأشخاص العديدين الموجودين فيها، وكانت البنادق والأسلحة مركونة على الحائط قريباً من النافذة وباب الشرفة، وقف جمال مسنداً قدمه على أحد الكراسي يتفحص إحدى الخرائط لتحديد تضاريس المنطقة. فسأله أحمد عن الأمر، فأجابه: «سيدي لا بد لي من أن أدرس الطرقات وجغرافية المنطقة المحيطة بنا تحسباً لأي طارئ..».

فقال أحمد: «هل عليك أن تحفظ كل هذا بنفسك، ألا يمكنك أن تسند بعض هذه الأمور لأشخاص آخرين.. فرجل يحفظ الطرقات، ورجل يحفظ القرى والبلدات، وآخر للمناطق الأكثر خطورة..؟؟».

فأجاب جمال: «إنها فكرة جيدة سيدي، ولكن ماذا لو أصيب أحدنا أو قُتل، فسنفقد المعلومات التي بحوزته..» فهزَّ أحمد رأسه موافقاً وممتناً لديبلوماسية جمال وأدبه وبعد نظره..

ثم سأل فادي: «كم من الوقت تعتقد أننا سنبقى هنا؟؟».

ومع أن أحمد لم يكن عنده جواباً دقيقاً لهذا السؤال غير أن موقعه كقائد للمجموعة ويحمل أعلى رتبة فيهم، فكان عليه أن يجيب السائل، فقال: «أعتقد أن الجيش السوري الحر ينتظر شفاءنا من جروحنا لننضم إليهم، وقد أبلغهم الدكتور كمال بوجودنا ووضعنا الصحي، وبإمكاننا سؤاله عندما يحضر مساءً في زيارته اليومية لنا».

بدا أحمد كمسؤول يتكلم بلهجة مسؤولة، وأدرك جمال أن محاضرته التي ألقاها على أحمد قد آتت أكلها، وآثر أن لا يشارك في الجواب تاركاً لأحمد فرصة ممارسة المسؤولية مما سيساعده في شحذ شخصيته القيادية، ويحظى باحترام العناصر الذين اعتادوا أن يسألوا جمال عن كل شيء يخطر ببالهم، أما الآن فإنهم يلجؤون لأحمد للحصول على الإجابة لأنه أرفعهم رتبة عسكرية، أما قدراته القتالية فلا زالت بحاجة إلى إثباتها..

كما ذكرنا آنفاً كأن جمال يتمتع بشخصية قيادية متميزة، فلقد كان صارماً ولكن عادلاً ومنصفاً، مما جعله موضع احترام الجميع ورفع من معنويات العناصر الموجودين معه إذ كان يحبذ تحفيز العناصر ويشد اهتمامهم إلى الأولويات.. كما أن الله قد حباه (إضافة إلى شخصيته القيادية) جسماً ضخماً، فقد زاد طوله على ١٩٠سم، وكان غريض المنكبين نحيل الخصر، حليق الوجه والرأس وكان أكبرهم سناً، إذ بلغ سنه الاثنين والثلاثين عاماً، مكتمل النضج، وكان يحلم منذ أيام الدراسة الثانوية أن يتطوع في الجيش ليكون ضابطاً محترفاً، غير أنه رُفض من دخول الكلية العسكرية، لسبب معين كان يجهله إلى أن

تبين له بعد حين أن سبب رفضه كونه من أهل السنة، ولم يكن يقبل منهم إلا القليلين، وكانت الأفضلية لقبول العلويين في الكلية العسكرية.. مما اضطره للالتحاق بمدرسة الرتباء، ليتخرج رقيباً دون إمكاناته الجسمية والفكرية ودون شخصيته القيادية.. والتحق أثناء ذلك في كلية الحقوق التي لم يبق على تخرجه منها سوى فصلاً واحداً فقط..

ولد جمال وترعرع في حي الصاخور بحلب، تلك المنطقة التي لم تحظَ بأي تخطيط عمراني أو حضاري يذكر، فلا بنيته التحتية ولا شوارعه منتظمة، بل كانت منطقة بناء عشوائي يسكنه فقراء مضطرون للمأوى والملجأ. وكان والده بائع خضار متجول يدفع عربته طوال النهار في الأحياء التي يسكنها الموسرون (نسبياً).

كان جمال الابن الأكبر لهذا الأب المكافح، وقد أسماه تيمناً باسم الزعيم المصري جمال عبد الناصر، أملاً في أن يكون مثله ذو شخصية جذابة وإرادة قوية لا تلين.. كبر جمال في الحي وأثبت منذ الطفولة شخصية نافذ يعرف ما يريد.. وكثيراً ما كان الأطفال الآخرون يخضعون لإرادته.. وقد لمع في الدراسة غير أنه لم ينل ما يستأهله من التقدير، إذ لم يكن يعرف المسؤولين وأصحاب القرار، لكونه من طبقة فقيرة لا علاقات اجتماعية لها تربطها بذوي النفوذ، وتأصلت هذه الفكرة في نفسه حينما رُفض طلبه للالتحاق بالكلية العسكرية، لكونه سنياً وذو شخصية مميزة، مما قد يهدد مكانة من أعلى منه رتبة فيما إذا علت رتبته في يوم ما. فما كان يُقبل من أهل السنة إلا من خنع وخضع ورضخ للضباط العلويين، ومن ارتضى أن يخدم النظام الطائفي العنصري لا أن يخدم الوطن..

وقد خدم منذ التحاقه بمدرسة الرتباء في عدة مواقع، كان منها هضبة الجولان، لبنان، والآن في حمص.. وقد تجاوزه الضباط العلويين عمداً، فلم يبتعث إلى دورات تدريبية وذلك في محاولة منهم لتثبيط عزيمته، لأنه كان يتفوق في كل مرة يُبتعث بها ويلمع نجمه فور التحاقه بأية دورة تدريبية..

ابتدر جمالُ أحمد بسؤال: «إذن.. لديك أخت في كندا.. هذا عظيم..» فأجاب أحمد: «نعم.. ولا زالت هناك منذ زواجها..».

فقال جمال: «لقد فهمت من مكالمتك أنك زرت كندا..».

فأجاب أحمد: «نعم.. وكان ذلك قبل التحاقي بالجامعة، وكانت الزيارة لفترة قصيرة، بضعة شهور فقط..».

«ولِمَ عُدت..؟؟» سأله جمال بدهشة وفضول.

فأجابه أحمد: «لم ترُق لي المعيشة هناك.. إنني لم أخلق لها..».

فقال جمال: «غريب.. رغم أنني سمعت أن معظم من ذهبوا إلى كندا نجحوا في أعمالهم وأحبوها واستمروا في العيش هناك.. لقد كنت أنوي السفر إلى هناك ذات يوم.. غير أنني لم أكن أملك تكلفة تقديم الطلب.. والآن وبوجود ثلاثة أطفال فسأكون معدماً..» وتابع قائلاً: «لقد بلغني أن الناس يعيشون هناك متساوي الحقوق والواجبات وخاصة فيما يتعلق بالحاجات الأساسية والكرامة الإنسانية، وسمعت أنهم يعاملونك كما يعاملون أي شخص آخر هناك، بغض النظر عن بلدك، يبدو الأمر خيالاً أكثر من الحقيقة..» وحدَّق النظر في جمال منتظراً إجابة تقنعه في سبب عودته..

فأجاب أحمد: «على العكس تماماً.. إنها الحقيقة وليست الخيال.. فلدى الجميع فرصاً متكافئة ومتساوية للنجاح، ويمكن لأي إنسان أن يختار طريقه وأسلوب عيشه حسب رغبته وقدرته.. إنها كالمدينة الفاضلة، كالخيال..؟؟».

فانبرى جمال قائلاً: «المدينة الفاضلة.. يا صديقي ليس هناك مدينة طوباوية.. لقد اخترع هذا الاصطلاح بناءً على التناقضات.. والمقارنة مع المدن التعيسة المنتشرة في أصقاع الأرض..!!».

فدهش أحمد من تفكير جمال غير المتوقع من رقيب.. وسأله ممازحاً: «هل لك أن تشرح لي ذلك أيها البروفسور..».

فهدأ جمال وأجابه: «ببساطة.. بما أن المدينة الطوباوية تمثل المثالية في كل شيء.. فلا بد أن يكون الإنسان أيضاً مثالياً.. وهذا شيء مستحيل.. ومن جهة أخرى فإن الإنسان يسعى نحو الكمال، غير أن نقائصه سوف تخذله وتقوده نحو المجهول..».

فقاطعه أحمد: «هذا صحيح، غير أن القانون في كندا يحاسب ويحاكم ويعاقب أي مسؤول يتجاوز القانون.. وهذا يقربهم من المدينة الطوباوية..».

فقال جمال محذِّراً: «هذا هو الواقع.. وعليهم أن يحترموا القانون الذي هو فوق الجميع، وبما أن القانون يعلو فوق الجهاز الإداري الذي قد يعاد أو لا يعاد انتخابه كل أربع سنوات، هذه مبادئ الدول المتحضرة..».

فقال أحمد ببراءة وسذاجة: «على كل حال.. كلنا نعلم أنهم أخذوا هذه المبادئ من الإسلام..».

فانبرى له جمال مقاطعاً وقال: «أرجوك أن تقف هنا يا سيدي.. إنك تتكلم الآن كمن لم يقرأ التاريخ، أو كمن لم يكن له تفكير مستقل عن تأثير الآخرين».

دُهش أحمد لأسلوب جمال في تحوير النقاش بالاتجاه الذي يريد، وشعر وكأنه عُرّيَ من أفكاره، وكأن جمال يعرف كل شيء عنه وأن كل ما قرأه في حياته هو ما يتعلق بدراسته فقط، إذ إنه عاش بقناعة شخصية راسخة بأن هواة القراءة هم أناس انعزاليون..

وتابع قائلاً: «عليك يا سيدي أن تفهم الحراك الاجتماعي الذي أدى إلى حدوث الثورات في العالم المتحضر، وإياك أن تعتقد أن عقيدتك وانتماءك الديني هي العوامل الرئيسة وراء تلك الثورات. ليس العالم المتحرر إلا نتاج التطور الاجتماعي والاقتصادي والبشري، وتبلورت هذه الثورات عبر آلاف السنين. لم تأت قيمهم الأخلاقية من الإسلام، إنما جاءت من المساهمات المسيحية، وقبل ذلك من تلك الثقافات التي سادت قبل مولد السيد المسيح.. إن القوانين والقيم تعتمد بصورة رئيسة على التعاليم المسيحية وليس الإسلامية كما تعتقد أنت».

صمت أحمد ولم يعد يستطيع الرد على جمال، لا سيما وأنه أعجب بقدرة جمال على الخوض في نقاش أمر حسّاس كهذا، إضافة إلى أنه أعجب بشغفه في البحث عن الحقيقة وشكِّه في قبول أراء الآخرين، وفكَّر ضمنياً من دون أن ينبس ببنت شفة «كيف لجمال أن يكون جندياً ومفكراً وذو موقف صارم في آن معاً».

وتابع جمال كلامه بنفس اللهجة وسأل أحمد: «سيدي.. دعني أسألك سؤالاً بسيطاً.. في اللغة الإنكليزية كلمة Intellectual.. هل ترى لها مرادفاً في اللغة العربية..؟؟».

أجاب أحمد باختصار شديد: «التفكير الحر..».

«صحيح.. إن الإنسان الذي حرر نفسه وفكره من أي حدود، وحرر نفسه من أية آراء أخرى دينية أو أيديولوجية، وهو الذي ينتهج العقل دون أي مرجعية، ولو من

بعيد، لأفكار أناس آخرين، إنه الإنسان المبدع الخلّاق ضمن قدراته الفكرية..» أجاب جمال من دون تردد.

قال أحمد كمن يدافع عن نفسه: «و كأني بك مثقف ديني!!».

فانبرى جمال: «قطعاً لا.. وأكرر إنه تعبير تناقضي.. فالمثقف يرفض أية حدود أيديولوجية، والتي هي ليست أكثر من آراء صنعها الإنسان ليسيطر بها على تفكير الآخرين..».

فاستغرب أحمد قائلاً: «ولكن الإسلام والقرآن من عمل الإله..».

فبادره جمال محاجِجاً أحمد: «أراك قد أضعت تفكيرك.. كيف تعرف هذا؟؟» وحملق به يتوقع الجواب.. وهنا بدأ باقي الشباب في الغرفة يصغون لهذا الحوار بين اثنين أعلى منهم رتبة.. وتابع جمال: «سيدي.. إن كان هذا هو دفاعك وحجتك فإنهما واهيان.. وأعتقد أنه إن كان بإمكانك أن تدافع عن قناعاتك وعقيدتك دون الرجوع إلى الكتب السماوية فإنك تسدي معروفاً عظيماً لقناعاتك الدينية وانتمائك، وإن كان بإمكانك أن تبرهن عن رقي أي معتقد ديني بالاعتماد على براهينك وإثباتاتك أنت فأنت تربح الحوار..».

نظر أحمد إلى جمال الذي ملأت وجه ابتسامة المنتصر، وهزَّ رأسه قائلاً: «يا جمال لا تلبث أن تدهشني بقدراتك المتعددة».

وفي هذه اللحظة قاطعهما علي الذي كان يراقب الشارع من النافذة قائلاً: «لقد حضر الطبيب..» وشاهد السيارة ذات الدفع الرباعي تمرُّ من تحت الشرفة وتنعطف نحو الشارع التالي، ثم شاهد الطبيب يمشي نحو البناية ويحمل كيسين في يديه..

فتح فادي الباب وأشعل النور الذي يضيء الدرج وساعد الدكتور في حمل الأكياس.. وقال الطبيب ممازحاً: «لا بدّ وأنكم جياع يا شباب، وها أنا ذا أحمل لكم بعض الطعام..» وبلمح البصر مُدت الطاولة وجلس الشباب يلتهمون الكباب المشوي والحمص وسلطة البقدونس، ولم تعد تسمع سوى همهمات تنبئ عن متعتهم بالطعام.. وبينما كان الطبيب يلف قطعة لحم ضمن خبز مدهون بمعجون الفلفل الأحمر استعداداً لالتهامها قال: «هذه الوجبة من الأخ أبو عبدو..» ، فقال أحمد فوراً : «لقد استضافني أبو عبدو عنده في البيت بضعة أيام بعد انشقاقي عن الجيش، وكان وأفراد أسرته جميعاً في غاية اللطف والكرم..».

وفجأة قال الدكتور كمال معتذراً لمقاطعتهم بتناول الوجبة الرائعة ومتفحصاً وجوههم قائلاً: «أيها الشباب من منكم على الاستعداد ليلتحق بالجيش السوري الحر..؟؟».

فتوقف الشباب عن الطعام ورفعوا رؤوسهم وقال علي: «أنا..» من دون أي تردد، وتبعه فادي فوراً: «حتماً سنلتحق.. أليس لهذا نحن هنا؟!».

قال حسّان: «أنا أتمنى أن ألتحق.. غير أني لا أقوى على الوقوف بعد..» فهدّأه فادي قائلاً: «سوف تأتيك فرص أخرى كثيرة».

انتبه جمال لردة الفعل لدى أحمد والذي كان يقف بعيداً عن الشباب يراقب الشارع من النافذة المغلقة جزئياً.. فجاء رد أحمد جازماً: «حتماً.. أرى أننا كلنا سوف نلتحق..» ونظر إلى جمال وتابع قائلاً: «أما بالنسبة لحسان فإنه سوف يبقى هنا لبعض الوقت حتى يلتئم جرحه» وكرر ما قاله فادي: «سوف تأتيك الفرص تباعاً للمشاركة في الحرب..».

فقال جمال فوراً وبلهجة آمرة: «حسناً.. علينا أن نستعد للأمر.. أليس كذلك دكتور كمال؟؟».

فقال الطبيب موافقاً: «نعم.. سوف يأتي في الساعة الثانية عشرة ليلاً رجلاً اسمه صباح، وهو لبناني من أصل سوري، ويعرف المنطقة جيداً، لكونه من المهربين المحترفين، سيصطحبكم ليخرجكم من القرية، ثم يؤمِّن لكم طريقة المواصلات حتى تقطعوا الحدود..».

سأله أحدهم: «وهل هو موثوق من طرفكم؟».

أجابه الطبيب: «لا.. ليس تماماً.. ولكنه قبض مبلغاً محترماً من الجيش السوري الحر لقاء تهريبكم وعبوركم الحدود».

فقال جمال مؤكِّداً: «لدينا أسلحتنا نستخدمها في حال دفع له الطرف الثاني سعراً أعلى..».

فرغ الشباب من تناول الطعام.. وقاموا بتنظيف الطاولة، ولم يبق من أثر للوجبة الشهية إلا رائحة الطعام تملأ الغرفة..

وهنا قال الدكتور كمال قبل أن ينصرف: عليكم أيها الرجال أن ترتاحوا قليلاً، فإن لديكم يوماً شاقاً غداً.. وعليَّ أن أغادر لأننا بصدد استلام موجة جديدة من الجرحى من إدلب..

فشكره جمال باسم الجميع وباسم السوريين على ما قام ويقوم به من جهد في دعم الثوار والعناية بهم..

فقال الطبيب مداعباً: «أنا لا أعرف شيئاً إلا التطبيب..».

تقدَّم الجميع لشكر الطبيب، وودَّعوه جميعاً إلا حسّان الذي وعده الدكتور كمال بالعودة للكشف على جرحه صباح اليوم التالي..

هرع فادي وعلي إلى تنظيف المكان.. وبدأ جمال بفحص الأسلحة، فأخرج المخازن المليئة بالطلقات، فتح حجرة الانفجار وتفحَّص المغلاق وعدَّ الطلقات المتوفرة لديهم. نشر الأسلحة والطلقات على الأرض ثم نادى الشباب قائلاً: «لدينا خمسة بنادق وعشرون مخزناً ومسدسين وأربعة مخازن، وبالتالي ستكون حصَّة كل واحد منا ستكون بندقية وخمسة مخازن»..

فسأل أحمد: «وماذا عن حسّان..؟؟».

فأجاب حسّان فوراً: «سأكون بخير.. سوف أتصرف.. وأنا واثق من أنكم سوف تغنمون الكثير ريثما ألتحق بكم..»..

التفت جمال إلى علي قائلاً: «اذهب الآن إلى دكان أبو زاهر، وهيِّء كمية من الطعام تكفي حسان لمدة ثلاثة أيام في حال احتاجها.. ولا تنسَ أن تحضر لنا بعض الأطعمة الخفيفة.. وليذهب فادي معك للمساعدة» فاستجابا من دون تردد.

ثم التفت إلى علي قائلاً: «أحضر بعض العبوات واملأها بالماء تكفي حاجاتنا.. وستكون المسؤول عن الماء من الآن فصاعداً..» فهزَّ علي رأسه بالموافقة والاحترام..

وهنا وقف جمال محدِّثاً المجموعة كلّها بلهجة قيادية: «اسمعوا يا شباب جيداً، واعلموا أننا على الأرجح سوف نجتاز الحدود هذه الليلة، ثم نلتحق بأفراد الجيش السوري الحر.. وبعد أن ننهي بعض الإجراءات الضرورية سوف توزع علينا المهمات.. غير أنني أؤكد لكم أننا سوف نعتني ببعضنا بعضاً في كل الأوقات، ولسوف لن تترددوا في تنفيذ

أوامر الملازم أو أوامري، إذ أن الأمور تجري هنا بسرعة متناهية، وأهم عقدة لدينا هي اجتياز الحدود، إذ أن عناصر الأمن منتشرون بشكل كبير.. إضافة إلى وجود ألغام أرضية زرعها النظام المجرم على الحدود، وإذا ما أصيب أحدنا فأوامري أن لا تتوقفوا.. بل تابعوا المسير مهما كلف ذلك.. هل فهمتم ما أقول..؟؟»

«نعم سيدي الرقيب» أجاب فادي وعلي.

«خذوا قسطاً من الراحة فأنتم بحاجة إليها..» أمرهم جمال وهو يخرج خريطته ويدرسها بدقة، رغم جهله عن مكان وزمان اجتياز الحدود.

فسأله أحمد: «أين يمكن أن تكون نقطة العبور؟».

فأجابه جمال: «لا أعلم بالضبط.. غير أن صباح مهرب محترف، ولا بدَّ وأنه يعرف كل النقاط المحتملة..».

فسأله أحمد بإصرار: «ولكن لو أتيح لك اختيار نقطة ما.. فأي نقطة تختار للعبور؟؟».

فتفحص جمال خريطته ثانية وقال: «هنا.. إنها النقطة في أقصى الشمال الشرقي للحدود اللبنانية مع سوريا.. إذ أن الطريق يُتخذ من الجبل صعوداً.. ثم على الطرف الآخر من الجبل، وما إن تجتاز الوادي حتى تكون دخلت الأراضي السورية..».

استمع أحمد بإمعان لكلام جمال، وآمن بمبررات جمال لاختيار تلك النقطة، لا سيما وأنه يمكنهم مراقبة السهل السوري من هذا المرتفع..

فسأل أحمد: «ولكننا سوف نعبر بالليل، ولن نتمكن من رؤية شيء بالظلام..».

فأجابه جمال: «هذا صحيح، ولكن ما إن نجتاز السهل حتى يمكننا التحرك بسرعة كبيرة من دون أن نعلق بين التلال والصخور، وخاصة فيما إذا كان النظام المجرم يستعمل التصوير الجوِّي لكشف المواقع والأشخاص».

فوافقه أحمد وقال ناصحاً: «سنرى ذلك لاحقاً.. عليك بأخذ قسط من الراحة».

عمَّ السكون أرجاء الشقة إذ اضطجع الجميع محاولين النوم والراحة، ولكل منهم ما يشغله من أفكار ومخاوف واهتمامات، وكان الجميع يعانون من قلق مطبق ثقيل يجثم على أفكارهم وقلوبهم، غادر جمال إلى الردهة وتمدد على السرير الحديدي النقال، وبدأ يشعر بالآلام تعمُّ جسده، وراح يتذكر دوره في الهروب من حمص (عاصمة الثورة السورية) فلقد كانت تفاصيل السويعات الأخيرة قبل انشقاقه، ولا زالت ماثلة في مخيلته، إذ كانت الأوامر الصادرة له بالتصويب والقتل لكل المتظاهرين السلميين العزَّل. واتَّخذ آنئذ القرار بالانشقاق مع عشرة آخرين، الذين كانوا يعلمون تماماً أن مهمتهم هي قتل العزَّل من الشعب السوري، ولا يزال يذكر الخطبة الشرسة اللاإنسانية التي ألقاها قائد اللواء في الضباط وصفِّ الضباط في الليلة السابقة للانشقاق قائلاً: «أيها الضباط وصف الضباط.. إن الشعب السوري يعتمد اليوم عليكم، هذه الهجمة الشرسة من الإرهابيين قد أخذت منحىً بعيداً، لقد طلب سكان حمص مساعدتنا لتخليصهم من هذه الفوضى، غداً سوف نواجه أعتى عدوٍّ، وهم جميعاً إرهابيين يحاولون تدمير سوريا بدعم من الغرب، إنهم عملاء لإسرائيل يستهدفون سوريا، لأننا هنا آخر معاقل المقاومة في وجه إسرائيل، يقولون للعالم بأن هناك بعض الأبرياء قد قُتلوا، ونحن جميعاً نعلم أنهم يكذبون ويلفقون الدعايات ضدَّ رئيسنا المحبوب بشار الأسد. عليكم أن تصوِّبوا أسلحتكم لتقتُلوا، وعليكم أن تصمدوا وتطيعوا الأوامر. هذه لحظة الحقيقة، سوف ننتصر حيث فشل الآخرون،

وسوف ندمر البلد إذا اضطررنا، ولكن في النهاية سوف نقضي على الإرهابيين ونجتثهم من حمص.. عاش الدم الأسدي.. وعاش بشار الأسد».

ثم اجتمع أفراد الفصيلة التي ينتمي إليها بعد هذا الخطاب، وخاطبهم قائد الفصيلة الرائد هاشم سليمان، الشرس والمتوحش، قائلاً، أو بالأحرى آمراً: «سوف نعد جثث الموتى غداً ولن يوقفنا أحد، عليكم بقتل كل من يحاول مساعدتهم.. هل فهمتم الأوامر..».

فسأله جمال: «وماذا لو وجدنا بعض المدنيين في المواجهة..؟».

فأجاب الرائد هاشم: «إذا كانوا من الغباء لدرجة تواجدهم في المكان الغلط في الوقت الغلط فعليك بقتلهم.. هل هذا مفهوم لدماغك الغبي أيها الرقيب..» ثم تابع متهكماً: «ومنذ متى يسأل رقيب ضابطا عن الأوامر..».

غلى الدم في عروق جمال في تلك اللحظة، وتمنى لو لقن هذا الضابط المجرم الشرس درساً لا ينساه وحوله إلى كومة من اللحم الممزوج بالعظم، ولكن سيطر على أعصابه وكبح جماح نفسه، مكرهاً ومتأملاً أن تتاح له الفرصة في القريب، لكن كانت الإهانة كبيرة ومذلة وكشفت لجمال ما آل إليه حال الجيش السوري، وتذكر كيف أراه أخوه منير خلال زيارته الأخيرة لحلب على الفيس بوك واليوتيوب شراسة النظام وجرائمه تجاه المدنيين الأبرياء العزَّل.. وأدرك منذ تلك اللحظة أن أيامه في هذا اللباس العسكري قد باتت معدودة، ولن يكون آلة في قتل الأبرياء مهما كلفه ذلك من ثمن.. كان النظام يهيئ لعدة مجازر في أماكن متعددة من البلد بحجة محاربة الإرهابيين، لقد تعارضت هذه الأوامر مع كل ما تعلمه جمال خلال سني دراسته وخدمته في الجيش، وعزم على أن يحول مسار حياته ويتخذ الطريق الأصح..

خرج جمال من الاجتماع دون أي تردد واتجه إلى البوابة الخارجية للقاعة، واتجه إلى كابينة هاتف عمومي على بعد ٢٠٠ متر من البوابة حيث كان الجنود يتصلون بأهليهم وذويهم.. وضع النقود في الآلة، وأدار القرص وسمع على الطرف الآخر صوت أنثى فقال لها بصوت صارم: «أعتقد أن عليك أن تزوري أهلك في حلب، سوف أرسل لك سيارة تكسي لأخذك مع الأولاد بعد حوالي ثلاث ساعات، فلقد مضت فترة لم ير الأولاد أجدادهم»..

أجاب الصوت النسائي: «نعم يا حبيبي.. سوف أستعد وأعد الأولاد».

فتابع قائلاً: «نعم، سوف يحضر ابن عمي عبد الرزاق الساعة التاسعة مساءً».

أنهى المكالمة دون كلمة وداع.

انتظر لحيظات ثم اتصل برقم آخر فأجاب صوت رجل، فقال له فوراً: «السلام، عبد الرزاق.. كم تحتاج من الوقت لتصل إلى هناك؟؟؟..».

– «ربما أقل من ساعتين..» جاء الجواب.

– أريدك أن تحضر لتأخذني أولاً، ليس بعد الساعة ٨:٤٥ ثم تذهب لأخذ رشا والأولاد.

– حسناً سوف أكون بالانتظار.

– كن حذراً في قيادتك.. وقطع الاتصال.. نظر إلى السماء نظرة رجاء ودعاء، ثم عاد أدراجه إلى القاعدة عبر البوابة.

لقد كانت المفرزة التي ينتمي لها جمال مؤلفة من مجندين من أهل السنة إلا علي إذ كان علوياً من الساحل.. دعا جمال إلى اجتماع الزمرة في المهجع، لبّى الجمع الدعوة بما فيهم علي.. تحلق الجميع حوله فخاطبهم قائلاً: «يا شباب غداً سوف نذهب إلى حمص، والأوامر صريحة أن نقتل المدنيين العزل الأبرياء، وقد برر ذلك قائدنا بأنهم إرهابيون وعملاء للصهيونية ويقفون ضد الإصلاحات العظيمة التي قام بها قائدنا المحبوب بشار الأسد، وعلينا أن نسحقهم دون اعتبار لهويتهم، وأتوقع منكم أن تقوموا بواجبكم خير أداء وبأكمل وجه حتى ولو لم تحبوا ما تصنعونه..». ورفع جمال مسدسه قائلاً: «وسأكون أول من ينفذ الأوامر فيمن لا يؤدي واجبه كاملاً»...

صمت أفراد المفرزة مندهشين مما قاله الرقيب، غير أنهم لم يستوعبوا تماماً في أي شيء يفكر به هذا الرقيب. فلقد احترموه وأحبوه لأنه كان كثيراً ما يدعمهم ويؤمن لهم حاجياتهم، وقد اعتادوا الانصياع لأوامره دون تردد.. نظر جمال بحدّة في عيون أفراد المفرزة، حتى إذا التقت عيناه بعيني علي، فما كان من علي إلا أن تقدم خطوتين قائلاً: «حضرة الرقيب.. بإمكانك أن تقتلني الآن.. لأنني أرفض أن أقتل مدنياً أعزل.. سوف لن أقتل أبناء شعبنا، وهذه ليست إلا مؤامرة من آل الأسد للحفاظ على منصبه، وسحقهم الشعب السوري، وسوف يقومون بأي عمل لتدمير البلد للحفاظ على سيطرتهم، وسوف يصطنعون شرخاً بين الطائفتين السنية والشيعية، ويقودون البلد إلى حرب أهلية مدمرة لا تبقي ولا تذر.. لقد سئمت من كل هذا ولن أكون طرفاً منفذاً في هذه الجرائم اللاإنسانية.. وهأنذا أعلن أمامكم انشقاقي عن الجيش العربي السوري والتحاقي بالجيش السوري الحر من هذه اللحظة، وما عليك إلا أن تطلق النار لأنني قد أكون قاتلك غداً إذا لمحتك تقتل المدنيين العزل.. وأنا أعتبر نفسي سورياً حرّاً.. وإن مت فسأموت سورياً حراً متمتعاً بكرامتي».

وقعت كلمات علي على جمال كما لو كانت خطبة من وطني متحمس أو واعظ ديني يلقي خطبة من فوق منبر حر.. وفي واقع الأمر فإن هذا ما كان يتمنى سماعه من علي، لأنه كان الفرد العلوي الوحيد في المفرزة ومجهول الهوية والانتماء.. أما الآخرون فقد كان جمال يدرك تماماً تفكيرهم ورأيهم بما يدور حولهم، فهم بمجملهم فلاحين، فقراء لا يكادون يؤمنون لقمة العيش، وقد حرمتهم الخدمة الإلزامية من إعالة أسرهم بالنذر اليسير مما يكسبونه..

تقدم جمال من علي وصوب مسدسه إلى وجهه في اختبار ثان لثباته وعزمه وقال: «هل تدرك خطورة ما قلته للتو؟ وهل تعلم أن لدي من المبررات ما يكفي لإعدامك فوراً وفي هذه اللحظة» وحملق بعينين ثابتين ليعلم مدى صدق علي في مقولته..

فلم يزحزح علي عينيه عن عيني جمال، وقال: «نعم سيدي أنا أدرك ما أقول، وأتحمل مسؤولية ذلك.. وما عليك إلا أن تطلق النار وترديني للتو..» وهنا تبين صدق علي فيما قاله.. فالتفت جمال إلى المفرزة وأمر اثنين لمراقبة بابي المهجع.. وهرع آخر لإطفاء أنوار المهجع ما عدا الوسط، ليبدو المهجع كأن العناصر نيام في الداخل..

أخفض جمال مسدسه وأعاده إلى قرابه ورفع يديه إلى علي قائلاً: «إنني أعطيك يدي وقلبي يا أخي.. وأعدك بأننا إذا متنا فإننا سنموت سوريين أحراراً..».

وهنا تنفس علي والآخرين الصعداء.. وصافح جمال عليّاً وعانقه. تجمع الكل في زاوية المهجع، وفهم الجميع أن ما هم بصدد أن يفعلوا ما ينوون قد يؤدي إلى نتائج كارثية، وقد تكون حياتهم هي الثمن.. وتقبل الجميع دهاء وقيادة جمال للمفرزة. فقد كان أكبرهم سناً وأقدمهم خدمةً وله خبرة وقيادة عسكرية متميزة ويثقون بحكمته وقراراته.

وقال لهم جمال بحزم: «اسمعوا يا شباب، وسوف لن أكرر ما أقوله.. غداً سوف يتم اختبار إيمانكم ولا يمكننا التراجع عما عقدنا عليه العزم، عليكم أن تبقوا إلى جانبي، وعندما أطلق الصفارة مرتين فهذا يعني أن عليكم التبعثر والانتشار.. لا تركضوا مجتمعين فتكونوا هدفاً سهلاً.. سوف أختار المكان والزمان المناسبين وعلى الأغلب حالما ندخل بابا عمرو. وتذكروا أنكم إذا ركضتم باتجاه المتظاهرين فسوف تعرضونهم للخطر. وإذا انتشرتم فلا تختبؤوا خلف الآليات.. وإذا سقط أحدكم فلا تقفوا وتابعوا الركض.. واجمعوا أكبير كمية ممكنة من الأسلحة والذخيرة لأن الثورة بحاجة إلى كل طلقة وكل بندقية.. وإذا أعطي قاذف القنابل لأي أحد منكم فليكن أول من يركض ويضع نفسه في موقع يمكنه الدفاع عن الآخرين.. هل لديكم أية أسئلة» وهنا ابتدأ فادي بسؤال: «نعم سيدي الرقيب، لدي سؤال.. وماذا لو وجدنا أنفسنا بين المتظاهرين فأين علينا أن نذهب؟».

أجاب جمال: «عليك أن تسعى للبقاء خلف صفوفهم وهم سيقومون بحمايتك» تطلع الشباب لبعضهم باستغراب فتابع جمال ارشاداته قائلاً: «لا تفكروا أبداً بالموضوع.. واجبنا حماية المواطنين وليس قتلهم أو إيذائهم.. وإذا ما لاحظ القائد أننا جميعنا نركض معهم فلن يترد للحظة واحدة في حصدهم جميعاً.. وأقول أنه فيما لو وجد أحدكم نفسه صدفة بين المتظاهرين.. فليكن هذا طريق هروبه.. ولكن إياكم أن تتدخلوا بينهم عمداً، وخاصة وجود العناصر اللعينة خلفنا» تفهم الجميع أوامر جمال غير أنه أراد أن يعطيهم آخر جملة تحذيرية كوالد عطوف: «تصرفوا بشكل طبيعي.. ولا تفكروا بغد، سوف يكون التجمع الساعة الخامسة صباحاً».

و قضى الأفراد ليلتهم دون أن ينعموا بإغفاءة ولو قصيرة.. فقد غلى الدم في عروقهم وراحوا يفكرون بيوم الغد.. حتى أن بعضهم تمنى لو لم يكن يعلم بما هو آت غداً.. وفكر آخرون بأسرهم وأحبائهم، أما علي فقد تنازعته الأفكار عما اتخذه من قرار

صائب، وما عسى أسرته يفكروا فيما أقدم عليه، لا سيما وأنهم من طائفة النظام، غير أن ما طمأنه كان معرفته الأكيدة أن معظم العلويين مستائين من فساد النظام واستبداده وتفضيله بعض الأسر على بعضها الآخر.. كان يعلم أن بعض المشهورين من ممثلين وممثلات وفنانين وبعض السياسيين المخضرمين قد وقفوا إلى جانب الثورة، وأكد لنفسه أن واجبه يقضي بحماية الوطن، وليس الأسد وزبانيته. فقد كان سورياً ولا يزال سورياً مثل باقي الشباب، وإذا كان زملائه يعتقدون أن بإمكانهم تقديم تضحيات أكبر للوطن فإنه يطلب فرصة متكافئة ليقدم كل ما يمكنه للوطن.

انسحب جمال إلى غرفته ليأخذ قسطاً من الراحة، وحدَّق بصورة أسرته المعلقة بدبوس على الحائط فوق مكتبه، وراح يفكر بأولاده ومستقبلهم، ومستقبل البلد الذي ينزلق نحو الدمار الكامل والدائم من قبل نظام فاجر ظالم مجرم بتسارع كبير، فكر ملياً بزوجته رشا التي قضى معها أجمل أيام حياته، رغم ضيق ذات اليد وقسوة الظروف المعيشية التي مروا بها في بدء حياتهم الزوجية، وكيف أنها وبأسلوب حكيم كانت تشعره بالسعادة رغم قساوة الظروف وتخيل لحظة أنه يداعب بأصابعه شعرها المنسدل فوق وجنتيها الورديتين من الخجل، وأنه يقبلها بشوق وحرارة، لقد كانت رشا ذات ملامح جذابة كأميرة من القِدَم، عينان خضراوان وبشرة وناعمة وهيكل ناعم، ما يجعله عملاقاً إذا وقفا بجانب بعض، ابتسم جمال ابتسامة كانت نابعة من قلبه أكثر من شفتيه، ولمس بأصابع حانية صورة رشا وأولادها والذين يحملون جميعاً ملامح أبويهما، تحسس صورة الابنة الصغرى فرح ذات الأربع سنوات والتي تتمتع بقدرة عجيبة بالتعايش مع أخويها التوأمين نائل ونادر الذين اكتسبا هذين الاسمين تيمناً بجديهما لأبويهما، لقد كان الولدان متفوقان في مدرستهما، وكان نائل يحلم بأنه يكمل دراسته ليصبح طياراً في المستقبل، أما نادر فكان يحلم بأنه سيكون لاعب كرة قدم شهير، لدرجة أنه اشتطَّ به الحلم ليشارك في اللعب مع الـ FIFA.

نزع جمال صورة أسرته من الحائط ودسها في جيب معطفه وتابع دراسة الخريطة التي أمامه، والتي تبين الشوارع والأزقة في مدينة حمص، وكان في نفس الوقت يفكر في خطة الانشقاق والابتعاد عن الجيش النظامي المجرم، وفتح درج المكتب وأخرج مسدسه، ووضعه مع قرابه على خصره ودرس الخريطة مرات ومرات حتى كأنه بدأ يرى الشوارع بأبعادها الثلاثة، وتذكر بعض الأزقة التي طالما مشى فيها لشراء بعض حاجيات الأسرة. نظر إلى ساعته التي كانت تشير إلى الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة مساءً، وتذكر أن عليه أن يقوم بعمل آخر.. خرج من المهجع وقصد البوابة الرئيسة للقاعدة وخرج إلى الطريق العام دون أن يوقفه الحارس وكانت سيارة أجرة تنتظره، فدلف إلى داخلها، وجلس إلى جانب السائق مسلِّماً «السلام عليكم يا عبدالرزاق» فرد عليه عبد الرزاق بالتحية وتحركت السيارة فوراً تشق الشوارع باتجاه بيت جمال، سأل جمال: هل كل شيء على ما يرام؟

فأجاب عبد الرزاق فوراً: بكل تأكيد وليس عليك أن تقلق، سوف نعتني بأسرتك، لقد أجريت اتصالاتي مع بعض الإخوة في أنطاكيا، وأمنت لهم شقة للسكن.

أخرج جمال مغلفاً وسلمه إلى عبد الرزاق قائلاً: «سوف يساعد هذا المبلغ البسيط ريثما تتحسن الظروف».

أخذ عبدة الرزاق المغلف ودسَّه في جيبه قائلاً: «إن الأسرة كلها تساهم في ذلك، ولا عليك أن تقلق، سأسلم هذا المغلف لرشا كمصروف جيب».

فقال جمال: «لست متأكداً إلى متى ستطول هذه الأزمة، ولكن علينا أن نتوقع أسوأ الاحتمالات».

فقال عبد الرزاق: أعلم هذا جيداً وقد اختبرت هذا النظام المجرم الطاغي البغيض خلال إقامتي في سجن تدمر لمدة أربعة عشر عاماً، حيث أضعت أجمل أيام عمري هناك، لا لسبب معين سوى لأنني كنت مواظباً على الصلاة في تلك الأيام في الثمانينات» وشعر بحشرجة صوته وهو يتذكر تلك الأيام السوداء في تدمر بين أيدي الظالمين المجرمين.

فأكد جمال قائلاً: «سوف يستمرون بهذه الممارسات وأسوأ منها إن لم يوقفهم أحد» وتساءل: «متى تعتقد أنكم سوف تجتازون الحدود؟».

فأجاب عبد الرزاق: «بإذن الله وإذا مشت الأمور بسلامة فسوف نجتاز الحدود بعد منتصف الليل».

«ممتاز طالما أنهم خارج حدود سوريا قبل بزوغ الشمس».

توقفت السيارة أمام إحدى البنايات المتواضعة في شارع ضيق على أحد أطراف حمص، نزل منها جمال بسرعة وصعد الدرج إلى الطابق الأول، وفتح الباب بمفتاحه، حيث كانت تنتظره رشا والأولاد، وابتدأته قائلة: «لقد أقلقني هذا الأمر يا حبيبي، ماذا يجري؟».

أجابها جمال باقتضاب: «لا عليك يا أم نائل، كل شيء يتم بسلاسة وانتظام.. هل جلبت معك الجوازات وما لديك من مجوهرات ونقود، فإن عبد الرزاق ينتظر في الخارج وسيأخذكم إلى تركيا مباشرة عبر حلب دون توقف حيث سوف تتوجهون إلى الحدود فوراً.. وتدركين ما عليك عمله هناك».. وحمل الحقيبتين إيذاناً بالتحرك السريع.

أجابته رشا: «بكل تأكيد يا حبيبي، ولكنا كنا نتمنى لو كنت معنا، فنحن لا نساوي شيء من دونك».

أجابها: «كفي عن ذلك، عليك أن تكوني قوية لأجلنا جميعاً» ولم يكن جمال يوماً يظهر عواطفه أبداً، وإنما كان رجلاً عملياً ينجز أي أمر موكول له بكل دقة وسرعة.. «هيا يا أولاد، ما رأيكم بقبلة لوالدكم».

فصرخت فرح: أنا الأولى، وركضت تلقي بنفسها بين ذراعي جمال وتجلس في حجره إذ جلس القرفصاء ليتلقاها، وعلى شفتيه ابتسامة تنبئ بما داخله من حب، «أجل يا حبيبتي الحلوة، أنت دائماً الأولى» تبعها الأولاد جميعاً.. ونعم الجميع بعناق ضم جميع أفراد الأسرة. أخرج جمال الحقيبتين من الباب، ودلف داخلاً ليلقي نظرة أخيرة على البيت ومحتوياته، أطفأ الأنوار وأغلق النوافذ، ثم أوصد الباب، ونزلت الأسرة الدرج واستقلت السيارة إلا جمال الذي أحكم إغلاق الباب ومدَّ رأسه من النافذة وقبل زوجته قائلاً: «كم أحبك، أنا أعمل هذا لأجلكم جميعاً».

ثم توجه إلى عبد الرزاق قائلاً: «أرجوك أن تعتني بهم، وعد أدراجك إلى حلب فور إيصالهم إلى تركيا، كما ناقشنا سابقاً.. وشكراً لكل جهودك».

فأجاب عبد الرزاق مؤكداً «إنهم أسرتي ولا داعي للقلق يا ابن العم.. سوف نكون جميعاً بخير بإذن الله.. اعتن أنت بنفسك، وأسأل الله أن يحميك ويسلمك من براثن هؤلاء المجرمين».

«بارك الله فيك.. سأراك قريباً بإذن الله».

انطلقت السيارة مسرعة مخلفة وراءها غيمة من الغبار واختفت في ظلمة الليل.. سار جمال إلى الشارع الرئيسي واستقل سيارة أجرة أخرى متوجهاً إلى القاعدة حيث دخل قاعة مكتبة الخرائط العسكرية التي كان يعرفها جيداً، وأخرج صورة جوية طبوغرافية لمنطقة حمص وما حولها، قام بطيها ودسها في جيب سترته وتابع سيره إلى المهجع دون بطء وهز

رأسه لمن لحظ دخوله مطمئناً، ودلف إلى غرفته حيث جمع عتاده وتفحص الخريطة مرة أخرى.. ثم استلقى محاولاً تهدئة نفسه المضربة إذ لا يمكن أن يفيد أحداً تشنجه واضطرابه غداً.. وأخيراً وبعد لأي و مكابدة تمكن من الإغفاء للحيظات..

بدأت الشمس تطل على المعسكر كاشفة عن صحراء حمص الشرقية جالبة معها كل ما هو مجهول عن مصير حمص وسكانها في هذا الصباح، وتحمل معها السؤال الثقيل: أين ستقود هذه الحرب اللعينة البلاد ومصائر العباد. فقد دفع هذا الشعب الأعزل ثمن طلبهم الحرية والكرامة ثمناً باهظاً من دم وأرواح وممتلكات، إضافة إلى الذل والهوان والعذاب في سجون هذا النظام الطائفي اللاإنساني..

لا بد وأن لله حكمة في هذا كله.. وليس لنا إلا أن نقدر تضحيات المواطنين ونسأل الله أن يفرج هذه الغمة والكرب عن شعبنا....

وفي تمام الساعة الثامنة صباحاً كان جمال ورجاله على أتم الاستعداد.. تحركت الآليات.. وحملت الدبابات T72 على ناقلاتها، إضافة إلى ZSU 23-4 وهي صواريخ مضادة للطائرات خفيفة الثقل وسريعة الحركة، وتساءل جمال بينه وبين نفسه عن مدى الدمار الذي من الممكن أن تلحقه تلك الصواريخ إذا استخدمت ضد المواطنين العزل والأبنية التي يقطنونها.. وكان الجنود يتحركون كالنحل الهائج.. ففكر جمال «إنه منظر من مناظر الجحيم» كل هذه الآليات والصواريخ لتقتل الأبرياء.. وهو يقف مع رجاله أمام باب المهجع، وكيف أن هذا الجيش الذي تم تسليحه بهذه القوة لمواجهة الأعداء، يستدير لمقاتلة الشعب الأعزل الذي قدم له كل غال ونفيس.. كيف يمكن تجنب القتل والتشريد من براثن هذا الوحش قائد الوحدة..

لم يستطع جمال ورجاله أن يتناولوا طعام الإفطار، إذ لم تكن لديهم الشهية وهم بصدد ارتكاب مجزرة بحق شعب أعزل بريء، بل جلسوا في الندوة يحملقون بوجوه بعضهم بعضاً، وكان بعضهم يتمتم بصمت بعض الآيات القرآنية والأدعية، وكانوا يفكرون في أول من سيطلق النار عليهم من زملاءهم لحظة انشقاقهم، وأية آلية سوف تجزهم كالعشب، وتمنى الجميع لو أن جمال يخرجهم من هذه المحنة.

وصلت عربة ناقلة جنود BTR-50 أمام المهجع، فركبها الشباب وأخذوا مقاعدهم، وردد فادي بصوت خفيت «الله أكبر.. الله أكبر..»، جلس جمال على المقعد الملاصق للباب، كان العتاد الذي يلبسونه ثقيلاً و غير مريح البتة، وتجاهل نظرات الشباب المثبتة على وجهه، فيما تحركت العربة نافثة دخان الديزل إلى داخلها حيث يجلس الشباب إذ لم تجر أي صيانة لهذه الآليات منذ شرائها من روسيا.. وتوقفت الناقلة بعد مسافة ليست طويلة وفتح الباب حيث نزل الرائد هشام سليمان صائحاً بوجه جمال بعنجهية ولؤم:

«ماذا تعمل هنا بحق الجحيم.. خذ رجالك وامش مئة متر أمام أول عربة، وتذكروا أن تصوبوا لتقتلوا.. وإلا....».

أجاب جمال: «حاضر سيدي.. سوف نجعلك فخوراً بهؤلاء الشباب..».

أمر جمال رجاله بالتحرك إلى الأمام وصاح بهم: «جهزوا أسلحتكم ولقموها..».

وسمع الجميع صوت بعض الهتافات من الشوارع البعيدة، ودون رؤية المتظاهرين. واتجه الرجال إلى زقاق ضيق عرفه جمال فوراً بأنه الكورنيش، ثم لاحظ مئذنة جامع الكيلاني، فعرف أنه في أفقر منطقة في بابا عمرو، وعرف ضمنياً أن أول هدف سيكون الجامع وما حوله، فلقد كانت بابا عمرو فيما سبق قرية فقيرة من قرى حمص.. غير أن

الامتداد العمراني باتجاهها جعلها جزءاً من المدينة ذاتها، والتي يقطنها حوالي مليون نسمة.. وبدأ جمال يحفظ طريق هروبه مع الفصيلة . . إذ لا يبعد نهر العاصي أكثر من ١ كم إلى اليسار وتمتد الأراضي الزراعية على جانبيه.. تحسس الخرائط في جيب بنطاله.. بدأت أصوات المتظاهرين وضجيجهم يقرب شيئاً فشيئاً من موقعه، وأصبح الضغط النفسي والقلق فوق طاقة الشباب على التحمل، لمح جمال القناصين على أسطح البنايات بوضعية التهيؤ للقتل، فأبطأ السير عمداً وهو يتوقع صدور الأمر بإطلاق الرصاص على المتظاهرين.

صاح الرائد سليمان: «أطلق النار فوراً» وذلك عندما لمح بعض المتظاهرين يطلون من زاوية الشارع، كان جميع المواطنين عزَّل، ويحمل بعضهم أغصان الزيتون تعبيراً عن سلمية المظاهرة، وكانوا يحملون لافتات تحمل عبارات تندد بالفساد والفاسدين، وبعضها يعبر عن سخط المواطنين من نظام الأسد وحكمه الدكتاتوري الظالم، وبعضها كان يطالب بالتدخل العسكري الخارجي، وكان هناك لافتة عريضة مكتوبة بخط عريض وواضح «يا حماة الديار.. الرجاء عدم قتلنا..» في رسالة واضحة للجنود.. كانت المظاهرة تتألف من أطفال صغار، ومن نساء مع أطفالهن، ورجال وشيوخ وعجزة، ولم يكن هناك إرهابيون مسلحون، ولم يبدُ أن أحد المتظاهرين كان مسلحاً، حمل بعض المتظاهرين أجهزة هواتفهم الجوالة لالتقاط بعض الصور أو الفيديو للتوثيق وذكرى للمستقبل..

بدأ إطلاق الرصاص من القناصة على أسطح البنايات، مما أسقط بعض المتظاهرين أرضاً، فدب الذعر بين المتظاهرين لهول المفاجأة..

فتمتم جمال: «الآن أو لن...» وهرع إلى الرجال وكلم علي قائلاً: «سوف أسير باتجاه الرائد.. وما إن أصبح على بعد ٢-٣ متر منه عليكم بتنفيذ خطتنا..» فاستدار علي نحو الشباب وأعطاهم إشارة الاستعداد لتنفيذ الخطة.. خطى جمال بضع خطوات

باتجاه الرائد بحجة أنه يريد أن يسأله سؤالاً، فسمع الرائد يصيح بجهاز الراديو «اقتل ذلك الرجل.. إنه على بعد ٣ أمتار من المرأة المتشحة بالحجاب الأبيض والأحمر» اقترب جمال بعض خطوات أخرى، وسمع الصوت يأتي عبر الراديو قائلاً «ماذا يجري هنا يا سيدي.. أعتقد أنه انشق بعض العناصر الآخرين يا سيدي».. فتطاير الشرر من عيني الرائد ولاحظ جمال يقترب باتجاهه، وظن أنه قدم ليخبره عن العناصر المنشقين.. استمر جمال في التقدم باتجاهه دون تردد أو توقف، وفي غمرة تلك الفوضى من الأصوات المتعالية وطلقات الرصاص وقذائف المدفعية والرصاص والدم.. وجه جمال فوهة بندقيته نحو الرائد وأطلق رصاصة أردته صريعاً على الأرض، يسبح ببركة من دمائه النجسة القذرة الطائفية الحاقدة.. قفز جمال إلى الجانب الآخر من المجنزرة ناقلة الجنود، وقطع الطريق إلى شاطئ النهر، واستمر القناصون بإطلاق الرصاص باتجاهه لقتله انتقاماً للقائد العلوي المجرم، غير أن كثافة الأشجار حرفت الرصاص عن إصابته وكرَّ مسرعاً إلى المزارع بسرعة البرق..

تبعثر أفراد الفصيلة كما هو مر سوم لهم ووقفوا أمام المتظاهرين واستداروا للخلف ووجهوا أسلحتهم باتجاه أفراد الجيش النظامي وراحوا يطلقون النار بلا هوادة، وما هي إلا دقائق قليلة حتى اختفوا بين المتظاهرين، أما فادي وعلي فقد انحدرا باتجاه المزارع بشكل موازٍ لخط سير جمال.. لاحقهما بعض أفراد الجيش النظامي لمسافة قصيرة ثم توقفوا عن الملاحقة وأعادوا تنظيم صفوفهم.. أطلق العناصر بعض قذائف الهاون باتجاه المنشقين غير أن عناية الله حفظتهم من كل سوء... كانت حصيلة المظاهرة في ذلك اليوم ستة عشر شهيداً وأكثر من مئة جريح ومعظمهم من المدنيين العزل، وعدد غير محدود من المنشقين، ولسوء الحظ وقف العالم وقفة متفرج دون أي التزام أدبي أو أخلاقي لإيقاف هذه المجازر التي يرتكبها النظام الفاشي الطائفي العنصري بحق شعب أعزل كل ما كان ينشده هو الحرية والعدال ووقف الفساد...

ندد بعض الدول بما يجري على الساحة في سوريا دون أية تحركات سياسية أو ميدانية، ويبدو أنه لم تكن لدول العالم الجرأة أو الإرادة السياسية للانخراط في هذا الصراع الدائر في هذا البلد العربي، على عكس ما اتخذه الغرب من تدخل عسكري فوري في كل من العراق وليبيا الغنيتين بالنفط والغاز، فالبترول السوري قليل نسبياً، وهناك عوامل اقليمية شائكة، لا تبرر كمية البترول المحدودة تدخل الدول الكبرى.. فتركيا مثلاً ترغب بالأسواق السورية لتصريف بضائعها، وإيران تبحث عن نفوذ طائفي شيعي إضافة إلى المصالح الاقتصادية، وأما إسرائيل فلديها خططها وأفضلياتها، فهي الدولة التي تدعي الديموقراطية واحترام حقوق الإنسان تحرم الفلسطينيين والسكان الآخرين غير اليهود من شغل أي منصب إداري ذي أهمية، ولهذا تجد هذه الدولة الجديدة القديمة نفسها ممزقة بين عنصرية نظامها وبين أولوياتها، ويبدو كما لو أنها ترغب (ولو بشكل غير معلن) ببقاء نظام الأسد الذي حمى الحدود الشمالية لإسرائيل لأكثر من أربعين عاماً، إذ بقت الحالة جامدة على الحدود منذ حرب تشرين عام ١٩٧٣ حتى الآن، رغم أن موقف النظام السوري المعلن هو حالة الحرب مع إسرائيل، وقد نجح النظام في استخدام حزب الله في جنوب لبنان ليحارب إسرائيل نيابة عنه...

ولمحض الصدفة تصادف الثلاثة في مقبرة الناعس.. وفي خضم هذا التوتر والفوضى والارتباك كادوا أن يخطئوا بعضهم بعضاً، فقد اختبأ فادي وعلي خلف إحدى شواهد أحد القبور، وكانوا يشكون بأي جسم يتحرك حولهم بأنه قد يكون من الجيش النظامي الذين يتتبعونهم، لا سيما إذا كان يلبس البزة العسكرية، وهنا تجرأ علي وفادي بصوت خافت: «رقيب جمال.. نحن هنا».. سمع جمال صوت علي وعرفه فوراً وسار باتجاه الصوت خافضاً رأسه وجذعه قائلاً دون تأخر : «علينا أن نتابع المسير . . هلمّوا يا شباب..».

سار الثلاثة باتجاه الجدار الغربي للمقبرة، وفجأة توقفوا وأخفضوا رؤوسهم، إذ سمع جمال بعض الأصوات من حوله.. انبطح الثلاثة وأخذوا وضعية الرامي ولم يكونوا يسمعون إلا صوت تنفسهم، ثم سمع الجميع صوتاً بين شواهد القبور يقول: «الله أكبر.. عاشت الثورة..» بقي جمال بوضعية الانبطاح ونادى جمال على مصدر الصوت: «قف.. لا تتحرك» وبعد لحظة تردد قال الصوت: «نحن إخوة وبإمكاننا مساعدتك» فسألهم جمال «كيف يمكنكم مساعدتي» فأجابه الصوت: «بإمكاننا أن نأخذكم عبر الحدود إلى لبنان، أو نعيدكم إلى المدينة إن شئتم».

فسألهم جمال: «كم عددكم؟؟» فجاء الجواب: «اثنان»، فأمرهم جمال بالتحرك باتجاهه وقال محذراً إياهم: «إياكم أن تفعلوا ما تندمون عليه».. تقدم الرجلان من جمال ببطء تحت مرأى من جمال ورفيقيه.. فأمرهم جمال أن يركعوا ويضعوا أيديهما فوق رأسيهما.. فانصاع الرجلان للأوامر وهما يتمتمان، سارع جمال إليهما من الخلف وفتشهما خشية وجود أسلحة معهما دون أن يعثر على شيء.. فخاطب الرجلان بلهجة لطيفة معتذراً: «آسف يا إخوتي.. لقد سمعنا الكثير عن عصابات النظام المجرمة التي تتعقب المنشقين».. أجاب أحدهم: «نحن ندرك الموقف تماماً، ولا تقلق، ولكن علينا التحرك فوراً، فلدينا شاحنة صغيرة خارج المقبرة».

أسرع الرجال الخمسة وقفز المنشقون الثلاثة إلى المركبة وانبطحوا على أرضها، وسألهم جمال: «إلى أين تأخذوننا؟؟» فأجاب أحد الرجلين: «سوف نحاول الوصول إلى قرية الحلبية على ضفاف بحيرة قطينة، ثم إذا خيم الظلام، بإذن الله فسوف نجتاز أربين فهي أسهل طريق في الوقت الحالي، ولسوف نتأكد من ذلك حالما نقترب وقبل أن نقرر نهائياً»..

غطى الثلاثة أنفسهم بقماش غليظ سميك، أخذ يصدر أصواتاً مع تحرك سرعتها على الطرقات الزراعية، وكان جمال يخرج رأسه بين الفينة والفينة وينظر ما حوله ليحدد موقعه الجغرافي، ثم يعيد رأسه تحت الغطاء ليدرس خريطته ويتأكد من الموقع، وكان من الصعب تحديد اتجاه البوصلة من على ظهر شاحنة معدني متحركة باستمرار، ولذلك اعتمد في تحديد الاتجاهات والوقت على موقع الشمس في السماء ولاحظ خلال لحيظات إخراج رأسه من تحت الغطاء أن الرجل الذي يجلس إلى جانب السائق يتكلم على الهاتف الخليوي، مما أثار بعض الشك في نفسه، غير أنه استعاد هدوءه فور رؤيته بحيرة قطينة..

توقفت الشاحنة أمام منزل على مدخل القرية، فكشف الرجلان الغطاء عن جمال وزميليه، وطليا إليهم النزول والمكوث في هذا المنزل ريثما يخيم الليل فيتابعون عبور الحدود.. نزل الشباب من الشاحنة وهرعوا إلى داخل المنزل، وكان المنزل خاوياً، فاعتقد جمال أنه هذا منزلهم، وربما كانوا يعرفون أصحابه..

غادر الرجل الأصغر سناً إلى المطبخ وبدأ بإعداد الشاي، وبدأ الجميع يتحدثون عن الثورة وهم يتناولون الشاي.. بقي فادي وعلي متحفزان طول الوقت بينما كان جمال يحادث منقذيهم، وتناوب فادي وعلي مراقبة البابان الأمامي والخلفي، وتبين من المحادثة أن هؤلاء الشابان جنديان انشقا عن الجيش النظامي في أول أيام الثورة، وكانت مهمتهما مساعدة الجنود الذين ينشقون عن النظام، وكانا يعملان داخل مدينة حمص وما حولها في مقاومة النظام وحماية المتظاهرين والمنشقين، وشرحا لجمال ورفيقيه أن من المهم جداً للمنشقين السكون لبضعة أيام بعد الانشقاق، وأعطيا لجمال ورفيقيه الخيار في أن ينضموا إلى صفوف الجيش السوري الحر، أو العودة إلى بيوتهم إذا تسنى ذلك.. وأبلغوهم أن بعض المنشقين آثر البقاء هنا والعودة لمقاومة النظام. ووصلت أوامر حديثة من العقيد

محمود أتاسي قائد الجيش السوري الحر بأن يساعدوا المنشقين حديثاً وإيصالهم إلى مكان آمن في شمال لبنان، ثم يعاد توزيعهم على قطعات الجيش الحر لحماية المتظاهرين السلميين العزل.. وقد تم تهريب بعض المشقين إلى الأردن قريباً من مهد الثورة درعا، جنوب سوريا، ولما كان هناك عدد من الإصابات والجروح في صفوف المنشقين فكان من الضروري معالجتهم وتأهيلهم قبل أن يعاد توزيعهم ونشرهم على قطعات الجيش الحر.

كان تمويل الجيش الحر يأتي من المدنيين المنشقين باكراً عن النظام، إذ أن أربعين عاماً من حكم آل الأسد وزبانيتهم قد أرغمت ثلاثة ملايين من السوريين إلى الهجرة خارج سورية هرباً من ظلم وعسف وجور نظام آل الأسد، وما آلت إليه أوضاع السوريين من إقصاء وتهميش، وفقدهم أبسط حقوقهم كمواطنين، إضافة إلى الإهانة، وفقدهم كل القيم الإنسانية، وبهذا أصبحت هجرة العقول هي الأساس في هذه الهجرة الجماعية للأطباء والعلماء والمثقفين والفنانين وكل من رفض العيش دون كرامته أو حقوقه في ظل هذا النظام الفاشي الطائفي العنصري، وبحكم هجرتهم وعيشهم خارج سوريا، فقد أصبحوا أول من مد يد العون بالمال للثورة ورجالاتها وللجيش الحر، آملين في أن يغيروا واقع الحال في الوطن. آثر الجيش الحر الابتعاد عن الانخراط في العمل السياسي مع المعارضة، التي غالباً ما أخذت دعمها من الإخوان المسلمين، أو بعض الدول كفرنسا على سبيل المثال.

كانت الأراضي الزراعية تمتد حتى الحدود مع لبنان، تصلها بعضها ببعض مع الطرق الزراعية غير المعبدة، ويحيط بها جدران قديمة من الحجر الأسود المتوفر في تلك المنطقة، والتي استخدمها الصليبيون الذين عبروا هذه الطرقات ومكثوا في بعض المواقع في بناء بعض حصونهم فيها، وكان من أهم هذه الحصون قلعة الحصن، غير بعيدة عن

الحدود، وهي قلعة بقيت شاهدة على هؤلاء الغزاة الذين تركوا بصمة في ذاكرة الأجيال التي لحقتهم.

اقتربت الشاحنة حوالي منتصف الليل من الحدود غرب قرية عربين فودع جمال وصاحباه الرجلان، حيث اجتاز جمال وفادي وعلي الحدود دون أية عقبات، ليتلقاهم الدكتور كمال ورجلان آخران على الطرف الآخر منها، وأركباهم معهم في السيارة التي قطعت الطريق إلى منجز عبر كنيس عكار.

لا زالت ذكريات هرب جمال وزميليه حاضرة في ذهنه، والآن آن لهم أن يعودوا للانخراط في النزاع، وملؤهم الحماس والاستعداد لتلبية الواجب.

وكان جمال لا يزال يتحفظ من أحمد ووضعه الصحي المتردي، وتردده وعدم حماسه للعمل، وتفهم جمال وضع أحمد وخلفيته العلمية والأسرية، فقد نشأ أحمد وترعرع في المدينة برعاية أم حنونة وأب غير آبه.. فهي أسرة متوسطة، وكعادة أغلب هذه الأسر فإن الولد الأكبر ينعم بالدلال ويحصل على كل ما يطلب من دون أن يكلف نفسه عناء بذل أي مجهود، حتى ولو جاء ذلك على حساب باقي أفراد الأسرة، لم يزدري جمال أحمد غير أنه خشي أن يكون عبئاً على المجموعة..

وحوالي الساعة الحادية عشر ليلاً سُمع صوت طرق باب خفيف على الباب.. شهر جمال مسدسه ووقف خلف الباب مستفسراً عن الطارق.. فجاء الجواب: «لقد أرسلني الدكتور كمال..». هرع جمال لإيقاظ الشباب المبعثرين على أرض الغرفة قبل أن يفتح الباب، ودلف إلى الغرفة شاب قدم نفسه على أنه فايز وأنه قدم من طرف الدكتور كمال لمد يد العون للمجموعة، وأن لديه سيارة في المدخل وعليهم أن يجمعوا حاجياتهم للتحرك فوراً، واستدار من فوره ونزل على الدرج.

ودَّع الشباب حسان وغادروا الغرفة على أمل اللقاء القريب ثانية في سوريا.. تحركت السيارة في شوارع القرية بسرعة عادية، وما إن وصلوا إلى الطريق الزراعي حتى أسرعت السيارة، وسأل جمال عما إذا كان أحد بانتظارهم على الطرف الآخر، فأجاب فايز أن لا يستطيع أن يأخذهم أبعد من الحدود، ثم سوف يتولى الجيش الحر أمرهم من هناك.. قطعت السيارة المسافة القصيرة إلى الحدود، وتذكر جمال كنيس عكار، ونزل الجميع من السيارة وساروا عبر الشجيرات المتناثرة كما فعلوا في المرة الأولى، واجتازوا الحدود دون أي عقبة تذكر حيث استقبلهم بعض العناصر من الجيش الحر، وكانوا نفس الرجلين اللذان أخذاهم من المقبرة في حمص.. وكان اللقاء مدهشاً، وتبادل الجميع التحية وبعض الابتسامات.. فبادرهم جمال قائلاً: «علينا أن نتعرف بشكل رسمي هذه المرة..» فبادلاه الابتسامة وقدما أنفسهما، الأول ليث والثاني محمود، وأنهما انشقا عن الفرقة السابعة، وأضاف أن هذه المنطقة تحت إشراف الجيش الحر، وأنهما يعرفانها جيداً، بحيث يمكنهما قيادة السيارة من دون النظر إلى الطريق... فصاح أحمد محاولاً أن يكون طرفاً في الحوار: «لا أرجوك.. أبق عينيك على الطريق..» وأتبع كلامه بابتسامة لطيفة.. وضحك الجميع.. قفز الجميع إلى صندوق الشاحنة، وقطعت السيارة مسافة قصيرة لتصل إلى بابا عمرو، حيث دخلوا الحارة عبر المقبرة.. مارين بمنطقة مأهولة تملؤها بنايات صغيرة مؤلفة من طابقين أو ثلاثة، ذات شوارع ضيقة.. ثم توقفت أمام بوابة حديدية كبيرة نوعاً ما، حيث أجرى ليث اتصالاً هاتفياً مختصراً فانفتحت البوابة لتدخل الشاحنة ثم تغلق فوراً.. كان الظلام يعم المجمَّع.. وتسمع صوت طلقات نارية من بعيد بشكل متقطع، كانت حارة بابا عمرو محركاً أساسياً في الثورة، وغالباً ما كانت تسمع بعض الصيحات والأهازيج ضد النظام وضد آل الأسد حتى في هدوء الليل، وكان المجمع يعجُّ بالمسلحين، ولاحظ الشباب في إحدى زوايا المجمع عربة مصفحة ناقلة للجنود ومغطاة بشبكة تمويهية.. وصل الشباب إلى بناء مؤلف من طابق واحد بعد أن مرّوا على عدد من الرجال

المدنيين أو الذين يلبسون ثياب الميدان، واستقبلهم على مدخل البناء شابٌّ قدم نفسه على أنه الرائد فراس كيلاني، مطمئناً لهم أنهم بين إخوتهم وأصدقائهم، وسألهم: «كيف حال صديقي العزيز الدكتور كمال..؟؟» فأجابه أحمد أنه بخير وأنه رجل كريم عطوف..

فعقب فراس بالتأكيد قائلاً: «لقد عرفنا بعضنا منذ صغرنا، فلطالما لعبنا معاً، لأنني من تلكلخ أيضاً..» ضحك الرائد وطمأن الجميع بأنهم في مأمن هنا.. إذ أن كلاب النظام لا يجرؤون على الاقتراب من هذا المكان وخاصة ليلاً، إذ إننا نسيطر على كامل الحارة ليلاً وأكثر من نصفها نهاراً..

وهنا لاحظ الرائد فراس أن جمال انسحب بلطف من المحادثة ووقف إلى جانب أحمد ليطلعه على ما يعرف عن الوضع هنا قائلاً: «إن هذا الضابط من طراز نادر في الشجاعة والقوة، وبلغني من بعض الأفراد الذين خدموا تحت إمرته أنه من أقوى الضباط الذين عملوا معهم خلال خدمتهم في الجيش. وهذا ما نحتاجه الآن.. قائداً متميزاً..» واستدار ليعود إلى مكانه فيما كان أحمد يرمقه بنظرة غبطة على هذه العين الثاقبة.. ثم غادر جمال مخلياً المكان للضابطين لتبادل الحديث وعاد إلى رفاقه المعهودين في الفصيلة، فعانقه الأفراد كما يعانق طفل صغير والده بعد طول غياب.. تحدث معهم جمال ولفت نظرهم إلى بعض الأخطاء البسيطة التي ارتكبوها أثناء الانشقاق، وأخذ الشباب النقد بروح رحبة، فقد كانوا سعداء بعودتهم مع بعض مرة أخرى..

ودار الحديث بين الضابطين بسؤال الرائد الملازم عن اسمه، فأجابه: أحمد هندي، فسأله: هل أنت قريب للعقيد المتقاعد عصام الهندي؟ فأجابه: نعم.. إنه والدي.. فأثنى عليه فراس قائلاً إنه خدم معه في الكلية العسكرية بحمص. واستفسر من أحمد عما يفعله أبوه الآن، فأجابه أحمد: لا شيء يذكر سوى الجلوس في المقهى لمقابلة بعض الأصدقاء القدامى، والاتصال ببعض الآخرين، والتقاعد قد أثر على نفسيته سلبياً بشكل كبير...

أرجو أن تبلغ تحياتي الحارة له إذا ما قابلته ثانية.. فكاد أحمد أن يقول: إذا خرجنا من هذه المحنة أحياء.. غير أنه توقف دون ذلك.. إذ إنه تذكر محاضرة جمال عن القائد بأنه يسيطر على ما سيقول، وأن يكون متفائلاً دائماً في كل الأحوال.. فأجاب: «نعم سيدي.. سوف أفعل..» فتابع الرائد فراس قائلاً: «سوف نعقد اجتماعاً مع الضباط بعد نصف ساعة لنراجع عمليات الغد.. أرجو أن تطلب من الرقيب جمال أن ينضم إلينا..» فأجاب أحمد بالإيجاب، وغادر الرائد المكان واستدار أحمد يبحث عن جمال الذي كان لا يزال ضمن أفراد فصيلته يتجاذبون أطراف الحديث.. وقف جمال في وضع التهيؤ حينما لمح أحمد، الذي أعلمه بأمر الرائد بضرورة حضوره الاجتماع.. فسأله جمال فيما إذا كان هناك من أمر يجب أن يعلمه قبل الاجتماع، وذلك ليتحاشى أن يظهر قلة خبرته في القيادة أمام جموع الضباط.. فأجاب أحمد بالنفي.. وأكد له بأنه سوف يخبره بكل ما يستجد أولاً بأول..

وبعد نصف ساعة عقد الاجتماع الذي ضمَّ الرائد والنقيب وملازمين والرقيب جمال، فقدم الرائد الجميع للتعارف ثم قال: غداً أيها الرجال من المتوقع أن يكون عصياً على المجمع والحارة. فقد أكد لنا عناصر الاستخبارات أن النظام قد نشر لواءً مدرعاً في محافظة حمص، وسوف تقف خمس كتائب في مداخل بابا عمرو جميعها.. كما أنهم سيقتحمون باب السباع، وسوف يستخدمون قناصي حزب الله من أسطح البنايات.. لقد خطَّطت اللجنة الثورية لمظاهرة تنطلق من جامع الزبير بن العوام بعد صلاة الجمعة مباشرة.. وعلينا أن نغطي هذه المنطقة بكل حذر.. وكما تعلمون فقد قسمنا المدينة إلى قطاعات لسهولة إدارة المعركة، إنها قطاعات أ – ب– ث – ج – ح.. وتم تقسيم كل قطاع إلى ١و٢، أ١ وأ٢... كما ترون على الخريطة أمامكم.. فهل من أسئلة حتى الآن.. وأشار إلى الملازم أحمد قائلاً: عليك أن تدير المعركة في القطاع B2 شمال التقاء شارعي الوحدة والبرازيل، فإنها منطقة معقولة وتسمح للضباط المنشقين حديثاً باكتساب الخبرة

اللازمة.. وأنت رقيب جمال، عليك أن تكون في الجامع لتغطي المنطقة بكاملها، وتقضي على القناصة المتمركزين على أسطح البنايات، وسوف يكون معك ثلاثة من أفضل الهدافين. واجبك أن تتأكد من حرية الحركة لعناصرنا وأن تؤمّن لهم الأهداف حسبما تراه مناسباً.. وتابع توزيع المهمات إلى أن انقضت خمس وأربعون دقيقة حيث انفض الاجتماع..

تبادل أحمد وجمال الحديث بعد الاجتماع بقول أحمد: أرى أننا لم نعد مع بعض يا جمال.. قالها وكأنه يشعر بأنه يتحمل عبء القيادة وحده هده المرة..

فأجاب جمال: لا يا سيدي.. لا زلنا مع بعضنا للوصول للهدف..

أرجو أن تعتني برجالك.. ونظر في عيني أحمد وكأنه يشجعه على استعادة الثقة بنفسه.. فكان رد أحمد مهذباً وباختصار: اعتن أنت برجالك وأنا سأقوم بواجبي..

ابتعد كل منهما عن الآخر واجتمع بأفراد مجموعته لتحديد المهام، فقد عُهد إلى أحمد حماية قطاع يحتوي على عيادات ميدانية لمعالجة المصابين من المتظاهرين وأفراد الجيش الحر، والتي كان يديرها متطوعون من أطباء وممرضات ممن تحملوا المخاطرة بحياتهم للعمل بظروف صعبة ونقص شديد في المواد والأجهزة والعقاقير الدوائية، وكانوا أحياناً يضطرون للعمل في الأزقة الضيقة أو على الأرصفة.. وكثيراً ما كانت تأتيهم بعض الإصابات الشديدة جداً وكانوا يعجزون عن إنقاذ المصابين مما زاد في إحباطهم وألمهم فوق تعبهم.. وكثيراً ما كان جواسيس النظام يعلمون أجهزة الاستخبارات عن أسماء وأماكن تواجد المسعفين، وهذا يعرضهم إلى انتقام النظام الشرس والمتوحش اللاإنساني.. ولم يكن لدى المصابين من خيار إلا تلك العيادات الميدانية. إذ أن التجاؤهم إلى مشافي الدولة العامة أو المشافي الخاصة كان يعني الموت المحقق على أيدي الشبيحة الذين كانوا يعدمون المصابين

داخل المشافي، أو يأخذوهم من المشفى ليتسلّوا بتعذيبهم وسرقة الأعضاء وبيعها في السوق السوداء.. ليكونوا عبرة لغيرهم. وكانت مهمة أحمد ومجموعته حماية المسعفين وتقديم المساعدة لهم بنقل المصابين من خط التماس والدفاع عن المصابين.

أما مهمة جمال فكانت أكثر تقنية.. فكان عليه أن يختار الأهداف لكي يقضي أفراد الجيش الحر على القناصة الذين ينتشرون على أسطح البنايات أو في الشبابيك حيث لا يترددون في قتل أي شيء يحرك أمامهم..

لقد كان حيا بابا عمرو وباب سباع تحت حظر التجول بالكامل.. ومع ذلك كانت الطلقات تسمع خلال الليل والنهار في خطة من النظام لإرهاب المواطنين ومنعهم من الشعور بالأمان على مدار الساعة.. وكان القناصة ينتشرون في كل مكان ويقتلون أي أحد يتحرك دون التمييز بين رجل أو امرأة أو طفل أو حتى حيوان.. فيبدؤوا صباحاً باستهداف المدارس والمتاجر وحتى الناس داخل بيوتهم، مما أدى إلى وقوع عدد كبير من القتلى داخل بيوتهم. وكان الأمر بالنسبة للنظام استباحة كاملة للبشر والحجر.. كما أن قوات الأمن كانت تنعم بكرت أبيضCart blanch للقيام بأي عمل يرونه دون الرجوع لأي سلطة أو مسؤول، تحت غطاء القضاء على الثورة.. وهذا بالنسبة لهم مسلياً لنفوسهم المريضة المتعطشة للدماء وإشباعاً لساديَّتهم المتناهية بقتل وذبح المواطنين العزَّل.

وكانت مهمة مجموعة أخرى من الجيش الحر إقامة مأوى وأماكن إقامة مؤمَّنة بالأسلحة الخفيفة التي يملكونها لإقامة حواجز في الأماكن التي يسيطرون عليها، ولم يكن لديهم سوى بعض أكياس الرمل وحطام المنازل لإقامة تلك الحواجز، مما جعل هؤلاء الشجعان يعانون من أكبر عدد من الإصابات، مما جعلهم موضع إعجاب وتقدير القائمين على الثورة رغم عدم دعمهم من قبل بعض المترددين في دعم الثورة، حتى أن بعضهم طلب من بعض القوى الخارجية بالضغط على الجيش الحر لإجباره على عدم

الالتحام مع الجيش النظامي، وقد استفاد نظام الأسد واستخدم هذا الشرخ بين من يطالب الدولة بإصلاحات ضرورية بالطريقة السلمية واللا عنف، وبين هؤلاء الذين يتمنون لو بقيت الأمور على حالها.. ولقد أصدرت قيادات مناوئة للنظام مرة بعد أخرى بيانات تطالب بالتظاهر السلمي وتؤكد سلمية المعارضة.. غير أن النظام الوحشي كان يقابل ذلك بمجازر لم يسبق لها مثيل..

استمر توزيع المهمات على أفراد الجيش الحر حتى ساعات الصباح الأول، مع سماع رشّات متفرقة من الأعيرة النارية طوال الليل لتذكير الناس بمهمتهم القادمة.. ومع أذان الفجر اشتدت حدة الطلقات من قبل النظام ليخيف الناس من الذهاب إلى المسجد لأداء صلاة الفجر.. واستخدم حديثاً قذائف الهاون إمعاناً في التخويف والإرهاب.. أما بالنسبة للسكان فكان الأمر كلاعب الروليت الروسية.. فلا يدري أحد أين ستسقط القذيفة التالية.. إذ تكرر سقوط بعض القذائف على بنايات بأكملها والناس داخلها نيام، وكثيراً ما كانت تسقط القذائف في الشوارع المزدحمة بالمارة والمتسوقين مما يؤدي إلى مقتل البعض وجرح الكثيرين..

المواطنون الصحفيون

مدينة حمص – حي بابا عمرو

تتطور الأحداث وتتغير في سورية كل ساعة، وفجأة وبعد طول انتظار ومماطلة وتسويف من نظام الأسد، وافق على إدخال مراقبين عرب تحت مظلة جامعة الدول العربية لمراقبة الأوضاع ووضع تقرير مفصل عن ذلك، وفي مرحلة الانتظار والتسويف كانت آلة القمع لا تتوقف عن حصد أرواح الشهداء، شباباً وشيباً نساءً وأطفالاً من دون أي تمييز.. ومع أن المقاومة كانت تدرك مسبقاً أن لا أمل يرجى من بعثة المراقبين، ولا فائدة في وجودهم في وقف القمع والقتل إلا أنهم تأملوا خيراً.. وفي هذه الفترة كان الشباب والشابات يغامرون بكل ما يملكون لتوثيق مجريات الأحداث بالصور والفيديو. ويبثونها عبر الأثير على أمل أن تثير هذه المناظر المفجعة بعض النخوة في ضمائر بعض حكام العرب، ويأخذوا قراراً أو يقوموا بعمل ما لإيقاف المجازر اليومية.. ولهذا التلكؤ من الغرب فلم يتوقف النظام عن تكرار ذات المذابح والمجازر والقتل العشوائي للحظة واحدة، وفي واقع الأمر فلولا تلك الصور والفيديوهات والتي يبثها تباعاً وآنيّاً هؤلاء الشباب والصبايا الشجعان؛ لارتكب النظام جريمة تنظيف عرقي وإبادة جماعية غير مسبوقة بالتاريخ، ولا غرابة إن فعل، فقد علمنا التاريخ أن والد الرئيس الحالي قد ارتكب ما هو أفظع إذ قتل ما يقارب من اثنين وأربعين ألف مواطن في غضون أسبوع في مدينة حماه، ولم يتحرك العالم آنئذ، لأن النظام فرض تعتيماً إعلامياً قاتلاً، منع من وصول أي خبر لأي وسيلة إعلامية آنئذ. ومع أن النظام لا يزال يمنع دخول الإعلاميين الأجانب إلى سوريا لتغطية الأحداث، غير أن هذا المنع لا يصمد أمام إرادة الشعب الذي يمتلك بعض الأدوات البدائية للاتصال بالخارج ونشر الأخبار الآنية من خلال الهواتف النقالة وتقنية

الأقمار الصناعية، وبهذا غدا هؤلاء الشباب المصدر الوحيد الذي يوثق الأحداث ويبث للخارج كل ما يحصل داخل سوريا.. لحظة بلحظة.. ففي حمص تم بث صور وصوت الانتفاضة من قبل هواة معظمهم من طلاب الجامعات الذين كانوا يستعملون التصوير والفيديو كهواية مسلية دون أية خبرة إعلامية سابقة، غير أن تطور الأحداث وفظاعتها جعل هوايتهم ذات قيمة وفائدة..

كان عمر الحسيني أحد هؤلاء الطلاب الذين يمضون أوقات الفراغ بالتسلية بالعبث بالكمبيوتر، وكان يدوِّن بعض الطرائف والأفكار التي تتوارد لذهنه ويتبادها مع أصدقائه على الفيس بوك.. غير أن قيام الثورة جعله صحفياً يجمع الأحداث من الشارع ويبثها للعالم متسلحاً بهاتفه الجوال وإرادته وعزمه على إطلاع العالم على ما يجري في مدينة (حمص)، وكان يخاطر بكل شيء ليحصل على لقطة نادرة لأحد المتظاهرين الذين يتلقون الرصاص من زبانية النظام، أو على ومضة بالفيديو لقناص يستهدف شاباً أو امرأة تعبر الشارع، أو تلك المناظر الدامية للمتظاهرين السلميين.

التقط عمر هذه الصور والأشرطة منذ آذار ٢٠١١ وبثَّها للعالم دون تحريف أو زيادة بعد أن يضعها على صفحة الفيس بوك أو اليوتيوب أو أي موقع آخر على الشبكة العنكبوتية.. وقد أضاف حديثاً على صفحته حادثة مفجعة، إذ صور بالفيديو وبث حادثة إطلاق زبانية النظام النار على مشيعين يحملون نعش أحد الشهداء وهم في طريقهم لدفنه في المقبرة، مما حدا بالمشيعين أن يضعوا التابوت والشهيد بداخله على الأرض ويزحفوا بين أحجار القبور، واختبأ بعضهم في قبور محفورة حديثاً، وأسفرت هذه الحادثة إلى استشهاد اثنين من المشيعين الذين اضطر الباقون إلى دفنهم مع الشهيد الأصلي، حدث كل هذا وكان عمر يحمل هاتفه الجوال ويوثّق هذه الجريمة.. ولو أنه كان مصوراً محترفاً لحاز على هذه الصور والتسجيل أعرق الجوائز للصحفيين، غير أن ما يفعله

عمر وأمثاله الذين آلوا على أنفسهم وخاطروا بأنفسهم لتوثيق جرائم هذا النظام السفاح الظالم تمر دون أن يلتفت إليها أحد أو يقدر من يفعلها. وجدير بالذكر أن هؤلاء الصحفيون المواطنون وأسرهم معرضون لاستباحتهم من قبل جلاوزة النظام أو حتى للقتل من قبل رجال الأمن والمخابرات وأعوانهم، لقد حاول عمر دائماً أن يكون موضوعياً في عرض هذه الصور والجرائم، غير أن تكرر رؤيته للقتل والتعذيب والامتهان للإنسان يوماً بعد يوم، غيرت في نفسية عمر وجعلته أكثر انخراطاً فيما يجري حوله ويتساءل: «لماذا هذا القتل والوحشية في هذا المكان بالذات، الذي عانى و لا يزال يعاني من إهمال الحكومة لتقديم أبسط الخدمات الأساسية.. فالنفايات تتكوم ويزداد ارتفاع القمامة يوماً بعد يوم، وانقطاع الكهرباء والماء أصبحا شبه دائمين، وأصحاب الحوانيت يعودون من متاجر الجملة خاوي الوفاض، لأنه بمجرد أن يكتشف رجل الأمن الذي يقف على الحاجز أن هذه البضاعة متوجهة إلى بابا عمرو بالرجوع الى البطاقة الشخصية لصاحب الحانوت حتى يمنع مرور البضاعة ويلقيها في الشارع للتلف، وقد يحتجز صاحب الحانوت لمدة لا يعلمها إلا الله حسب مزاج القائم على الحاجز.. مما جعل كل الحوانيت خاوية من معظم المواد الغذائية الأساسية كالخبز والحليب والسكر والخضار.. كل ذلك في محاولة من النظام لتجويع أهالي المنطقة ليركعهم ويجبرهم على الخنوع والخضوع لإرادته.

أصبحت ضاحية بابا عمرو منطقة تماس بين الجيشين الحر والنظامي، فدمرت معظم البنايات والمدارس، ونهبت المتاجر من قبل سفاحين ولصوص النظام، وقصفت الجوامع وحرقت محتوياتها كما حصل في جامع المريجة رمز المقاومة في باب سباع.. وتمكن عمر من التقاط حرق الجامع وقصفه وسرَّبه إلى الخارج عبر صفحته، وهكذا غدا الصحفيون المواطنون جزءاً أساسياً من جسم الثورة، وأصبحت تضحياتهم ومخاطراتهم جزءاً ملموساً لا يمكن الاستغناء عنه لنشر جرائم النظام وممارساته الوحشية.. وفي محاولة منه لتسجيل عمليات الجيش الحر في المدينة وبثها مما قد يشجع بعض جنود وضباط النظام

على الانشقاق والانضمام إلى الجيش الحر.. فقد اتصل بالرائد فراس كيلاني واستأذنه في مرافقة بعض الدوريات أو زيارة بعض مراكز التجمع في المنطقة، فأفهمه الرائد صراحةً أن هذا الأمر ذو خطورة كبيرة، وأنه قد يعرض نفسه إلى ما لا تحمد عقباه، وبعد إلحاح عمر قال الرائد فراس: «لا مانع لدي.. شريطة أن تعدني ألا تعيق عمل الرجال، فنحن أهداف ثمينة لرجال النظام لما نقوم به من عمليات تدمر نفسية الجنود، ولا يتردد للقيام بأي شيء لقتل أو اعتقال أي فرد من أفراد الجيش الحر، فالانشقاق عن الجيش من أصعب المشاكل التي يعاني منها أي جيش في حالة الحرب، وهذا الجيش ليس استثناءً من أي جيش آخر، فعليه أن يقنع أفراده بعقيدته النتنة لكي يستمروا بخدمة النظام..».

فأجابه عمر بكل إيمان: «أعدك بأن لا أعيق عمل الشباب، وأنا واثق أنه في يوم من الأيام قريباً إن شاء الله سوف يكون هؤلاء الرجال (رجالك) نموذجاً يحتذى للمناضلين في سبيل الحرية، الذين حرروا بلادهم من الاستبداد. وكلما زادت تغطيتنا الإعلامية لعملياتهم كلما زاد عدد المنشقين عن النظام».

فقال الرائد: «حسناً سوف نتصل بك في غضون يومين..».

فشكره عمر مودعاً وعاد إلى منزله مغموراً بحماسة وعزيمة ليبدأ حقبة جديدة من حياته في توثيق وبث الأحداث بأسلوبه الخاص، غير أنه حدث نفسه أنه ما إن يتم بث أحد الصور على الفيس بوك أو اليوتيوب فعليه أن يتوقع زيارة كارثية له ولأسرته من عصابات الأسد وزبانيته.. فاتصل بزميله طلال ليكون هو المصور الرسمي في حين يكون هو المذيع للحدث. فوافق طلال فوراً وتحمس الشابان للفكرة خاصة وأن المشاهدين سيكونون من كل دول العالم، وأن أفلامهما وصورهما سوف يكونا جذابين للمشاهدين ولا بد أن يراهما زبانية النظام ورجال مخابراته المتخصصة بالتكنولوجيا الالكترونية، وبالفعل فقد اطلع زبانية النظام على الأفلام والصور، وصدرت عنهم الأوامر باعتقاله أو القضاء

عليه بأي ثمن كان.. وأصبح عمل عمر واسمه متداولاً ما بين اللجان التنسيقية، فقد كان الصوت والصورة الذي يبلغ العالم قصص بطولاتهم مما رفع معنوياتهم لمجرد معرفتهم أنه ربما سمع أحد ما في مكان ما صيحات ألمهم ومعاناتهم من هذا النظام المجرم السفاح..

اتقد عمر حماساً لمجرد تفكيره بأنه سوف يرافق مقاتلي الجيش الحر ويسجل عملياتهم، وصادف أن كان ذلك اليوم هو اليوم الأول الذي يزور فيه وفد جامعة الدول العربية مدينة حمص. وتم تقليص عدد المراقبين من ٥٠٠ إلى ١٠٠ مراقب تحت إصرار النظام السوري. ومع أن المقاومة نظرت إلى تلك المهمة على أنها حيلة من النظام للعب على الوقت غير أنها كانت منعطفاً لا بأس به في تاريخ الثورة.. تم اختيار المراقبين دون الاعتبار لإمكاناتهم وكفاءاتهم ودون البحث بدقة عن خلفيتهم، وقد تردد أن رئيس الوفد كان من المنفذين لمجازر جنوب السودان. وقد شعر السوريون عامة بالاشمئزاز من موافقة الجامعة العربية على مطالب النظام بالترتيب بإرسال البعثة، مما سمح له بارتكاب عدد غير قليل من المجازر قبل وصول البعثة، فقد صعَّد النظام من شراسته في محاولة سحق الانتفاضة، وزاد عدد الضحايا عن مئة قتيل يومياً عدا عن الجرحى والمشوَّهين، وقام النظام بتغيير أسماء بعض الشوارع لكي يشوش المراقبين، ولإعاقتهم في تحديد مواقع القتل والإجرام.

وفي هذا اليوم سحب النظام قواته و مصفحاته و دباباته وخبأها في أماكن غير ظاهرة للعيان حوالي مدينتي حمص وحماه مما أتاح لحوالي سبعين ألف متظاهر من المسير في الشوارع أمام أنظار المراقبين، ووقد تمكن عمر وصاحبه من تصوير الآليات المخبأة من دبابات وعربات مجنزرة وبث الصور على صفحته على الفيسبوك غير أن هذا لم يلفت أنظار المراقبين لسوء الحظ، وبدا للمقاومة أن الهدف الأساس من زيارة المراقبين أن يقنعوا حكام العرب أن هذه الانتفاضة ليست بالحجم الذي صورته لهم المعارضة.

استيقظ عمر وطلال فجراً للالتحاق بعناصر الجيش الحر المنوط بهم مهمة حماية مظاهرة سلمية ستخرج في بابا عمرو، وكانا بأشد الحماس، وقابلا أحمد الذي رحب بفكرة مرافقتهما للشباب شريطة أن لا تظهر صورته في أي لقطة تلفزيونية. كان معظم رجال المقاومة يلبسون الثياب المدنية باستثناء البعض الذين كانوا يرتدون الزي العسكري، واعتمر بعضهم الكوفية على رأسه، وبعضهم غطى وجهه بقناع يكشف عن عينيه وفمه فقط، ركب الشباب دراجات نارية وتشارك كل اثنين منهم بدراجة واحدة، وانطلقوا بشوارع جانبية وأزقة ضيقة تحاشياً للقناصة المنتشرين على أسطح البنايات ليأخذوا مواقعهم، شعر أحمد ببعض الارتباك لفقده حكمة وإرشادات وخطط جمال، وأخيراً اختار الزاوية الشرقية الجنوبية لتقاطع الشارعين مركزاً له لإثبات قدراته القيادية.

سأل طلال: أين تقع العيادات والمستشفى الميداني..

فأجابه أحمد: سوف يلحقون بنا قريباً.. مع بعض الاستغراب لتأخرهم في الوصول.. وتأكد من أن موقعه في التقاطع بين شارعي الوحدة والبرازيل وأشار أحمد لرجاله أن يتمركزوا في البناية الثانية في الزقاق الضيق.. فسأله أحد العناصر: ماذا عن خطة التراجع إذا اضطررنا..؟؟ فنظر أحمد حوله، ووجد فتحة كبيرة في جدار البناية إثر قذيفة سابقة.. فأجابه مشيراً: سوف نستعمل هذا كموقع بديل.. غير أن هذا العنصر شكك في قدرات أحمد وخبرته القتالية، ولم يبد ذلك لأحمد بل سار باتجاه زملاءه وناقش معهم الوضع، وبقي عمر وطلال مع الملازم أحمد الذي لاحظ على الفور حديث عناصره الخافت فقرر عدم خوض الحديث معهم لكي لا يظهر قلة خبرته وتردده.. غير أن أحد العناصر تجرّأ وقال لأحمد: «سيدي هذه ليست مهمتنا الرئيسية.. مهمتنا أن نحمي الطاقم الطبي والمتطوعين..» فسأله أحمد: «وهل ترى أي فرد من الطاقم الطبي هنا؟؟ من المؤكد

أننا هنا لحمايتهم، ولكنهم لم يصلوا بعد.. فهل نعود أدراجنا أم نؤمِّن حماية للمتظاهرين؟؟».

فأجاب العنصر بلهجة تصميم: «لا.. علينا العودة ثم نتلقى تعليمات جديدة..»... فلاحظ أحمد لهجة التحدي من العنصر وقال: «لا أعتقد أن هذا هو الحل الأفضل.. أنا المسؤول هنا.. وأنا من يتخذ القرارات..».

أخذ الرجال الأربعة مواقعهم حسبما أمر أحمد.. وتمركز ثلاثة منهم في الدور الأرضي بمستوى الشارع موجهين سلاحهم pkm نحو الغرب، ورافق الرابع أحمد إلى الطابق الأعلى، وكان أحمد يريد بقاء عمر وطلال إلى جانبه وقال: لا بد أن الفتحة من الدرج سوف تعطيكم فرصة مراقبة المظاهرة. فانصاعا لأمره وصعدا الدرج ووجهوا الكاميرات باتجاه الشارع والمظاهرة المتوقعة.. راجع عمر مقدمة الفلم وطلال يصوره.. وجلس الاثنان يترقبان لبضع سويعات..

سمع الشباب أصواتاً تقترب منهم مصدرها الجانب الغربي من الشارع.. علت الأصوات تدريجياً مع تقدم المتظاهرين.. أحس فريق الجيش الحر أن اختيار ضابطهم للموقع لم يكن موفقاً، فهو غير مفيد إطلاقاً، إضافة إلى أنه قد يكون خطراً.. وبدا أحمد مشوش الفكر ولا يكاد يتقبل خطيئته.. فبادر عمر قائلاً: «ربما علينا أن نغير موقعنا فلا أستطيع رؤية شيء من هنا.. لا بد وأن أكون في الشارع..».

تجمد أحمد في مكانه ولم يلقِ بالاً لكلام عمر واقتراحه، علا صوت المتظاهرين بالأهازيج والنداءات مما شل تفكير أحمد..

نزل عمر وطلال فوراً إلى الشارع، وما إن أخذا موقعهما حتى سمع دوي زخات من طلقات البنادق تلاها زخات أخرى ثم ثالثة.. وفجأة فتحت أبواب الجحيم على

المتظاهرين فلم يعد أحد يعرف مصدر الرصاص، واخترقت بعضها الزقاق الضيق، فقرر المقاتلون ترك مواقعهم على الطابق الأرضي والاختلاط بالمتظاهرين تاركين قائدهم أحمد لقدره.. وحاولوا الوصول إلى موقع آمن قد تم تعيينه مسبقاً يبعد حوالي ١٠٠ متر عن موقعهم الحالي.. ولاحظ عمر وجود قناصين على بعد ٢٠٠ متر في الشارع المقابل لموقعهم.. وفي تلك اللحظة انفجرت قنبلة في الزقاق الضيق الذي كانوا فيه.. أمر عمر طلالاً أن يختلط بين الجموع ووعده أن يلحقه بعد لحيظات.. ولما سأله عمر عن سبب تخلفه عنه أجابه بأنه يريد أن يتأكد من سلامة الشباب داخل البناية وإمكانية خروجهم بسلامة..

هرع طلال واندسَّ ضمن الجموع وغاب في لجة الزحام..

والتفت عمر إلى الدرج صائحاً: هلمُّوا.. اخرجوا فوراً.. فلم يسمع أي جواب.. وفجأة بعد بضع ثوان نزل المقاتل الرابع عن الدرج مسرعاً وغادر المكان.. فقبع عمر في جانب البناية واختبأ عندما سمع صوت قذيفة هاون قادمة باتجاهه حيث انفجرت غير بعيد عنه وغطَّته بالركام والغبار، نهض بصعوبة غير أنه لم يعد يرى المقاتل الرابع. صعد درج البناية متخطياً الركام و كتل الاسمنت المكسرة إلى أن وصل إلى ما بين الطابقين حيث شاهد أحمد لم يصب بأي أذى غير أنه يرتجف قابعاً في الزاوية بوضع يشبه وضع الجنين في بطن أمه، أمسك به عمر وجذبه بشدة غير أنه أفلت نفسه من قبضة عمر وعاد إلى وضعيته وبدأ ينشج بصوت مرتفع ولم يتمكن عمر من تحريكه، فصاح به عمر بعد أن أدرك أنه بحالة صدمة وانهيار كاملين: انهض.. ليس بك أي أذى، أريدك أن تأتي معي فقد انكشف موقعنا.. واستمر عمر بالصياح مع تزايد زخات الرصاص حولهما، فقد أصابت قذيفة الهاون الدرج وجانب البناية، غمر الركام والغبار المكان، ورفع عمر أحمدا عن الأرض وجذبه من معطفه وأنزله على الدرج، وبدأ أحمد يستعيد وعيه في آخر الدرج

حيث لاحظ أن مدخل البناية مكشوفاً للقناصة، وخاصة بعد إصابته بقذيفة الهاون، اختلس عمر نظره للخارج ليتبين عن مدى إمكانية الاستمرار الآمن مع هذا الحمل الثقيل معه، استجمع أحمد بعض قواه وانتصب قائماً غير أنه لا يزال مشوشاً وغير واعٍ لموقعه.

خمَّن عمر بأن أحمد لا يزال يعاني من صدمة القذيفة، غير أنه تمكن من سحبه خارج مدخل البناية مدمرة، وقفا خارج البناية للحظة ثم تابعا مسيرهما باتجاه الحشود المتناثرة، وفي تلك اللحظة انفجرت قذيفة هاون ثانية خلفهما فأخفضا رأسيهما وتابعا السير حثيثاً.

وفجأة شعر عمر بألم حاد في رقبته وسقط على الأرض، وما إن رأى أحمد هذا المنظر حتى أدرك أن عمر قد أصيب بشظية في عنقه كادت تفصل رأسه عن جسده، مما جعل آثار الذعر في نفسيته وجعلته ينجو بنفسه وذهب مختلطاً بين الجموع.

امتاز هذا المنظر المروِّع من الهرج والمرج بطلقات رصاص وانفجارات تصم الآذان وإرهاب جنود النظام وقتلهم العشوائي، إضافة إلى سحابات الغبار التي ملأت الجو، وحطام وركام المباني ملأت الشوارع، وقد وقع بعض من عايشوا الأزمات السابقة ضحية لهذه المجزرة من قبل عناصر النظام المجرم الآثم.

- صناعة بطل -

The making of bero

قبع جمال ورفاقه في بناية شبه مهدمة من القصف الذي أصابها يتفحصون و يقيمون أسطح البنايات المجاورة لكشف مواقع قوات النظام، تلك البناية المهجورة والتي يدل ما بداخلها على أن أمراً رهيبا قد حدث فيها منذ أمد ليس ببعيد، فالمفروشات مبعثرة وبقع الدماء منتشرة على الجدران، ورائحة الدم الناشف تؤكد أن معركة عنيفة كانت قد جرت أحداثها في هذا المكان..

وكان كل تركيز جمال في هذه اللحظات هو على المهمة الموكل بها.. وأما رفاقه فيتألفون من قناص وجنديين للمراقبة إضافة إلى خفير على سطح البناية. زحف أحد الجنود على السطح ليقيِّم البنايات المحيطة بموقعه ثم اختار مخبأً له بين ثلاثة صحون لاقطة لأجهزة التلفزيون ليكون في مأمن من القناصة المتمركزين على أسطح الأبنية المجاورة، أما الجندي الآخر فقد نزل إلى مدخل البناية وقطع الشارع ودخل بناية أخرى حسب أوامر جمال، حيث تمكن من مكمنه هذا من مراقبة البناية والشارع أمامه ، وخبأ دراجتهما النارية في مدخل البناية حيث يقبع أحد المراقبين . فسأل جمال القناص : «ما اسمك يا أخي..؟؟».

فأجابه: «نور الدين، ويناديني الجميع: نور»..

فأمره جمال قائلاً: «اسمع يا نور.. عليك أن تفهم أوامري تماماً.. إن مجال بصرك كما ترى ١٨٠ درجة من اليمين إلى اليسار. هل تفهم ما أقول؟».

- بلى.. مجال بصري ١٨٠ درجة.

فتابع جمال: «سوف أشير لأي هدف أمامك حسب أرقام الساعة.. فإن قلت عند الساعة الثانية.. فإن الهدف يقع على يمينك هنا.. —وأشار بيده إلى نقطة محددة– وإذا قلت لكل الساعة العاشرة فهذا يعني أن الهدف هنا —وأشار بيده إلى نقطة محددة– هل كلامي واضح؟؟».

– نعم سيدي.. واضح جداً.. أجاب القناص.

– حسناً إلى مادا انظر إذا قلت لك حوالي الساعة /٩/.. على بعد مئة وخمسين متراً.

– تعني أنك تنظر إلى حاوية القمامة الزرقاء هناك.. أجابه القناص.

– ممتاز.. إنك حذق ليس قنصاً فقط.. وإنما ذهناً أيضاً..

وأضاف: وأريدك أن تحدد الهدف مع الأخذ بعين الاعتبار تقييم اتجاه وسرعة الريح.. فالريح الآن هادئة.. أما إذا اشتدت الريح عن يمينك فعليك أن تعدل استهدافك إلى يمين الهدف إن كان بعيداً، أما إن كان الهدف قريباً فلا ضرورة للتعديل.. بل أطلق على الهدف مباشرة..

– فهمت سيدي.. أجاب القناص.

لقد كان هذا الهدف الآني المختصر ضرورياً لكي يستوعب الجميع مهمتهم.. إذ من المعلوم للجميع أن جمال من أفضل المدرِّبين الذين لا يتركون شاردة ولا واردة إلا ويدرسونها مهما كانت ضئيلة، وكثيراً ما كان يكرر ويقول مرات عدة لكي يتأكد من أن الجندي فقد فهم كل ما يقال له.. وهو يعلم جيداً أن معظم عناصر الجيش السوري الحر

غير مدربين بما يكفي، ناهيك عن عوزهم للتخصصات الدقيقة، لذا فإن جل معرفته المسلكية كانت أن يعود الرجال إلى موقع قطعتهم سالمين..

أخذ جمال منظاره المقرب ومسح بصرياً مجاله كله ١٨٠ درجة.. ثم أعطى المنظار للقناص الذي عمل نفس الشيء دون أي يروا أي هدف مشكوك به..

لقد اعتاد سكان حمص على حالة الحرب غير المعلنة التي عاشوا ولا يزالوا يعيشون بها منذ فترة، فقد تعلموا وبسرعة أن يميزوا بين الصديق والعدو. فالعدو (الجيش النظامي..) يتحرك بمجموعات كبيرة وبرفقة آليات ومعدات ثقيلة ولم يكونوا يتحركون فرادى أو مجموعة صغيرة.. بل كانوا دائماً برفقة دبابات وApcs، وشبيحة، إضافة إلى باصات تنقل الجنود والشبيحة في قدومها، وتنقل السجناء إلى سجن حمص المركزي في رواحها.. وكان قناصتهم ينتشرون على مواقع استراتيجية في المدينة، وخاصة البنايات الحكومية، والتي عادة ما تكون أعلى من البنايات المجاورة، وإذا ما دخلوا منطقة جديدة غالياً ما كانوا يرسلون قناصاً كشافاً ليأخذ موقعه على سطح أعلى بناية ليرصد ما حولها ثم يرشد باقي القوات للتقدم ولتتموضع في مواجهة المتظاهرين..

عقد سكان بابا عمرو آمالاً كبيرة على أفراد الجيش السوري الحر واستقبلوهم كأبطال، وأمدّوهم بالغذاء والمأوى كلما دعت الحاجة، حتى أن بعضهم كان يخاطر بحياته لحماية أفراد الجيش السوري الحر. وقد نجمت هذه العلاقة الحميمة بين المواطنين والجيش الحر من الرغبة العارمة عند معظم أفراد الشعب للتخلص من هذا النظام الجائر، وبدأت هذه اللحمة منذ انطلاق الشرارة الأولى للثورة في درعا وإدلب، فقد شعر المواطنون بشكل عام بأن هؤلاء الشباب يشكلون الأمل في إنقاذهم مما هم فيه من ذل وهوان وظلم من كافة أتباع النظام وقطاعاته، إذ وقف الجيش الحر في وجه هذا الإجرام والقتل الجماعي عن المواطنين العزّل.

– وفجأة قال القناص: «سيدي.. انظر إلى اليمين.. الساعة الثانية مئتين متر، سطح البناية بين درابزين السطح..»..

– مسح جمال مسرعاً من خلال منظاره البقعة التي أشار إليها الجندي.. فوافقه وقال.. عظيم.. عظيم.. لديك عينان جيدتان و بصر ممتاز، وتابع وهو لا يزال يمسح المنطقة من خلال منظاره: يبدو أنهم ثلاثة عناصر يأخذون وضعية الرمي.. ثم أضاف: «هناك آخران عند الساعة العاشرة.. مئتين متر الطابق الثالث، نافذة مفتوحة جزئياً، البناية البيضاء، الشقة المحروقة إلى اليسار.. تأكد من ذلك».

نظر الجندي من خلال منظار بندقيته إلى المكان المشار إليه وأجاب: «تأكدت.. عنصرين في الشقة الفارغة..».

فقال جمال: «إنهم ينتظرون خروج المصلين من الجامع..» وبنظرة سريعة تأكد أن الجامع يقع مباشرة في خط النار لعناصر النظام.. وكانت الصلاة تقترب من نهايتها.. فالخطيب يحث الناس على الجهاد والصمود وأنه لا ملجأ من الناس إلا الله ثم الجيش الحر لحمايتهم من هذا النظام المجرم.. وأنهى الإمام الجريء خطبته بقوله: «ليس لدينا من السلاح ما نقاوم به هؤلاء المجرمين.. غير أننا نتسلح بإرادتنا وعزيمتنا لانتزاع حريتنا من هؤلاء الظلمة. ولن يسامحنا الله إن تركنا شهداءنا يموتون دون أن ننتقم لهم، فعلينا أن نستمر في كفاحنا السلمي مع علمنا السلمي مع علمنا التام بأن الأسد سوف يقتلنا كل ما وسعه ذلك.. إني أسأل الله أن يرحم شهداءنا وأن يحمي عزتنا وجنود الجيش السوري الحر وينصرهم على هذا النظام الظالم..».

وما إن سمع جمال نهاية الخطبة والصلاة حتى أمر جنوده بالاستعداد وأمر نور أن يركز من خلال منظاره على القناصة الذين كانوا في وضعية الانبطاح مما يجعلهم هدفاً ليس

بالسهل النيل منه مما حدا به تكرار محاولة التهديف مرات ومرات.. وقال جمال: «ليس لديك إلا ثوانٍ قليلة بعد كل طلقة لإعادة التهديف.. ولك أن تختار بين أن تقضي على الأهداف الثلاثة على اليمين ثم تعيد التهديف على الأهداف على يسارك..»..

فسدد نور بندقيته قائلاً «بسم الله الرحمن الرحيم..»..

وما إن بدأ المصلون يخرجون من المسجد حتى انهالت طلقات الرصاص عليهم من القناصة المتمركزين على السطح المواجه للمسجد.. وظهر عدد كبير من الشبيحة من الشارع الغربي إضافة إلى جنود في عرباتBTR يصوبون فوهات بنادقهم باتجاه الجامع والمصلين..

فانفجر نور قائلاً من هول المفاجأة: أولاد العاهرات.. من أين قدموا... وسدد بندقيته على رأس أحد القناصة وأطلق الرصاصة الأولى ثم سدد على الثاني وقضى عليهما، ولم ينتظر أي أوامر، بل سدد بندقيته على الهدفين على اليسار وأطلق على النافذة فسقط أحد القناصين من النافذة.. ثم سدد مرة أخرى على القناص الثاني وأرداه.. وكان جمال يراقب العملية من خلال منظاره وأكَّد نجاح التهديف والقضاء على الأهداف مثنياً على نور.. فأجاب نور بثقة: «إنها إرادة الله أيها الرقيب..».

– تهيأ لإعادة التمركز.. فلا بد وأن حمام الدم ينتظرنا في الأسفل..

– فأجابه نور: «أقترح أن أبقى في موقعي هذا لسهولة الاستهداف..» فوافقه جمال وأضاف: «سوف أنزل للأسفل لأراقب مجريات الأحداث هناك».

تابع نور استهداف الشبيحة المسلحين والعناصر التي كانت تهاجم المصلين، بينما أسرع جمال في نزول الدرج وأنزل معه الخفير الذي كان وضعه على السطح أعلى من

مستوى الشارع، حيث شاهدا باقي العناصر في البناية المقابلة، أشار جمال للخفير ليبقى في مكانه ليراقب ويقاوم عناصر النظام، هرع جمال وأحد العناصر إلى الشارع وقبعا في موقع يؤمِّن له مباغتة جنود النظام والشبيحة الذين كانوا منشغلين في القتل دون أن يلاحظوا تحركات جمال ورفيقه الذين باتا على بعد لا يزيد عن ثلاثين متراً منهم، لمح جمال أحد الشبيحة يسدد الـ RPG باتجاه الجامع، فما كان منه إلا أن أطلق عليه رصاصة قاتلة جعلته يلفت نظر باقي الجنود أنهم مستهدفون فتراجعوا إلى مدخل الشارع الذي أتوا منه.. فصاح جمال برفيقه: أمِّن لي الحماية.. وركض بسرعة البرق ورمى بنفسه أرضاً بجانب الجندي الذي قتله منذ لحظات، أخذ الـ RPG الملقاة إلى جانب الجثة، وسدد على الـBTR60 ورماها بقذيفة الـ RPGفاشتعلت بها النيران وصعد الدخان بكثافة، مما أثار الذعر في جنود النظام الذين لاذوا بالفرار مسرعين دون أن يرى لهم أثر.. أعاد جمال ورجاله تجمعهم مع استمرار المراقبة من البناية وبدأوا يسعفون المصابين أمام الجامع والذين بلغ عددهم ثمانية شهداء وعشرة مصابين.. أسرع جمال ورجاله وأحضروا دراجاتهم النارية وحملوا عليها ثلاثة مصابين وانطلقوا مبتعدين عن الأنظار بينما بقي جمال بين الجموع حاملاً بندقيته بيده وأعطى نوراً الـRPG .. وبدأ يساعد الرجال في نقل الجثث والجرحى إلى الرصيف مستعملاً خبرته الضئيلة بالإسعاف الأولي، وبدا المكان كغيره من الأمكنة التي يعمد فيها النظام لارتكاب مجزرة مروِّعة بحق المدنيين العزَّل..

وهنا اقترب رجل كهل قائلاً: «أنا أعرف مشفى ميدانياً لا يبعد كثيراً عن موقعنا هذا..».

فأجابه جمال: عيِّن لنا الموقع.. وسنعمد على نقل المصابين على وجه السرعة، وحمل صبياً يافعاً على كتفه وانطلق به مع بعض المدنيين الذين يصيحون (الله أكبر) باتجاه المشفى الميداني عبر الأزقة الضيقة إلى أن وصلوا إلى بيت بسيط يعجُّ بأناس كثر، وقابلتهم

طبيبة محجبة وبعض مساعداتها بيأس واضح قائلةً: «ليس لدي أية معدات.. ولا يمكنني مساعدتهم..» فنهرها جمال: «أنتم هنا، وعليك أن تبذلي كل ما تستطيعين من جهد..».

فلم تجبه الطبيبة واستمرت في عملها إلى أن أتت أحدى المساعدات وطلبت إتاحة الفرصة لهن لمساعدة الجرحى.. فخرج معظم الناس من الدار بما فيهم جمال بعد أن أدى واجبه على أكمل وجه..

عاد جمال أدراجه إلى الشارع الرئيس أملاً في مقابلة رفاقه، وفجأة برزت دراجتان ناريتان تنهبان الأرض نهباً، أبطأ أحدهما السير أمام جمال الذي قفز إلى المقعد الخلفي وانطلقت تتبع الدراجة التي أمامها إلى أن اختفتا خلف الشوارع المهجورة خلال متاهة من البيوت المتواضعة والأبنية المنخفضة إلى أن وصل الجميع إلى المنطقة التي يسيطر عليها الجيش الحر.

بلغ عدد الضحايا في ذلك اليوم تسعة وعشرين شهيداً في حمص وحدها، وحوالي مئة شهيد في سائر البلاد، حدث هذا تحت أنظار المراقبين الدوليين المبعوثين من جامعة الدول العربية بهدف إيقاف المجازر.. وقد أعلن رئيس المراقبين بعد أن زار حمص بأن الوضع فيها طبيعياً والأمن مستتب، ونقل عنه قوله: «ليس هناك ما يدعو للقلق» مما أثار التساؤلات عن نزاهته ونزاهة فريقه من المراقبين، كما أشعلت غضب وضيق رجال الثورة السورية الذين كانوا يعانون أشد المعاناة من ظلم ووحشية النظام، أما حكام باقي دول العالم فقد اكتفوا بالوقوف غير مكترثين للمذابح التي يتعرض لها الشعب السوري.. وأدرك الجميع في سوريا أن لا أحد ينوي التدخل ودعم الثورة هناك، وأنهم تركوا ليواجهوا قدرهم لوحدهم مع أفراد الجيش الحر الذي يأملون في أن يتزايد عددهم من خلال الانشقاقات

المتكررة.. كما أدركوا أن الجيش الحر وحده هو القادر على تغيير موازين القوى والمعادلة الحربية..

عاد جمال وجميع رجاله سالمين إلى مقر وحدتهم فرحين بما أنجزوا وفخورين بنصرهم وتمكنهم من حماية المصلين من مجزرة كبيرة، فقوبلوا من زملائهم بالترحاب والتهنئة والقبلات، وقدموا لهم الطعام والشراب على وجه السرعة الذي التهموه بسرعة بعد أن قاموا بغسل وجوههم وأيدهم وتغيير ملابسهم ونقعوها في حوض مليء بالصابون والمنظفات لغسلها..

اقترب الرائد فراس بصحبة ضابطان آخران من جمال.. والابتسامة تشع من وجوههم والفخر يملأ وجوههم، وراقبوا جمالاً يغسل ثيابه بعناية ودقة، وما إن انتبه لوجودهم حتى قال معتذراً: «آسف سيدي.. فأنا بحاجة إلى الغسيل..» فأجابه الرائد فراس فوراً: «لا عليك يا جمال.. فإن كل ذرة مما تحمله من تراب هي بمثابة وسام على صدرك.. ولو كنا في عداد جيش غير هذا الجيش لتم تكريمك ومنحك أعلى الأوسمة..».

أجاب جمال بشيء من التواضع: «لا داعي لذلك يا سيدي.. فإن ما حصل كان نتيجة عمل جماعي وليس منفرداً، وإن الثناء يجب أن ينصب على أفراد الفريق الذين قاموا بعمل بطولي حقاً لمجابهة الاستبداد وصلف النظام».

فتابع الرائد فراس: «من المؤكد أنه عمل جماعي مشترك.. غير أن قيادتك ومهارتك أنجزا هذا العمل البطولي وحازا تقدير واحترام زملاءك ورفاقك.. ومع أننا لا نملك الهيكل الإداري المتكامل فإني أستعمل سلطتي كمسؤول عن المنطقة بأن أعلن ترقيتك فوراً إلى رتبة نقيب في الجيش السوري الحر.. وباسمي واسم رفاقك أقدم لك تهانينا سيادة النقيب جمال..» ومدَّ يده مصافحاً وقلده رتبة النقيب ذي النجوم الثلاث.

«ضع هذه النجوم بفخر.. فقد طالت الفترة التي كان يجب أن تضعها فيها..».

فشكره جمال بحرارة على هذا الشرف الذي حازه عن جدارة واستحقاق.. وتقدم جميع أفراد المجموعة من جمال مصافحين ومهنئين بالرتبة الجديدة، مما جعل جمال يشعر بالفخر والاعتزاز، وكم تمنى لو كان أبوه أو زوجته رشا إلى جانبه في هذه اللحظة ليشاركاه الفرحة والفخار، مؤمناً أن هذا الجيش الحر سوف يكون في يوم من الأيام الجيش الوطني السوري مما زاد رغبته في هذه الترقية.. وهنا سأل جمال عن أحمد ورفاقه، فأجابه أحد الضباط بشيء من خيبة الأمل: «إنه في الداخل يخلد للراحة، فقد كام يوماً صعباً عليه..».

فقال الرائد فراس: «هلّا حضرت معنا الاجتماع يا جمال» ودلف الضباط إلى غرفة صغيرة تتوسطها طاولة متواضعة وحولها بعض الكراسي.. وبقي جمال واقفاً إلى أن قدم له أحد الضباط كرسياً، وبدأ فراس الاجتماع بتوجيه الكلام لجمال قائلاً: «لقد كانت خيبة أملنا كبيرة بصديقك أحمد هذا اليوم.. فلم يحسن تنفيذ مهمته التي كلفناه بها على الوجه الأكمل، مما كلفنا ضحيتين، أحدهما شاب صحفي ناشئ اسمه عمر...».

فسأل جمال فوراً مستفسراً عما حدث

فأجابه فراس: «لقد انتابه ذعر شديد وارتبك ولم ينفذ الأوامر التي صدرت له، بل ربما لم يفهم الأوامر بالشكل الصحيح، إذ إن مهمته أن يجد المشفى الميداني ويؤمِّن الحماية والمساعدة والتحرك عند الحاجة، لقد عرض رفاقه للخطر باختياره السيء للموقع الذي تمركز فيه، وما إن بدأت طلقات النار تحصد الناس حتى أصيب بالهلع والجمود مما تسبب بخسارتنا لمقاتل والصحفي عمر، واعتقل كل أفراد الطاقم الطبي في المشفى الميداني...».

لم يفاجأ جمال بهذه الأخبار، فإن رأيه بأحمد كان منذ أن تعرف عليه أنه لا يحسن القيادة أو الخبرة لإدارة فصيلة صغيرة.. وهو غير مؤهل للقيادة، وهو نفسه (أحمد) يدرك ذلك جيداً بسبب عدم تمتعه بشخصية قيادية.

لقد كان لهذا الترفيع لجمال وقعاً إيجابياً على أفراد الجيش الحر.. ذلك الجيش الصغير والذي لا يملك من العتاد والسلاح ما يقارن بما يملكه جيش النظام الأسدي الشرس.. غير أن شهرة جمال سبقته وسبقت ترقيته، فقد كان عنصراً فعَّالاً عندما كان الجيش السوري يحتل ويحكم لبنان، وقد تجاهله رؤساؤه العلويون العنصريون الطائفيون، فلم ينل ما يستحقه من تقدير وترفيع، وكان ضمه إلى ضباط الجيش الحر مصدر اعتزاز ودفع لأفراد الجيش الحر لما عرف عنه من موهبة وقدرات قيادية، وقد استأهل هذه الترقية من دون محاباة أو وساطة أو تدخل من شخصيات سياسية أو عسكرية كما هي العادة الجارية في جميع صفوف الجيش النظامي الفاسد..

وللتأريخ نقول: لقد انبثق الجيش السوري الحر عن انضمام مجموعة من الشباب في شهر أيلول ٢٠١١م إلى مجموعة من الضباط من أوائل المنشقين عن النظام كانت تسمى (حركة الضباط الأحرار)، وبعد هذا الاندماج تم اختيار اسم (الجيش السوري الحر) وكان معظم الضباط والرتباء في هذا الجيش يفتقرون إلى الخبرة العملية للقيادة الميدانية..

ولنعد الآن إلى أحمد: الذي تمكن من العودة إلى مركز القيادة بمساعدة أفراد من بابا عمرو، ولم يقدم تقريراً بفشل المهمة الموكلة إليه، بل رفع التقرير أحد الأشخاص الذين كانوا على أرض الواقع وشهدوا ما حدث، وأصيب أحمد بإحباط شديد وكآبة وفقد الثقة بنفسه مع شعور شديد بالذنب، وخاصة لفقد الصحفي الشاب عمر، حتى أنه وصل به الأمر إلى أنه لا يستأهل الرتبة التي يحملها.. وغدت حالته النفسية محزنة للغاية لشعوره

بعدم جدارته. وراح يفكر في مستقبله في الجيش الحر وما سيؤول إليه بعد هذه الحادثة.. ثم انحرف في تفكيره إلى نجوى خطيبته، وأسرته في حلب، استلقى على السرير الحديدي وسط ظلام الغرفة الدامس يحمل شعوراً قوياً بالخزي والعار لفشله هذا اليوم، وتمنى لو ملكت نفسه قدرات غيره بالقيادة، ووصل به التفكير قناعة تامة (أنه لا يملك الحد المطلوب للقيادة كما أنه لم يخلق لمثل هذا الأمر بأن يكون مقاتلاً، واقتنع أنه لو خضع لدورات تدريبية فلن يستطيع القيام بالمهام التي قد يوكلها إليه الجيش الحر..).

دخل جمال غرفة أحمد المظلمة ليجده قد غطى وجهه بيده دون أن ينبس ببنت شفة على أمل أن يشعر أحمد بوجوده، برز جمال بطوله وعضلاته المفتولة البارزة إلى جانب أحمد الذي نهض بتثاقل وجلس على حافة السرير واضعاً يديه على وجهه كمن يتحاشى فتح عينيه ورؤية من أمامه، خجلاً من معرفة جمال لمجريات الأحداث.. ولم يرفع عينيه ولم ينظر إلى جمال، بل سأله وهو مطرق وبصوت مرتجف: «هل جئت لتؤنبني وتشعرني بالخزي والعار..؟؟».

تريث جمال للحيظات ثم قال: «لا.. ليس هذا ما أردت.. ولا ضرورة لمثل هذا الكلام.. لقد قمت بكل ما يمكنك القيام به.. وسيكون هناك فرص أخرى..».

وقف أحمد غاضباً وقاطعه بصوت يكاد يكون بكاءً: «كم سهل عليك أن تتكلم بهذا.. فبإمكانك أن تعوض عن هذا الفشل بنجاحات كبيرة أخرى..».

ولما أدرك جمال ما يرمي إليه أحمد قاطعه بحزم وبصوت مجلجل قائلاً:

- «أصغ إليّ جيداً أحمد.. إنك صبي مدلل وجبان.. ولكل منا أخطاؤه.. ولا أرى أن أحداً مستعدا للموت في سبيلك أو سبيل أمثالك.. نحن هنا لسبب واحد وواحد فقط.. وهو أن نعطي أمتنا فرصة النضال لاستعادة حريتها وكرامتها. ولا علاقة لهذا

بغرورك وحساسيتك المفرطتين.. إن الأمر يتعلق بفقدنا عنصرين هامين بسبب قيادتك الفاشلة.. وأقول لك بكل جدية إنك غير قادر على القيام بواجبك.. وإن كنت تدري ذلك فما عليك إلا أن تخبر الرائد فراس بذلك.. إننا هنا في جيش تطوعي وليس جيشاً نظامياً وخدمة إلزامية.. نحن هنا بحاجة إلى شباب يرغبون في القتال ويحسنونه، وما إن تلتزم بالمبدأ.. فلم يعد الأمر مجرد تسلية.. إنها حرب حقيقية وحياة الناس مرهونة بقدرتك القيادية وانصياعك للأوامر..».

استمر جمال واقفاً.. وساد الغرفة جو من السكون والتشوش.. وفجأة استدار جمال وخرج من الغرفة.. جمد أحمد في مكانه يستعيد ما قاله جمال ويحاول أن يجمع شتات نفسه، وحاول أن يقنع نفسه بمشاعره ويتفهم غايته، غير أنه لم يكن لديه النضج النفسي والوعي العقلي ليستوعب ما يجري حوله.. استلقى على السرير ورجا الله أن يمحو هذه الأفكار السوداء من مخيلته.. استرجع ذكريات الانشقاق، نجوى، الأسرة، وزهراء.. لقد بدت زهراء دائماً مسيطرة على مشاعرها.. وكان معجباً بها.. ولكنه إعجاب شخص بشخص تربى ونما معه..

وأمضى أحمد ليلته يتقلب في فراشه ويراجع أحداث حياته وقصة فشله في قيادة المجموعة.. وأخيراً مع انبلاج الصبح اتخذ قراراً حاسماً أن يغير مجرى حياته، وأن يضطلع بالمسؤولية وأن يواجه نفسه بشجاعة وشفافية.. وما إن وصل إلى هذا القرار الخطير حتى غلبه الإعياء فاستسلم لنوم عميق..

استمر أفراد الجيش الحر بمراقبة سكان بابا عمرو. وعاش النقيب جمال مع نفسه لحيظات يفكر في نفسه وفيما ستكون ردة فعل زوجته رشا وأولاده عندما يعلمون بترقيته.. وما تراهم يفعلون في تركيا.. وما إذا كان بإمكانه الاتصال بهم ومحادثتهم قريباً..

ولم يهدأ صوت الرصاص في تلك الليلة رغم انتشار المراقبين من جامعة الدول العربية، فلا زالت آلة القتل مستمرة، ولا زال الناس العزَّل يموتون في بيوتهم دون أي ذنب اقترفوه، ولا زالت أصوات النحيب والبكاء تعلو بين الفينة والفينة لفقد أب أو أم أو أخ أو أخت أو ولد بيد جنود النظام السفاحين المجرمين.. ولا زالت أصوات النساء تسمع من بعض البيوت لاقتحام عناصر النظام لها واعتقال وتعذيب وإصابة أي رجل في الشقة أو البيت. ولا زالت تلك الذكريات وستبقى محفورة في ذاكرة سكان حمص والمناطق الأخرى من سوريا المحاصرة من قوات النظام الغاشمة.. هذه المناطق والمدن والقرى المحاصرة تنادي الضمير العالمي لرفع هذا الظلم عنها.. وطال هذا الظلم جميع المدن من درعا جنوبا إلى إدلب شمالاً، ومن بانياس غرباً إلى القامشلي شرقاً.. ولن ينسى الشعب السوري أصوات البائسين والمحرومين من كل نعم الحياة.. ولكن رغم كل هذه المآسي.. فإنه وللمرة الأولى منذ خمسين عاماً نام بعض الناس معتقدين أن الحرية آتية لا محالة. ولا سيما وأن الجيش الحر قد بدأ يؤتي ثمار مقاومته..

حرب أهلية أم حرب طائفية أهلية

طالعتنا بعض الصحف صباحاً بالعنوان التالي: (المقاومون السوريون يوقفون إطلاق النار ويرغبون في مقابلة المراقبين الدوليين..).

وكتب محرر المقال: صدرت الأوامر من قيادة الجيش السوري الحر لعناصره لإيقاف النار شريطة تأمين لقاء لهم مع المراقبين من جامعة الدول العربية..

وفي مقال آخر: تجدد الاشتباكات يوم الجمعة عندما خرج مئات الآلاف من المواطنين العزل يملؤون الشوارع في مظاهرات ضد حكم الأسد، وقال أحد الناشطين: أن ما لا يقل عن عشرة قتلى سقطوا بنيران قوات النظام.

عقد السوريون آمالاً كبيرة على زيارة المراقبين من جامعة الدول العربية مؤمِّلين أن تتغير مسيرة هذه الحرب الأهلية بعد وصول المراقبين.. غير أن الآمال والأحلام تبخرت من اللحظة الأولى، إذ صرح رئيس بعثة المراقبين الدوليين بعد زيارة حمص: «لا أرى ما أثير الخوف هناك..»، فقد كان هذا التصريح يتعارض بشكل فاضح مع ما يجري على أرض الواقع في حمص، لا سيما و أنه صدر عن ضابط سوداني كان له مساهمة كبية في مجازر دارفور، والتي قدمت إلى المحكمة الدولية تحت مسمى جرائم حرب ضد الإنسانية، وما إن وصل هذا الجنرال إلى سوريا حتى أقام له ابن خال بشار الأسد (رامي مخلوف) حفلة عشاء وسمر دامت معظم الليل، مما جعل مصداقية هذا الجنرال ومن صحبه موضع تساؤل. وقد حددت الدولة أماكن تحركات هؤلاء المراقبين لتشمل المناطق التي يريدها النظام ورجالاته، وكانوا خلال هذه الجولات محاطين برجال أمن النظام ووحدات الاستخبارات كما لو كانوا ظلا لهم، فلم يستطع أفراد الشعب الوصول إليهم أو التحدث معهم وخاصة النشطاء السياسيون المعارضون.. وبدأت الأوضاع تتردى سراعاً وتزداد

أعداد الضحايا والموقوفون والسجناء، وكذر للرماد في العيون أطلق النظام سراح بعض السجناء قبل وصول المراقبين، وكان بعضا من هؤلاء السجناء من تم اعتقاله قبل يومين دون أي ذنب اقترفه، إذ أن رجال الأمن اعتقلوا عدداً كبيراً من الناس الأبرياء وزجُّوهم في زنازين السجون، ثم أطلقوا سراح بعضهم ليعطوا انطباعاً للمراقبين بأن حملة إطلاق سراح المعتقلين المفروضة من جامعة الدول العربية قد تمَّ تنفيذها بشكل مُرضٍ.

وقد بلغ عدد المعتقلين عشرات الآلاف، منهم من أدخل سجون سريّة للنظام وأماكن أخرى مؤقتة، ومع ذلك استمرت المظاهرات السلمية في الخروج يومياً وفي أماكن متعددة من الوطن. وكان النظام يمعن في قتل المواطنين بشراسة ووحشية حالما يغادر المراقبون الموقع.

خرج أحمد من غرفته باكراً وتوجه إلى علي وفادي وسألهما عما إدا كانا شاهدا الرائد فراس، فردا عليه علي بالإيجاب وبأنه يتكلم مع النقيب جمال في غرفته، فسأله أحمد مدهوشاً: وهل هناك جمال آخر في الموقع، فكان رد علي مؤكداً: «لا يا سيدي.. إنه نفس جمال.. ولكنه رقّي إلى رتبة نقيب أمس لحسن أدائه..» وكم كان علي تواقاً لرؤية وجه أحمد عند سماعه خبر ترقية جمال إلى رتبة نقيب.. فاستدار أحمد وغادر الشابَّين وسار باتجاه الإدارة الميدانية المؤقتة حيث لمحه الرائد فراس، فسلم عليه ودعاه للدخول.. فحياه أحمد واستأذنه في التحدث معه، فسأله الرائد إن كان يريد أن يحدثه على انفراد احتراماً للخصوصية..

فأجابه أحمد، وقد تأكد من أن جمال لا بد وأطلعه على ما دار من حديث بينهما في الليلة الماضية: «لا يا سيدي لا بأس من وجود جمال معنا».

فطلب منه الرائد فراس أن يستمر بحديثه الذي جاء بصدده..

بدأ أحمد الحديث موجهاً كلامه إلى الرائد تارة وإلى جمال تارة أخرى، فقال: «لقد فكرت طوال ليلة أمس عن مستقبلي مع الجيش الحر، واقتنعت تماماً أن لا مكان لي هنا.. ولا يجب أن أكون بينكم.. فلم أخلق لمثل هذا الأمر..».

فأجابه الرائد فراس: أنا أفهم وضعك.. وأقدر جرأتك وصراحتك.. وكما تعلم فليس سهلاً علينا أن نفقد أي عنصر من عناصرنا.. وأفترض أنك فكرت بالأمر بشكل عقلاني وواقعي..

– أجاب أحمد: نعم سيدي لقد فعلت..

– سأله الرائد: وأين تريد الذهاب من هنا..

– أجاب أحمد: إلى كندا.. لعند أختي.. وأعتقد أنني أخدم القضية بشكل أفضل وأنا هناك..

نظر الرائد إلى جمال الذي بادر أحمد سائلاً: وكيف ستصل إلى كندا..؟؟

فأجاب أحمد مصمماً: عليَّ أن أسافر إلى تركيا وسأتصل بالسفارة الكندية في أنقرة.

فسأله جمال لكي يتأكد: ولكنك لا تملك جواز للسفر.. وكيف للسفارة أن تعلم من أنت ثم تساعدك..

فأجاب أحمد: سوف تأتي أختي من تورنتو وتحضر معها بطاقة الإقامة الدائمة وكل الأوراق الثبوتية الضرورية.

فاستمر جمال بالسؤال: وكيف ستصل من هنا إلى تركيا..؟؟

فدفع أحمد يديه في الهواء كمن يئس من تتالي الأسئلة.. وهنا تدخل الرائد قائلاً: سنحاول تأمين خروجك من هنا إلى تركيا.. ولكننا قد نحتاج بعض الوقت لتأمين الإجراءات اللازمة لهذه المغادرة..

ابتهج أحمد لسماعه كلام الرائد واحتمال وجود حل للأزمة التي وقع فيها، لمعت عيناه فرحاً وأملاً في أن ينتهي هذا الكابوس الذي يعيش فيه، وقال بلهجة ممتن وشاكر: هذا عظيم سيدي.. وماذا عليَّ فعله الآن؟؟

– أرجوك الانتظار حتى يحين الوقت المناسب.. وخلال فترة الانتظار هذه سنحاول أن نؤمن لك مكالمة إلى كندا للتكلم مع أختك أو غيرها..

فشكره أحمد وأعرب عن امتنانه وأنه مدين للرائد فراس بهذا الفضل.

فقاطعه فراس قائلاً: «لا يا بني.. أنت لست مديناً لي. وإنما للشعب السوري.. من الممكن أن تكون في كندا أكثر نفعاً لثورتنا المباركة...».

سرَّ أحمد بكلام الرائد فراس وأقنع نفسه بأنه قد يفيد الثورة وهو بعيد أكثر مما يفيدها كمحارب.. فلربما كان ناشطاً هناك كأخته ناهد.. مثلاً.. ودارت الأفكار في ذهنه متتالية، وتصور كيف يمكن أن يغير دوره في الثورة ويبقى مفيداً ونافعاً لها، فلغته الإنكليزية لا بأس بها مع أنه يمكن أن يصقلها قليلاً لكي يتواصل مع أكبر عدد ممكن من الناس هناك..

فتبسم جمال قائلاً: «لا بد وأن يكون في كل واحد منا جوانب إيجابية وحسنة..».

فردَّ عليه أحمد بلهجة شكر: نعم هذا واقع.. وإنني أشكرك جزيل الشكر لمساعدتك إياي.. أنا أعلن أنك بذلت أقصى جهدك لكي تحميني وترفع قدري العسكري.. غير أنني في الواقع لم أخلق لهذا الأمر.. لم أخلق جندياً مثلك.. واسمح لي بهذه المناسبة أن أتقدم لك بتهانيَّ القلبية لترقيتك.. سيدي.. لا شك أنك تستأهلها عن جدارة واقتدار.... وأنهى حديثه بابتسامة عريضة وتحية عسكرية.. فرد عليه جمال التحية قائلاً: تذكر أنك لا تحيي الفرد وإنما تحيي مستقبل جمهورية المستقبل..

وفجأة دخل عليهم علي مقاطعاً وموجهاً كلامه للرائد: «الخط جاهز حسب رغبتك.. سيدي..» وأعطاه الهاتف الجوال ووضعه على أذنه ثم أصغى لحظة وأعطاه جمال مبتسماً وربَّت على ظهره قائلاً: «لدينا مفاجأة لك حضرة النقيب».

أخذ جمال الهاتف وصاح: «ألو.. ألو.. هنا جمال..».

وجاءه من الطرف الآخر صوت زوجته رشا: «ألو حبيبي.. كدت أفقد الأمل في أن أسمع صوتك ثانية يا حبيبي..».

ارتعش جمال فور سماعه صوت رشا، ومرت لحظات قليلة قبل أن يستجمع قواه وقدرته على النطق لهول المفاجأة، وأدار ظهره لزملائه في إشارة منه لحاجته لبعض الخصوصية في المكالمة، فأشار الرائد إلى جمال لدخول مكتبه.. وما إن ولج المكتب حتى أغلق الباب وباشر رشا قائلاً: «نعم حبيبتي.. أنا أسمعك.. كيف حالك وحال فرح والصبيان..» وقاوم بضع دمعات اغرورقت في عينيه وغص حلقه بالكلمات.. فردت عليه رشا بصوت مرتجف ينبئ عن وحدة قاتلة وشوق عميق: «نعم حبيبي.. لقد افتقدناك كثيراً بل أكثر مما تتوقع.. ولا أقدر على العيش دون أن تكون بجانبي.. متى تعتقد أن شملنا سيلتئم ونستعيد تلك الأيام الجميلة..!؟».

حاول جمال تغيير مجرى الحديث قائلاً: «كيف حال الأولاد؟؟».

– إنهم بخير.. وها هم بجانبي ينتظرون أن يكلموك..

– عظيم.. دعيني أكلمهم..

– ألو.. بابا.. أنا فرح أميرتك.... مما جعل جمال يرتجف لسماع صوت ابنته.. فأجابها:

–كيف أنت يا أميرتي الحلوة..؟؟

– بخير يا بابا.. وكم نود لو كنت بجانبنا هنا.. إنه مكان جميل وفيه الكثير من اللعب والكتب.

– شيء عظيم يا أميرتي.. أخبريني وماذا عن المدرسة..؟؟

– ماما تقوم بالتدريس كل يوم..

– حسنا يا أميرتي.. هل لي أن أكلم أخويكِ.... فأخذ نائل الهاتف

– ألو.. بابا.. أنا بصحة جيدة أيضاً.. افتقدناك هنا.. متى ستأتي؟؟

– ليس في القريب يا بني.. وآمل أنك لا زلت تواظب على دروسك..

– أجل يا بابا.. ولكن ليس نادر.. إنه يسبب بعض المشاكل لماما..

وسمع بعض المماحكات من الولدين في خلفية الصوت.... ثم جاءه صوت نادر

– ألو.. بابا.. أنا نادر.. لقد كنت وما زلت ولداً صالحاً وأسمع كلام ماما.. ونائل لا يقول لك الحقيقة كالمعتاد.. وستخبرك ماما بذلك..

- حسناً يا أولاد.. أتوقع أن تعتنوا بنفسيكما وماما وأختكما..

جاء صوت رشا قائلة: إنني فخورة بك يا حبيبي وكذلك كل مواطن سوري حر

فسألها مستغرباً: ماذا تقصدين يا أم نائل.... فأجابته:

- لقد استمعنا للأخبار عما قمت به البارحة من عمل شجاع.. فأنت في عين المجتمع هنا بطلاً ومنقذاً.. وكنت وستبقى بطلي أنا.... فشعر جمال بفخر واعتزاز لسماع رشا بأخباره البطولية وقدر لها كلماتها.. ولم يشأ أن يخبرها بترقيته الميدانية.. فحول مجرى الحديث قائلاً:

- لقد تاقت نفسي إلى لمساتك الحانية يا رشا.. وأنا كلي شوق إليك..

- لقد افتقدتك يا حبيبي.. أكثر بكثير مما تتصور.. وأرجو أن لا تقلق علينا فنحن بخير.. بل اعتن بنفسك وسلامتك وعد إلينا سالماً..

وتمنى جمال أن يسألها عن سويعات يومها والأولاد.. غير أنه كان متأكداً أن الترتيبات قد اتخذت لراحتهم جميعاً.. وكان قد حضر والداها لزيارتها في تركيا وأحضروا معهم بعض المؤن والمواد الغذائية إضافة إلى مبلغ نقدي يساعدها في تدبير أمورها.. كما أن قريبه عبد الرزاق قد أحضر زوجته للزيارة والعناية بالأسرة.. أنهى جمال المكالمة بقوله: «يجب أن أذهب حبيبتي،، أحبك.. وأرجو أن تضمي الأولاد وتقبيلهم نيابة عني..»... فأجابته رشا:

- شكراً يا حبيبي.. قبلات خاصة مني إليك.. وليحفظك الله....

أقفل جمال السماعة وبقي لحيظات ينعم بتلك السعادة العابرة.. فلقد كان بحاجة ماسة لسماع صوت أفراد أسرته والاطمئنان على سعادتهم وسلامتهم.. وانتعش بصوت رشا الحاني والدافئ..

خرج جمال من الغرفة ليجد زملاءه: الرائد فراس وأحمد وباقي الزملاء بانتظاره، وبادروه بالسؤال عما إذا كان كل شيء على ما يرام.. فأجاب: نعم يا سيدي.. كل شيء على ما يرام.. وأشكرك لهذه اللفتة الكريمة وتأمين المكالمة.... فأجابه الرائد:

-إنه أقل ما يمكن تقديمه لك.. ولدينا الآن كل التفاصيل عن طريقة الاتصال بهم.. وبإمكانك الاتصال في أي وقت شئت.. كما أننا طلبنا من مكتب الجيش الحر في تركيا تقديم العناية والرعاية لهم.... فأجابه أحمد:

- عظيم يا سيدي.. أنا ممتن إليك.. والتفت الرائد إلى أحمد سائلاً: وماذا عنك.. ألا تريد الاتصال بأختك.. فأعطاه الهاتف، فسأله أحمد بتردد: هل يمكنني الاتصال الآن..؟

فرد الرائد بالإيجاب: حتماً.. هيا اطلب رقم هاتفها..

فهرع أحمد إلى الاتصال بناهد مبتدراً: ألو.. ناهد.. أنا أحمد.. هل يسمح لك وقت بأن تكلميني الآن..؟؟.... وجاءه الجواب:

- ألو.. أهلاً أخي الحبيب.. أية مفاجأة حلوة تلك التي أسمع فيها صوتك.. طبعاً لدي الوقت لأكلمك.. هيا.. ماذا يجول في خاطرك؟؟

فرد عليها بلهجة عزم وإصرار: لقد قررت العودة إلى كندا.. ولكنني بحاجة إلى مساعدتك لإخراجي من تركيا إذ لا أملك جواز السفر.. هل لك في مساعدتي.... فأجابته متأكدة:

– نعم.. ولا أرى أية عقبات.. سوف أحضّر لك أوراق الإقامة وسأحضر إلى تركيا إذا دعا الأمر.... فردَّ عليها بلهجة شاكرة:

– لقد كنت أثق دائماً بقدرتك على تدبر مثل هذه الأمور وتخطي العقبات.

– نعم يا أخي.. لا تقلق.. وأعلمني عن موعد وصولك إلى تركيا.... فرد عليها:

– لست واثقاً بعد ولكن لن يكون ذلك بعيداً.. وهل بإمكانك أن تبدئي بتحضير أوراق نجوى أيضاً؟؟.... وشعر بنوع من الإحراج لتعدد الطلبات.. ولكن لم يكن له ليتصور نفسه في كندا دون وجود الحبيبة..

– فأجابته رشا: مهلاً يا أخي.. ليست الأمور كما كانت سابقاً..؟؟

فسألها مستغرباً: ماذا تعنين بذلك؟؟.... فأجابته:

– لقد أعادت نجوى خاتم الخطوبة إلى والدينا، ولم تكلف نفسها عناء الحضور بنفسها.. فقد أرسلته مع سائق والدها مع رسالة مقتضبة تخبرهم بها بفسخ الخطوبة.. وذكرت في الرسالة أنك خائن لوطنك ولا تريد أن تكون لها أيه علاقة بك أو بأسرتك.... قالتها ناهد بلهجة رصينة، وبشكل مباشر ودون مواربة أو تردد كما اعتادت عليه في كندا، إذ أن الموقف هنا إما أن يكون أبيضاً أو أسوداً.. ولا مجال للسير في متاهات المحاباة..

صعق أحمد لسماع الخبر بهذه الطريقة المباشرة.. ولكنه كان مؤمناً أن لكل شيء ثمن في هذه الحياة.. ولا بد من دفع الثمن بطريقة ما.... وجاءه الصوت:

– أحمد.. أما زلت على الخط.... فأجابه وهو بحالة ذهول:

– نعم.. لا زلت هنا.. أنا بخير.. ربما استأهلت هذا الأمر....

– لا.. ليس هذا ما تستأهله أبداً.. عليك أن تفخر بنفسك ورفاقك.. فأنتم الآن تخطُّون التاريخ بدمائكم.. وسيكون النصر على هذا الطاغية قريباً بإذن الله.... فسألها أحمد كما لو كان يريد أن يحرف الحديث عن مجراه: كيف الوالدان ووليد.... فأجابته:

– إنهم بخير.. وكذلك زهراء.. وأعقبتها بضحكة ماكرة.

– الحمد لله.. دون أن يلقي بالاً لتلك الحاشية من ناهد «وزهراء أيضاً».

– أحمد.. هل حاولت مكالمة والديك.. فهم قلقان عليك.

– نعم يا ناهد.. سوف أحاول في أول فرصة.. بلغيهم تحياتي وحبي.. وأرجو أن لا تنسي أوراقي بشأن العودة إلى كندا..

– لا.. لا.. لن أنسى.. اعتن بنفسك يا أخي وسوف أتصل بوالدينا لأطمئنهم على سلامتك وعلى نيتك بالعودة إلى هنا.. ولا بد أن ذلك سيكون مصدر سعادة لهما.. وسوف أبلغ زهراء تحياتك أيضاً..

– شكراً يا أختي.. لكم جميعاً كل الحب.. وآمل أن أراك قريباً في كندا..

– إن شاء الله... وانتهت المكالمة.

انتاب أحمد شعور غير مبرر من الراحة لخبر حسم خطوبته من نجوى، وحرَفَ تفكيره فوراً باحثاً في خياراته لدى عودته إلى كندا.. واستغرب لإقحام أخته ناهد اسم زهراء مرتين في الحديث.. فلربما كانت تحاول المداعبة.. أم أنها كانت تمهد لما هو أبعد.. خطوبة مثلاً..؟؟ فزهراء كما عرفها منذ الطفولة لطيفة وجميلة، رغم أن تفكيرها لم يكن يتماشى مع أفكاره بشكل كامل، وعلى كل حال فإن عائلتها لصيقة بعائلته.. وابتسم ابتسامة خفيفة لمجرد التفكير في أن تكون زهراء رفيقة عمره في المستقبل....

اتجه أحمد إلى جمال الذي كان مع الشباب، وانتظر دون أن يقاطعه، فالتفت إليه جمال سائلاً: كيف تشعر يا أحمد؟؟ فأجابه أحمد:

– إنني بخير.. وأنتظر اللحظة التي أغادر فيها إلى تركيا.. غير أنني أجدني راغباً في تقديم أية مساعدة لكم خلال فترة الانتظار..

فابتسم جمال بسعادة لتقدم أحمد وعرض خدماته وقال:

– نعم.. لا شك وأن بإمكانك المساعدة.. وبدأ يعدد له بعض المهام التي يمكنه القيام بها.. منها أنه يستطيع أن يعيد تعبئة الذخيرة في الأحزمة المتوفرة.. وأنه يمكنه متابعة الأخبار على الأنترنت وتقديم تقرير يومي عن مجريات الأحداث، وإعادة تجهيز حقائب الإسعاف الأولي، وتوثيق كل الإصابات والحوادث في دفتر مخصص لذلك.. وكتابة رسائل تعزية إلى ذوي الشهداء.. وهناك الشيء الكثير يمكنك القيام به إن كانت لديك الرغبة والمقدرة..؟؟.. فأجابه أحمد بحماسة:

– حتماً.. وبكل تأكيد.. فأنا أريد أن أقدم كل ما يمكنني وأن أبذل قصارى جهدي في خدمة الثورة.... فقال جمال بلهجة آمرة:

– عظيم.. إذن عليك التكلم مع المساعد حميد في غرفة العمليات هناك.. وأشار إلى زاوية في المجمع.... فهرع أحمد ودخل الغرفة ليجد فيها المساعد حميد جالساً خلف مكتب تحت سقف حديدي مؤقت.. وكان المكتب متواضعاً وتنقص طاولته قائمة استبدلها أحمد بقطعة خشب من كرسي مكسور، كان حميد مشغولاً بتعبئة الذخيرة في أحزمة الأسلحة الأوتوماتيكية الـPKM. فهرع إليه أحمد قائلاً: دعني أقوم بهذا العمل.. لطفاً...

– نعم أرجوك أن تفعل، إذ أن لدي أموراً كثيرة عليَّ أن أقوم بها.. وسحب عكازة خشبية من تحت الطاولة وجاهد نفسه ليقف ويمضي مستنداً إلى عكازه.. و هنا لاحظ أن حميد ذو ساق واحدة فقط.. ويستعمل العكاز ليستعيد عن ساقه المفقودة.. ففكر أنه ربما كانت الإصابة حديثة.. وجلس على كرسي حميد وراح يعيد تعبئة الطلقات في الحزام المخصص لها دون أن تغادره الأفكار عن فقد حميد لساقه اليسرى، وتساءل بصمت عما عسى أن يكون سبب فقد حميد لساقه.. وخمَّن أنه لا بد وأن يكون قد فقدها في إحدى المعارك، ومع ذلك فقد بدا له حميد ملتزم ومصرٌّ على أن يساهم في هذه الثورة، ولو أن يقوم بعمل ليس قتالياً بالضرورة..

فكر أحمد بأخته ناهد، ونشاطاتها الفعالة في خدمة الثورة خارج سوريا، وراح يستعيد بفكره ذكريات الطفولة الأولى مع زهراء، وكم كانت جميلة، وكأنه يذكرها للمرة الأولى في حياته، وكيف يمكن أن تكون حياتهما فيما لو ارتبطا ببعض، وتذكر فوراً كيف أنه تجاهل وجودها أمامه كل تلك السنوات وهي تنمو أمام عينيه.. لا بد وأن تكون الفتاة المثالية له، لا سيما وأنها تعرف عاداته، وسلبياته وإيجابيات، يخالها فتاة مثالية له في غربته ومستقبله في كندا، فهي جميلة، ذكية، مثقفة، مثابرة، وناضجة.. ولا بد وأنها تحبه، وفوق كل هذا وذاك فإن أسرته تحبها وتوقرها. ولم يأبه لشعوره اتجاهها، والشيء الوحيد

الذي نكد تفكيره كيف أن انفصاله عن نجوى مرَّ دون أي شعور بالأسى والحزن، فقد شعر وكأنها لم تكن في يوم من الأيام جزءاً من حياته ولم يعد شغوفاً بها الآن. واعترف ضمناً أن نجوى لم تكن تحبه أو تكترث به في أي يوم من الأيام، فقد كان جل اهتمامها ينصب على عالمها السطحي المترف، ولم تتقبله أسرتها كعريس لها ترفعاً واستعلاءً منهم، كما أن أسرته لم تتقبلها كعروس مستقبلية لابنهم..

تناهت إلى سمعه بعض الطلقات النارية صادرة عن الجيش النظامي في مدينة حمص، رغم التزام الجيش الحر بوقف الهجمات ضد نظام الأسد الغاشم، الذي ما فتئ مستمراً في القتل الوحشي للمواطنين العزل الذين خرجوا في مظاهرات سلمية في كل من دمشق، ريف دمشق، إدلب، حماه، حمص ودرعا، إضافة إلى العديد من المدن والقرى في كل أنحاء سوريا دعماً للثورة والثوار، حتى قارب عدد المتظاهرين في هذا اليوم الربع مليون نسمة.. وقد جاء دعم روسيا لمهمة المراقبين الدوليين المنتدبين من جامعة الدول العربية إلى سوريا ببعض الأمل للخلاص من حالة الجمود هذه، مع أنه في واقع الحال استمر النظام في القتل العشوائي، وحاول خداع وتضليل العالم أجمع، مما حدى بمنظمة حقوق الإنسان الدولية فقد الثقة بالنظام السوري المخاتل و عدم رغبته بحل سلمي، لما عرف عن النظام من مخالفة كل قواعد حقوق الإنسان في سوريا.

فرغم أنه قتل خمسة آلاف مواطن، ولا يزال العدد في تزايد مستمر، فإن النظام يرفض رفضاً قاطعاً أن يتقبل أو يتخذ الخطوات اللازمة لحل هذه المعضلة.

فقد تناقش بعض عناصر المعارضة مع ممثلين عن النظام و بحثوا في امكانية نقل السلطة السلمي، وقبول مسؤولية قتل وتشريد واعتقال وتعذيب المواطنين، وفي كل مرة كان النظام يراوغ ليكسب مزيداً من الوقت و يمعن في القتل والتشريد والاعتقال والتعذيب والتجويع لسحق المقاومة.

جلس فادي وعلي يحتسيان الشاي ويلعبان النرد، إذ توطدت علاقتهما مذ كانا في فصيلة واحدة تحت إمرة جمال، وتطورت علاقتهما إلى ما يشبه الأخوة لأنهما كان يتقاسمان معاً الأخطار والتهديد بالقتل، وترقى هذه العلاقة إلى ما هو أعلى من مجرد رغبات شخصية، فلسفة، دين، مذهب أو أي موقع اجتماعي، ففي الحرب يتشارك الجميع في مواجهة الأخطار، مما يجعل تكاتفهم حتمياً وضرورياً لاستمرارهم وديمومة عطائهم.

ولما كان الجيش السوري الحر يتألف من شباب ينتمون إلى مختلف قطاعات المجتمع الإثنية والموزاييك الديني والمذهبي، فإن انخراط مئات الألوف من الشباب عكس الذهنية التعددية واللاطائفية في أذهان المقاتلين.

وقد شكَّل المسلمون السنة ما يقارب من ٨٠٪ من المقاتلين، وشكَّل الأكراد ما يقارب من ٩٪، ورغم أن العلويين لا يشكلون إلا نسبة ضئيلة من المقاتلين، فقد برهن وجودهم في الجيش الحر على التعددية ونبذ الطائفية، كما يلاحظ وجود بعض المسيحيين والأرمن بنسبة ضئيلة في صفوف الجيش السوري الحر.

انحدر علي من أسرة علوية متواضعة الموارد الاقتصادية، من بانياس، إذ لم تكن عائلته ذات صلة بآل الأسد أو من لف حولهم، وبالتالي لم تكن الأسرة تنعم بأية ميزات تجعلها ميسورة الحال كباقي الأسر الفاسدة المستفيدة والثرية من خلال الفساد والذي أمَّنها النظام الطائفي الحاقد، فقد خلق النظام الأسدي فئة ذات سطوة أقنعها بضرورة الحفاظ على حكمه، وإلا فإنهم سوف يبادون عن آخرهم من قبل الغالبية السنية في سوريا، ولسوء الحظ فقد آمن بعض السذج والمنتفعين بهذه الأكذوبة، وانضموا إلى ميلشيات أسسها النظام وحقن فيها التطرف المذهبي من الطائفة العلوية، وقام بتسليحها، وهذا ما أطال مدة تربع آل الأسد على سدة الحكم هذه المدة الطويلة. استخدم بعض

المتورطين والمستفيدين من العلويين هذا السلاح لإرهاب وابتزاز المواطنين والاعتداء على أرزاقهم، وأحياناً على أعراضهم، مما خلق شرخاً عميقاً بين أفراد المجتمع الواحد، وأدى هذا الشرخ وهذه البلبلة إلى حرف انتباه المواطنين عن الفساد السائد في المجتمع والسرقات ونهب المؤسسات العامة، وفوضى في التخطيط والبناء والتعليم والصحة وكافة مرافق الدولة.. وللتذكرة فقط فقد قام الأسد الأب بنفس اللعبة التكتيكية والأكذوبة في لبنان، واستمر بلعبها ثلاثين عاماً إلى أن طرد الجيش السوري، بل بالأحرى النظام السوري وزبانيته من لبنان بطريقة مذلَّة عام ٢٠٠٥م، عقب اغتيال رفيق الحريري، رئيس وزراء لبنان الأسبق.

ولهذه الأسباب فقد كان عليٌّ يواجه بعض التحفظات تجاهه من قبل أفراد الجيش الحر، وكان عليه أن يثبت وجوده وانتماؤه لسوريا وليس للطائفة، وأن اهتمامه ينصب على مستقبل سوريا وليس على أسرة الأسد وزبانيته، وكان يؤمن ويدعم الدولة السورية الديموقراطية التعددية والتي تصون الحريات لكل أبناء الوطن، والتي تعامل مواطنيها بمساواة في الغنم والغرم، وتؤمن بكرامة المواطنين وتحفظها..

وبينما كان فادي وعلي يتناقشان حول إمكانية التدخل العسكري الخارجي في الشأن السوري، دخل عليهم جمال مستفسراً، ولما أبلغاه موضوع النقاش وأن ذلك الطرح يدور في بعض أروقة المعارضة في الخارج، فطمأنهم جمال إلى أنه سمع من الرائد فراس أن كل العناصر الفاعلة رفضت التدخل العسكري الخارجي، إضافة إلى أن أياً من أحزاب المعارضة لم تقحم الجيش الحر أثناء الحوارات، إذ أنهم لا يزالون يرون أن لا ضرورة للمواجهة العسكرية مع النظام، بل الحفاظ على سلمية المقاومة وخاصة أنها ستكون مواجهة غير متكافئة في العدد والعتاد، واستمر جمال يشرح بمرارة بادية على وجهه وصوته قائلاً: إنني آسف لموقف مقاتلينا المحرج.. ولكن ألا ترون معي أننا في سوريا نعيش بطريقة

لا تتلاءم مع العصر.. سأشرح لكما: في كل دول العالم المتحضر يخضع القرار العسكري للقرار السياسي، بمعنى أن الجيش يأتمر بأمر الساسة، أما في دول العالم الثالث فإن الجيش بات أداة قاسية في يد القائد المستبد الديكتاتوري الظالم، يستعملها لا للدفاع عن الوطن والمواطنين، بل للدفاع عن عرشه وكرسيه ومكاسبه وفساده.. وبالاختصار يا شباب.. فلننظر إلى أحداث التاريخ، فما إن تدخل السياسة في ذهنية أفراد الجيش فإن الجيش يفسد.. وإن الساسة يفشلون في اتخاذ القرار الأنسب للظرف، وبهذا يسيطر الديكتاتور على الحكم ويبقى في السلطة إلى ما شاء، ويعيث الفساد نهباً وسلباً وابتزازاً.. وبكلمة مختصرة: الجيش والسياسة لا يجتمعان.. وإذا اجتمعوا في يد واحدة فقد فسدت الدولة بكل مرافقها..

وهنا انبرا عليٌّ بالسؤال: هل مرَّ على سوريا زمن تخلى فيه الجيش عن السلطة وسلَّمها للساسة.. لا أعتقد ذلك.. فقد عشنا عهدنا كله نقبع تحت طغيان العسكر.. الذين تحولوا إلى مستبدين ظلمة.... فصحَّح له جمال اعتقاده قائلاً:

– بلى.. قد استلم الجيش عام ١٩٥٤م بعد الانقلاب على أديب الشيشكلي لفترة وجيزة ثم قام بتسليم مقاليد الحكم إلى حكومة مدنية ديموقراطية

فقال علي: لم أكن أعلم ذلك.. وثنّى فادي بقوله و: وأنا لم أكن أعلم ذلك أيضاً...

فتابع جمال قائلاً: حسناً يا شباب يمكننا أن نتابع هذا النقاش مستقبلاً.. أما الآن فلدينا أوامر لهذه الليلة يجب أن يتم تنفيذها.. فسأله فادي مستغرباً: كنت أعتقد أننا في فترة وقف إطلاق النار والتهدئة.. فقال جمال:

– نعم.. لا زلنا في هدنة مع النظام لوجود المراقبين الدوليين، غير أنه لا زالت لدينا أموراً أخرى علينا أن ننجزها، وأريدكم أن تشدّوا هممكم كي لا يتسرب الكسل إليكم.. واستمر في حديثه:

– لقد حالفكما الحظ الليلة.. إذ أن مهمتكم خارج بابا عمرو.. فعليكما أن تحملا بعض أكياس الدم والبلازما وبعض الأدوية وتوصلاها إلى باب سباع، وسوف تكون نقطة اللقاء في موقع يبعد ثلاث شوارع جنوب شرقي، تقاطع شارعي الميدان وموسى بن نصير.

ونشر جمال خريطة أمامهما مشيراً إلى البناء الذي سيتم فيه تسليم المواد، وأراهما صورة البناء على هاتفه الجوال.. احفظوا الموقع جيداً.. إن البناية في شارع ضيق تبعد قليلاً عن فلافل أبو فهد.. هل لديكما أية أسئلة..؟؟

فأجابا بالنفي.. فتابع جمال: عليكما تسليم المواد هناك وتنتظروا الطبيب، ثم تؤمِّنوا الحماية له حتى يصل إلى الموقع التالي.. هنا.. وأشار بإصبعه إلى المكان.. فهزَّ الاثنان رأسيهما دليل فهم الأوامر واستيعابها..

فتابع: وما إن تفرغا من ذلك ويأذن لكما الطبيب بالمغادرة حتى تعودا أدراجكما عبر شارع المحطة فشارع القدس.. وتجنبوا تحت أي ظرف أن تعبروا السكة الحديدية، إذ أن القناصة متواجدون هناك بكثرة على أسطح البنايات، واستعملا النفق تحت شارع الكورنيش متجهين الى الجنوب الغربي، وما إن تصلا بابا عمرو حتى تكونا في مأمن.. ثم أعطاهما هاتفاً جوالاً وأمرهما باستعماله في حالة الضرورة القصوى فقط.. هل كلامي واضح..؟؟....

فسأل فادي بعد أن أكَّد فهمه للمخطط: ولكن أ ليست منطقة المحطة مكتظة بالسكان المسيحيين..؟؟ فأجابه جمال:

– التزما بالخطة المرسومة لكما.. وستكونان بخير.. ثم طلب من كل واحد منهما أن يعيد الخطة على انفراد ليتأكد من فهمه التام لها..

غيّر فادي وعلي ثيابهما ولبسا ألبسة مدنية، وانتظرا ساعة الانطلاق لتنفيذ المهمة.. وحملا معهما تحت ثيابهما بعض الأسلحة الخفيفة والذخائر.. وتأكدا من صلاحية وجهوزية الدراجتين الناريتين وحمَّلاهما بأكياس الدم والبلازما والأدوية محاطة بالجليد للحفاظ على صلاحيتها.. فعاد إليهما جمال آمراً: إياكم الانتظار عند أي تقاطع للشوارع فالقناصة ماهرون في التهديف والقتل السريع.. اعتنيا بنفسيكما وببعضكما.. سنراكم بعد قليل بإذن الله.. انطلقا برعاية الله.

انطلق الشابان على دراجتيهما الناريتين بعد أن اجتازا بوابة المعسكر باتجاه باب سباع.. ذلك الحي القديم، بيوته التي مضى على بنائها مئات السنين، وذو الأزقة الضيقة والملائمة لتحركات المجاهدين.. ولم يكن يبعد عن بابا عمرو إلا قليلاً.. وخلت الشوارع من المارة جراء منع التجول الذي فرضه القناص منذ الساعة الرابعة بعد الظهر حتى صباح اليوم التالي، فكانوا يردون أ ي جسم يتحرك قتيلاً دون اعتبار لجنس أو سن بحيث لم يعد السكان يتمكنون من الحصول على حاجياتهم الأساسية من الشارع.. ومع هذا الانتشار الكثيف للقناصة على أسطح البنايات، فقد كان رجال المقاومة يتنقلون في شوارع بابا عمرو دون وجل..

وبينما كان الشابان يقطعان شارع الميدان، سمع علي الذي كان في المقدمة، صوت طلق ناري ولم يدر إن كان أصابه هو أم أصاب فادي.. ونظر في مرآته إلى الخلف

ليجد فادي قد فقد سيطرته على دراجته واصطدم بعمود الكهرباء.. تردد عليٌّ للحيظات بين أن يعود ليسعف صديقه فادي، أو أن ينفذ أوامر جمال بالاستمرار وعدم التوقف وإلا تعرض لذات المصير.... غير أنه تذكر أوامر جمال فزاد من سرعة الدراجة، وسمع فوراً صوت طلقة أخرى أصابت العجلة الأمامية لدراجته مما أفقده السيطرة على الدراجة فانحرفت شمالاً ووقع على الأرض، وقدمه اليمنى تحت ثقل الدراجة، واستمر في الانزلاق لبعد عدة أمتار نظراً لسرعة الدراجة.. وما إن توقفت دراجة علي عن الانزلاق حتى حاول رفع الدراجة عن رجله والتخلص منها، وسمع صوت طلقة نارية خلفه مباشرة.. فأدرك أن القناص لا بد وأنه يقبع فوق البنايات في مواجهته، فنظر إلى الأعلى فوجد القناص يسدد بندقيته باتجاهه.. وفجأة تحرر من تحت الدراجة وزحف بسرعة فائقة إلى مدخل إحدى البنايات ليكون بعيداً عن مرمى القناص. بقي منبطحاً لثوانٍ، ونظر إلى الخلف ليجد جثة فادي ملقاة على الأرض من غير حراك.. ففكر بضرورة استعادة دراجة فادي والتي يأمل بأن تكون سليمة جراء الاصطدام لا سيما وأن أكياس الدم والأدوية لا زالت محملة عليها.. خيم السكون على الشارع من أصوات طلقات القناصة من على أسطح البنايات.. قيَّم علي الوضع ميدانياً، وأدرك أن القناص لا بد ويسيطر على الشارع كله من خلال موقعه.. ففكر أنه لا بد أن ينتظر حتى يحل الظلام ليتحرك ويستعيد الدراجة والأدوية، ولم يتمكن حتى من الوصول إلى دراجته ليستعيد سلاحه المحمل عليها.. وما إن حل الظلام حتى أحس علي ببعض الألم في رجله، تحسس موضع الألم وآثر أن يترك العلاج ريثما يصل إلى المشفى الميداني. رسم علي خطته بدقة.. سوف يزحف إلى دراجة فادى ويجرها مع أحمالها ثم يزحف إلى دراجته ويجلب سلاحه وكل ما يمكنه حمله من أكياس الدم والبلازما والأدوية.. راجع الخطة بذهنه مرات ومرات.. وأمَّن له الظلام الدامس من ليل ومصابيح شارع مكسرة ومعطَّلة، تمويهاً كافياً وحماية من عين القناص.. زحف علي بحذر شديد باتجاه فادي ودراجته، وما إن شاهد وجه فادي المشوه بشدة

جراء القذيفة حتى كاد يغمى عليه. إذ لم يعد في معالم وجهه ما ينبئ عن شخصيته، فحص الدراجة بسرعة فوجدها لا زالت في حالة يمكن استعمالها، رفع الدراجة وأمسك المقود وراح يجرها بهدوء وحذر شديدين إلى مخبئه، إلى أن وصل إلى البناية وأسند الدراجة على الجدار حتى عاد أدراجه إلى دراجته حيث حرر بندقيته ووضعها على ظهره وأخذ معظم المواد الطبية المحمَّلة عليها وأعاد تحميلها على دراجة فادي.. ركب الدراجة وأمسك المقود وأسند قدمه المصابة على دعاسة البنزين، وبعد أن أخذ نفساً عيقاً أطلق الكابح، فانطلقت الدراجة بسرعة جنونية خلال الأزقة الضيقة، سمع خلالها طلقات الرصاص تلاحقه.. تحاشاها جميعاً بمهارة شديدة.. وصل علي بعد لحظات إلى البناية دون أية حوادث، وتذكر البناية التي شاهد صورتها على هاتف جمال.. دخل علي البناية وأوقفه شابان سألاه عن وجهته.. فأجابهما بعد أن تفحصهما بدقة: «أريد أن أرى الطبيب في المشفى الميداني..».

وما إن سمع الشابان لهجته العلوية حتى أشهرا سلاحهما في وجهه وسألاه بقسوة: «قل لنا من أنت يا ابن العاهرة..؟؟».

فأجابهما بشجاعة: «أنا من الجيش الحر.. وأحمل معي مواد طبية للمشفى..» فاستغرب الشابان أن يكون علوياً ومن أفراد الجيش الحر، وسأله أحدهما: «إن كنت من الجيش الحر.. فمن هو قائد كتيبتك..؟؟».

فأجابهما بثقة: «الرائد فراس..».

فسألاه ولا يزال الشك يخامرهما: «ومن هو قائد مهمتك..؟؟».

فأجاب ولا يزال يثق بنفسه وبأجوبته: «النقيب جمال قباني..».

فتغيرت لهجتهما، وقال أحدهم: «نعم الرجل.. إنه بطلنا وقدوتنا.. قد ظننا للوهلة الأولى أنك أحد الشبيحة، وخاصة بعد أن سمعنا لكنتك العلوية..».

فأجابهما بثقة متناهية: «نعم صحيح.. إنني علوي.. غير أنني أخترت أن أكون سورياً قبل كل شيء..».

– قال أحدهما: «آسف يا أخي لهذا التدقيق الضروري، غير أننا كنا نتوقع أن تكونا اثنين..» امتعض وجه علي وتذكر فقده المفاجئ لصديقه ورفيقه فادي وقال:

– لقد فقدت فادي عند تقاطع الميدان، فقد أصابه قناص وكاد أن يصيبني أيضاً.

فأجابه أحدهما: فليرحمه الله.. ها هو شهيد آخر يلتحق بركب الشهداء..

علينا أن نتحرك بسرعة.. هيا فلنفرغ الحمولة فالمنطقة تعج بالدوريات..

حمل المقاومون الثلاثة أكياس الدم والأدوية، بدا واضحاً أن علياً يعرج وهو يحمل أكياس الدم، صعد الشاب الطويل منهم الدرج ودلف إلى الشقة الخلفية في البناية، فيما أخذ الثاني وضعا معيناً في المدخل لمراقبة الشارع. رافق علي الشاب ودخلا الشقة عبر باب مزدوج ليرى طبيبة تسعف مريضين في آن واحد. تلفت علي حوله سائلاً نفسه: كم من الوقت يمكن لهذه الطبيبة أن تستمر في العمل في هذا المشفى المؤقت لو لم يتمكن هو من الوصول إلى المكان ومعه الأكياس المطلوبة..

شكرت الطبيبة علياً لإيصاله المواد الضرورية واستمرت في رعاية المريضين.. وقدَّر علي عمرها في أواخر العشرينات.. وكانت ترتدي الحجاب وتضع على وجهها القناع الطبي..

تقدم الشاب الطويل وقدَّم علياً للطبيبة قائلاً: «إنه من عناصر الجيش الحر من الطائفة العلوية..» وتابع فور ملاحظته الشك في عيني الطبيبة: «لا يهم إن علوياً أو سنياً أو شيطاناً، ما دام يتمتع بأخلاقيات المجاهدين..»..

ولمح علي نظرة الاستفسار في عيني الطبيبة الخضراوين، وأدرك أنها ذات ذكاء متوقد، ويالها من مثل أعلى لباقي المواطنين الذين يفخرون بالحقوق والواجبات المتساوية، والتعايش مع الآخرين، وتمنى لو سمحت له ثقافته المتواضعة بمناقشتها، وتذكر مهارة جمال في الحوار بلغة سهلة ممتعة. وقال محاولاً إظهار بعض التعاطف: آمل أن ينظر إليك السوريون في المستقبل القريب ليرسموا خريطة الطريق التي ستقودهم إلى الأمام لتحقيق أهداف الثورة.

تساءل علي في نفسه لماذا وكيف ينظرون إلى جندي انشق عن الجيش النظامي..

فجاءه جواب بشكل قطعي: ليس انشقاقاً، وإنما تحولا إلى مجاهد يقاتل في سبيل الله في سبيل تحقيق التغيير في التركيبة السياسية والاجتماعية ليستفيد الجميع منها على قدم المساواة.. ألا توافقني الرأي؟؟

فأجاب: أعتقد ذلك.. طالما أنك وصفتها بهذه الصفة..

استدارت الطبيبة لإسعاف الجرحى، كانا شابين مصابين بشظايا لا يبدو أنها قاتلة.. كان المريض الأكبر سناً هادئاً ويتمتم بآيات قرآنية، بدا وكأنه في العقد السابع من عمره، فيما بدا الشاب في أواخر العقد الثاني من عمره، وكان يئن من ألم في بطنه، التفت الطبيبة للرجل المسن وسألته عما كان يعمل قبل تعرضه للإصابة، فأجابها بصوت أجش أنه كان يقطع الطريق للوصول إلى المخبز ليحضر بعض الخبز، والتفت الطبيبة إلى الشاب وسألته نفس السؤال، فأجابها بصوت مرتفع وبتردد: كنت أساعد أختي الحامل

والتي تعرضت لطلق ناري من قناص بينما كنا في طريقنا إلى المستشفى، فهزت الطبيبة رأسها والتفتت إلى المجاهدين وقالت بغضب: هذا ما غدا عليه حالنا.. لقد تحولنا إلى أمة من الوحوش.. وعليكم أنتم أيها المجاهدون أن توقفوا هذا الجنون وتمنعوا تكرار هذه الوحشية.. إن واجبكم أن تحافظوا على القيم الحضارية التي ربينا عليها.. بعد أن تنتصروا بإذن الله..

خيم الصمت على الجميع، وبدا وكأنهم يفكرون فيما ستكون عليه حالة البلاد بعد نجاح الثورة. وتابعت الطبيبة حديثها بلهجة الأمر: علينا أن ننقل الجرحى إلى غرفة الإسعاف الأولي الميداني، اد أننا نتوقع قدوم المزيد من الجرحى..

فأجابها المقاتل الطويل: أمرك يا دكتورة.. وسننقل أيضاً المواد الطبية التي أحضرها علي.. وننتظر حضور شاحنتين في غضون نصف ساعة..

التفتت الدكتورة وقالت: لقد قمت بما يمكنني فعله لهؤلاء المرضى.. ويمكنكم نقلهم.. فأنا بحاجة للمساعدة..

تحرك المقاتلان بسرعة لإعادة ترتيب الموضع، حيث نقلا الجريحان إلى الطابق الأول، ولاحظت الدكتورة أن علي يعرج في مشيته، فسألته عن سبب عرجه فأجابها بأن الدراجة النارية قد سقطت على قدمه..

– إذن دعني ألقي نظرة عليها.. أنزل سروالك..

– فأجابها بتردد وخجل: إنني بخير.. لا بأس عليَّ..

فأمرته الدكتورة: أنزل بنطالك يا جندي..

وما إن فعل حتى اقتربت الدكتورة وشاهدت جرحاً في فخذه الأيمن.. فسارعت إلى صندوق العقاقير وأحضرت محلول اليود وطلت به الجرح ثم ضمدته بما هو متوفر لديها.. وسألته: أذكر بأنك قلت بأنه تم إطلاق النار عليكم.. أين باقي الجنود..؟؟

– لقد قضى رفيقي فادي حتفه عند التقاطع، وأسأل الله له الرحمة..

وفجأة رن هاتف الدكتورة الجوال، فأجابت بهزة رأس بدون أن تتكلم، وأنهت المكالمة قائلة: إنهم متأخرون لدقيقتين.. دعنا ننزل للأسفل.

نزعت الدكتورة القناع الطبي لتكشف عن وجه صبوح يؤكد ما كان قد خمنه علي عن عمرها الذي لا يتجاوز منتصف العشرينات.. و لا بد وأنها حديثة التخرج من كلية الطب.. وكانت قسمات وجهها ونظراتها تتسم بالجديَّة.. وما هي إلا لحظات حتى وصلت الشاحنتان وتم نقل الجرحى والمعدات إلى الشاحنتين وجلست الدكتورة في مقدمة الشاحنة الثانية وخلفها المرضى من علي وبقية المحاربين مستعدين لأي طارئ.. ابتعد الشاحنتان عن بعضيهما وسارتا باتجاهين مختلفين وبسرعة كبيرة عبر الشوارع الضيقة، حتى تكادان تصطدمان بجدرانها، وصلت الشاحنة الأولى إلى مدرسة اليعربية في شارع الكرامة بجانب المشفى الميداني في بابا عمرو، إذ من الأفضل تجنب الذهاب إلى المركز الصحي الحكومي لئلا يقع المرضى بأيدي الشبيحة الذين لا يتورعون عن إطلاق النار على أي متظاهر مصاب لقتله واعتقال الطاقم الطبي كاملاً لمساعدتهم من يسمونهم بـ (الإرهابيين)..

فتح أحد أفراد الجيش الحر باب المدرسة ودلفت الشاحنة، ودهش علي لرؤية أكثر من عشرة جرحى إضافة إلى عدد من عاملين وبدا المكان كمشفى ميداني ومستودع للأدوية والمعدات الطبية لتزويد المراكز الأخرى عند الحاجة مع إمكانية معالجة بعض

الجرحى والمصابين إصابات بليغة، أنزل المجاهدون الجرحى وأدخلوهم إلى داخل البناية، ومنها إلى أحد الصفوف الذي تم تحويله إلى قاعة مرضى ثم انصرف كلٌّ إلى عمله.

لحق علي بالدكتورة ليشكرها على معالجة جرحه وتفانيها في معالجة المصابين، وقال لها: كم نتمنى لو نلتقي ثانية في ظروف أفضل من هذه. فابتسمت الدكتورة قائلة: لا ضرورة للشكر، إنما أقوم بما يمليه علي واجب المواطنة ثم المهنة.. وأنا أتمنى أن نلتقي ثانية بإذن الله.. والآن اعتن بنفسك.... وتابعت طريقها لأداء واجبها تجاه المرضى.. ووقف علي مشدوها لما قد يفعله الإنسان بأخيه الإنسان.. يا لها من وحشية.. وتلفت حوله أملاً أن يجد شخصاً ما قد رأى فادي حيّاً.. إذ أن ما رآه آخر مرة كان كابوساً مريراً.. خرج إلى باب المدرسة يمشي الهوينا ووقف على الباب يدردش مع أحد المقاتلين.. وكانت الأفكار تتصارع في ذهنه ما بين واقع مرير وخجل أليم.. لقد خجل من استعمال النظام لأفراد الطائفة العلوية وحقنهم بجرعات من الحقد الطائفي والكراهية لكي تستمر أسرة الأسد والعصابات المحيطة بها والمستفيدة من نهب خيرات البلاد وابتزاز المواطنين في كبت المواطنين والسيطرة على مقدراتهم وحياتهم، ولكنه في الوقت ذاته كان فخوراً بانخراطه في عداد الجيش الحر ليكون جزءاً من النضال في تحرير سوريا وشعبها من هذا النظام الغاشم الطائفي المتوحش..

بادره أحد حراس باب المدرسة من الجهة التي ينويها.... فأجابه: عليّ الالتحاق بوحدتي..

فقال الحارس: لا ضرورة للتعجل فإن الوقت حرج الآن ومفعم بالخطورة.. فقد انتشر الشبيحة الليلة بكثافة بحثاً عن أفراد الجيش الحر..

فقاطعه علي: لقد وعدت النقيب بالعودة وسوف أعود..

فقال الحارس: بإمكاننا أن نسير معك مسافة قصيرة جنوباً ثم عليك أن تتدبر أمورك بنفسك..

فأجاب علي: لا عليكم.. سوف أنطلق من هنا بمفردي، ولا أريد أن أعرض أحداً لأي خطر..

فتابع الحارس حديثه بغبطة: هل بلغك الأخبار الطيبة الواردة من جبل الزاوية، وما فعله أفراد الجيش الحر...

أجاب علي بالنفي وبأنه كان مشغولاً بالأحداث دون أن يسمع الأخبار.. واستفسر عما جرى؟؟.. فقال الحارس: لقد هاجم الثوار حاجزين هناك وبعد معركة صغيرة احتلوا الموقعين وأسروا عدداً من الجنود.. يقال حوالي خمسة وأربعون.

فقال علي وعلامات الفخر والفرح بادية على وجهه: وماذا فعل المجاهدون بالأسرى..

فأجاب الحارس: لست متأكداً ولكن لو كان العكس هو الصحيح، أي لو أن الجيش أسر بعض عناصرنا، لكانت مذبحة مؤكدة.. تماماً مثلما جرى في جسر الشغور..

فقال علي: بالتأكيد كانت ستكون مجزرة.. عليَّ أن أغادر الآن ولا سيما وقد حلَّت الظلمة علينا.. إلى اللقاء أيها الإخوة.... وسار بعيداً يحمل بندقيته على كتفه، وودعه الشباب «الله معك يا أخ.. نرجو لك السلامة ولتعتن بنفسك»..

سار علي في شوارع بابا عمرو بحذر شديد.. فكان يفحص ويدقق في الشارع قبل العبور أو الالتفاف باتجاه شارع آخر.. وعلي يقطر عرقاً رغم برودة الطقس في حمص وخاصة في شهر كانون الأول.. وتابع سيره مستفيداً من الظلام الدامس في الشوارع

الخالية إلا من بعض أصوات الطلقات تصله عن قرب حيناً وعن بعد حيناً آخر.. كان علي يدرك أنه ستخرج الليلة بعض المظاهرات، والتي سوف ينجم عنها عدد من الضحايا والإصابات (كما ذكرت الدكتورة) وكان يدرك أن الحماية التي يمكن للجيش الحر أن يقدمها للمتظاهرين محدودة جداً.. وأمل أن ينشغل الجيش النظامي في أمور أخرى ليبقى بعيداً عن الشارع في هذه الليلة.. وفجأة سمع بعض الأصوات القريبة منه مما جعله يقف مكانه دون حراك، ثم تسلل ببطء إلى مصدر الصوت حيث لمح بعض المسلحين الذين يبدون كالشبيحة، فتلفت حوله في محاولة منه للعثور على طريق آخر ليهرب فيه من ال شبيحة.. وفجأة شعر بسبطانة باردة تنغرز في مؤخرة رأسه.. وصوت يقول بفرح: يا شباب تعالوا هنا.. وانظروا ماذا وجدت.. إنه لا يزال حياً على الأقل حتى الآن.... تراكض الجميع باتجاه علي مشهرين أسلحتهم في وجهه.. وتقدم شخص آخر إلى خلف علي وأخذ منه بندقيته.. أيقن علي بحتمية نهايته، ودبَّ الرعب في نفسيته وأخذ يرتجف من البرد والخوف معاً، غير أنه أقنع نفسه بضرورة التماسك على أمل أن يخلص نفسه من هذه الورطة..

وفي هذه الأثناء تقدم منه شاب غليظ، متين البنية، يبدو أنه قائد تلك العصابة يحمل بندقية بإحدى يديه.. وجمع قبضة اليد الثانية وانهال بها على جانب رأس علي... ولم يشعر علي إلا بألم الصدمة وما يبدو كخاتم معدني في إحدى الأصابع ينغرز في وجنته ترنح علي من شدة الصدمة وشعر بدوار شديد وانبثاق الدم من وجهه، ووقع على رصيف الشارع، ثم فجأة شعر بركلة قوية من حذاء ذي مقدمة فولاذية في بطنه كادت توقف أنفاسه.. لم يكن الألم محتملاً وكاد ينفجر من البكاء.. أصدر الشاب الغليظ أوامره لباقي الشباب: ارفعوه....

فرفعه العناصر من ابطيه وأوقفوه على قدميه مع سنده ببنادقهم.. وشعر علي وكأنه يكاد ينهار ألماً وخوفاً.. غير أنه بذل قصارى جهده ليبقى واعياً علَّه ينجو بنفسه.. ووجه له الشاب الغليظ سؤالاً لا يخلو من الإهانة والقصوة: «ماذا تعمل هنا يا ابن العاهرة» في الوقت الذي كان باقي أفراد العصابة ينخسونه ببنادقهم وسكاكينهم.. وفيما هو يحاول الإجابة إذا بلكمة قوية من يد شاب غليظ تلكم وجهه مكسراً بعض أسنانه، وانفجر الدم من فمه حتى كاد يختنق.. وتابع الرجل الغليظ سؤاله: لقد سألتك من أنت يا ابن العاهرة.. هل جئت قوَّاداً لأمك وأختك هنا؟؟؟؟.... وانفجر باقي أفراد العصابة بضحكات هستيرية وأطلقوا بعض العيارات النارية في الهواء تردد صداها في الشوارع الخاوية.. حاول علي جاهداً أن يستجمع ما بقي له من قواه وشجاعته وقال: أنا علي.. من بانياس.... تكلم علي بصعوبة بالغة وأحس بأنه فقد الرؤية في عينه اليمنى.. غير أنه تمكن من خلال عينه اليسرى أن يرى بعض ملامح الشبيحة وبعض العبارات التي كتبوها على الجدران المجاورة.. وكانت إحدى هذه العبارات تقول (سوف نجبركم على الاستسلام) والأخرى (إلهكم بشار وحده ولا إله إلا بشار..).. فصرخ أحدهم بوجهه: «أيها الكاذب.. إنك منشق.. وبإمكاننا قتلك الآن..».

فكرر علي مقولته مع الإصرار: «أنا الرقيب علي من بانياس، وأنا فخور بأن أكون عنصراً في الجيش السوري الحر..» وبدت لكنته العلوية بوضوح للعصابة حوله..

فصرخ الرجل الغليظ بوجهه: «ماذا تقول أيها الأبله.. ليس هناك ما يسمى الجيش السوري الحر.. هنا فقط جيش بشار الأسد أيها الحمار..» ولكمه مرة ثالثة على وجهه بعقب البندقية..

وقع علي على الأرض غائباً عن الوعي.. وأحس كما لو أنه سحب من قدميه على الأرض.. وفجأة توقف الجر وسمع أصوات صياح و جلبة مترافقة مع طلقات نارية

قريبة منه.. ثم فجأة دوى صوت انفجار أعقبه غبار ودخان غشى رؤيته إضافة إلى تشوش فكره...

وفي اليوم التالي أذيعت الأخبار من قبل منظمة حقوق الإنسان عن انفجار وقع في بابا عمرو، أدى إلى مقتل ٩ مدنيين إضافة إلى سبعة من رجال النظام، وأعلن الجيش الحر مسؤوليته عن العملية، وقد بلغ عدد الضحايا في ذلك اليوم الذي أعلن من الجهات الحكومية /٣٦/ قتيل، أما العدد غير المعلن فقد بلغ /٩٢/ قتيلاً..

كان من الواضح أن المراقبين الدوليين الذين أرسلوا من قبل جامعة الدول العربية ألعوبة بيد النظام.. فقد كان رجال الأمن يأخذونهم إلى أماكن محددة، ويدعوهم يكتبون التقارير عن المسيرات الشعبية المفبركة من النظام.. أما واقع الثورة فقد تم التعتيم عليه تماماً.. وكانوا يقولون أن النظام يخضع تماماً لمخطط جامعة الدول العربية بحل سلمي للمشكلة مع استمرار أعمال العنف والقتل والاعتقال العشوائي، وكان الحل أمام المواطنين المسحوقين تحت أقدام الأسد وزبانيته لأكثر من أربعة عقود بسيطاً: سلِّموا أسلحتكم واستسلموا لجرائم الأسد وعصابته.. وكانت التقارير ترد من أوروبا، وخاصة ألمانيا، أن كل من سولت له نفسه بالكلام سلباً عن النظام ووحشيته فقد تمت تصفيته بالاغتيال من قبل زبانية النظام، مما جعل الوضع في سورية والمستقبل مظلم ويسير في طريق مسدود، ويعتمد هذا المستقبل على ردود الأفعال من الطائفة العلوية.. فإذا ما اعتقدوا بأن الثورة قد تنجح فلا مفر من التطور إلى حرب طائفية أهلية، وإلى أن تظهر الحقيقة، فإن الحرب الأهلية القائمة بين الخير والشر لا زالت مستمرة، وإن الثورة بدأت تكسب بعض التقدم بشكل يومي في حربها مع النظام الوحشي الطائفي، وبهذا فيستمر الجيش الحر في الدفاع عن المدنيين العزل أمام وحشية النظام الأسدي المجرم.

الثائر المقدس

-القسيس أنطونيو سانشينز-

على الطريق الصحراوي من دمشق العاصمة السورية، وأقدم عاصمة لا زالت مأهولة في التاريخ، وتدمر (بالميرا) عاصمة الملكة زنوبيا في مطلع القرن الثالث للميلاد، الواحة الريفية في قلب بادية الشام، وعلى تقاطع هذا الطريق الصحراوي مع الطريق من مدينة حمص المتجه شرقا\ص باتجاه تدمر، في هذا الموقع المعزول وبين تلك التلال الرملية يقع دير سانت بول بانسجام تام مع بيئته، وكأنه يقول للناس والمارة: إننا نعيش بأمان في موقعنا هذا.. شيد هذا المكان في الأيام الأولى للحكم الإسلامي لبلاد الشام في القرن السادس الميلادي.. ومع أنه يبدو معزولاً ومهجوراً فيما يجاور مدينة تعج بالحياة التجارية والزراعية عبر القوافل التجارية منذ مئات السنين.. ومر بهذا الطريق عديد من الناس والبدو والرحل وبقي هذا المكان يعمره المؤمنون.. الذين آثروا اعتزال عالم المادة والالتصاق بعالم الروح والسلام مع الذات.

فأول ما يلفت النظر في مدخل الدير عبارة منقوشة على الحجر وهي الآية الأولى في القرآن التي تتكرر في مطلع كل سورة تقريبا، ألا وهي (بسم الله الرحمن الرحيم)، ثم يلي المدخل قاعة الصلاة والممرات بين أقسام الدير.. وقد غطت معظم جدرانه لوحات جبصينية ملونة لبعض الملائكة والقديسين، مما يضفي على المكان هيبة وجلالاً وخاصة تلك اللوحة التي تمثل الجنة والنار، كما وصفتا في الكتاب المقدس، وما إن اجتاح الصليبيون الأوروبيون بلاد الشام في أوائل القرن الحادي عشر ميلادي حتى لفت انتباههم هذا الدير، فشرعوا بترميمه حوالي العام ١٠٥٨ م للمحافظة على بقائه في معزله هذا على قمة إحدى التلال، وللسماح للزائرين بالتمتع بروحانية غامرة في هدأة وسكون المكان..

يحتوي الدير على جناح خاص للزائرين الذكور والقسيسين وجناح آخر للزائرين النساء والراهبات.. وعاش الناس في هذا الدير يتقاسمون الأعمال والواجبات الدينية والدنيوية خلال النهار، ثم يتفرقون مساء ليخلد كل منهم لنفسه و استمرت الحال على هدا المنوال حتى القرن الخامس عشر.. وفي أوائل القرن التاسع عشر غادر آخر راهب المكان بعد أن تقطعت به سبل العيش، وهجر المكان لترتع فيه قطعان الغنم والماعز والرعاة.. إضافة إلى الجو الصحراوي القاسي.. مما أنزل بالدير الخراب والدمار التدريجيين..

وفي العام ١٩٨٤ اكتشف القس أنطونيو سانشيز هذا المكان خلال جولة سياحية دينية، زار فيها الأماكن المقدسة التي عاش فيها السيد المسيح عليه السلام.. وكان شاباً تخرج لتوه من جامعة نافاري Navarre في برشلونة بإسبانيا.. ولسبب ما عشقت روحه المكان وتعلق قلبه بالدير، وقرر ترميمه لتدب فيه الحياة من جديد، وشرع فوراً بالترميم بجهد ودافع شخصي ودعم مالي من الكنيسة الكاثوليكية.. ولم يكن هذا العمل سهلاً.. بل شكل تحدٍّ لا يستهان به للأب أنطونيو.. فتعلم اللغة العربية ليسهل عليه التواصل مع من حوله، وعمل كقسيس وسيط، وأدى الصلوات مع الزوار، وعمل على ترميمه بيديه، واتصل بكل من يمكنه الاتصال به من المواطنين دون الاعتبار لدين أو مذهب حتى غدا كأسطورة في هذه البيداء الشاسعة.. فأعاد أولاً بناء السقف، وأعاد ترميم الأيقونات، وأعاد بناء الدرجات التي بلغ عددها /٣٠٣/ ليسهل صعود الزوار والمؤمنين إلى الدير. دبت الحياة في الدير بشكل ملفت، وغدا نموذجاً لحياة الرهبنة الشرقية بكل ما فيها من عبادة وضيافة، بل وتجاوزت الحياة هنا إلى أن غدا المكان مركزاً للحوار الديني بين المثقفين والعلماء من الدينين المسيحي والإسلامي، حيث كان يجتمع فيه رجال الفكر للحوار، بدأ الأب أنطونيو هذا النشاط الفكري والديني في الوقت الذي بدأت تظهر على السطح بعض الاتجاهات الإسلامية المتشددة ففي عام ١٩٧٩م عاد الإمام الخميني من منفاه الى إيران ليبدأ معها عصر جديد من التغير السياسي في الشرق

الأوسط، فظهر تيار جديد جارف لإعادة التركيبة السياسية عبر توظيف الدين لخدمة مآرب رجال الدين، ومن لفَّ حولهم من السياسيين المنتفعين الوصوليين، وقد وجه المتشددون من رجال الدين أرضاً خصبة ليرتعوا فيها، لا سيما وأنهم عانوا عبر السنين الطويلة كل أصناف الإقصاء والتهميش، بل والاضطهاد من قبل الحكام المتسلطين والدكتاتوريين. ولما كان معلوماً أن يتلازم الحكم الفردي الدكتاتوري مع انتشار الفساد والفقر والجهل والمرض، وهذا ما يدفع الناس للبحث عن حلول بديلة لأوضاعهم المزرية، وقد جرب الشعب السوري كل أنواع الحراك السياسي منذ بدء الاستقلال، ومنيت كل محاولات التخلص بالفشل. كانت الكنيسة تابعة للمذهب السرياني، وهو المذهب الذي تمتد جذوره عميقة ونشأ في القرن الخامس الميلادي إثر جدال عظيم مع الكنيسة البيزنطية. ويتكلم أتباعها اللغة السريانية في ممارسة طقوسهم الدينية، إحدى اللغات السامية القديمة والقريبة جداً من اللغة الآرامية التي تكلم بها السيد المسيح عليه السلام. ورغم بعض الخلافات في المعتقدات الدينية، غير أن الكنيسة شاركت ممارسة شعائرها بأسلوب واقعي، فكان السائح يلمح السجاجيد وجلود الأغنام تغطي الأرض، وأن الإنجيل مرفوع على طاولة كالتي في المساجد لرفع القرآن، بل وكان الكهنة والراهبات يسجدون كالمسلمين.

بدأت الصعوبات تواجه الأب أنطونيوس مع التغيرات السياسية حول العالم وازدياد التحفظ تجاه المسلمين لعدم فهم الغرب الإسلام بشكل صحيح، فظهرت على سبيل المثال تلك الرسوم الكاريكاتورية للرسول الأعظم ﷺ مما زاد رسالة الأب أنطونيو تعقيداً، ومع ذلك ثابر بإصرار على ضرورة الحوار بين الأديان، ودفع هذه الرسالة إلى أعلى مستوى كنسي ممكن، بل وكما هو إنسان متواضع نبيل، ورغم بلوغه العقد السادس من عمره وخط الشيب لحيته ورأسه إلا أن تصرفاته وحركاته تنبئ عن دم لاتيني مفعم بالحيوية والنشاط.

ويعتبر نفسه (المواطن العالمي.. أي الذي يعنى بشؤون العالم كله) وقائد روحاني موقر من الجميع حتى غدا معروفاً ومحترماً من قبل كل من احتكوا به، لدرجة أن عشائر البدو المجاورة يقدرونه ويجلُّونه، وسكان المدن المجاورة من كافة طبقات المجتمع ومختلف الأديان يلجؤون لمعتكفه الروحي.. وكانت الحياة في الدير تسير برتابة ودقة، فجدول الزوار مقسم بين الصلاة والعمل، إذ تبدأ الصلاة باللغة العربية في الساعة السابعة والنصف صباحاً، أما من لا يحسن التكلم والصلاة بالعربية فعليه غسيل الصحون أو بعض الأعمال الأخرى، أو حتى السير في الصحراء بين الكثبان الرملية والتأمل في خلق الله، كما أنشأ مزرعة صغيرة تنتج من الفواكه والخضار بشكل دائم، محاولاً بذلك إيقاف التصحر الذي يهدد البيئة المحيطة به نتيجة إهمال الحكومة الدائم للأراضي واستصلاحها، ولم يكن ليرضخ أو يقبل بأي هزيمة في مواجهاته كلها.

عاش الأب أنطونيو في سوريا بتأشيرة إقامة نصف دائمة.. وكان عليه أن يسافر إلى دمشق في كل عام ليجدد تأشيرته، فكان ينتظر في صفوف طويلة لساعات، ويشاهد بعينيه الفساد الإداري والرشاوى تدفع للموظفين، وامتهان كرامة الإنسان ومحاباة المسؤولين، وفوق كل هذا التخلف الذي وصل إلى درجة ميؤوسة من و عصية على الإصلاح، وعدم تطوير أي آلية في العمل الحكومي منذ أن اعتلت أسرة الأسد عرش السلطة في سوريا. وتغلب الأب أنطونيو على هذه العقبات بما عقده من صلات مع كبار وصغار المسؤولين، غير أنه فوجئ في هذا العام (٢٠١١) وخلال زيارته لتجديد تأشيرته، بتغيير جذري في معاملة المسؤولين له، فلم يعد المسؤول مهما علا شأنه أن يتجاوز بعض الخطوط الحمر، ثم وبشكل مهين رفض المسؤول تجديد تأشيرته، وتبع ذلك تسليمه أمر مغادرة سوريا في غضون /٤٨/ ساعة.. صعق الأب أنطونيو عندما استلم أمر مغادرة سوريا، ووقف في البناء القديم الذي أنشئ في عهد الانتداب الفرنسي مصعوقا من هذا القرار المفاجئ، ولم يعِ ما هي الجريمة التي ارتكبها بحق البلد الذي أحبه وبادله الحب لكي

يستأهل هذا الطرد المشين.. وحاول معرفة السبب فذهب من دائرة لأخرى دون أن يعطيه أحد الجواب، إلا أنه أحيل إلى فرع الأمن الخاص، حيث أبلغ أن دعمه للمتمردين والثورة القائمة من خلال كلامه الصريح، ونشره إحدى خطبه يندد فيها بالعنف الذي تمارسه قوات النظام ضد المواطنين الأبرياء العزل، وهذا كافٍ لإنهاء النظام إقامته في سوريا بعد كل تلك السنين وكل ما بذله من جهد وما حققه من إنجازات..

لقد كان هذا الدير أكثر من بيت ومنزل بالنسبة للأب أنطونيو، إنه محور حياته وسبب بقائه حياً، لقد كانت تلك الورقة لمغادرة سوريا بمثابة حكم الإعدام، ولم يكن مستعداً لقبول هذا الحكم الجائر، واستمر في محاولاته لإلغاء الأمر دون جدوى، إذ أبلغه أحد المسؤولين أن حياته مهددة بالخطر من قبل بعض السلفيين المسلحين لكونه قسيساً مسيحياً، وأن الحكومة تقدم له خدمة جليلة بطرده خارج البلاد حفاظاً على حياته.. وطبعاً لم يقتنع بهذه الحجة الواهية.. ويعلم مدى خبرة النظام السوري بعمليات القتل والاغتيال، وأن رجاله لن يترددوا بتصفيته واتهام أعداء الدولة والمتآمرين الخارجيين، وبالتالي يلفتون أنظار العالم إلى الإرهاب الذي يهددهم، وبالتالي تقوى حجتهم بالاستمرار بقتل شعبهم.. فقرر أن لا يغادر سوريا على الفور، لكنه كان بحاجة إلى مخبأ ريثما تنجح الثورة ويندحر النظام الغاشم. فعاد أدراجه إلى الدير لتأمين العمل فيه بعد مغادرته سوريا، فنصب قسيساً آخر للشؤون الدينية والصلاة، وبعث برسالة سرية إلى اللجنة التنسيقية في حمص، التي وعدته بمكان آمن ريثما يقرر خطوته التالية، وفي ذات الوقت أرسل النظام رسالة نهائية من الرئيس على شكل فريق اغتيال لتصفيته، فقامت اللجنة التنسيقية في حمص على الفور بالاتصال بالجيش السوري الحر لمساعدتهم بإيصال الأب انطونيو إلى حمص قبل أن يصل إليه فريق الاغتيال، فكان الوقت والتوقيت ذوا أهمية كبيرة لكسب السباق.

ولنعد الآن إلى بابا عمرو.. لنرى علي مسجى على سرير في غرفة صغيرة في مقر الكتيبة يحيط به جمال وآخرون، وكانوا قد أحضروه من يومين وهو على وشك الموت المحقق لما ناله من ركل وضرب على أيدي الشبيحة، فقد أصيب بكسور في الأضلاع وفقد عدداً من أسنانه وكسرا في ذراعه مع ارتجاج في دماغه، وبذلت الدكتورة ريم قصارى جهدها لإنقاذه من براثن الموت.. أما كيف وصل إلى الكتيبة؟؟..

فقد لاحظ جمال تأخر فادي وعلي في العودة إلى المقر عن الموعد المتوقع عودتهما به، وكان جمال قد أعطاهما هواتف جوالة، غير أنه لم يسمع من أي منهما، وأكَّد العاملون في المشفى الميداني أن علي غادرهم مند فترة، وذكروا أنه بعد مغادرته بوقت قصير سمع صوت إطلاق نار في الجوار، ومن المحتمل أن علياً قد واجه بعض الصعوبات في طريق العودة. ونظراً لما يتمتع به جمال من التزام بحماية عناصره، ونظر ثاقب، فقد شكل فريق بحث فوري، ترأسه هو، ومعه ثلاثة عناصر آخرين تطوعوا معه وغادروا المقر للبحث والتأكد من مجريات الأحداث، وما إن وصلوا إلى مكان تواجد علي حتى رأوه ملقىً على أرض الشارع دون حراك، ولا يزال الشبيحة يركلونه ويجرونه إلى عربتهم إلى حيث سيلقى حتفه على أيديهم في مقرهم.. فأمر عناصره مباشرة بالتسديد إلى أهداف معينة والانتقال إلى الجهة الأخرى من الشارع بحذر شديد، وبثوانٍ قليلة كان الجميع بمواقعهم جاهزين لشن هجوم جماعي، فأمر جمال رجاله في البدء بالهجوم، وسدد بندقيته إلى الرجل الغليظ (قائد الشبيحة) والذي كان يركل علي باستمرار، فأرداه قتيلاً من فوره، وبدأت المعركة، وأخذ الشبيحة يطلقون النار بشكل عشوائي دفاعاً عن أنفسهم في ظلمة الليل الداكنة، وفجأة ألقى أحد المجاهدين قنبلة يدوية قتلت ثلاثة شبيحة ولاذ الباقون بالفرار، وكلمح البصر هرع جمال والباقون إلى علي الذي كان يصارع الموت، فحملوه على وجه السرعة واتجهوا به إلى المشفى الميداني المجاور، والذي كان لا يزال يقدم المساعدات الطبية بإدارة الدكتورة ريم، والتي تعرفت على علي فور رؤيتها له، ونقلت فوراً

إلى جمال ما كان قد قاله علي عن مصير فادي، وكيف أنه أصيب بطلق ناري قاتل منذ بدء المهمة..

كانت العلاقات تنمو وتقوى بسرعة خاطفة بين أفراد الجيش السوري الحر، لما يجمعهم جميعاً من كونهم منشقين عن الجيش النظامي، وكونهم يحاربون عدواً شرساً طائفياً متمثلاً برأس النظام وزبانيته وعصابته، وكونهم مطلوبون جميعاً من قبل النظام لتصفيتهم بعد أن ينالوا من العذاب ما يعجز عنه البشر، وكانوا يدركون تواجد أفراد النظام وأعوانهم في كل زاوية وعند كل تقاطع، وأن عدداً من هؤلاء الأعوان يتمنون لو ينقلون أي خبر عن أفراد الجيش الحر ليحظى برضى المسؤول الأمني المتعطش لدماء المقاومين..

دخل جمال غرفة علي وألقى عليه تحية الصباح، وسأله عن حاله فأجاب:

– أنا بخير يا سيدي.. وكان صوته خافتاً لشدة إصاباته ولحزنه لفقد فادي....
فقال له جمال: إن فقدك لفادي يوازي فقدنا إياه.. وأؤكد لك بأنه سيكون هناك المزيد من الضحايا.. وكل ما أطلبه منك أن ترتاح قدر الإمكان ثم تستعيد عافيتك للاستمرار بالنضال..

فشهق علي وهو يبكي قائلاً: «لقد كان شاباً رائعاً، محباً للحياة..».

فقاطعه جمال بقسوة أبوية: عليك النهوض من هذه الكبوة، فالندم والنحيب من صفات النساء العجائز، وليس من صفات المحاربين الأشداء مثلك، ولا وقت لدينا للتوقف والبكاء على أحد مقاتلينا، بل علينا أن نبكي فرحا يوم انتصارنا على هذا النظام الغاشم، فبكاؤنا الآن سوف يسعد العدو يفرحه.. وأنا أحزن لفقد أي عنصر، غير أني لا أستطيع التوقف إطلاقاً.. هل فهمت قصدي.. فأجابه علي بالإيجاب وسأله كالطفل البريء يتدلع على والده: «ألن تبكي لمقتلي؟» فأجابه جمال بصراحة شديدة..: لا.. لن

أبكي.. وأتوقع منك أن لا تبكي أنت لفقدي.. وكان علي يدرك تمام الإدراك أن جمال كان يمثل دور القائد اللامبالي بإتقان، غير أنه في سريرته غير ذلك تماماً، فهو عطوف ورفيق بأصدقائه وزملائه، فرد عليه بابتسامة، وحاول الجلوس على حافة السرير، تنفس علي بصعوبة وشهيق من شدة ألمه..

توجه علي إلى جمال وقال: يا سيدي.. ليس من السهل الجلوس هكذا.. وأنا أعلم جيداً أنك مقاوم لأي إصابة مهما بلغت شدتها..

فابتسم جمال قائلاً: إن كان هذا ما تعتقده.. فليكن.. وأرجو أن تبلغ الجميع أنني سوبرمان.. وكل ما أريده هذا الرداء على كتفي..

وضحك الاثنان لعبارات جمال..

سأله علي: سيدي.. ماذا يجري.. ما هي الخطوة التالية.... فأجابه جمال:

- «الخطوة التالية لي وليست لك، عليَّ أن أقطع البادية إلى حافة الصحراء لإحضار قسيس..».. فدهش علي متسائلاً: «قسيس..؟؟».

- نعم.. قسيس من أصول إسبانية..

- قسيس.. وإسباني..؟؟و ما علاقتنا نحن به؟؟... فأجاب جمال:

- لست متأكداً، غير أن الرائد ذكر أنه ممن يساعدون الثورة والثوار صراحة ويندد بجرائم النظام ووحشيته.

- وأين ستأخذه؟؟

– تريده اللجنة التنسيقية في حمص.. لربما في أحدى المناطق المحررة، سوف نحصل على مزيد من المعلومات قبل توجهنا..

– ولماذا لا يغادر البلد دون أي ترتيبات خاصة..

– إنه ملتزم بأهداف الثورة تماماً كأنه واحد منا.. إضافة إلى أن النظام يترصده ليتم تصفيته.

– ليس مستغرباً عن هذا النظام المجرم أن يخرس أي صوت لا ينعق بمديحه وتمجيده.. ومتى ستغادر؟؟..

– سنغادر الليلة.. ونأمل أن نصل إليه قبل رجال النظام السفاحين..

ودَّع جمال رفاقه على أمل اللقاء قبل المغادرة.. وداعب علي بقوله: توقف عن الاختباء في السرير.. سأصحبك معي في المهمة التالية.. وغادر الغرفة لاتخاذ بعض الترتيبات قبل أن يحل المساء..

– وداعاً سيدي.. اعتن بنفسك.. وأسأل الله لك السلامة في مهمتك..

وسار جمال باتجاه غرفة الرائد، حيث صادف أحمد مشغولاً يكتب على صفحة ورق، فسأله: كيف حالك يا أحمد .... فابتسم أحمد قائلاً: أنا بخير والحمد لله.. لقد صدمت لفقد فادي، فقد كان شاباً رائعاً ومثالاً يحتذى به.. أسأل الله أن يتغمده برحمته..

– فقال جمال: لا تقلق بشأن الرحمة من الله، فهو شهيد وسوف ينقل برحمة الله على الطريق السريع إلى الجنة... بإذن الله..

فظن أحمد أن هذا التعليق موجه له.. وحاول صد الهجوم الأخوي من قبل جمال، غير أن جمال بادره بلهجة أخوية: هدِّئ روعك يا أحمد.. ففي المستقبل القريب وعندما نحرر حلب سوف أدعوك لشرب الأركيلة في إحدى المقاهي أمام قلعة حلب.. فرد أحمد: وهل أصبحنا سواح في بلدنا..

ضحك الاثنان وهما يتساءلان ضمنياً هل ستتاح لهم قريباً فرصة التمتع بهذه الجلسات الهادئة، عندما يجتمع الأصدقاء في إحدى المقاهي يتناوبون الأحاديث والقفشات.. هل سينعمون بالأمن والأمان بعد أن يزول هذا النظام الفاسد الظالم الذي قبع على صدور المواطنين وكبت أنفاسهم لأكثر من أربعين عاماً..

انحدر الرائد فراس كيلاني من أسرة ميسورة تمتلك مصانع للغزل والنسج تنمو تدريجياً في حماه.. وتطوع في الجيش لمجرد الحماس والوطنية، وكان زملاؤه ورؤساؤه يتوقعون له مستقبلاً لامعاً في الجيش لما أبداه من شجاعة وحكمة، وبالإضافة لمعامل الغزل والنسيج فقد كانت أسرته تملك بعض الأراضي الزراعية في ريف حماه، قبل أن يعتلي حزب البعث المجرم سدة الحكم في سوريا ويؤمم كل الممتلكات تحت حجة الاشتراكية.. وفي هذه البيئة الميسورة والمحافظة ترعرع فراس وشبَّ دون أن يضطر للعمل المبكر كباقي أقرانه وأبناء جيله..

وقد ساد الاعتقاد في ذلك الوقت المبكر أن التطوع في الجيش ليس هو الخيار الأفضل لأبناء العائلات السنية العريقة، وخاصة في ظل حكم آل الأسد، وذلك لندرة فرص الارتقاء في المناصب وعدم وجود فرصة لإرسالهم إلى دورات تدريبية لتحسين أدائهم، وعدم إرسالهم في بعثات للخارج، فكانت الفرص شبه محجوزة لأبناء الطائفة العلوية خاصة والبعثيين بصورة عامة، وهذا ما همَّش الضباط وصف الضباط السنيين في الجيش، حيث تجاوزهم في الرتبة والراتب كل الفاسدين والفاشلين من العلويين (وما

أكثرهم).. وهذا ما حدا بالشباب من أبناء الطائفة السنية بالعدول عن التطوع في الجيش.. ولم يكن الرائد فراس بعيداً عن هذه المعادلة، فقد سبقه زملاؤه من الطائفة العلوية بالترقية، وعزل عن الدورات التدريبية، ولما بلغ السابعة والأربعين من عمره وهو في ذروة شبابه وقمة عطاءه، صدر أمر إحالته للتقاعد.. وهو واحد من مئات بل آلاف الأمثلة للفشل الذريع في مستوى أداء الجيش السوري، لأن القائمين على الجيش السوري والمخططين له فضلوا الولاء والانتماء على الكفاءة. أما فكرة أن يحمي الجيش الشعب من العدو الخارجي فلم تكن الفكرة السائدة آنذاك...

لقد كانت كل العوامل تسير ضد مستقبل فراس العسكري، فهو أولاً من الطائفة السنية وثانياً من عائلة مرموقة، وثالثاً من مدينة حماه التي وقفت ضد ظلم واستبداد آل الأسد منذ البداية، ودفعت في عام ١٩٨٢م ثمناً لهذه الوقفة دماء /٤٢٠٠٠/ شهيداً من أبنائها.. ورابعاً فهو خريج كلية الحقوق في جامعة حلب، ونال درجات الامتياز لدى تخرجه، ولم يكن انتسابه إلى الجيش إلا نتيجة حماسة زائدة، ورغبة وتصميم على أن يبدأ بتغيير هذه الممارسات ضد السنيين في الجيش، وقد امتاز في أداءه النظري والعملي في كل المجالات العسكرية، تماماً كما كان جمال ممتازاً في أدائه واجبه، ورأى أن اعتماده على نفسه في تعميق معلوماته هو الحل الوحيد ليعوض عن الممارسات العنصرية والطائفية في الجيش، ولذا فقد عمد إلى قراءة كل ما تقع يده عليه من كتب التاريخ العسكري المتوفرة في المكتبة، وترجم بعض المقالات من مجلة (جاين) Jane،s العسكرية، وبعض المجلات والجرائد التي هربت إلى داخل سوريا والتي تعنى بالقدرات العسكرية والتطورات العلمية في الخارج.. وبذا أصبح محللاً عسكرياً موهوباً، ومثقفاً يبحث دائماً عن السبب لكل حادث، ولم يكن يقبل الأمور على علّاتها، وقرأ الكثير عن الديموقراطية، والعدالة والحرية، وقد نمت أخلاقياته العالية لكونه ترعرع في بيئة محافظة (مدينة حماه)، وتشبع بتعاليم

الإسلام التي جعلته يعيش بسلام نفسي دائم، فقد كان مواظباً على صلواته وصيامه وكل الفروض الواجبة عليه.

وقد منَّ الله عليه بزوجة صالحة من أسرة مرموقة، وأنجبا معاً أربعة أولاد شبُّوا جميعاً في أسرة ملتزمة إسلامياً ومنفتحة فكرياً، وخاصة بعد دخول التكنولوجيا الحديثة إلى حياتهم جميعاً، كالكمبيوتر والإنترنت، مما وسَّع أفق الأولاد بالاطلاع والتعليم فوق العلوم المدرسية المسيَّسة لتمجيد الحاكم وتأليهه، وكثيراً ما كان يمضي فراس جزءاً كبيراً من الليل، يبحث في الإنترنت ويقرأ كل ما يمكنه عن التقدم العلمي، وخاصة في مجال عشقه الأساسي، ألا وهو العلوم العسكرية والتاريخ العسكري.. فقرأ الكثير عن التطرف ومساوئه، وكان يسعى جاهداً ليبعد أولاده عن المزج بين الدين والتطرف، فكان يشجعهم على الحوار المفتوح الصريح، فكان ابنه الأصغر، ولا يزال يافعاً، يهوى الجدال في آيات الجهاد، والتي أساء استعمالها بعض المتطرفين ليبرروا ممارساتهم الإرهابية تحت اسم الجهاد، مما حدا بفراس لإلغاء بعض المواقع الجهادية المتطرفة كي لا يقع أولاده ضحايا لهذا السلوك المنحرف، إذ كانت تلك المواقع تستهدف الشباب اليافعين لاستقطابهم وحرفهم عن تعاليم الإسلام الحكيمة..

اعتبر النظام أن فراس خائناً ومنشقاً عن الجيش وأحل دمه.. فهرع رجال الأمن والشبيحة إلى حماه يبحثون عنه وعن أسرته التي تمكن من تهريبها خارج سوريا، بمساعدة الجيش الحر واللجنة التنسيقية المحلية، ولما عجز زبانية النظام من العثور عليه أو على زوجته وأولاده، فقد تم اعتقال والده الشيخ المسن وأخوه الذي لا ناقة له في هذا الأمر ولا جمل.. وتم تعذيبهما وقتلهما ومن ثمَّ التمثيل بجثتيهما و القائهما في نهر العاصي، وكأي مسلم يؤمن بالقضاء والقدر، فقد رضي فراس بقضاء الله وقدره وتقبَّل ما حلَّ بأبيه وأخيه

واحتسبهما شهداءً في الجنة، غير أن هذه الفاجعة لم تثن عزمه أو تلين شكيمته، بل قوَّت من إرادته وشدَّت عزيمته وجعلته أكثر انضباطاً وأكثر حكمةً في قيادته.

لم يكن انشقاق فراس عن الجيش المجرم وليد ساعته أو تحت التهديد أو الإكراه، فقد قرر الانشقاق بعد لقائه صديقه القديم القاضي صلاح العمري، والذي كان يشغل منصب النائب العام في حماه، فقد توجه القاضي صلاح إلى فراس ذات يوم بعد فراغهما من صلاة العصر في جامع عمر بن الخطاب، وطلب منه أن يتمشيا معاً في شارع حلب القديم خلف المتحف الوطني. تجاذب الصديقان أطراف الحديث ملمِّحين بين الحين والآخر إلى الأحداث الجارية والثورة، في محاولة من كل منهما لسبر غور الآخر ومعرفة موقفه من الأحداث، ولم يفاجأ بموقف صلاح المؤيد للثورة، بل تفاجأ من تصريح صلاح عن عزمه على الانشقاق والسفر إلى قبرص خلال أيام، ووقع عليه هذا التصريح وقوع الصاعقة، لأنه يعلم أن مجرد الحديث في الانشقاق أو حتى الانصات لهذا الحديث جريمة يعاقب عليه إذا بلغ ذلك مسامع زبانية النظام المجرم.. أضاف صلاح أن أسرته سوف تسبقه إلى قبرص بمساعدة الجيش الحر وأنه سئم من الجرائم التي يرتكبها الزبانية في حماه وفي سوريا عامة مرة بعد مرة، وأنه إن لم يفعل ذلك فهو شريك في الجريمة، وأن انشقاقه وإن لم يكن ذو تأثير مباشر على النظام ووحشيته إلا أنه سيكون بمثابة رسالة مؤيدة للثورة وضربة مؤثرة للنظام، وتابع قائلاً كمن يلقي محاضرة: لقد شاهدنا ما يكفي من خطف واختفاء إخوتنا، لقد سئمنا من مشاهدة الدماء البريئة تسفك هدراً للحفاظ على النظام المجرم لأربعة عقود مضت وعقود أخرى قادمة. ولم أعد أحتمل يا صديقي هذا الأمر أكثر مما تحملت، وقد أكون بعون الله أكثر فائدة خارج سوريا مما أنا في داخلها..

فسأله فراس: هل لي أن أعرف سبب قولك هذا لي.... فأجاب:

– لأنني أرغب أن ترافقني في هذا الانشقاق. فقال فراس:

– ولكنك تعلم أنه من المحتمل كثيراً أن نقتل إن فعلنا.. فأجابه:

– أعلم ذلك جيداً.. ويجب أن أختار وأقرر.. ولقد قررت.. وهذا أقل ما يمكنني فعله، لا سيما وأنا أرى الشباب العزل والأبرياء يواجهون كل يوم الموت من قبل عصابة الأسد المجرمة.. ولم يبق ما يستأهل البقاء.. وإن بقينا فنحن شركاء في هذه الجرائم الشنيعة، وإن لم نتكلم فنحن بحكم الموافقين عليها.. لقد درس كلانا القانون وأنت تعلم جيداً دراستي وخلفيتي.

فسأله فراس: وماذا عن أسرتي؟؟ فأجابه:

– سوف ينقلهم الجيش الحر مع أسرتي.. فسأله:

– وكم لدي من الوقت لأقرر؟؟ فأجابه:

– يومين أو أربعة أيام على أكثر تقدير، وعلينا أن ننشق معاً وبآن واحد، فالجيش الحر بحاجة إلى أمثالنا، وخاصة أنت كضابط مثقف، وتذكر أنك لطالما أخبرتني أن النظام قد دمَّر هيكلية الضباط المحترفين.. وأنا أرى أن هذه فرصتك لإعادة الأمور إلى نصابها.

خطا فراس بضع خطوات مطرقاً رأسه ويزن بعمق كل الاحتمالات ثم قال:

– لقد كنت أدرس هذا الأمر عبر الإنترنت، وأعي جيداً ماذا جرى للمقدم حمشو والذي سلمته السلطات التركية للمخابرات السورية، وشاهدته على الشاشة التلفاز وهو يعترف مكرهاً بما فعل، وأعرف أنه قد تم إعدامه بعد هذه المقابلة التلفزيونية بدقائق. ثم التفت إلى صديقه وقال: لا بد وأن يكون هذا العمل هو أشرف عمل أقوم به، وأنه الآن الوقت الأنسب لحرب التحرير.. وسيكون هذا الانشقاق مشرِّفاً... فقاطعه صلاح قائلاً:

– لم يكن لدي أدنى شك في أنني سوف أسمع منك هذا الكلام.. ولسوف أتصل بك غداً لأعطيك بعض التفاصيل.. وعلينا أن نستمر في التحرك.. ولن نتراجع مهما كانت الظروف أو النتائج..

افترق الصديقان وسار كل منهما إلى وجهته.. وتم بعد خمسة أيام تهريب أسرة الكيلاني والقاضي العمري وأسرته في باص متجهاً غرباً إلى الساحل السوري، حيث جهز الجيش الحر مع اللجنة التنسيقية المحلية بأن يصل الباص إلى قرية صغيرة على الساحل جنوبي مدينة بانياس حيث ودع فراس أسرته وصديقه وأسرته وعاد مع رجال الجيش الحر إلى حماه.. وفي هذه القرية الصغيرة على الساحل ركبت الأسرتان قارب صيد صغير جداً تحت جنح الظلام الدامس، وانطلق القارب متجهاً إلى موقع جنوب لارناكا وشرق بيريفوليا (perivolia)، حيث يستقبلهم عناصر من الجيش الحر هناك، وصل المركب إلى الموقع المحدد حوالي الساعة الرابعة والنصف صباحاً، وتم نقلهم فوراً إلى مسكن بعيد عن الشاطئ محاط بأراضٍ زراعية، وبقوا هناك إلى أن تم تأمين لجوء سياسي لهم مع السلطات القبرصية. وبعد أيام قليلة ظهر القاضي العمري على التلفزيون في مقابلة تلفزيونية أعلن فيها انشقاقه عن النظام، وأبرز خلالها وثائق مهمة تدين النظام على أعلى مستوياته الإدارية بارتكاب جرائم ضد الإنسانية، كما أبرز وثائق تظهر مدى الفساد المستشري في البلاد، والاعتقال غير القانوني.. كل هذا من أوراق في ملف ضخم اصطحبه معه عند الفرار..

غادر الرائد فراس حماه إلى حمص بواسطة الجيش الحر وتسلم مهمته كقائد ميداني لمنطقة بابا عمرو، وما فتئ يمارس مهمة تقوية مراكز الجيش الحر هناك، ويؤمن الحماية للمتظاهرين المدنيين العزَّل، ويرسل مقاتليه للمساعدة في نقل وحماية الأطباء والممرضات والممرضين المتطوعين.. لقد غير هذا اللقاء بالصديق القديم صلاح مجرى حياة فراس إلى

الأبد.. فقد كان متفائلاً وواثقاً من قدرات المقاتلين القتالية وعزمهم وتصميمهم على المضي قدماً في تغيير النظام وتأسيس الدولة المدنية والديموقراطية في سوريا.. وكثراً ما كان يفكر فيما إذا كان سيرى أسرته ثانية، غير أن انشغاله الدائم بما لديه من مهام ورعاية المجاهدين تحت إمرته كان يحرف تفكيره في أسرته. وقد أثبت جدارته وقدرته القيادية بالتخطيط الدقيق، رغم ندرة المواد المتاحة له، لتحقيق ضربات موجعة لعناصر النظام في الوقت والمكان المناسبين..

لقد تطلبت حملة تهريب القسيس أنطونيو من الدير إلى حمص خبرة وبراعة في التخطيط والقيادة، فاختار فراس جمالاً للقيام بهذه المهمة لما عرف عنه، حتى من قبل أن يقابله، من خبرة وحنكة في اتخاذ القرار وتنفيذه بشجاعة متناهية، ولم تأتِ ترقيته الميدانية من فراغ، بل مما اكتسبه جمال من ثقة مرؤوسيه وإطاعتهم له دون تردد.

دخل جمال على فراس وهو يراجع الخريطة أمامه، وقال: نحن جاهزون للمهمة..

فقال فراس: جمال يمكنك أن تناديني باسمي عندما نكون لوحدنا.. فأنت أفضل ضابط ميداني لدي في هذا الموقع، وأنا اخترتك لثقتي بقدراتك القيادية وخبرتك الميدانية، والآن لنعد لدراسة الخطة.. وهي كما ترى ذات أهمية إعلامية أكثر منها قتالية ومحفوفة بالمخاطر نظراً لبعد المسافة وكون المنطقة مكشوفة.. وتابع:

سوف تتحرك مع أربعة عناصر الساعة (٠١,٠٠) صباحاً على مركبتين تم تأمينهما من اللجنة التنسيقية المحلية متجهين إلى الجنوب الشرقي، سوف تؤمِّن اللجنة لك سائقاً حتى مشارف المدينة ثم سوف يتولى رجالك مهمة السياقة، ولسوف تكون السياقة صعبة في الصحراء وتحت جنح الظلام، وعلمت أجهزة الاستخبارات وجود أربعة حواجز

على الطريق إلى تدمر، وعليك أن تتحاشى الطريق العام ما استطعت، ومن المتوقع وصولك إلى الهدف عند الساعة الخامسة فجراً. هل من أسئلة حتى الآن..؟؟

– هل هذه المركبات رباعية الدفع؟؟.. سأل جمال. فأجابه:

– نعم، لقد تأكدت من ذلك.. وسيكون الأب أنطونيو في انتظارك عند المنحدر السفلي وليس في الكنيسة والتي ترتفع بمعدل /٤٠٠/ درجة تقريباً.

فسأل جمال مقاطعاً ومعتذراً: ولكن ماذا لو لم يكن موجوداً في تلك النقطة؟؟ فأجاب فراس:

– حاول أن تتحاشى الصعود إلى الكنيسة، فهناك العديد من الزوار، وقد يكون بعضهم من رجال النظام.. فغر جمال فاه مستفسراً:

– أفي الكنيسة..؟؟ فأجابه فراس:

– نعم.. في الكنيسة.. ولا بد وأن يسرب أحدهم بعض المعلومات للسلطة هناك، وتشير معلوماتنا إلى وجود فرقة قتل متجهة إلى هناك مع شروق الشمس أيضاً.. فلا تُضع الوقت.. فلا ندري عدد المجرمين هناك.. ولذا فإن عليك أن تتحاشى مجابهتهم.. فقط نفذ مهمتك بإحضار القسيس.. وسوف نتولى باقي الأمور لاحقاً.

– سوف نأخذ معنا RPG وبعض القنابل اليدوية تحسباً لما قد يحدث..

– فكرة جيدة.. رغم أنني أعلم أن هذه المهمة تشبه لعبة أطفال بالنسبة إليك.. ولكن نأمل من الله أن يحميك وزملاءك ويعيدكم لنا سالمين..

– سوف ننفذ المهمة بإذن الله..

– وبالمناسبة نحن نريد القسيس حياً لما له من أهمية دينية لدى الكنيسة الكاثوليكية وإعلامية للثورة والثوار..

– لا تقلق سيدي.. سوف نحضره لك قطعة واحدة بإذن الله..

تصافح الرجلان.. وشرع جمال لتحضير أموره ولوازمه، وأعطاه أحمد ذخيرة إضافية لكل مقاتل معه. استدعى جمال رجاله لاجتماع سرِّي وليطلعهم على مهمتهم.. وابتدرهم قائلاً: يا شباب.. لقد تم اختياركم لخبرتكم الفريدة..

يا جابر: إنك خبير في العلامات، وقد لاحظت بعضاً من أعمالك، وأتوقع منك أن تستعمل كل خبرتك في هذه المهمة.

وليد: بلغني أنك متسلق جبال محترف. وقد نحتاج خبرتك هذه إذا احتجنا لتسلق التلة للوصول إلى الدير.

سمير: أنت خبير المتفجرات.. وأخيراً:

محمد: هذا الـ RPG الذي في عهدتك يعادل بندقية قناص حسب ما علمت من مهارتك باستعماله..

ضحك الرجال لتلك الملاحظات التي بدرت من جمال، والتي تعمدها ليزرع الهمة في نفوس رجاله قبل أن يبدأ بشرح المهمة.

«مهمتنا أيها الرجال هامة جداً للبلد وللشعب السوري، ولن تضيع عزيمتنا أو تلين مهما كانت الصعاب.. أريد أن أراكم اليوم كالرجل الواحد، كفريق واحد، وكوحدة مقاتلة فاعلة، ولا داعي لأذكركم بطريقة تعاملنا مع بعض أثناء المعركة».. وكان يقصد بذلك حين إصابة أحد أفراد الفريق... واستمر جمال يشرح التفاصيل بدقة، ويتأكد من فهم

الرجال لأدق التفاصيل.. ثم طلب من كل منهم أن يذكر دوره ودور غيره في المهمة.. ثم سألهم السؤال التقليدي: هل من استفسارات أو أسئلة.

فأجاب سمير: لا سيدي.. كل شيء واضح ومفهوم... بصفته رقيب المجموعة.

أضاف جمال منهياً الاجتماع: «خذوا قسطاً من الراحة حتى وصول آليات النقل..».

انفض الاجتماع، وانشغل كل فرد بترتيب لوازمه للمهمة، وعاد جمال إلى خريطته يتفحصها ويدققها تحت الضوء الخافت في ساحة الموقع.

تناول أفراد المجموعة بعض سندويشات الجبنة مع الشاي من تحضير جابر. جلس الجميع على مقاعد مخلخلة يتمازحون ويضحكون لإزالة حالة القلق المخيم عليهم، وكان جمال يرمقهم بنظرة أبوية حانية وبشعور بالفخر بهم وبعدم خوفهم من أية مفاجآت أثناء المهمة، وكانوا يثنون على من سقط من زملائهم أثناء المعارك ويرجون لهم الرحمة.. وكان يفكر بصمت كم ستكون سوريا قوية ومتماسكة إذا نجح هؤلاء الأشداء وأمثالهم من الثوار في تحقيق هدفهم بإسقاط النظام الفاشي الطائفي العلوي.. ثم في اللحيظات الأخيرة قام جمال بحلاقة ذقنه بالموس كما اعتاد كل يوم منذ التحق بالجيش، فقد كان يؤمن أن اللباس العسكري والحلاقة أمران متلازمان ولا سيما وأنه الآن في موقع قيادة هؤلاء الشباب في مهمة شاقة وخطرة. ولاحظ أن بعض الشباب قد آثر أن يطلق لحيته، غير أنه لم يُبدِ أي اعتراض على ذلك..

بلغت الساعة الواحدة صباحاً دون أن تصل المركبات، وكان جمال ينتظر في ساحة الموقع ملتزماً بالوقت بدقة شديدة كما هي عادته دائماً، وكان يتمتم بحثاً عن سبب التأخير.. خرج الرائد فراس من غرفته مستغرباً تأخر المركبات، فبادر قائلاً: «كم أتمنى لو

كانت لدينا مركباتنا،، إذن لاستغنينا عن حدمة المدنيين الذين لا يقدرون الوقت في مثل هذه المهمة..».

فأجاب جمال مهدِّئاً: لا تقلق سيدي.. سوف نكون بخير.. بإمكاننا تعويض بعض الدقائق من التأخر أثناء الرحلة.... ثم سأل عن أقصى موعد للتأخر أو إلغاء المهمة..

– فرد فراس: الساعة الواحدة والنصف تماماً.. وإلا فالمهمة غير ممكنة التحقيق بنجاح... ودخل غرفته وعلامات الانزعاج والقلق بادية على وجهه.

وهنا قال جابر ساخراً: لا يبدو أنهم سيحضرون في الساعة الواحدة وتسعة وعشرون دقيقة..

وصلت المركبات في الساعة الواحدة وعشرين دقيقة، وكانتا اثنتين إحداهما ذات دفع رباعي والثانية سيارة عادية، فكر جمال في أفضل طريقة للاستفادة من الواقع وتجاوز بعض النقائص المهمة. فقال جابر ممازحاً: لقد فشلت المهمة يا شباب.. فنهره جمال قائلاً: «اصمت.. اصمت فوراً.. إن كنت لا ترى نفسك مقتدراً على أداء هذه المهمة فلتنسحب الآن، ولا نريد أي تشاؤم من بدء المهمة.. وإن تنوي المشاركة فأرجو أن تحتفظ برأيك لنفسك ودون أن تدمر المهمة ونفسية الشباب بالكلمات السامَّة».

شعر جابر بالإحراج أمام زملاءه وحاول الدفاع عن نفسه قائلاً: «أنا فقط كنت...» فقاطعه جمال: لا تقل أي شيء.. فقط افعل ما تؤمر به.

فقال جابر: نعم سيدي..

قرر جمال أن يستقل السيارتين إلى خارج المدينة ثم يعيد تقييم الوضع وتقدير مدى فاعلية السيارة العادية، وانطلق مسرعاً ليعوض ما ضاع من الوقت في الانتظار. جلس جمال في المقعد الأمامي للسيارة ذات الدفع الرباعي وأمر السائق بالانطلاق فوراً مجتازاً شوارع بابا عمرو المظلمة، مبتعدين عن الطريق العام تحاشياً لنقاط وحواجز التفتيش التي زرعها النظام بغزارة في حمص.. قطعت السيارة طريق (زايدل) الموازي للطريق السريع في الجنوب الشرقي للمدينة، وما إن وصلوا أبو دالي حتى توقفت السيارتان أمام بناية مظلمة ونزل السائقان المدنيان وأنهيا مهمتهما، وسلما السيارتين للمقاتلين بإمرة جمال الذي سارت عربته في المقدمة تتبعها السيارة الثانية، وكانت السياقة شاقة جداً في هذه المنطقة حيث مدخل البادية ثم الصحراء.

جلس جمال في السيارة الأمامية التي يقودها سمير وجلس خلفه وليد، في حين استلم جابر قيادة السيارة الثانية وبجانبه محمد، وانطلق الجميع يهتدون بأنوار السيارتين، والتي لم تكن تكشف من الطريق الوعر إلا مسافة قصيرة جداً، وكثيراً ما كانت تعترضهم بعض الصخور الكبيرة أو الأحجار المدببة، ما جعل السيارة حتى ذات الدفع الرباعي عاجزة عن التحرك بالسرعة اللازمة.

كانت الصحراء قاحلة تماماً وخالية من أية مزروعات أو نباتات ، وتعشش فيها الأفاعي ، والعقارب على اختلاف أجناسها ، حتى أن الهمستر السوري..

(The Syrian Hamster) أخذ اسمه لاكتشافه في هذه المنطقة منذ قديم الزمان.. ويصعب على السواح تقبل فكرة أن تكون هذه الصحراء في الزمن المغرق في القدم جزءاً مما كان يسمى الهلال الخصيب، فلقد كانت هذه المنطقة من بلاد ما بين النهرين مهداً لحضارات عريقة ؛ غير أن التغير المناخي مضافاً إلى إهمال الإنسان للأرض أدى لهذه الكارثة البيئية. وتتصف هذه المنطقة بمناخ قاري، أي أنه قاسي البرودة في فصل

الشتاء تكاد تصل درجة الحرارة إلى ما دون الصفر.. حاول جابر جاهداً أن يبقي المسافة بين سيارته وسيارة الدفع الرباعي أمامه معقولة، بحيث لا يفقد رؤيتها بشكل دائم، رغم ما كانت تتلقاه سيارته من قذائف من الأحجار الصغيرة التي تقذفها العجلات الخلفية للسيارة الأمامية، وكان أحياناً يفقد الرؤية لكثافة الغبار إضافة إلى الظلمة الدامسة التي تلف المكان، وفي لحظة ما لاحظ أمامه خندقاً صغيراً حاول الانحراف عنه بسرعة خاطفة غير أن السيارة التي لم تكن مصممة لمثل هذه الطرقات، لم تستنجب لعجلة القيادة فانزلقت حتى سقطت في الخندق ثم ارتفعت ثانية محدثة صوت تحطم معدن في مكان ما منها، وتوقفت عن السير وسط غمامة كثيفة من الرمل..

نظر جمال في المرآة الخلفية فلم يعثر للسيارة على أثر، فأمر سمير بالتوقف ليستطلع ما يجري وراءه.. وعادا بالسيارة إلى أن شاهدا جابر ومحمد يقفان أمام سيارتهما، قفز جمال مستفسراً فأجاباه عما حدث وبأن سيارتهما غير قابلة للحركة نظراً لكسر في محور العجلات.. فأمرهما جمال بإطفاء أضواء السيارة ونقل كافة المعدات إلى سيارته بسرعة لتعويض الوقت الذي ضاع.

تابعت سيارة جمال السير وفيها كل المعدات وكل أفراد الفريق، بينما كان جمال يراجع خريطته والتأكد من الطريق، مع إبقاء عينيه على الساعة لأنه في سباق مع الزمن.. نظر جمال للخلف فوجد رجاله يغطون في سبات عميق متكئين بعضهم على بعض، واستغرب قدرتهم على النوم في هذه السيارة، وهذا الطريق الوعر.. وسأل سمير عما إذا كان تعباً وبحاجة إلى راحة.. فنفى سمير ذلك مبدياً حماسة للقيام بعمل ما قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه. فعاود جمال يؤكد قدرته على القيادة إذا احتاج سمير للراحة..

وفيما كانت السيارة تقطع الطريق الصحراوي الوعر لاحظا عن بعد أضواء سيارة على الطريق السريع على الجهة الجنوبية واختفت سريعاً بين التلال. وبينما كان جمال

يقاوم الإجهاد والنعاس ويعيد حساب المسافات والوقت إذ سمع حشرجة صوت جابر من الخلف يتساءل عن المسافة المتبقية للوصول إلى الدير، فرد عليه جمال أنه حسب الخطة والتقديرات فلديهم أقل من ساعة وأن لديهم ربع ساعة ليعودوا أدراجهم، وفي إحدى مراحل الطريق مرت السيارة بطريق قديم مسفلت مما ساعدهم على كسب بعض الوقت بزيادة السرعة، وكان هذا الطريق علامة واضحة على خريطة جمال، وقدر أنه يبعد حوالي عشرة كيلو مترات عن حوارين التي تقع إلى الشمال الشرقي من قرية (مهين)، والتي ما إن يجتازوها حتى يقتربوا من هدفهم..

أصدر جمال أوامره بالاستيقاظ وأخبرهم بالتوقف لبضع دقائق، لمح الرجال أنوار (مهين) عن بعد، وكان الشفق يهدد بشروق الشمس قبل وصولهم هدفهم، أعلم جمال سميراً أنه بعد حوالي ٢٠٠ متر سوف ينحرفون بالسير في طريق صحراوي ثانية، وما ان دخلوا الطريق الوعر حتى بدأت السيارة تصدر أصواتاً تنبئ عن بذلها كل جهد لصعود الكثبان الرملية والصخور المدببة.. ثم ضاق الطريق إلى ما يشبه طريقاً ضيقاً جداً بين الكثبان، توقفت السيارة في منتصف الوادي وخرج الرجال لقضاء بعض حاجاتهم، وليهيئوا أسلحتهم وتناولوا بعض الماء، وعادوا سريعاً إلى السيارة التي انطلقت في وادٍ ضيق لا يتسع لأكثر من سيارة واحدة..

أما في الدير.. فلم يستطع الأب أنطونيو النوم مطلقاً بعد أن سمع أن فريق الانقاذ في طريقه لانتشاله من الدير، ولا سيما وأنه سمع بفريق آخر أرسله النظام لتصفيته، دون أي يعي أي مبرر لهذا التصرف من قبل النظام تجاه قسيس بريء، لقد أكد له عدد من المسؤولين الكبار في النظام بإمكانية مكوثه في سوريا كل المدة التي يرغبها، غير أنه لاحظ تغير اللهجة وأسلوب التعامل معه مذ بدأ يتعاطف مع الثورة، فقد لجأ إلى الدير عدد كبير من المصابين لتلقي العلاج اللازم، وقد شاهد بأم عينيه شيوخاً ونساءً وأطفالاً مصابين

بشظايا بعضها كادت تودي بحياة المصاب، لولا لطف الله.. وكان متردداً بين أن يبقى حياً بالهرب من المكان أو أن يبقى لمساعدة الآخرين، وبالرغم من إيمانه المطلق برسالته الإنسانية وبقاءه في الدير لمساعدة المحتاجين، غير أنه كان يدرك أن موته المحقق لا يفيد الآخرين، وكان قراره بالهرب من الموت وترك رسالته الإنسانية ذو تأثير تدميري لنفسيته..

جلس الأب أنطونيو على صخرة في الهواء الطلق تطل على وادٍ بعمق حوالي مئة متر مليء بالحجارة الصوانية، كانت تلك الصخرة مكانه المفضل للتأمل والتفكر واتخاذ القرارات، إذ كان بإمكانه رؤية الصحراء على بعد خمسين كيلو متراً أو أكثر، وكان وللخمس والعشرين سنة الماضية، يراقب شروق الشمس من موقعه هذا، ويخطط لما عليه أن يحققه من إنجازات مستقبلية، وكان قد قرأ فيما ذكر مرور السيد المسيح في هذه الأمكنة منذ غابر الازمان، أما في هذا الصباح فقد جلس على ذات الصخرة يرتل صلواته، طالباً من الله الإرشاد والحكمة في اتخاذه قرار الهروب، لقد كان فيما سبق يعطي النصائح والحكم للغير، أما اليوم فهو بأمس الحاجة للنصح والإرشاد، كان يأمل في معجزة سماوية تشير إلى انقضاء هذه المحنة وإنقاذ الأبرياء وأنه اتخذ القرار الأمثل.. وكان قادراً على التضحية بنفسه لإنقاذ الآخرين، مقتدياً بالمسيح الذي قبل بالعذاب والآلام والموت والذل في سبيل إنقاذ وخلاص المؤمنين، وحاول مناقشة بعض الحلول البديلة بينه وبين نفسه كالعودة إلى إسبانيا.. أغمض الأب أنطونيو عينيه ورفع رأسه إلى السماء، ثم فتح عينيه محدقاً في هذا المنظر البديع حيث النجوم متناثرة ويكاد يمسكها بيده كمصابيح الثريا التي تلمع في حلكة الليل، وأدرك لماذا اختار الأقدمون هذا المكان، وكم ألهمهم للتمسك بمعجزة الإيمان، والشغف بالشعر والأدب والفلسفة.

بدأ النور يبزغ من الشرق، وابتدأ معه الصراع بين نور النهار وظلمة الليل المندحرة، ليكشف النهار عن حقائق كانت غائبة عن الأعين في سواد الليل الدامس.. وفي هدأة

الفجر والسكون المخيم على المكان، سمع الأب أنطونيو هدير سيارة يتناهى إلى مسامعه من الوادي أسفل منه، نظر إلى الأسفل ليرى أنوار سيارة تعلو وتهبط مع مرور السيارة من فوق صخور الطريق المتناثرة ثم تختفي خلف الكثبان لتعود للظهور ثانية، ثم لمح أنوار سيارة ثانية تتبع السيارة الأولى، هلع قلبه لخشيته من أن تكون هذه قافلة فريق الاغتيال.. وماذا لو أن اللجنة التنسيقية لم توصل الرسالة إلى الجيش الحر بالوقت اللازم..

نهض من مكانه وركض باتجاه الدير حيث صادفه الأب جون ورمقه بنظرة استغراب، وسأله: أهذه مركبتك التي تنتظرها يا أبتاه..؟؟

فأجابه والخوف يعقد لسانه: «لا أدري إن كانت مركبتي إلى السماء أم إلى حمص».. وحاول إشغال نفسه بحشي بعض أوراقه وكتبه في الحقيبة التي أمامه.. ثم سمع صوت يناديه بعد أن توقفت السيارة وتبعتها أصوات أقدام على الدرج، سيطر عليه رعب قاتل وفكر بالاستسلام، غير أنه نظر إلى الأب جون قائلاً: «ليسوا هم من يقررون مصيري.. الرب هو من يحدد قدري..» فأجابه الأب جون:

– نعم يا أبتاه دون شك.. ولكن على المرء أن يساعد نفسه قبل أن يساعده الرب، أرى أن تختبئ في الكهوف تحت أرض المذبح، ولكننا بحاجة إلى من يساعدنا على رفع قطعة الرخام..

فوافق الأب أنطونيو على هذه الفكرة الرائعة والتي قد تفيده ببعض الوقت لمعرفة هوية القادمين.. هرع الاثنان إلى مهجع الرجال واختارا شابين قويين من الزوار ودخل الجميع الكنيسة حيث صادفوا الأب جوزيف، الشاب الثلاثيني من عمره والقوي البنية يصلي هناك.. تمكن الرجال الخمسة من رفع قطعة الرخام وانكشفت تحتها حفرة تقود إلى قبوٍ مظلم، شكرهم الأب أنطونيو وبارك جهودهم وقبَّل الصليب الخشبي المعلق على

صدره ونزل بعد أن أعطاه الأب جون مصباحاً يعمل ببطارية وهو يفكر بأنه إذا وصل إلى آخر السرداب فسيتمكن من رؤية القادمين بالسيارات دون أن يروه. أعاد الرجال الأربعة قطعة الرخام إلى مكانها وجلسوا يصلُّون للرب لسلامة الأب أنطونيو.

توجد تحت الكنيسة سراديب عديدة باتجاهات مختلفة ولا أحد يعلم متى حفرت ومن حفرها، وربما حفرها المؤمنون الأوائل هرباً من اضطهاد الرومان لهم، والآن يستعملها الأب أنطونيو هرباً من الأعداء الجدد، وجلاوزة نظام الأسد وشبيحته..

سبق للأب أنطونيو وبمساعدة أحد الرعاة في البادية في أول أيامه في الدير أن دخل هذه السراديب جميعها، ولا يزال يذكر مخارجها، وقد كشف له الراعي البدوي سر المدخل الرئيس تحت الكنيسة وقام هو بدوره بمرافقة كل الرهبان الجدد في جولة تعريفية لهذه السراديب، ولم يتكلم أحد عن هذه السراديب ولا يعلم معظم الزوار أي شيء عنها..

انحدر الأب أنطونيو نزولاً حتى آخر السرداب حيث توجد طاقة صغيرة في الجدار وشاهد الرجال يصعدون الدرجات الثلاثمئة تاركين وراءهم سيارتي جيب في أسفل الدرج يحرسها رجال لمسلحون، وكان موقعه يرتفع عن الأرض بضعة أمتار فقط. وصل رجال النظام إلى الكنيسة ودخلوها دون استئذان حيث كان الأب جون والآخرون يصلون. رفس أحد الرجال باب الكنيسة بعنف ودخل خمسة رجال بلباس مدني ومسلحين بأسلحة رشاشة أوتوماتيكية، وسأل واحد منهم ويبدو وكأنه قائد المجموعة متمنطقاً مسدسه، بغلظة: أين أنطونيو سانشيز.... فأجابه الأب جون:

– إنه ليس هنا.. لقد ترك منذ فترة.. هل يمكنني مساعدتك.... فسأله بغلظة:

– أين ذهب؟؟.... فأجاب الأب جون:

– لا أعلم بالتأكيد.. ربما إلى دمشق لإنهاء أوراقه، هل أن أسألك من تكون وأي سلطة تمثل.. وتصرف وكأنه ليس راهباً في الكنيسة.

أخرج الرجل مسدسه من قرابه ومسكه من سبطانته وضرب الأب جون بتعقب المسدس ضربة تجعل الدم ينفر من جرح كبير وعميق على حنكه ووقع أرضاً، ولما حاول الرجال الثلاثة الآخرين مساعدته أشهر مرافقي رجل النظام رشاشاتهم بوجوههم ومنعوهم من الاقتراب منه.

فصاح رجل النظام بصوت ملؤه الحقد والحنق والتهديد: لست بحاجة لأية سلطة لعينة كي أحضر وأبحث عن رجل أجنبي في بلدي، وأمر ثلاثة من مرافقيه بتفتيش المكان بدقة وأبقى الرابع معه كحماية.. وعاد ليقول مهدداً:

– سوف أسألكم مرة ثانية، وإن لم يعجبني الجواب فسأبدأ بقتلكم.. هل كلامي واضح لكم جميعاً ومفهوم؟.... بدأ الأب جون ذو الوجه المضرج بالدماء والرجال الثلاثة بالصلاة بكل خشوع.

– في أي جحيم يوجد أنطونيو؟؟.. وجه مسدسه إلى قدمي الأب جون..

فأجابه الأب جون: لقد أجبتك سابقاً.. لا ندري أين هو.... وفجأة دوى صوت طلق ناري في كافة أرجاء الدير، حتى أن الأب بأنطونيو سمعه من السرداب، تأوه الأب جون من الألم، فقد أصابت الطلقة قدمه وبدأت تنزف بغزارة وعليها إضافة للدم ذرات البارود لقصر المسافة بين المسدس والقدم.

واستمر الأب جون بالصلاة مع الآخرين، ثم نهض أحد الشباب الزائرين ومشى باتجاه الأب جون محاولا مساعدته غير أنه تلقّى ركلة عنيفة من حداء قائد العصابة الذي

لم يبدِ أي حركة سوى التحديق في وجهه. حاول الشاب مساعدة الأب جون غير أنه تلقى ركلة عنيفة من حذاء قائد العصابة.. فصرخ الشاب في وجهه بكل شجاعة: لا يمكنك أن تدخل المكان وتطلق النار على المصلين العزل الأبرياء.. هيا اقتلني إن شئت....!!

فقال له الأب جون بصوت ملؤه الألم والعذاب: «لا عليك يا بني.. إنهم لا يعرفون الخطأ فيما يفعلونه..»..

اقترب جمال ورفاقه من الجانب الشمالي من التل وطلب من سمير إطفاء أنوار السيارة والسير بحذر شديد! إذ لاحظ أضواء سيارتين في الوادي، وأدرك أنهم تأخروا قليلاً في بلوغ هدفهم. وأمر سمير بالتوقف على بعد400متر من أسفل الدرج المؤدي إلى الدير، ونزل الجميع بصمت من السيارة وتقدموا بشكل مجموعة في بدء السير، ثم أمر كلاً من سمير ومحمد بأن ينفصلوا عن المجموعة ويتجهوا إلى الجهة الجنوبية الشرقية من الدرج، بينما اصطحب معه جابر واتجه إلى الشمال الشرقي من الدرج بين كتل كبيرة من الصخور. توقف جابر للحظة ووضع كاتم الصوت على بندقيته، واستمروا بالسير الحذر حتى وصلوا على بعد مئة متر من الحراس المسلحين جانب السيارتين، حيث تمكن جابر من رؤيتهم بوضوح يتضاحكون بصوت عالٍ منعهم من سماع أصوات تقدم جمال وجابر، وكانت أوامر جابر واضحة للثلاثة الآخرين بأن لا يبدؤا بإطلاق النار حتى يسمعوا أول طلقة، فالجميع يعرف مهارة جابر بالتهديف والإصابة.

استطلع جابر بمنظاره المقرب الموقع وقدَّر أنه لا بد وأن يكون هناك عدد مماثل قد صعد الكنيسة. فخطط للهجوم بأن يتحرك باتجاه رجاله الثلاثة مما يلفت انتباه الجنود الأربعة ويدعوا لأن يبتعد اثنان منهم لاستطلاع مصدر الصوت وذلك يمكِّن جابر من تصفية الاثنان الآخران شريطة أن يتم الأمر بسرعة خاطفة ويمكَّن جمال والثلاثة الآخرين

بتصفية الجنديين المتبقين. وفي نفس الوقت فان على وليد الاقتراب من موقع جابر ويحاول تسلق الصخور ليصل إلى أعلى التل وينتظر هناك باقي أفراد المجموعة كي يتم إنقاذ الأب أنطونيو. وعليهم أن ينفذوا كل هذا بسرعة فائقة وصمت مطبق..

تحرك جمال إلى الجهة الجنوبية الشرقية وطلب إلى وليد أن يتسلق إلى الكنيسة من الجهة الشمالية الشرقية، وما إن حاول العودة حتى اصطدمت قدمه بحجر كبير سقط في الوادي محدثاً جلبة، وهذا في الواقع ما كان يتمناه، جمُد الجميع في أمكنتهم وشاهدوا اثنين من الجنود يتجهون إلى مصدر الصوت، استل جمال سكينة وقبع جانب كتلة صلبة من الرمل تكاد تكون بحجم رجل، وبينما كان الجنديين يتجهان إليهم سُمع صوت طلقتين مكتومتين تركت الحارسين إلى جانب السيارتين بلا حراك، قفز جمال على أحد الجنديين وقفز محمد على الآخر، سدد جمال طعنته إلى الكتف الأيسر بينما أغلق فم الجندي بيده، تعارك جمال مع الجندي الثاني لثوانٍ قبل أن يذبحه. حدث الأمر بسرعة خاطفة وعادوا إلى مكان اللقاء المتفق عليه في السيارة الجيب.

وفي هذه الأثناء كان الأب أنطونيو يشاهد كل ما يحدث من خلال فتحة في السرداب السفلي، وأدرك أن هؤلاء هم فرقة الإنقاذ، فركض إلى المخرج الشمالي وأسرع باتجاههم وهو يلهث لكبر سنه، لاحظه جمال يتعثر بحمل حقيبته فأسرع باتجاهه وتبعه باقي الرجال، فسأله جمال للتأكد من هويته: «لا بد وأنك الأب أنطونيو»..

فأجابه بالإيجاب وأضاف: هناك أربعة آخرون في الأعلى، وسمعت صوت طلق ناري قبل وصولكم، وكل ما أمله أن لا يكون أحد ما قد أصيب بضرر...

فقال جمال: علينا أن نغادر بسرعة، فليس هناك ما يمكننا فعله بشأن رفاقك في الأعلى. نزل وليد عن التل حينما شاهد زملاءه يتجمعون، وساعده جابر في ذلك.

فسأل الأب أنطونيو: وماذا عن الآخرين؟؟..

فرد جمال: لا يا سيدي.. فنحن في خطر شديد.. وعلينا المغادرة فوراً قبل أن يفوت الوقت.. وأنت من أُرسلنا لانتشاله، وبعد لحظات سوف تمتلئ السماء بطائرات الهليكوبتر بحثاً عنا، وسنكون لقمة سائغة لهم في الصحراء المترامية الأطراف، وحمل الحقيبة دون أن ينتظر أي جواب، وأسرع الجميع باتجاه سيارتهم وأسرعوا بالقيادة مع ظهور أول شعاع للشمس، ما جعلهم هدفاً سهلاً وخاصة تلك الكتلة الهائلة من الغبار التي تخلفها السيارة خلفهم. فكانوا في سباق محموم مع الوقت والطبيعة. حرارة الصحراء لا تعرف أية رحمة، وكان جما ل يدرك أن عليه أن يترك مسافة كبيرة بينه وبين العصابة المتواجدة في الدير، فقرر السير على الطريق السريع كسباً للوقت، وكان عليهم أن يلتفوا حول الحواجز الأمنية لمسافة حوالي ٣٠ كم شرقي حمص على الطريق القديم.

جلس الأب أنطونيو في المقعد المتوسط مع سمير يتلو صلواته، وسأله جمال عما إذا كان مرتاحاً في مجلسه فلم يجبه بل كان يحرك شفاهه بتلاوة الصلاة، ويبدو مشدوهاً وعلى محياه ملامح الصدمة، وتابع جمال دراسة الخريطة وتوقع أن لا يبعد التقاطع أكثر من ٢٠ كم، وطلب من سمير ومحمد بأن ينظروا من النوافذ عن أي أحد يتعقبهم سواءً في الجو أو على الأرض، فنظرا وأجابا بالنفي..

توجه جمال إلى جابر الذي كان يتولى السياقة قائلاً: عند دوار القمقم انحرف يميناً، وبعد حوالي عشرة دقائق وصلت السيارة إلى تقاطع القمقم وانحرفت السيارة يميناً حسب توجيهات جمال، ودخلت في شارع معبد وحيد الاتجاه والذي يبدو في حالة مزرية لإهمال أعمال الصيانة فيه حيث تناثرت الحفر العميقة وغطت أرضيته الحجارة والرمال، تابعوا السير لمسافة خمسة كيلو مترات حتى الفرقيوس حيث يوجد حاجز أمني كبير فأمر جمال جابر بالعودة إلى الطريق الصحراوي قبل أن يصل الحاجز ويحاول التخفي خلف الكثبان

الرملية، ففعل جابر ما طلبه جمال، ومشت السيارة في طريق صحراوي وعر تغالب الحجارة والغبار والحفر.. وهنا صدر صوتاً بلكنة إسبانية قائلاً: كان علينا أن نساعد الآخرين. فلم يُعره جمال أي انتباه ولم يرد عليه لانشغاله بالخارطة والطريق. واستمر الأب أنطونيو في الحديث والتمتمة: أتمنى أن لا يصاب أحدهم بأذى، إنهم أناس طيبون ولا علاقة لهم بهذه الفوضى والعنف...

فالتفت إليه جمال وقال بلهجة صارمة: أبتاه.. لم يكن بإمكاننا مساعدتهم.. وإذا كنا فعلنا فلن يبق أحد منا على قيد الحياة، وأراهنك على أن النظام سوف يرسل وحدة كاملة فوراً، فلديهم اتصالات بالراديو وأجهزة تحديد الموقع جغرافياً عبر الأقمار الصناعية GPS وكل أداة حربية يمكنك تصورها، في حين أننا لا نملك أي شيء، أضف إلى ذلك أني لن أعرض حياة رجالي للخطر بالقيام بأكثر ما تتطلبه مهمتنا.. نحن نخسر الرجال كل يوم ولم يعد عددنا يكفي للاستمرار بثورتنا.... فقال الأب أنطونيو:

– ليس هم من يقرر مصيرنا.. إنه الإله.... فرد عليه جمال:

– حسناً يا أبتاه.. دعني أوافقك الرأي جدلاً، ولكن أين الإله في الوقت الذي يذبح فيه الأبرياء أطفالاً ونساءً وشباباً غير مسلحين.. أين هو..؟؟

فتابع الأب أنطونيو: التضحية جزء من الحياة.. ولكن مصير هؤلاء كان قد كتب ولم يصنعه أو يقرره البشر. فرد جمال بغضب:

– كلا يا أبتاه.. إنه من صنع البشر.. لو لم نحضر لانتشالك لكان مصيرك مختلفاً عما هو عليه الآن، ولكان قرره هؤلاء المؤجرمون عبدة بشار ونظامه. لقد طلبت أن يتم انتشالك، أليس كذلك؟؟ أرجو المعذرة فعلي التركيز الآن على الطريق والخريطة إذ أننا بدأنا نقترب من حمص.... وكان جمال معجباً ومزعوجاً من كلام الأب في آن.

وفجأة صاح سمير: سيدي هذه طيارة حوامة على بعد كيلو مترات خلفنا، ومد محمد رأسه من الشباك مؤكداً وجودها، وحدد بُعدها بعدة دقائق.

أمر جمال السائق بالإسراع وبالعودة إلى الطريق المعبد لسهولة سير العربة وزيادة السرعة..

خبط جابر برجله دعاسة السرعة فقفزت السيارة مبعثرةً بعض الحصا والحجارة وانطلقت بسرعة البرق، وجهز المقاتلون أسلحتهم وزودوها بمخازن جديدة وتهيؤا للمجابهة.. وتجاوزت السيارة جراران زراعيان وغطُّوهما بسحابة من الرمل والتراب.. اقترب صوت الطائرة الهادرة منهم، فسأل جمال عن ماهية الطائرة هل هي MI8 أم M 24، فأجابه محمد: لست متأكداً، ولكنها تبدو كبيرة وضخمة.. وبالمناسبة فما الفرق بينهما؟؟

فأجابه جمال بلهجة خبير: الأول تحمل رشاشاً آلياً عيار /٥٠/ يسيطر عليها القائد، وبإمكانه أن يسحق هذه السيارة بطلقة واحدة.. أما الثانية فالقاذف يجلس في الباب الجانبي من الطائرة واحتمالات الخطأ في إصابة الهدف كبيرة جداً والمدفع الذي فيها أصغر بكثير من الأول.. ولم ينتظر بل فتح نافذته ونظر إلى الطائرة قائلاً: الحمد لله.. لقد حالفنا الحظ.. إنها كبيرة...

سأل وليد: هل نبدأ بإطلاق النار على الطائرة.. فجاءه رد جمال بالنفي وقال: لا.. انتظر حتى يبدؤونا بالإطلاق ويصلوا إلى مسافة قريبة منا.. ويجب أن تسدد إلى حجرة القيادة بإحكام.. وأنت يا أبتاه اخفض رأسك واحتم بالشباب إلى جانبك..

نفذ الراهب الأمر وقبع بين الكرسيين الأوسط والخلفي. وبعد ثوانٍ سمع الراهب صوت طلقات نارية حول السيارة، وأكد ذلك محمد قائلاً: إنهم يرموننا بقذائفهم.. ويوجد جنديين في الباب يطلقون من كلاشينكوف، فأمر جمال جابر بأن لا يسير بشكل

مستقيم بل بشكل متعرج لكي لا يعطي الفرصة للجنود للتهديف الدقيق.. وأخذ وليد ومحمد موقعهما من الخلف وتجهزا للرمي الذي لم يكن سهلاً لارتجاج السيارة وكثر تعرج مسيرها..

وتتالت زخات الطلقات النارية حولهم بكثافة.. وفجأة صاح وليد:

- أرى أنهم يوجهون الـ RPG باتجاهنا.. فطمأنه جمال قائلاً:

- هدئ من روعك.. إن لم يمكنهم إصابتنا بالرشاش فمن المؤكد أنهم لن يصيبوننا بالـ RPG، وما كاد ينهي هذه العبارة حتى سُمع صوت انفجار إلى جانب السيارة الأيمن مع تصاعد كمية هائلة من الأحجار والأتربة وسقوطها على السيارة، مما حدا بجابر لزيادة سرعته، ثم وفجأة أصابت الطريق قذيفة ثانية إلى شمال السيارة.

أخرج سمير جذعه من النافذة واستهدف موقع قيادة الطائرة، وأطلق ثلاث طلقات متتالية مما جعل الطائرة تحرف جنوباً وتبطء في سرعتها.. ولم يكن سمير متأكداً من إصابتها إصابة مدمرة، غير أنه على الأقل عطَّل تعقبها لهم، مما زاد المسافة ما بينهم وبينها.. وزاد جابر من سرعته حتى غدوا على مشارف حمص وتابعوا على الطريق القديم حتى وصلوا إلى (كفرايا) إلى الجنوب الغربي ثم إلى بابا عمرو، حيث وصلوا بأمان ودخلوا بالسيارة إلى المقر الرئيس للجيش الحر حيث كان باستقبالهم عدد من المقاتلين الذين رحبوا بهم وحيّوهم وأثنوا على شجاعتهم وإنجازهم المهمة بأمان، وكان على رأس المستقبلين الرائد فراس وأحمد.. وتصافح الجميع وتعانقوا وأطلق بعض الأعيرة النارية احتفالاً بعودتهم سالمين غانمين.... وفي غمرة الاحتفال والأفراح لم يعد أحد يتذكر الأب أنطونيو الذي نزل من السيارة حاملاً حقيبته الجلدية وتوجه إلى جمال وحدق في وجهه وقال معتذراً:

– أشكرك جزيلاً.. وآسف إن كنت قد أزعجتك أثناء الرحلة.. وآمل أنك كنت تقدر موقفي....

فأجابه جمال: لا عليك يا أبتاه.. على الأقل وصلنا بسلام.. دعني أعرفك على الرائد فراس الكيلاني والملازم أحمد هندي، وهؤلاء باقي الرجال.. وبعد أن فرغ من تقديمهم للأب ذهب ليغسل ما علق به من تراب ورمل.. ثم أحضر لهم الشباب طعام الإفطار مع الشاي.. كان الجو احتفالياً في المقر الرئيس.. وارتفعت معنويات الرجال وتمنوا أن يقوموا بعمليات كثيرة ناجحة مثل هذه العملية في سبيل إنجاح الثورة والقضاء على الطاغية وزبانيته..

يبدو أن الأب أنطونيو نسي أو تناسى مشاكله.. فجلس بين الشباب كما لو كان صديقاً قديماً لهم، وخاصة وأنه يتمتع بشخصية محببة وأن طبيعة عمله تجعله جذاباً للآخرين، وبادره الرائد فراس قائلاً: «أبونا أنطونيو.. ستحضر جماعة من اللجنة التنسيقية اليوم مساءً لأخذك إلى مكان آمن.. غير أنا لسنا متأكدين بعد.. ويمكنك الاستراحة في هذه الغرفة». فشكره الأب أنطونيو واعتذر له لإزعاجه اياهم وعرض أن يرتاح بأي مكان آخر..

فأصر الرائد فراس على أن يأخذ الأب أنطونيو الغرفة واعتذر لتواضع المكان وقلة الخدمات المتوفرة فيه.

عاد جمال بعد أن غسل وجهه ويديه وجلس مع الرجال وأخذ رشفة من كأس الشاي، واقتطع قطعة خبز وغمسها في اللبن ودسَّها في فمه، وتشارك الجميع الإفطار وأكلوا بشراهة ملحوظة، إذ أن المسافة الطويلة والعناء والتعب جعلتهم يزدردون الطعام ازدراداً، وتجاذبوا بعض الحديث عن الأب أنطونيو.. تهيأ الشباب للنوم بينما بدأ آخرون

في أخذ مواقعهم للحراسة والمراقبة، ذهب جمال إلى غرفته واستلقى على السرير حيث غطَّ في النوم خلال ثوانٍ معدودات مع تعالي بعض الأصوات والضحكات خارج الغرفة.. بل وسماع بعض الطلقات النارية وبعض الانفجارات عن بعد، ولكن لم يكن ليؤثر ذلك في جمال..

لم تتمكن اللجنة التنسيقية المحلية من أخذ الأب أنطونيو هذا اليوم نظراً للخطورة الشديدة على سلامته، مما اضطره للمبيت مع المقاتلين الذين تحلقوا حوله يصغون إلى أحاديثه الشيقة وحكمه، ويستفسرون منه عن الفرق بين الإسلام والمسيحية، إذ أن بعضهم لم يقابل أي مسيحي من قبل، ناهيك عن كونه راهباً وبلكنة أجنبية.. فلقد كان الرجال خليطاً من أمكنة وخلفيات أسرية وثقافية مختلفة، غير أنهم جميعاً كانوا مسلمين من المذهب السني، ومعظمهم كانوا مجندين يخدمون العلم وذوو مستوى ثقافي وتعليمي متواضع.. وكان أكبر همهم لقمة العيش والانتهاء من هذه الثورة والعودة للأهل بسلام.. لقد كان أمراً يدعو للغبطة لرؤية هؤلاء الشباب المنسجمين المتحابين.. وأكثر ما لفت أنظار الشباب هو مشاركة الأب أنطونيو لهم في صلاة العشاء التي أمهم فيها الرائد فراس، فلقد شعر الجميع أنهم تحت سقف إله واحد طالبين السلامة والخلاص..

أعجب أحمد بشخصية وسعة علم وتواضع الأب أنطونيو حتى كان لا يفارقه، بل وغدا يلازمه كظله، ربما لأنه شعر بالطمأنينة والأمان في خضم هذه الحرب والفوضى والقتل والدمار، وقد تشجع الشباب في مناقشة الأب في أمور دينية وخاصة، وأنه أبدى كل مرونة وغبطة في التفاعل مع الشباب، وبلغ الفضول في بعض الشباب أن سألوه عن الفرق بين الإسلام والمسيحية، فاقتبس الأب أنطونيو من العهد الجديد ١ – جون ٢: ١٠ –١١: «إن من يحب أخاه المؤمن يعيش في النور ولا يتعثر في حياته. ولكن من يكره

أخاه المؤمن يعيش في ظلمة حالكة، يمشي في الظلام ولا يعلم اتجاهه لأن الظلام أعمى عينيه». فسأله أحدهم فوراً:

– وهل عليَّ أن أحب الشبيحة.. مما جعل باقي الشباب يضحكون من السؤال.. فأجاب الأب أنطونيو بهدوئه وحكمته المعروفتين عنه:

– يتصرف الناس حسب دوافعهم.. فهناك من يتصرف في سبيل الله وليعبر عن حبه لله، وهناك من يتصرف لحبه للأشياء المادية، وهناك من يحارب في سبيل الله والوطن، وهناك من يتصرف لعدم وجود البدائل لديه.... فانبرى له آخر:

– كلهم لديهم البديل.. يمكنهم الانشقاق كما فعلنا نحن.... فأجاب الأب:

– يحتاج الأمر لشجاعة وجرأة للقيام بذلك.. ولكنك تنسى أمراً مهماً عندما تحكم عليهم.. وتابع لما استفسر الشاب عن هذا الأمر قائلاً: الخوف والحرمان يسيطران على معظم الناس هنا.. وكان هذا الحوار وهذا الجواب خاصة ما شدَّ انتباه الشباب فاقتربوا منهما أكثر لمتابعة الحوار، وسأله أحمد:

– هل لك أن تشرح لنا ذلك يا أبتاه.... فأجاب:

– إن الخوف من ارتكاب خطيئة جعلك تنشق، والخوف من التغيير والمجهول يجعل معظم الشباب يتابعون خدمة النظام.. ولا أنكر أن زبانية النظام قد وظفوا شعور الخوف من المجهول في نفوس أتباعهم، وجعلهم يتصرفون دون إدراك لأنهم يخشون عاقبة عصيان الأمر.. ويبدو أنهم أدمنوا ذلك الخوف.. والقتل.. فقال أحمد وهو متشوق لاستمرار الحوار بينما أصغى الآخرون بكل اهتمام:

– بلى يا أبتاه.. ولكنا علمنا أن مرتكب الذنب يعاقب.. والعين بالعين..

– نعم هذا صحيح بالتعاليم الإسلامية، مما يدعوني لذكر بعض الفروق في المنهج، ففي التعاليم المسيحية: إذا ضربك أحد على خدك الأيمن أدر له الأيسر.. مما يجعلك أكبر وأفضل في نظر الإله..

وهنا دخل فراس الغرفة وانضم للحوار

– صحيح هذه التعاليم نبيلة جداً لا شك.. ولكن تطبيقها العملي صعب.. ثم أين المعادلة في هذا.. فلو أدرنا الخد الآخر فلن يبقى أي مواطن في سوريا ما عدا طائفتهم اللعينة.. المسامحة خيار متاح إن كان هناك احتمال بشعور الآخر بالندم.... فأجاب الأب بكل هدوء:

– لا شك.. فالإنسان بعيد عن الكمال وسيبقى يرتكب الأخطاء والذنوب.. ولكن من نحن لنحكم ونقر الخطأ والصواب.... فقال فراس:

– إنني محامٍ ودرست القانون المدني والشريعة، وكلاهما يتكلمان عن (العدالة).. فاقتبس الأب من العهد الجديد: ماثيو ٨: ١٦ قائلاً:

«وما إن حل المساء حتى أتوه بكل مصاب بمس من الشيطان، فصلى لأجلهم وشفى كل المرضى..» ثم اقتبس من كورثي ٢: ١٥ «لقد حكم على كل الأشياء بروحانية صادقة، ولكن أحداً لم يحكم عليه بتلك الروحانية الصادقة..».

فقال فراس: مع كل الاحترام يا أبتاه.. الموضوع هنا العدالة.. وإن تلك العدالة مشتقة من الكتب السماوية.... فأجاب الأب إجابة جعلت الشباب يتمتمون ويتهامسون: «إذا كنا سوف نواجه الغلط الذي ارتكبه البعض فعلينا أن نتأكد أننا لم ولن نرتكب ذات الخطأ..» وشعر الحضور أن من الظلم مقاربة مجازر ومذابح وجرائم النظام

بما يفعلونه دفاعاً عن أنفسهم وأعراضهم وبيوتهم في محاولة منهم لوقف هذا الشلال من الدم الذي لا ينقطع يوماً ولا ليلة..

وفي هذه الأثناء دخل جمال الغرفة بعد أن هجع لسويعات وجلس إلى جانب الرائد فراس وارتشف من كأس الشاي ليصحو من غفوته.. ولم يشارك في الحوار لمعرفته بأن كلاً من الرائد فراس والأب أنطونيو يتمتعان بذكاء وحنكة وعلم في أمور دينهما، غير أن محمد ما لبث أن قطع صمته الطويل متسائلاً: الشعب يريد التغيير، والنظام رفض هذا المطلب، وجابه الشعب بالقتل والتدمير والسجن ؛ فهل لك أن تفسر لي كيف يمكننا أن نحمل الشعب تبعة ما يجري ونساويه بما يرتكبه النظام من مجازر..؟؟ فأجاب الأب أنطونيو:

– صحيح.. هذا صحيح.. ولكننا يجب أن لا نقابل العنف بالعنف.. ثم التفت إلى جمال وسأله: «ماذا ترى يا سيادة النقيب..؟؟».

رفع جمال رأسه وابتسم ابتسامته المشهورة التي توحي بثقته بنفسه ونظر حوله في وجوه الشباب وجمع أفكاره ثم فاجأ الجميع بعدم وجود جواب لديه.. وعلى الأب أن يسأل أحمد إن شاء.. فأصر الأب على سماع رأي جمال الشخصي لأنه «أعجبت بك مذ قابلتك» كما قال الأب..

صمت جمال لفترة كمن يتردد في الانخراط بالنقاش، ثم اقتبس من العهد القديم: «ثم أمرت قضاتك في ذلك الوقت بأن يستمعوا إلى الحالات بين الإخوة ثم يحكموا بالعدل بين الرجل وأخيه أو الرجل وصاحبه..». سفر التثنية الاشتراع ١: ١٦.. فبدا جمال كمن سدد الضربة القاضية لخصمه الذكي وما زال مستعداً لتسديد المزيد من اللكمات.. تلعثم الأب أنطونيو واندهش من هذه المفاجأة غير المتوقعة من جمال باقتباسه

من العهد القديم.. كما أن الرائد فراس فغر فاه عندما سمع كلام جمال.. أما أحمد فلم يفاجأ من ذلك لما عرفه عن جمال وقدراته خلال لقائهما في لبنان، وشعر بأن جمال قلما أخذ حقه من التقدير، واستنتج أن جمال يتقن النقاش كما يتقن التكتيكات العسكرية..

فقال الأب فور سماعه كلام جمال: «تتكلم كأنك مسيحي ملتزم..».

فأجابه: «إنني مسلم، وأنحدر من أسرة عريقة في الإسلام..».. فسأله:

– وكيف عرفت هذا الاقتباس.... فأجابه:

– إنني قارئ نهم.. ولي اهتمامات في التاريخ.. فالدراسات الاجتماعية والأديان هما جزء من تجربتنا الاجتماعية والنفسية.

– عظيم.. ولكن لماذا تذكر هذه الآية بالذات....

– لأنني أدرس الحقوق ولا زلت أدرسها منذ فترة.. وقد تذكرت هذه الآية لأنها تذكرني دائماً بالهدف الأساس وراء القانون وكيف تطور إلى ما هو عليه الآن.. ومن المؤكد أنه كان هناك بعض القوانين المشتقة من بعض الأديان مثل العهد القديم.... فقال الأب أنطونيو بطريقة لبقة وملائمة:

– إن كنت من رواد مملكة الإله فأنت هدف مباشر لهجمات العالم والجسد والشيطان.. ومع أن هؤلاء هزموا من قبل السيد المسيح، ولكن إلى أن يعود السيد المسيح فسيبقى العالم يواجه العنف والظلم من هؤلاء المستبدين.

فأجابه جمال بكل ثقة وحزم:

– أبتاه.. عدونا ليس نظرياً وليس أرواحاً، إنهم أناس حقيقيون كما أنت وأنا.. ولم يقض عليهم السيد المسيح بدليل وجودهم واستمراراهم بالقتل والتنكيل.. هؤلاء هم بشر يقتلون البشر....

– حمداً لله يا بني أن السيد المسيح لم يدعنا نتقي الشيطان والعالم وخطايانا بأنفسنا.. فقد قدم لنا الروح القدس لإرشادنا للحقيقة.. وأعطانا أقوى سلاح موجود في العالم ألا وهو الله..

–يؤسفني أبتاه أني لا أرى ما تراه أنت.. فأنا أرى أن الأسد وزبانيته وعصابته المجرمة لا يزالون يقتلون الأبرياء بالمئات حتى بلغوا الآلاف حتى الآن.. ولسوء الحظ فإن سلاح الإله لم يوقفهم عن الاستمرار في مجازرهم..

– نعم.. بلى، لقد عنيت أنها حرب روحانية وليس جسدية..

– وماذا ينفع هذا في تخفيف عذاب الضحايا وأسرهم.. وحاول جمال أن يسيطر على نفسه ولا ينجر إلى ما هو أعمق في الحوار.. غير أنه لم يستطع أن يقاوم، فتابع: أبتاه علي أن أختم نقاشنا وأن تسمح لي بالمغادرة فإن علي أن أرتب بعض الأمور للغد، وإليك كلمتي الأخيرة في الموضوع ثم أتركك لمعتقداتك: أبتاه.. يختلف عالمك عن عالمنا.. فلديك خط اتصال مباشر مع الملكوت العلا ونحن لا نملك هذا.. لذا فعلينا أن نقوم بعمل الإله على الأرض، سوف نحارب وسوف نحاسب هؤلاء الأوغاد المجرمين الذين ارتكبوا المجازر بحق شعبنا، وسوف نعاقبهم بما هم أهل له من العقاب، وإذا تطلب الأمر منا أن نموت في سبيل ذلك.. فليكن.. وأعتذر منك.. فعلي الذهاب الآن.. أشكرك لإنصاتك لمناقشتي....

دهش الحاضرون وصفقوا لما اعتبروه تفوق جمال في النقاش.. وشعر الرائد فراس بالفخر بما يتمتع به رجله الأول في الكتيبة من ذكاء حاد وقوة حجة وإصرار على الانتصار....

غادر جمال الغرفة، وجلس الجميع مع الأب أنطونيو يتجاذبون معه أطراف الحديث، لا سيما حول الفلاحة والزراعة، لأن أكثر المواطنين كانوا فلاحين ومزارعين، ولأن الأب أنطونيو يعمل بالزراعة في الدير لتأمين الموارد الغذائية للرهبان والراهبات والزوار..

تلقى الرائد فراس اتصالاً هاتفياً يخبره فيه عن انشقاق بعض عناصر الجيش في اليوم التالي.. فأخبر جمال فوراً بالأمر وطلب إليه أن يرتب خطة لتهريبهم، إذ أن الانشقاق سوف يحدث في منطقة بابا عمرو التابعة لسيطرتهم..

وفي تلك الليلة هيأت اللجنة التنسيقية المحلية وسيلة آمنة لنقل الأب أنطونيو إلى مكان آمن في حمص، ولم يعلم أفراد المجموعة بالتفاصيل، غير أن الأب ترك فيهم أملاً كبيراً في النصر القريب، ووعدهم أن يذكرهم في صلواته، وأكد لهم أن الإله لن يتخلى عنهم.. فقبل أحمد والجميع مباركته، ووعده أحمد الذي أعجب فيه جداً، بأن يستمر في مراسلته في المستقبل....

استمر النظام بارتكاب مجازره بشكل بشع في طول سوريا وعرضها، دمشق، اللاذقية، دير الزور، حمص، حلب.. إلخ، فكان يفجر السيارات ويقذف المدن والقرى من الطائرات، ويصور الجثث المتناثرة على الأرض ويعرضها على العالم على أنها عمل الإرهابيين، مع أن كل الوقائع والحقائق تشير إلى أنه هو المرتكب لهذه الأعمال الوحشية. ووجهت الاتهامات إلى لجنة المراقبين التابعة لجامعة الدول العربية، مما أدى إلى استقالة

رئيسها، ثم أعلن فشلها في المهمة الموكلة إليها، ولم تؤدِّ إلا إلى مزيد من الضحايا والقتل الوحشي الذي يرتكبه النظام الفاسد..

استمر التصعيد الميداني من قبل النظام مما نتج عنه مقتل أول ضحية غربي، حيث قتل صحفي غربي كان يوثق الأحداث في المنطقة الواقعة تحت سيطرة الجيش النظامي في حمص إثر تعرضه مع مجموعة من الصحافيين إلى القصف المباشر.. وكما هي عادة النظام الكاذب فقد اتهم (الإرهابيين) بقتله، وهذا ما حدا بالجيش الحر للإسراع بإدانة العملية بدليل عدم وجود أسلحة ثقيلة لديهم، والتي كانت السبب بمقتل الصحفي..

استمرت الثورة.. واستمر انشقاق العسكر بأعداد أصبحت كبيرة، غير أن معظم المنشقين كانوا من أصحاب الرتب المتدنية، فلم ينشق أحد من أصحاب الرتب العالية لما عليهم من رقابة صارمة من قبل جواسيس ومخابرات النظام.. وانتشرت شائعات عن عزم عدد من أمراء الألوية على الانشقاق، واستمر الثوار بالمقاومة مع قلة ما لديهم من عتاد.. غير أن معنوياتهم العالية وعزمهم على الانتصار كانا من أكبر الدوافع على المثابرة في الثورة.. وكانت خططهم اليومية محدودة النوعية والكمية نظراً لفقد المواد والعتاد، انخرط عدد كبير من المهاجرين السوريين في عداد الجيش الحر، وجلبوا معهم بعض خبراتهم العسكرية التي اكتسبوها في الغرب، وكان بعضهم يجهل كيفية إمساك قطعة السلاح، غير أنهم جميعاً مستعدون للتضحية بكل شيء في سبيل أن تعم الديموقراطية أرجاء الوطن.. وكان الجيش الحر الأمل الوحيد لهؤلاء بالعودة إلى الوطن والعيش بكرامة وحرية..

لم يكن التدريب على السلاح في مناطق آمنة في سوريا أمراً سهلاً أبداً مع أنه الحد الأدنى من متطلبات الالتحاق بالجيش الحر، ولهذا فلقد فتحت بعض دول الجوار الصديقة والمتعاطفة مع الثورة حدودها للأفراد والسماح لهم بالتدريب على أراضيها، ثم تم تعيين بعض المهاجرين من أصحاب الخبرة العسكرية مدربين للشباب المتطوعين الجدد

حسب منهاج ميداني، فتم تدريبهم على الأسلحة الخفيفة والتفجيرات، وحرب العصابات، ومختلف الأسلحة، والإنذار، حتى أن بعضهم تم تدريبه كمسعف، وكانت نتائج هذا التدريب مرضية، بل ومذهلة، فقد تخرجت الدفعة الأولى بكفاءات وقدرات أكثر بكثير من عناصر الجيش النظامي.. كما تم تدريبهم على استعمال الهواتف اللاسلكية، وأجهزة الكمبيوتر النقالة والإنترنت، وخاصة الضباط وصف الضباط المحدودي العدد لأسباب لا تخفى على أحد.

تعتمد حرب العصابات على أسلوب الكر والفر، يقوم به عدد قليل من الأفراد سريعي الحركة والتنقل والعمل داخل المناطق الخاضعة للنظام وخلف خطوطه، وأسلوب زرع العبوات الناسفة..

Improvised Explosive Device (EIDS) خلف خطوط النظام لتشتيته وإثارة الذعر والخوف بين أفراده.. وهذا ما تعلمه بعض المدربين في أفغانستان أثناء حربهم ضد الروس سابقاً والأمريكان والناتو حالياً..

زهراء العاطفية

حلب – منزل مصطفى القدسي

كان اليوم عادياً بالنسبة لأسرة مصطفى القدسي في حلب، فالأب مصطفى يحاول الحصول على بعض وقود الديزل للتدفئة، وزوجته لمى في المطبخ تحضر طعام العشاء، وعدنان في غرفته يقرأ ويذاكر دروسه، أما زهراء فكانت في الغرفة الجلوس تراقب بعض البرامج التلفزيونية، فقد بدأت آثار العقوبات الاقتصادية المفروضة على سوريا من الدول الغربية تظهر وتنعكس سلباً على حياة المواطن السوري العادي بفقد بعض المواد الأساسية كالديزل مثلاً. أما رجال الأعمال المرتبطين مع النظام والمستفيدين من الفساد، وأعضاء الحزب والمسؤولون في الدولة والشبيحة فكانوا يتمتعون بميزات خاصة ولا يعانون كالمواطنين العاديين. وأدى تقنين الكهرباء إلى تعرض المواطنين للبرد القارس بسبب عدم تمكنهم من استعمال الدفاءات الكهربائية حين يكونون بأمس الحاجة إلى الدفء، والأغنياء يمتلكون مولدات كهربائية تزودهم بما يحتاجون من كهرباء وتدفئة وغيرها، وأما التضخم وزيادة الأسعار فقد وصل حداً لم تعد السيطرة عليه ممكنة، فزادت أثمان المواد الغذائية عشرة أضعاف أو أكثر مما أشاع الفوضى في الأسواق وازدادت معاناة المواطنين العاديين، كل هذا ولا يزال النظام يمارس القمع الوحشي والقتل والتدمير والتهجير، ولا يلين ولا يقبل التنازل عن السلطة.

و التباين الواضح في مواقف بعض المواطنين الذين لا يزالون يتعاطفون مع النظام خوفاً من المجهول المنتظر، ومعظم المواطنين الذين استعدوا وهيئوا أنفسهم للتضحية حتى بأرواحهم في سبيل الحصول على حريتهم وكرامتهم.

و الملاحظ في بدء أيام الثورة رفض معظم المواطنين بما فيهم المعارضين للنظام أي تدخل أجنبي، أما الآن وبعد المعاناة التي مر بها الشعب فقد خرجت معظم المظاهرات في الشوارع مطالبة بالمساعدة بشكل أو بآخر لإنهاء تلك المعاناة التي ما عاد يطيقها معظم المواطنين، فاقترح البعض حظراً جوياً تفرضه الأمم المتحدة ودول حلف شمال الأطلسي، وآخرون فضلوا مناطق عازلة لحماية المدنيين العزل، وبالمقابل فهناك من كان يفضل السيناريو الليبي أو العراقي للخلاص من هذا النظام الطائفي المجرم..

بقيت حلب بسكانها الملايين الخمسة نموذجاً لإطاعة النظام والإذعان له رافضة حتى التظاهر مع الثوار، غير أن الألم والمعاناة والحاجة للأساسيات كانت تنمي في نفوس المواطنين الرغبة في المشاركة ولكن بحذر شديد، فقد فرغت أسواق المدينة تدريجياً من المتسوقين وتبعها مراكز التسوق الحديثة، انخفضت القوة الشرائية لليرة السورية بشدة وشحت العملات الأجنبية بل كادت تفقد، وغدت بعض المواد الغذائية الأساسية كالبيض والخبز والحليب والخضراوات والفواكه صعبة المنال لكثير من المواطنين دون أي مؤشر على انفراج الأزمة في المدى المنظور.. وألقى الرئيس الأسد خطاباً بعد ستة شهور على خطابه الأول وتكلم لمدة ساعتين تقريباً، أعطى فيه وعوداً بالإصلاح والقضاء على الانتفاضة ومن دعاهم بالإرهابيين المسلحين المدعومين من القوى الخارجية التي تناصب العداء لسوريا المقاومة والصمود والتحدي!!!.. وكرر في هذا الخطاب الكليشيهات المعهودة والتي مضى على سماعها أكثر من أربعين عاماً دون أن يلمس الشعب أي تحسن في مستويات المعيشة أو أي سيطرة على الفساد والفاسدين والمفسدين.. فكان خطابه كما كانت خطابات أبوه من قبله وكما هي خطابات المسؤولين في الدولة، خطابات جوفاء وعديمة الفائدة ولا تزيد عن كونها كلاماً فارغاً للاستهلاك الإعلامي وحسب. وزاد في هذا الخطاب لهجة التهديد والوعيد لمعارضي النظام ومناهضيه، وثمّن جهود الشبان

والشابات الملتزمين بحماية النظام والدفاع عن رؤوسه، وهم من يسميهم المواطن العادي بالشبيحة.

قلَّبت زهراء جهاز التلفاز في محاولة لتفادي مشاهدة القنوات الحكومية الممجوجة، ولتبحث عن أخبار الثورة من مصادر أكثر جرفية وثقة كال BBC والجزيرة والإفرنسية ٢٤، وأصبحت في الأيام الأخيرة قلقة جداً وتشعر ببعض الاطمئنان لدى اجتماعها ببعض صديقاتها وزميلاتها اللائي كن يشاركنها عواطفها المتأججة تجاه الثورة، وكن يجتمعن بسرية تامة في أحد البيوت يتحاورن ويتبادلون الآراء ويبحثن عن الحقيقة ويبدين شغفهن للحرية حتى أن بعض الفتيات كنَّ متزوجات ولديهن أسرهن وأولادهن، وبعضهن لا زلن عازبات ويعملن في وظائف حكومية أو في الشركات الخاصة، ولم تكن أعمارهن تتجاوز العشرين أو الثلاثين سنة باستثناء القلة اللاتي كن أكبر سناً بقليل. وكانت زهراء تبدي رغبتها وتقترح الخروج في مظاهرة سلمية في حلب مما شجع الأخريات في المشاركة في المستقبل، وكانت تقول أن حلب لم تشهد أية مظاهرة فعلية منذ شهر آذار ٢٠١١م، ويبدو أن الوقت قد حان لشحذ همة الشعب بطريقة ما، ولما كان المفتي العام من سكان حلب كابراً عن كابر، فقد تأثر معظم المواطنين بآرائه وكانوا من الداعمين للنظام، أو على الأقل لم يكونوا مناوئين له ولا سيما رجال الأعمال المستفيدين مادياً من فساد النظام، أما أفراد الطبقة الفقيرة والمعدمة والمحرومة من أساسيات المعيشة، والذين حاولوا إبداء امتعاضهم مما آل إليه حالهم، فقد تم سحقهم والتنكيل بهم ليكونوا عبرة لغيرهم.. تمتعت زهراء بشخصية متميزة ذات رأي مستقل، وكانت مؤمنة بجدوى النضال لتصحيح أخطاء النظام وفساده وإفساده لبعض المستفيدين، وأكسبها ذلك ثقة واحترام زملائها ومن حولها. أما والداها فكانا شديدي القلق عليها لكونها فتاة واحتمال تعرضها للأسواء مما يمارسه مجرمو النظام وشبيحته. ويبدو أن تربيتهم لها ولإخوتها على الصراحة والصدق وتحري الحقيقة في كل أمورهم قد جعلاها صعبة المراس، وكثيراً ما تدخل مع أفراد الأسرة

في نقاش يحتدم أحياناً حول أمور لا تبدو ذات أهمية كبيرة، أما الآن وخلال الثورة فالأمر مختلف تماماً.. فهناك أسباب وجيهة جداً للجدال فيما إذا حاول أهلها ثنيها عن الانخراط في الثورة.. وكانت تعي وتدرك تماماً الأخطار التي قد تصيبها من جراء ذلك، كالإيذاء الجسدي أو حتى الموت، وهو ما عوَّل عليه النظام لإدخال المجتمع في حالة ذعر وخوف وترويضه وإخماد أية روح متقدة فيه.

ازداد حماس زهراء للانخراط بالثورة بمجرد سماعها نبأ فسخ خطوبة أحمد ونجوى، ولما كانت عائلتا القدسي والهندي لصيقتان ببعضهما فقد كانتا مهيئتان لفكرة ارتباط أحمد وزهراء منذ زمن بعيد. كانت زهراء أنموذجاً للفتاة المنحدرة من أسرة محافظة متوسطة الحال، وكان وراء ذلك الحجاب فتاة متحررة الفكر، عصرية منفتحة ومتطورة. وأكثر ما كانت تظهر تلك الصفات المميزة في قاعات الصفوف حيث تمارس مهنتها في التدريس. فمن المعلوم أنه منذ تولي حزب البعث الفاسد والمفسد الحكم في سوريا فقد تحولت مناهج التعليم من الأكاديمية إلى الأيديولوجية لحقن الأطفال منذ صغرهم بأفكار لا تمت إلى العلم بصلة.. وترويض الطلاب على الانصياع لأوامر الحزب، وهذا يؤدي بالتالي إلى تأليه الفرد، الرئيس، الملهم. وكانت زهراء تعترض على هذا الأسلوب في التدريس وترى أن الدراسة يجب أن تثري فكر التلميذ وتنمي مواهبه، وكثيراً ما كانت تستمد بعض الأفكار التعليمية من مراقبتها للقنوات التلفزيونية الثقافية، وسماعها للحوارات بين المثقفين وأخصائي علم النفس والخبراء في حقل التعليم.. أما في هذه الليلة بالذات كانت زهراء متحمسة أكثر من ذي قبل لأنها على موعد للقاء بعض الصديقات وكانت تتدرب على ما ستقوله في الاجتماع، فقد شعرت في الاجتماع السابق أن بعض زميلاتها أبدينَ رغبتهنَّ بالمشاركة في تظاهرة نسائية، وبعضهم الآخر كنَّ مترددات في الانخراط فيها، وكانت تتمنى لو أنهن غيَّرن أفكارهن، وتوقعت أن يحمل بعض زميلاتها أفكاراً مؤيدة للنظام، أو أن يكنَّ مترددات لجهلهن بما هو آتٍ ، وتوصلت إلى ما يشبه اعتقاد بأنه إذا

كان التغيير يشكل تهديداً فإن التأكيد على التغيير أصبح حتمياً، وقررت أن تقول لهن: بأن للتغيير ثمناً غالياً بلا شك، ولكنه بلا شك تأخر كثيراً، وأنه عجز الأجيال الماضية عن إحداث التغيير وما آل إليه وضع البلاد والعباد، فإن من واجب هذا الجيل أن يبدأ بإحداثه. وتوقعت أن لا يروق هذا الحديث لبعض الحاضرات.. وبصراحتها المعهودة قررت أن تطرح الفكرة بكل وضوح، وأن تأخذ معها شريط الفيديو المسرب من حمص لعرضه على الحاضرات، علَّ المناظر المؤلمة والمؤذية فيه تقنع بعض الحاضرات بالانخراط في الثورة والخروج في أول مظاهرة نسائية في تاريخ المدينة، وكانت مؤمنة بأن الأخطار تحيط بهذه التظاهرة، غير أنها ترى بثقة تامة بأنه ثمن يستأهل دفعه، فالمظاهرة سوف تؤيد الثورة والثوار، وسوف تشجع بعض المترددين على المساهمة والانخراط في الثورة. ومما يدعو للاستغراب هو إبداء بعض التلاميذ رغبتهم في المشاركة وربما بعض المعلمين والمعلمات.. ستكون ساحة سعد الله الجابري مركز التجمع لما لهذه الساحة من أهمية لاسم حاملها، أحد المناضلين ضد الاستعمار الإفرنسي، ولأن النظام يحشد مسيراته المصطنعة فيها، والتي كثيراً ما أُجبرت زهراء ذاتها للمشاركة في هذه المسيرات، والتي كانت تهدف إلى أن يرى العالم عبر التلفزيون مدى حب الشعب السوري وتأييده لرسوله.. إذن فلتكن تظاهراتها موازية في الزمان والمكان لمسيرات النظام. تذكرت زهراء أنها تلقت ذات يوم إنذاراً من مديرة المدرسة لأنها ذكرت للطلاب أن الشعب السوري لم يتذوق طعم الحرية مذ اعتلى حزب البعث عرش السلطة.. لأن تصريحاً مثل هذا قد يرسلها إلى زنازين النظام في أحد أقبية السجون التابعة لأحد أفرع المخابرات.. إلى أبد الآبدين، ولما كان مدير المدرسة صديقاً لوالدها الذي كان مدرساً أيضاً، فقد أبلغه المدير بأن ينبه زهراء إلى أن ما تقوله قد يؤذيها ويؤذي من حولها.. وخاصة والدها. وقال المدير لها بشكل مباشر:

– أرى أن علي أن أسألك بل آمرك ألا تكرري تلك العبارات الملهبة والتي قد تجلب لك ولمن حولك من زملاء وأهل الضرر الكثير، وكل ما آمله أن لا يكرر أحد

التلاميذ ما قلته في غرفة الصف أمام أهله أو أمام بعض رجال السلطة.... كما تلقى والدها بعض المكالمات الهاتفية تنبئه عن تصرفات ابنته الخرقاء.. وأما والدتها فقد نهرتها قائلة: «اسمعي جيداً أيتها الفتاة.. إن كان أمرك لا يهمك.. فأرجوك أن تهتمي لأمرنا وأمر أخوك الصغير..». لم تأبه زهراء لمخاوف الآخرين من حولها، فلقد عقدت العزم على القيام بعمل ما لدعم الثورة، وكثيراً ما فكرت بحزن وألم لما حلَّ بأحمد الذي احترمته بشكل كبير بعد أن انشق عن الجيش النظامي المجرم وانضم إلى الجيش الحر الذي يطالب بالحرية ويدافع عن المدنيين العزل، مما عرضه للأخطار التي من الممكن أن تودي بحياته.

لقد عاش أخوها عدنان وأحمد في أسرتين اكتنفتهما واحاطتهما بكل رعاية وحب، وقدمت لهما ما يطلبان من دون أن يبذلا أي عناء في الحصول على شيء سوى الطلب، ففي أسرة بمستوى أسرتيهما يعامل الصبيان بطريقة مختلفة عن معاملة البنات لمجرد أنهم صبيان، مما يجعل هؤلاء الشباب يكبرون دون أن ينضجوا أو يتحملوا أية مسؤولية واعتادوا أن يتحاشوا أية عثرة تعترض طريقهم، وهذه المعاملة التفضيلية تبدو أكبر عند الطبقات المتوسطة أو الميسورة، أما في الطبقات الفقيرة من المجتمع فالذكور يتحملون المسؤولية بسن أصغر للمساهمة في رفد الأسرة ببعض الأمور المادية.

ولما سئمت زهراء من متابعة الأخبار على التلفاز، نهضت إلى المطبخ وجهزت فنجانين من القهوة التركية المعطرة بحب الهال، ودخلت غرفة الجلوس تحملهما بحذر وقالت لوالدتها التي فرغت للتو من الحديث على الهاتف:

-كيف حال والدتي الحلوة اليوم؟ وأتبعت سؤالها بابتسامة، فأجابتها:

- إنني بخير يا حبيبتي.. لقد بدأت أقلق على والدك الذي تأخر عن موعد قدومه..

واستمرت تنظر من النافذة تبحث عن توأم روحها، فقالت زهراء:

– تعلمين يا ماما شدة أزمة المازوت في البلد في الآونة الأخيرة.... فأجابتها:

– لقد قال والدك أن المازوت منشر غير أنهم يحتكرونه لجني أكبر قدر ممكن من الأرباح.. فقالت زهراء:

– لم يعد هناك أية مفاجآت في حلب هذه الأيام.

وفجأة فتح الباب ودلف مصطفى وبادرهم مداعباً: يا حبيبتاي أراكما تنتظراني لشرب القهوة معكما.. وبدت لهجته كمن انتصر في معركة الحصول على المازوت.

ولما سألته لمى عن المازوت أجاب بالإيجاب وأضاف: غير أنها كمية قليلة، فقد كان علينا أن جميعاً أن نتقاسم الكمية الموجودة في خزان الشاحنة، وأعتقد أن الكمية قد تفي بالغرض حالياً إذا ما أحسنا تقنينها، وأراني متفائلاً بقدوم الربيع ثم الصيف بدفئهما مما يجعلنا بغنى عن المازوت. قدمت زهراء لوالدها من قبيل الاحترام كرسيها وفنجان القهوة، وراح يشرح لهما مصطفى العناء الذي تكبده في الحصول على المازوت، وكيف أن بعض الطماعين حاولوا الحصول على كمية أكبر من غيرهم.. فانبرت زهراء قائلة:

– لا شك أن هذا سوف يؤجج كره النظام لهذا أكثر فأكثر.... فرد عليها أبوها:

– لا تعتمدي على هذا الافتراض يا حبيبتي.. فهناك من هو مستعد الموت جوعاً دفاعاً عن الأسد.. وهز رأسه بذهول ممزوج بالاشمئزاز، وارتشف من القهوة رشفة أثنى فيها على زهراء لإتقانها تحضير القهوة.. وهنا تدخلت لمى في الحديث مؤيدة لزوجها بأن زهراء تتقن كل عمل تقوم به وبأنها سوف تكون زوجة صالحة وبخاصة إذا تخلت عن هذه

الأفكار الثورية قبل أن نقع في المشاكل مع هذا النظام الشرس المتعطش لمزيد من الدماء البريئة، ورمقت ردة فعل ابنتها لهذه الملاحظة.. التي أجابتها فوراً بلهجة دفاعية:

– يا ماما أنا لست ثورية أو فوضوية، إن كل ما أطلبه هو الحرية، حقي في الاختيار وحقي في الكرامة.. فقال مصطفى ناصحاً ابنته:

– لا شك أن أمك على حق يا زهراء.. ويجب أن تتوخي الحذر الشديد فيما تقولينه ولمن تقولينه.... فردت زهراء بعد أن أخفضت صوتها:

– إنني بخير يا بابا.. لا تقلق.. فلن تتسبب ابنتك في أية مشاكل... ونهضت من مقعدها وطبعت قبلة جانبية على جبهة ابيها.. وفي هذه الأثناء خرج عدنان من غرفته ولاحظ هذه اللوحة العاطفية، وقال ممازحاً وتبدو البهجة على محياه: كالمعتاد.. زهره تحصل دائماً على كل ما تريد.. ولا زالت أميرة بابا الصغيرة، مع أنها كبرت وصارت مدرِّسة الآن.. وبالمناسبة أيتها الأميرة هناك من يود محادثتك، بإمكانك أن تخمني من هو.. فعقدت المفاجأة لسانها، وأخيراً سألته ووالداها يرمقانها بنظرة استفسار: ومن عساه يكون من يطلب محادثتي..، فأجابها عدنان مبتسماً كمن حقق أمراً مهماً: أحمد... ذكر الاسم وانتظر ردة فعل زهراء التي اصطنعت اللامبالاة: وكيف عرفت ذلك..؟؟. فأجابها:

– لأنه اتصل بي للتو على الجهاز الخليوي، ولم يكن لديه ما يقوله لي.. بل سأل هل بإمكانه التكلم معك.. وها أنت بين يدي ماما وبابا.. فهل تريدين أن تكلميه بعد إذن والدينا.. فأجابته زهراء بنظرة دلع وشيطنة:

– ولم لا أكلمه.. وهنا تدخلت والدتها لمى قائلة ببعض الشماتة:

– تعرفين تماماً لماذا يريد أن يكلمك، فقد عاد إلى رشده بعد أن قطع علاقته بتلك المتعالية، والآن بدأ يدرك أنه قد تجاهل تلك الجوهرة التي كانت أمام ناظريه...

فقالت لها زهراء محاولة أن لا ترفع من آمالها وأحلامها أكثر من اللازم.. إذ إنه ربما أراد أن يتكلم بشؤون الثورة لعلمه بمدى دعم زهراء لها:

– إنها مجرد احتمالات يا ماما.. والتفتت إلى عدنان سائلة: وهل قال بموضوع ماذا يريد أن يكلمني..؟؟ فأجابها عدنان:

– اهدئي يا أختاه.. فأنا أفهم تفكير أحمد أكثر من أي شخص آخر لأننا ترعرعنا مع بعض، وأعرف تماماً كيف يفكر من دون أن يشرح لي عن ماذا ولماذا يريد التحدث معك، على كل حال هل ترغبين في محادثته الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم، فإن أردت ذلك فعليك إجابة الهاتف بنفسك...

فانفرجت أسارير لما قائلة: «يا إلهي.. إنها أخبار عظيمة يا زهراء»

فقاطعها زوجها في نبرة تنبئ عن اعتراض:

– كفّا عن الكلام في هذا الموضوع، لقد تغير وضع أحمد مؤخراً بشكل كبير.. فلم يعد مجنداً يؤدي الخدمة الإلزامية، إنه الآن مطلوب من قبل رجال الأمن، ولأوضح ذلك أكثر أقول أن عقوبة الانشقاق عن الجيش هي الإعدام.. هذا ناهيكما عن دوره في الجيش الحر.. فقاطعه عدنان مخالفاً رأيه:

– نعم هذا صحيح.. ولكن يفعل كل ذلك دفاعاً عن وطنه وشعبه.. وأرى أن علينا أن نشجعه لا أن نشجب فعله.. وكانت زهراء تنصت لهذا الحوار دون أن تنبس ببنت شفة احتراماً لقلق أبيها عليها.

فقالت لمى بصوت هادئ لتؤكد عن قبولها التكلم وما بعده: أعتقد أنه سوف يسافر إلى كندا ليلتحق بأخته ناهد هناك.. وكانت تتكلم وكأنها تحاول أن تقنع زوجها بأن لدى أحمد خيار معقول وممكن تحقيقه. ولم يبدُ أن مصطفى اقتنع بمبرر لمى فقال: ولكنني غير مقتنع بأن الوقت مناسباً لاتخاذ قرار ملزم تجاهه، وكيف تعرفين أنه سيسافر إلى كندا ويبقى هناك، فقد ذهب في الماضي ولم يمكث فترة قم عاد أدراجه دون أن يحقق أي هدف.. فهناك العديد من الشباب الراغبين في الذهاب إلى هناك غير أنه فشل.. نعم فشل..

فانفجرت زهراء قائلة بحزم: «ليس لدي أية رغبة في السفر إلى كندا.. إنني سورية وسوريا تحتاجني الآن أكثر من أي وقت مضى، وإذا ما أدار كل واحد منا ظهره لسوريا وغادرها وهرب إلى مأمنه سوف نبقى تحت هذا النظام الظالم الفاجر العنصري المجرم إلى الأبد، أما إذا أراد أحمد المغادرة فأتمنى له التوفيق والنجاح، غير أنني أعلنها لكم إنني غير مهتمة ولا يهمني الأمر..».

صعق أفراد الأسرة لسماع زهراء تتكلم بشكل قاطع، ولم يصدقوا أعينهم وخاصة وأنهم يعلمون أن زهراء تكن الحب لأحمد منذ نعومة أظفارها، وشُدهوا أكثر عندما سمعوا أن الثورة تعني لها أكثر من رجل أحلامها..

ندم مصطفى عما قاله عن كندا، وكان كل ما يبتغيه هو أن يبين للأسرة أن لا مكان لأحمد في سوريا، غير أن عبارته كانت كمن يقول أن لا أمل لأحمد في أي من الدولتين.. وتابعت زهراء قولها:

– سوف أتكلم معه لأسمع ماذا سيقول.. فربما يريد مني الانخراط في صفوف الجيش الحر.. فحاول مصطفى إصلاح خطأه بتوجيه كلامه إلى زهراء:

– مهلاً يا حبيبتي.. فربما أخطأت فهم كلامي عن أحمد، أنا لا أمانع من زواجك به وسفرك إلى كندا إن أمكن ذلك.. ولكنني لا أرى أي أمل في البقاء في سوريا.. إلا إذا ربما.. وربما فقط أن يسقط النظام المجرم الحالي وجاء بعده نظام آخر ويصدر عفواً عن كل من ساهم في الثورة.... فقالت زهراء:

– أنا أفهم ذلك يا أبتي لكنني لا أرغب في السفر إلى كندا.. وهذا جوابي النهائي.. واستدارت لتدخل غرفتها..

قالت لمى و الحيرة بادية بوضوح على صوتها ووجهها:

– أنا لا أفهم هذه الفتاة.. فلقد حلمت به لسنين طويلة، والآن بعد أن صار في متناول يديها ترفضه بإصرار.. ورفعت يديها إلى السماء كاليائسة..

فقال عدنان في محاولة لإقناع والديه وتهدئتهما: دعوها الآن وشأنها.. ولنرى ما سيقول أحمد لها....

قبعت زهراء في غرفتها محاولة القراءة أو كتابة شيء لاجتماع المساء، غير أن فكرها كان مشوشاً لدرجة شلت قواها العقلية والفكرية، ولم تعد تركز ذهنها إلا في مكالمة أحمد، وكم تمنت أنها لو وصلت الآن، فوراً، لتنهي معاناتها بالانتظار.. فلطالما فضلت الحلول السريعة لمشاكلها في هذه الحياة مذ كانت طفلة صغيرة، فقد كانت تفضل أخذ حقنة اللقاح في أسرع وقت رغم تألُّمها.. فقط لكي تنتهي من الأمر بسرعة.. وكثيرا ما كانت ترى أن التوقعات والانتظار أشد إيلاماً من النتيجة.. فقد كانت ترى بعض الأطفال يتألمون ويقاومون ويبكون ويصرخون من أخذ حقنة اللقاح.. مع أنهم يدركون أن من الأفضل لو تقبلوا الألم البسيط لجزء من الثانية وانتهى الأمر..

وبعد ساعتين من مكوثها في غرفتها تحاول دون جدوى أن تشغل نفسها بأشياء عدة، خرجت باتجاه المطبخ وأحضرت كأساً من الماء وعادت إلى غرفتها تحدق بهاتف عدنان وأمسكته بيديها المتعرِّقتين.. ثم راحت تهيء نفسها بعصبية بادية على وجهها وحركات يديها، ماذا ستقول لأحمد، لا سيما وأنها قررت لكل سؤال جواباً مناسباً.. وفجأة قطع صمت الغرفة صوت الهاتف وظهر على الشاشة رقم مجهول فتوقعت أن يكون أحمد.. رفعت الهاتف قائلةً:

– ألو..

– ألو.. هل هذه أنت يا زهراء.. قالها أحمد مغتبطاً على الطرف الآخر من الخط..

– نعم إنها أنا.. كيف حالك يا أحمد..

– أنا بخير.. وليس لدي الوقت الطويل لأعبر عن كل ما يجيش في صدري.. ولكنني سأقول باختصار وكسباً للوقت: زهراء هل تراك تقبلين إذا ما طلبت يدك من أبويك.. قالها أحمد وهو يشعر بارتباك شديد بادٍ على صوته...

– إن هذا يعتمد..

– يعتمد على ماذا.. سألها أحمد مستغرباً ولم يكن يتوقع أية عقبات. فسألته:

– ما هي مخططاتك للمستقبل يا أحمد..؟؟

– سوف أذهب إلى كندا وأرجو أن أسمع رأيك بذلك.. فصعقت زهراء:

– ماذا.. كندا.. وماذا عن النضال في سبيل تحرير سوريا..؟؟ فأجابها:

– أعتقد أن بإمكاني أن أقوم بالكثير لدعم الثورة من كندا.. أكثر مما أقوم به هنا..

– أحمد.. لن أسألك لماذا اخترتني في هذا الوقت وليس قبل ذلك.. وها أنا أعلن لك قبولي اقتراحك بشرط أن تبقى في سوريا.

– ولكنني أتوق للسفر.. بل ويجب علي أن أسافر.. فإن هذه الحرب لم أخلق لها، ولكي أكون أكثر صراحة.. لم أخلق لها ولست ممن يحسنون خوضها..

لم تستغرب زهراء جواب أحمد ولم يخب أملها به، بل كانت واثقة من أنه يقول الحقيقة. فلم يكن يملك القدرة على بذل الجهد للحصول على أي مطلب، وشعرت لجزء من الثانية أنه ليس مؤهلاً ليكون لها زوجاً، فلم تكن لديه صفة الالتزام أو الشعور بالمسؤولية، غير أن السنين الطويلة التي فُتنت به خلالها جعلتها تتجاهل المبررات وسألته برقة:

– حسناً أنا أفهم وضعك.. ولكن متى تنوي السفر..

– حالما تخبرني ناهد.. وسأغادر فوراً. وفاجأته بسؤال:

– قل لي أحمد، وبصدق وصراحة.. كيف تشعر تجاهي..؟؟ وكأنها تتمنى أن تسمع منه التأكيد بعد التأكيد كما هي عادة البنات من الدلع...

– أظن أنني أحبك.. قالها بارتباك ظاهر.. فكادت تنهي المكالمة بقولها:

– تظن.. أنت تظن.. ولست متأكداً.. بمعنى أنك لست مهيأ بعد لمثل هذا الالتزام.. أتمنى لك حظاً سعيداً وسفراً سليماً.. فقاطعها أحمد وقد شعر بغضبها:

– انتظري أرجوك.. لقد قلت إنني أحبك.. غير أنني لم أعتد قولها لك....

– حسناً والآن قل لي لماذا تحبني..؟؟ فأجابها أحمد وهو يجاهد في سبيل انتقاء الكلمات:

– لأنك ذكية وقوية.. وما إن لمحتك على جهاز السكايب حتى ذهلت كيف كبرتِ وكم أنت جميلة..

تشتت أفكار زهراء من هذه العواطف المتأججة.. وحاولت أن تقول ما كانت قد صممت قوله قبل المكالمة، غير أن كلمات أحمد اللطيفة والمخلصة جذباها اليه بقوة وبلحمة خاطفة، فقالت بصوت ملؤه الأنوثة والدلع:

– أحمد.. لا بد وأنك تعرف أنني أحبك.. وأحببتك منذ طفولتي الأولى، وأمضيت ليالٍ طويلة أحلم بك حتى عندما كنت مرتبطاً بتلك المرأة كنت أحبك على أمل أن يأتي يوم وتسير الأمور حسبما أشتهي.. وبدأت بالبكاء..

فجاءها الجواب بعد فترة صمت قصيرة:

– لقد عميت عيناي سابقاً عنك وعن حبك لي.. أما الآن فإنني مقتنع جداً وبصدق، ومؤمن دون أي شك أنك قدري. وأنك كل ما أفكر به الآن ثم أفكر فيك.. ثم أفكر فيك.. إلى ما لا نهاية..

كادت الدمعات تخنق زهراء فمسحتها عن وجنتيها.. وبشكل مفاجئ قالت لأحمد: حسناً إذن.. دعنا نتكلم عن المستقبل.. قالتها كمن يستجمع قواه.. فأجابها أحمد بكل هدوء ونعومة:

– نعم يا حبيبتي.. المستقبل.. هذا ما أريد الكلام فيه. مستقبلنا معا.. وأنا على استعداد للقيام بكل ما تطلبينه مني لكي أكون توأم روحك..

– أرى أن يتكلم والداك إلى والديَّ، ثم سوف نحل الأمور الأخرى تدريجياً.. وفجأة قالت: ولكن.. ليس كندا.. الآن.

شعر أحمد ببحر من النشوة يغمره وتجاهل ما قالته عن كندا.. وقال:

– نعم يا حبيبتي سوف أكلمهم في ذلك ليطلبوك من والديك.. وسأبقى أحبك ما دمت حياً.. وما دانت أنفاسي تتردد في صدري..

ولكي تتحاشى أي هجوم عاطفي آخر من أحمد قالت كمن ينهي المكالمة:

– حسناً أحمد.. اعتن بنفسك.. أرجو من الله أن يسلِّمك.. والسلام عليكم.

جلست بعد إنهاء المكالمة إلى كرسي أمام مرآتها تحدق كما لو أنها ترى شخصاً آخر.. فكَّرت في المكالمة الهاتفية وتساءلت عن سبب ضعفها عندما تكلمت إلى أحمد هل كانت منصفة عندما فرضت عليه البقاء في سوريا مع علمها بأنه معرض لكل الأخطار المحتملة، وتساءلت عما ينتظرهم مستقبلاً، وترددت كلمات والدها عن احتمال إعدام أحمد إذا عثر عليه الجيش النظامي.. وما إن فتحت باب غرفتها حتى فوجئت بالأسرة كلها ترمقها بنظرات التساؤل والفرح في غرفة الجلوس.. ونهضت والدتها وكأنها المتكلم الرسمي باسم الأسرة مهنئة: ألف ألف مبروك يا حبيبتي.. فارتبكت زهراء وسألت: كيف؟؟ ولماذا؟؟ فأجابتها والدتها بأن أسرة أحمد اتصلت للتو ويريدون الحضور قريباً.. ففكرت زهراء: يا للسرعة.. لا بد وأنه يرغب فيَّ.. فلم يُضع ثانية واحدة للاتصال بأهله.. وغدت مغتبطة وفرحة بعمق إخلاصه وعزمه.. وسألت: هل عليَّ التواجد هنا

حينما يصل أهل أحمد وكانت تتمنى أن يقال لها أن لا ضرورة لكي تلحق بالاجتماع المنوي عقده بعد قليل.. فجاء جواب أخيها عدنان:

- حتماً عليك التواجد.. فهو مستقبلك الذي سيبحثونه.. ولماذا هذا السؤال..؟؟

- علي أن أكون في أحد الاجتماعات كما ذكرت لك سابقاً.

ثم تكلم والدها مصطفى مطمئناً: أعتقد أن الجميع يعرف جوابك.. وأنهم سوف يخطبونك منا.. وطالما أنك موافقة على إتمام الخطبة فلا أرى ضرورة لبقائك.

- هذا عظيم.. وسوف أقوم بزيارة الخالة عبير غداً... فداعبها عدنان:

- قريباً ستكون حماتك...

عادت إلى غرفتها وارتدت ثيابها بسرعة ولا زالت مشوشة التفكير لأحداث السويعات الماضية، ثم ودعت عائلتها وغادرت المنزل ونزلت الدرج من الطابق الثاني.. وما إن فتحت بوابة البناية حتى فوجئت بوالدي أحمد أمامها مفعمين بالفرح والابتسامة العريضة على شفاههما وهي واثقة من أنهما وافقا على تلك الخطوبة بل وباركاها.. فسارعت عبير إلى ضمها وتقبيلها وسلمت عليها بشغف، وقال عصام والحبور يعم وجهه: سوف يكون لنا الشرف لتتحد أسرتنا وأسرة صديقي العزيز القديم مصطفى... فأجابت والخجل يغمرها:

- إن الشرف لنا يا عمي.. وتابعت عبير وهي تشد على يدي زهراء:

- يالسعادتي ونشوتي بهذا الخبر الرائع والفرحة العارمة.. فقد أنقذ الله أحمد في الفترة القصيرة الماضية مرتين.. حماه الله من كل سوء...

فاعتذرت زهراء منهما لاضطرارها اللحاق بالاجتماع المهم الذي ينتظرها.. فطمأنها عصام بقوله: لا عليك يا صغيرتي.. تابعي عملك.. فقد جلبت لنا ما يكفي من السعادة والفرح..

أسرعت زهراء إلى الشارع لتستقل الباص إلى موقع الاجتماع والذي لم يكن يبعد عن بيتها كثيراً.. وقفت في المكان المخصص لوقوف حافلات السيرفيس والتي تعتبر الوسيلة الوحيدة للتنقل نظراً لانعدام المواصلات الحكومية، ودخلت السيرفيس بصعوبة نظراً للازدحام الشديد بداخله ونزلت في الجميلية وسارت قليلاً إلى أن دخلت بناية سكنية مؤلفة من أربع طوابق يبرز من كل منها شرفة ضيقة وتغطي نوافذها أباجورات خشبية تحفظ خصوصية الناس داخلها، كانت قد بنيت في عهد الانتداب الإفرنسي على سوريا بين عامي ١٩٢١ – ١٩٤٥م، وسكنها بعد مغادرة الإفرنسيين بعض العائلات الميسورة في حلب. صعدت الدرج إلى الطابق الرابع وسمعت عبر الباب المغلق أصوات بعض النساء يتحاورن، وتمكنت التعرف على بعض الأصوات، كما شاهدت من خلال زجاج البيت المحجر خيالات بعض النسوة في الداخل. قرعت الباب ففتحت لها صاحبة البيت رانية رستم وعانقتها، وما إن دخلت حتى عرفت معظم الوجوه الموجودة إلا امرأتان لم ترهما من قبل. كان النسوة يحتسين الشاي أو القهوة ويدردشن في أمور عدة.

كانت رانية في منتصف سنيّ عمرها، ذكية، سريعة البديهة، أرملة فقدت زوجها في حادث سيارة منذ سنوات، عملت مدرِّسة في ذات المدرسة التي تعمل فيها زهراء لتعيل طفليها، حافظت على أناقتها وبهائها ومع أنا كانت عادية الجمال، غير أن حسن انتقاءها ثيابها والمكياج الذي تضعه يومياً جعلها جذابة وملفتة للنظر. قطعت رانية الحديث بين السيدات وبدأت الحديث بقولها: لا بد وأنكن جميعاً تعرفن زهراء المدرسة في ثانوية نابلس، أما من لا تعرفها منكن فيسرني أن أعرفها على أنها أحسن مدرسة لغة

إنكليزية في المدرسة، بل في المدينة كلها، إضافة لكونها موالية عنيدة للثورة، وستخبرنا الليلة عن مخططها وكيف يمكن لكل واحدة منا أن تشارك في الثورة المشرِّفة...

رمقت زهراء النسوة بنظرة فاحصة وثاقبة، وبدأت الحديث بعد أن صمت الجميع قائلة: «بلدنا على شفا حرب أهلية.. وعلينا أن ندعم الرجال الشجعان في الجيش الحر الذين خطو الخطوة الأولى نيابة عنا جميعاً، ويحاربون في سبيل تحرير سوريا وشعبها من ربقة هذا النظام الفاشي الظالم المجرم..» ثم ارتفعت نبرة صوتها قائلة: «وعلينا أن ندعم مواقعهم في حلب كما حدث في باقي المحافظات من خلال التظاهر والمسيرات، فقد صمتت حلب بطريقة أنانية وغير منطقية، وإن لم نفعل ذلك الآن فسوف يصمنا كل سكان سوريا بالخيانة والجبن، لا سيما وأن النصر قريب بإذن الله بغض النظر عن ممارسات النظام الوحشية واللاإنسانية» وحدقت في وجوه السيدات لتسبر أغوارهن وتسمع ردود أفعالهن.. فسألتها إحدى الحاضرات:

– وكيف تقترحين علينا نحن النساء أن نواجه الشبيحة..؟؟ فأجابت تشرح الخطة:

– سوف نتقاطر إلى ساحة سعد الله الجابري من اجتماعات مختلفة، ثم نجتمع هناك وسط الساحة.. فقاطعتها أخرى قائلة:

– هذا شيء خطير.. فنحن سيدات بيوت ولدينا أطفال وأزواج ومستقبل و علينا التفكير فيهم و الاهتمام بهم، فانبري لها زهراء قائلة بكل ثقة: و كذلك السيدات في حمص و درعا و ادلب و كل البلدات لديهن أولاد و أزواج و مستقبل، ومع ذلك فقد خرجن وأطلق الرصاص عليهن.. تلك الفتاة ذات الشهور الأربع من عمرها والتي عذبت حتى الموت كان ينتظرها مستقبل.. حمزة الخطيب من درعا الذي عُذِّب وشوهت ملامحه وقطعت أوصاله حتى اعضاؤه التناسلية كان ينتظره مستقبل ما.. إن الحياة في ظل هذا

المستبد وطغمته الحاكمة وزبانيته وعصابته ليست إلا العبودية بأجلى صورها.. وأي شخص يقبل بذلك النظام الفاشي فليس لديه أي احترام لذاته أو كرامة تجعله جزءاً من النسيج الوطني السوري في المستقبل القريب بإذن الله..

قطع صمت الجميع صوت إحدى السيدتين الجديدتين على المجموعة وقالت:

– لا أراك إلا مجنونة ومهووسة، أضف إلى ذلك أنك تنوين التغيير لكي تسمحي للصهاينة والأمريكان ليفعلوا في سوريا مثلما فعلوا في العراق وليبيا.. ثم نظرت حولها وتابعت قائلة: أعتقد أن عليكن أن تكن ممتنعات وتحمدن الله على وجود قائد ملهم، وذكي وشجاع مثل الدكتور بشار..

هلع قلب زهراء وشعرت كما لو أنها أصيبت بلكمة قوية في بطنها، أما رانية فلم تكن أقل فزعاً من زهراء، وشعر النسوة بأن هذه السيدة كانت تعني ما تقول، وما حضرت الاجتماع إلا لغاية واحدة هي التجسس على الحاضرات ا، فحاولت أن تقصر الحوار قائلة:

– حسناً أيتها السيدات.. أعتقد أننا سمعنا ما يكفي، وأعتذر لإنهاء الاجتماع الليلة فكل منا مشغول صباحاً وعلينا النهوض مبكراً.. ولم تعد بعض النسوة قادرات على النظر إلى زهراء بعد هذا الحوار العاصف. وسارع الجميع للمغادرة دون أن يبدين أي استعداد للمشاركة في تظاهرتها، وفيما كان النسوة يشرفن على مغادرة الباب قالت رانية: سيداتي.. لقد سمعتن ما قالته زهراء.. أما أنا فسوف أساهم في التظاهرة.. ولكل منكن أن تقرر بنفسها إذا ما كانت ترغب في المشاركة في هذا الواجب الأخلاقي تجاه بلدنا....

كانت معظم الاجتماعات السابقة عبارة عن أحاديث متفرقة، وغالباً نميمة عن هذه وتلك، ثم كانت مقتضبة جداً عن السياسة تجعلهن يشعرن بأمور الدولة السياسية،

ولم تكن تلك الأحاديث جدية أبداً ولم يطلب إليهن أي التزام، ولم يطلقن أي وعود، لقد كان هذا اللقاء مختلفاً عن سابقيه، فلم تكن النسوة على استعداد لتغيير ما اعتدن عليه، فلقد كانت كلمات زهراء خطيرة إذ حددت الاحتمالات وما هو متوقع وأسباب هذا التحرك، مما جعل الجو العام في الغرفة مشحوناً وليس مريحاً، ولم يتطوع أحد من النسوة للمساهمة في التظاهرة، وطلبت رانيا إلى زهراء المكوث قليلاً بعد مغادرة النسوة البيت، وابتدرتها فوراً معتذرة بشدة لهذه المجابهة مع إحدى السيدتين اللتين لم تكونا معروفتين لرانيا ولم تدرِ من أحضرهما للاجتماع.. فأجابتها زهراء:

– لا تقلقي رانيا.. سوف يكون هناك فرص أخرى في القريب العاجل لنطرح أفكارنا إلى عدد أكبر من النسوة.... وكان صوتها ينبئ عن عدم اقتناعها بما تقول.. فأردفت رانيا قائلة: نعم يا عزيزتي أنا أعلم ذلك.. ولكنني أظن تلك الامرأة ما هي إلا شبيحة من أذناب النظام، وقد تتسبب ببعض الأذى لكلينا.. أنصحك بأخذ الحيطة والحذر من الآن فصاعداً، وتحادثتا لبعض الوقت وتناقشتا في الحلول والحلول البديلة، وأكدت رانيا لزهراء أنه إذا كان هناك رجال لا يزالون مترددين بالمشاركة في أي عمل ثوري.. فمن المحتمل أن تتردد النساء في ذلك.. فأجابتها زهراء ببعض العناد لما لديها من قناعة بالثورة: أنا لا أتوقعهن أن يكنَّ مختلفات عن غيرهن.. كل ما أطلب منهن أن يقمن بالعمل الصحيح.. فردت رانيا قائلة:

– هذا صحيح.. ولكن عليك أن تقدري شعورهم بالمسؤولية، فحلب ما زالت محكومة بالتقاليد والعادات البالية المحافظة، ولا يزال مجتمعنا مجتمعاً رجولياً بامتياز.. وأغلبهم يؤثر الهرب والاختباء في الجامع أو الكنيسة على الانخراط في أي تغيير يذكر.. نهضت زهراء للانصراف قائلة: بالتأكيد.. أرى أنها ميؤوس منها.. وشكرت رانيا على

دعمها لها.. فرمقتها رانيا وأكدت لها أنها تحاول القيام بما يتوجب عليها، وطلبت إليها أن تتصل بها فور وصولها للبيت. ووعدتها زهراء بذلك..

نزلت زهراء من البناية مع بدء الغروب، ووقفت على ناحية الشارع تنتظر باص السرفيس ليقلَّها إلى بيتها، مرَّ عدد من الباصات دون توقف للزحام الواضح داخلها، فقررت أن تمشي قليلاً في الشارع شبه الخاوي من المشاة لبرودة الطقس وندرة السيارات نظراً لما آلت إليه أسعار المحروقات، ولما تردد من إشاعات عن إيقاف الجيش الحر لقافلة محروقات ومنعها من دخول حلب التي لم تدعم المقاومة مبكراً، وطبعاً نفت ضمنياً هذه الإشاعة واعتبرتها من أدوات الحرب النفسية التي يشنها النظام ليفسد العلاقة بين الجيش الحر والمواطنين، اجتازت بعض التقاطعات إلى أن اقتربت من مشفى الرازي العام، فإذا بسيارة مرسيدس تتوقف بجانبها ولمت صورة بشار الأسد على الزجاج الخلفي، ونزل بسرعة شابان يلبسان جاكيتين أسودين وبنطالين جينز، وأحاطاها من الأمام والخلف، وانهال أحدهما بلكمة على وجهها جعلتها تتدحرج على الأرض فتلقاها مَن خلفها، وحملها الاثنان وألقياها في المقعد الخلفي للسيارة، ولما حاولت الصراخ والتمسك بالباب أغلق أحدهم الباب وهشَّم أصابعها فأطلقت صرخة ألم فظيع، ففتح الباب ثانية ليحرر أصابعها، وما إن رفعت بصرها قليلاً لترى ما يحدث حتى عاجلتها ضربة بجسم حديدي على رأسها أفقدتها الوعي تماماً.

وفي هذا الوقت كانت أسرتا زهراء وأحمد تحتفلان بالخطوبة ويمنِّيان النفس بصلة القرابة التي ستربط الأصدقاء القدامى، وتذكرت الأمهات كيف كانتا تمازحان أحمد إثر ولادة زهراء بقولهن إنها ستكون عروسته، وكيف أن مخططهما قد نجح بذكاء وحنكة، وأثار ذلك عاصفة من الضحك.. وأما الرجلان فقد انخرطا في مناقشة الأمور السياسية، وتذاكرا آخر الأحداث والأخبار اليومية.. أما عدنان فقد دخل غرفته للمطالعة، ثم خرج

بعد لحظات سائلاً عن زهراء، فأجابته والدتها بأنها ذهبت لزيارة صديقتها رانيا.. فانتفض قائلاً: ماذا.. هل تعلمين كم الساعة الآن؟؟.. إنها الحادية عشر..

منذ متى غادرت البيت.... فأجابته والدته وقد بدأ الذعر يدبُّ في نفسها:

– حوالي الخامسة أو السادسة مساءً.. فوافقتها عبير قائلة: نعم.. لقد كانت تمام الساعة السادسة عندما صادفناها عند باب البناية..

انجرت لمى بالبكاء، وتحلق الجميع حول عدنان الذي استأذن بالاتصال برانيا وسؤالها عن أخته.. فوجئ الجميع بجواب رانيا بأن زهراء ليست عندها، وأنها غادرت منزلها منذ عدة ساعات حوالي الساعة السابعة والنصف، واستغربت أنها لم تصل للبيت بعد.. رغم أن المسافة بين البيتين لا تحتاج لأكثر من نصف ساعة على أبعد تقدير.. وأنه ليس من عادتها عدم الاتصال بأهلها إذا ما توقعت الاتصال بأهلها إذا ما توقعت بعض التأخر في الوصول إلى البيت.. فشكرها عدنان وطلب إليها الاتصال بهم فيما إذا سمعت أي شيء منها أو عنها..

استمرت لمى بالصياح والنحيب ورددت مرارا كم حاولت إقناع ابنتها بعدم الذهاب إلى تلك الاجتماعات السخيفة.. أين ابنتي.. أين صغيرتي..؟؟ أحضروها إلي فوراً.

فقال عدنان: علينا الاتصال بالمستشفيات وإخبار رجال الشرطة بالأمر، رغم أن الشعور السائد في البلد هو الرعب من الأجهزة الأمنية، والتي تمنع أياً كان من الاتصال بهم لتفشي الرشوة ولأن الغرض الأساس من وجودهم هو إرهاب وتخويف المواطنين لكي يبقوا تحت السيطرة التامة. ومع كل هذا فقد اتصل عدنان بالإسعاف المركزي دون جدوى إذ لم يسمعوا بها ولا يهمهم سماع أي شيء عنها.. ومن المعلوم تماماً في هذه البيئة

المحافظة أن الفتاة أو المرأة قلما تغادر منزلها منفردة، وإن فعلت فعليها إخبار أهلها عن كل تحركاتها، فسوريا بلد يحكمه نظام أمني خانق لا يتردد في إنزال أشد العقاب في من يحاول التمرد أو حتى عدم الإطاعة العمياء والرضوخ التام للنظام، ولا يسأل أفراد الأمن عن أي خطأ يرتكبونه عمداً أو غير متعمد.

وفجأة قال عصام: لا يزال لدي بعض الأصدقاء القدامى، سأحاول الاتصال بهم عسى أن أجد بعض الاستجابة من أحدهم أو نحصل على بعض الأخبار....

فأخرج دفتر أرقام الهواتف الصغير من جيبه وقلب صفحاته إلى أن عثر على رقم (أبو رياض) من قدامى الأصدقاء والذي لا يزال في الجيش، ويتوقع أن يكون الشخص المفيد في هذا الظرف.. أدار عصام قرص الهاتف وانتظر عدة رنات على الطرف الآخر.. ولما لم يجب أحد أغلق الخط، وعاد إلى دفتره يقلب صفحاته إلى أن قال: أوه.. هذا أفضل.. إنه اللواء علي سليمان. إنه علوي ويتمتع بسلطة واسعة وقد خدمنا معاً لفترة وقدمت له بعض الخدمات في الزمن الغابر.. أدار عصام رقم الهاتف المسجل في الدفتر بينما كانت لمى وعبير تجلسان على الأريكة بترقب وخوف.. وعدنان ومصطفى يترقبان الحديث على الهاتف.. وبعد عدة رنات جاء صوت على الطرف الآخر من الخط:

– اللواء سليمان.... فانطلق عصام فوراً:

– مساء الخير سيدي.. أنا عصام هندي،، أرجو أن تعذرني وأسرتك لمكالمتك في هذا الوقت المتأخر، غير أني محرج جداً ومضطر ولم أجد أفضل منك للاتصال به لمساعدتي في هذه المعضلة المفاجئة..

فأجاب اللواء بأسلوب فج ومتعجرف: عصام إنه ليس الوقت المناسب.. هل لك أن تتصل بي صباحاً.. وأغلق الخط في وجه عصام.. مما أحرج عصام بشكل مهين.. نهض عدنان والقلق بادٍ على وجهه وقال:

– علي أن أخرج للبحث عنها.. ولبس معطفه رغم اعتراض أفراد الأسرتين خشية أن يصاب بمكروه، فلم يأبه لاعتراضهم وغادر البيت مسرعاً. حاول عصام الاعتذار واضطراره للمغادرة نظراً لتأخر الوقت، غير أن عبير أنكرت عليه مغادرته وأصرت على البقاء وانتظار عودة زهراء.. فتشبثت لمى باقتراحها ورجتها أن تبقى معها وستعطيها ما تحتاجه من ثياب وسواها وشهقت لمى سائلة عن مكان تواجد زهراء وما عسى سيكون مصيرها.. فحاول مصطفى أن يشجعها ويطمئنها، وأكد لها أنها لا بد وأن تكون بخير.. فهي ناضجة وقوية الشكيمة، ولطالما أنقذت سواها من مواقف خطيرة.. فكيف لها أن لا تنقذ نفسها إن لم تكن هي ذاتها في ورطة.. أرجوك اهدأي واطمئني.. ورجا الجميع الله أن يحميها ويعيدها إلى أسرتها سالمة.. ولتزداد الأمور تعقيداً، فقد فقدت في تلك الليلة سيدتان، الأولى زهراء والثانية رانيا التي اقتحم رجال الأمن بيتها بعد منتصف الليل واختطفوها..

أما أحمد.. فقد كان في غاية الفرح والنشوة، ويكاد يطير فرحاً بعد تلك المكالمة الهاتفية مع زهراء.. فشكر الرائد فراس الذي أتاح له التكلم إلى زهراء، ولإعطائه فرصة ترتيب الخطوبة، وغدا أكثر حيوية ونشاطاً، وعكس نشاطه هذا على معظم المقاتلين في الموقع، فازداد حماس الشباب في إعادة تحميل مخازن البنادق بالطلقات، وساعدهم في كتابة رسائل تعزية لذوي المقاتلين الذين فُقدوا، كما ازداد اهتمامه بالكمبيوتر فغدا يصرف معظم أوقات فراغه يتعلم كيفية استعماله ودخول الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) وصعق للقدر الهائل من المعلومات التي يمكن استخلاصها من الإنترنت، لا سيما واهتمامه توجه بشكل خاص نحو تصنيع المتفجرات والتكتيكات العسكرية، وتعلم من

أحد الشباب كيفية تحميل الفيديو من الهاتف الذكي إلى الكمبيوتر. وكان مصدر الكهرباء في الموقع مولد كهرباء صغير غنمه المقاتلون من أحد مواقع الجيش النظامي ويعمل بالديزل (النادر الحصول عليه) وكثيراً ما كانوا يشاركون الجيران بما يفيض عليهم من الطاقة..

بدأت أعداد الجيش الحر تزداد بشكل مضطرد، فكان يلتحق بهم أحياناً عشة أو عشرين شخص من مدينة حمص لوحدها.. وطبعاً يحتاج هذا العدد إلى مركز للتجمع والفرز، إضافة إلى الأكل وأماكن الإقامة وغرف للاستراحة، مما جعل الموقع يعج بالمقاتلين ويفيض عن سعته، فقرر الرائد فراس أن يستعين بالنقيب جمال لتوسعة الموقع، فقررا معاً أن يستعملا مدرسة اليعربية في بابا عمرو كمركز تجمع وفرز، وصار جمال هو الآمر في هذه المدرسة، في حين بقي الرائد فراس المشرف العام والقائد المسؤول. قرر جمال أن يأخذ معه بعض الرفاق القدامى لا سيما علي بالإضافة إلى بعض القادمين الجدد، فيما بقي أحمد في الوقع ليقدم أقصى ما يستطيع من خدمات، فقد شحنته تلك المكالمة مع زهراء بالطاقة التي جعلته أكثر حركة وحيوية وإيجابية من ذي قبل، وزاده حماساً أنه صار خبيراً في شؤون الكمبيوتر لأنه شديد الالتزام بما يعمله، ولأن الكمبيوتر أعطاه فرصة التواصل مع زهراء..

كان أفراد الجيش الحر بحاجة ماسة لبعض المواد والمعدات التي كانوا يعتمدون في الحصول عليها على ما يغنمون من الجيش النظامي أو من خلال احتلالهم لبعض مراكز الشرطة والاستيلاء على محتوياتها، كما حدث مؤخراً في الرستن على طريق حمص- حماه، وكانوا يطمعون إلى توسيع رقعة عملياتهم خارج منطقتي بابا عمر وباب سباع، لولا صعوبة التحرك بحرية في تلك المنطقة، إذ إن زبانية النظام قد تمركزوا مع أسلحتهم الثقيلة حول تلكما المنطقتين. كُلف جمال بمهمة حماية عناصر من وسائل الإعلام الأجنبية وإيصالهم سالمين إلى حمص، وذلك بالتعاون مع أفراد الجيش الحر المنتشرين على الحدود السورية اللبنانية الذين هرَّبوا الصحافيين والمصورين من وإلى سوريا وخاصة حمص، وكانوا بحاجة إلى

مركز تجمع وإقامة للصحافيين والتي تم تأمينها من قبل اللجنة التنسيقية المحلية ضمن المنطقة.

لم يكن لدى أحمد أي وقت يتفرغ فيه لنفسه، فبعد أن أنهى جدول أعمال اليوم التالي جلس تحت ضوء خافت ليقرأ الأوامر التي أصدرها الرائد فراس لأفراد الوحدة. واقترح بعض التعديلات على جدول الحراسة كي يكون توزيع الأوقات عادلاً لكل الأفراد، وخاصة تحديد الساعات لكل واحد منهم وقرر عرضها على الرائد فراس في صباح اليوم التالي. زادت ثقة أحمد بنفسه وشعر باعتزاز لانخراطه بإدارة الوحدة يوماً بعد يوم، وخاصة وقد قبلت زهراء طلبه لخطبتها، وبإمكانه الآن أن يقول لها (خطيبتي..) والتي لها وقع خاص على أذنيه ونفسيته. واستغرب عدم ملاحظتها من قبل، فقد كانت أجمل من نجوى وأكثر ذكاءً، وذكية، جادة في عملها، وفوق كل هذا متواضعة، وتأسف للوقت الذي أضاعه في خطبة نجوى التي يعتبرها الآن أنانية، مدعية، مغرورة، وفوق كل هذا طفلة فاسدة، وما طفق يفكر في زهراء بشكل دائم، ويفخر أمام زملائه بخطبته لها، وكم تمنى لو كان لديه صورتها ليضعها أمامه ليل نهار، ويجعلها محور تفكيره وما سيكون مستقبلهما، وهذا ما جعله أقوى عزيمة وشكيمة على المضي قدماً والتفكير بما ستؤول إليه أمورهما، وكانت قوة شخصيتها حافزاً له على الاستمرار في النضال وحب الحياة، في تلك الليلة فكر بها وتصورها دون حجاب، وراح يتعمق بالصورة التي رسمتها له مخيلته، وفكَّر فيما عساها تعمل الآن، وما إذا كانت تفكر به كما يفكر هو فيها، وتمنى لو اتصل بها ثانية وثالثة، لولا أنه سيثقل على الرائد فراس، ولاسيما وأن كل الأفراد حوله يتمنون الاتصال بذويهم لولا سوء الاتصالات وعدم توفر الإنترنت، وكونهم تحت مراقبة الأجهزة الأمنية، وكثيراً لم يكن بالإمكان الاتصال إطلاقاً وبقي الشباب حائرين في مصير أسرهم..

المخابرات الجويّة

حلب – بناية المخابرات الجوية

المخابرات الجوية إحدى أجهزة المخابرات العديدة في سوريا، تأسست في عهد حافظ الأسد، وليس لديها أية نشاطات في التجسس على العدو أو تقييم الأخطار التي قد تصدر عنه، وإنما ينحصر عملها في شيئين: الأول: التجسس على باقي الأفرع الأمنية (كل الأفرع تتجسس على بعضها.. ولا يعلم أحد من يتجسس على من.. ولماذا، وكيف؟؟!!) وكل الأفرع الأمنية تحكم قبضتها على رقاب الشعب السوري المظلوم.. وتعتبر المخابرات الجوية أسوأ وأش رس وأوحش فرع من فروع المخابرات، ونادراً ما يخرج من أقبيتها العديدة أي معتل حياً.. فغالباً ما يعذب، ويشوه، ويقتل ثم يرمى به في إحدى حاويات القمامة، أو يسلم إلى الأهل داخل كيس نايلون أو صندوق خشبي يمنع أهله من فتحه.. وغير ملزم بتلقي الأوامر من أحد إلا من الرئيس شخصياً.. وغير مسؤول عن أي تصرف مهما كان شنيعاً. وتتشارك الأفرع الأمنية كافة بمهمة واحدة لا غير ؛ الحفاظ على وحماية النظام بأي ثمن كان..

تمتاز أقبية المخابرات الجوية بقلة عدد الزنزانات، إذ إنها ليست سجناً يطول مكث المعتقل فيه طويلاً.. وإنما مكان للتحقيق ثم الإحالة إلى فرع آخر فيما إذا بقي المعتقل على قيد الحياة.. حيث يعاد التحقيق والتعذيب غالباً حتى الموت.. ثم يُرمى في مكان ما.. دون أي حق لأهله بالسؤال.. أما أدوات التعذيب فقد صممت ونفذت من قبل عباقرة التعذيب الوحشية من رجال نظام الأسد الأب.. وشهدت هذه الأجهزة عدداً لا يحصى من المعتقلين الأبرياء والذين اعتقلوا لمجرد تشابه الأسماء أو الظن أو الشبهة، وانتهوا قطع لحم في إحدى حاويات القمامة..

و أخيراً ؛ وبعد لأي وجهد ومن خلال علاقات عصام التي لا زالت شبه قائمة، عرف أن زهراء قد اعتقلت واحتجزت فوراً في فرع المخابرات الجوية على أطراف حلب.. ولم يكن هذا الخبر مما تطمئن له نفوس الأسرتين، لعلمهما مما يمكن أن تكون نتيجة الاعتقال في ذلك المكان المشؤوم.

يقع مقر المخابرات الجوية على أطراف مدينة حلب في منطقة آهلة بالسكان تتألف أبنيتها من أربعة طوابق، ساهم في بناء المنطقة عدد من النقابات كالمهندسين، والمعلمين والأطباء والصيادلة وغيرهم، ودفع المساهمون أثمان الشقق قبل أن تبدأ الجمعية بالبناء لضمان حقوقها.. ونظراً للفساد المستشري في المدينة طولاً وعرضاً، فقد استغرق بناء بعض الأبنية عشرين سنة، أو أكثر من ذلك، واستعمل في البناء مواد فاسدة وبكميات أقل من المقاييس والمعايير المعتمدة، من دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض أو الشكوى. ينعم سكان الطابق الأرضي بحديقة صغيرة يتفننون بزرع الأشجار دائمة الخضرة وبعض الورود والياسمين والفل.. بينما ينعم سكان الطوابق الأعلى بشرفات كبيرة واسعة تطل على الشارع حيث يجتمع أفراد الأسرة وبعض الضيوف مساءً للتمتع بنسمات الصيف..

ويقع بناء المخابرات الجوبة بكل براءة و دون أن يثير أي شك ضمن هذه الأبنية المأهولة بالسكان الآمنين محاطا بحواجز اسمنتية ضخمة وحراسة حذرة من قبل أفراد يلبسون ثياباً مدنية موزعين بين الأرصفة أو داخل السياج الإسمنتي.. تغشي النوافذ ألواح زجاج معتمة لا تسمح برؤية ما في الغرف، وخلف الجدران غرف ومناطق لا يعلمها إلا من بداخلها من أدوات التعذيب والإرهاب.. أما في القبو فتوجد منطقتان تكفي كل واحدة منهما لاحتواء كل ما يحتاج إليه المحققون المجرمون من أدوات التعذيب.. ويدخل هاتين المنطقتين نوعين من الناس: الأول هم الساديون والمتخصصون بفنون العذاب،

والذين صمُّوا آذانهم عن سماع أي شيء من صياح أو بكاء أو ترجي. والنوع الثاني هم الضحايا.. ويضاف إليهم طاقم التنظيف والذي غالباً ما يكون من المعتقلين، زيادة في الذل والإهانة والإرهاب، لاضطرارهم لتنظيف بقايا الأشلاء والجثث التي قضى عليها التعذيب.. وشهدت هذه الغرف موت واختناق أعداد لا تحصى من المعتقلين الأبرياء الذين عُذِّبوا وشوِّهوا حتى الموت، وكان هذا الأسلوب المتَّبع من الأقلية العلوية الفاسدة للسيطرة على الأغلبية السنية في المجتمع لأكثر من أربعة عقود، وبتلك القبضة الحديدية تم سحق والقضاء على كل معاض حقيقي أو افتراضي..

و العنصر النسائي الوحيد في هذه الأماكن هنَّ الموقوفات الذين جاء بهم الحظ العاثر إلى هذا المكان.. وجميع الموقوفين نساءً ورجالاً من سجناء الرأي ولا علاقة لنهم بأي جريمة أخرى.

في أحد غرف القبو من هذا البيناء كانت امرأة تستلقي عارية على طاولة حديدية ويداها ورجلاها مربوطة إلى الزوايا الأربع للطاولة، بدا على وجهها آثار الضرب من كدمات وجروح نازفة، وشعرها مجزوز بطريقة مشوَّهة ومكوَّم على أرض الغرفة جانب الطاولة، وكان معها في الغرفة أربعة رجال، وقف اثنان إلى جانبها بينما جلس الآخران في زاوية الغرفة يحتسيان القهوة ويدخنان السجائر، مما أفسد الهواء إضافة إلى ما أفسده من رائحة تعرق الجلادين والمعتقلين، إضافة إلى بعض البول والبراز اللذان لم يتم غسلهما من آن بعيد. وفي الزاوية الأخرى من الغرفة تكومت أدوات التعذيب إلى جانب مطرقة كبيرة حيث تجد كماشات من مختلف المقاسات، كوابل كهربائية وبعض الأدوات الجراحية (غير المعقمة طبعاً..) وفي أرض الغرفة يُرى إطاران قديمان للسيارات.. بالإضافة إلى خليط من الأحزمة الجلدية وبعض السلاسل الفولاذية.. وفي أحدى الزوايا يجد الرائي حوض تغسيل اليدين تعلوه حنفيتان وتحته سطلان معدنيان.. والغرفة باردة دون أي مصدر للتدفئة حتى

ليُرى بخار الماء الصادر عن زفير القابعين فيها.. وفوق الطاولة مصباح يلقي عليها بشعاع يعمي البصر ومركز على وجه السيدة المسجَّاة عليها، تمنطق الرجال الأربعة بمسدسات حربية، وكان أحدهم يرتدي قميصاً أصفر يبدو من أسلوب حديثه مع الثلاثة الآخرين بأنه المسؤول، ولا تكاد تخلو أية عبارة ينطقها من شتائم بذيئة وعبارات تشمئز لسماعها الآذان، ويقف إلى جانب الطاولة، وارتدى آخر قميصان رمادياً وبنطال جينز ووقف إلى جانب المسؤول. بينما قبع الآخران البدينان في الزاوية.. كان هذا المنظر أقبح ما يمكن أن يتخيله الكائن البشري، وخاصة وأن يدرك أن مصيره متعلق بهؤلاء المجرمين..

ولما كان الشعب السوري بل والمسلمون عامة يؤمنون بالقدر، فقد تقبل معظم أفراد الشعب مصيرهم وقدرهم، وتقبلوا أن الحياة ليست أكثر من زيارة تقصر أو تطول إلى هذه الأرض ويحلم بعضهم بأن تطول تلك الزيارة قدر الإمكان. ورغم أن بعضهم الآخر يقاوم فكرة الاختفاء أو الموت المفاجئ لما له من تأثير تدميري على نفسية ذوي المتوفى أو المخطوف، لا سيما وأنهم يجهلون مكان أو كيفية انقاد ابنهم أو ابنتهم، ولا بد من الاعتراف بأن النظام السوري المجرم قد نجح بامتياز في زرع الخوف والرهبة في نفوس المواطنين، وذلك بممارسة الخطف والاختفاء دون سبب أو مبرر، وجعلهما من الأمور الحياتية اليومية المعتمدة. غير أنه فشل في توجيه المواطنين وجعلهم يتقبلون الموت والفقر والفوضى، إذ بدأت اللجان الشعبية وبعض أدوات الإعلام الخاصة والبدائية بنشر الأخبار مدعمة بالصور وأشرطة الفيديو عن الصدامات ومناظر القتل والتدمير مما شحذ الحقد والرغبة في الانتقام في نفوس معظم السكان وجعلهم يعتبرون الموت شهادة وهدفاً نبيلاً. لجأ النظام وشبيحته إلى استعمال العنف المفرط والقتل وإذلال الشعب كما فعل، بل وأسوأ مما فعله هتلر في الحرب العالمية الثانية.

بدأت المرأة الملقاة على الطاولة والمثبتة أطرافها الأربعة إلى زوايا الطاولة بأخرقة جلدية وسلاسل معدنية، بدأت باستعادة بعض وعيها فاقترب منها الرجل ذو القميص الأصفر وانحنى عليها ونفخ في وجهها دخان سيجارته مما جعلها تشهق بل وتكاد تختنق، وبدت مترنحة من أثر الضرب وبالكاد تقدر على فتح عينها اليسرى، وحاولت جاهدة التنفس وتحريك أطرافها الموثوقة بقوة دون جدوى.. ارتجف جسمها بشدة واتج جسمها على الطاولة المعدنية، وغمغمت بكلمات غير مفهومة، ربما كانت نداءات استغاثة أو بكاء أو فقط مجرد أصوات. أخذ الرجل ذو القميص الأصفر سيجارته من فمه وقربها من جسمها العاري ودار بها حول حلمة أحد ثدييها وغرسها ببطء في وسط الحلمة حتى أطفأها في جلدها فأطلقت صرخة مدوية وحاولت تحريك أي عضو فيها من دون جدوى، إذ انغرست القيود المثبتة على قدميها ويديها في جلدها كما الشفرة.. تراجع الرجل ذو القميص الأصفر قليلاً، وتقدم الآخر وأملأ أحد السطلين بماء بارد ودلقه فوق جسمها العاري فارتفع صوت أنينها من شدة البرودة (برودة الطاولة وبرودة الماء..) ولمحت من خلال إحدى عينيها خيالين ضبابيين لرجلين أمامها من دون أن تبين ملامح وجهيهما، وأعماها ذلك الضوء الساطع المعلق فوقها والمسلَّط على وجهها. وسألت بعد جهد: أين أنا..؟؟

فانحنى الرجل ذو القميص الأصفر فوق وجهها قائلاً: «أنت في الجحيم أيتها العارية..».

ضحك الرجال الأربعة وكأنهم يستمتعون بهذه المزحة أو هذا المهرجان أمامهم.

أدارت وجهها محاولةً تقصي معالم وجه أحدهم وأدركت أنها في أسوأ مكان يمكن للإنسان أن يتصور نفسه فيه، ولا أمل يرجى بالخلاص.. ولاحظت وجود محفظتها في جيب الرجل ذو القميص الأصفر، حيث أفرغه من محتوياته ووضعها إلى جانبها على

الطاولة، وأمسك بطاقة الهوية وحملق فيها ثم نظر إلى وجه المرأة فلم يجد أي شبه بين الصورة وبين المرأة بل هنَّ شخصيتان مختلفتان. وقال موجهاً كلامه لها: إذاً أنت زهراء القدسي سيئة السمعة.. وحاولت الإجابة دون جدوى، فتابع: أنت وأمثالك تطالبون بالحرية والديمقراطية، وسنعطيكم ما طلبتم بالتمام والكمال.... وانفجر ضاحكاً وشاركه بالضحك الثلاثة الآخرون، وتراجع بعض الخطوات للوراء ليسمح بدلق سطل آخر من الماء البارد على جسدها العاري.. وأدركت عمق المشكلة التي تواجهها.. تذكرت زهراء بسرعة البرق الطريقة التي اختطفها فيها أمام مشفى الرازي العمومي، ولما كانت عارية تماماً تساءلت فيما بينها وبين نفسها ما إذا اعتدى عليها واغتصبها.. وأنَّى لها أن تعرف وهي مقيدة بهذا الشكل.... واعتورها شعور غامر بالخوف والذعر، وقابلية التعذيب والتمثيل بجسدها، وفوق هذا كله فقدانها أية أمل في المساعدة فصرخت صرخة مدوية ملأت الحجرة الفارغة صدى كما صدى القطار إثر دخوله أو مغادرته المحطة..

نهض الرجلان البدينان عن كرسيهما في زاوية الغرفة وتوجها إلى الطاولة وهذه أول مرة تشعر بوجودهما، وجمع أحدهما الكابلات الكهربائية ثم تقدم الآخر إلى الطاولة وبدأ يلمس جسمها العاري بأصابع سادية شهوانية، فتلمس ما بين فخذيها ثم ثدييها وأحست بحرارة يديه فوق جسمها، وانتابها شعور بالألم والحسرة إذ لم يلمسها أي إنسان كما يفعل هذا القذر، بل ولم يلمحها أحد من قبل بهذا العريِّ.. وراحت تفكر في هذا الكابوس الذي يسيطر على عقلها وقلبها، فالشرف والعفة والصلاح والاستقامة كلها سوف تنهار في هذا الجحيم من اللا أخلاقيات المتناهية. وشعرت بأنها قد تفقد عذريتها ونقاءها اللتان طالما خبأتهما وصانتهما لزوج المستقبل، وفكرت أن لا شيء يهم بعد ذلك.. حتى الموت يغدو أرحم وأفضل من العيش من دون تلك القيم والكرامة..

و أقنعت نفسها بأن ما تلقاه من معاملة لم يكن مجرد اختراق لخصوصيتها، ولكنه اعتداء صارخ لقيم المجتمع الحلبي ومبادئه المحافظة..

مشى الرجل البدين إلى زاوية الغرفة وحمل بيده موس حلاقة واتجه إليها وبدأ يحلق شعر رأسها ويضغط على الشفرة لإحداث جروح في جلدة رأسها، مما جعلها تصرخ ألماً، ولإسكاتها لكمها بقبضته البدينة القذرة في أسفل عنقها مما جعلها تكاد تختنق بلعابها، وما إن تراجع قليلاً حتى سكب الرجل البدين الثاني سطلاً من الماء البارد على رأسها حتى كادت تختنق بالماء، ثم تقدم الرجل البدين الأول ولكمها ثانية في أسفل العنق ما جعلها تختنق كمن يحتضر..

عاد الرجلان البدينان إليها، وفجأة شعرت بحرارة في بعض أجزاء جسمها تبعها فوراً صعقة كهربائية مع أسطل الماء البارد إلى أن شعرت بشلل تام في أنحاء جسمها، فعاد الرجلان البدينان إلى كرسيهما في زاوية الغرفة.

وتقدم الرجل ذو القميص الأصفر من الطاولة وبدا لها كما لو أنه في العقد الثالث من عمره، كث الشاربين، قوي البنية، يلبس ثياباً باهظة الثمن لا توجد إلا في المحلات المتخصصة ببيع الأزياء الأوروبية، ويتحلى بعقد وأساور تبدو رخيصة مما يدل على تدني ذوقه ومستواه، عيناه ذواتا نظرة خارقة، وأنفه يعلو عن مستوى وجهه بشكل ملحوظ، أما صوته فقد كان عميقاً وتغلب عليه الحشرجة لفرط تدخينه دون توقف، ولم تكن لكنته تنبئ عن أنه من حلب بل قد يكون من أحد ضواحيها. تقدم من وجه زهراء وهمس في وجهها:

– هل تشعرين بالحرية التي كنت تنشدينها أيتها العاهرة.. هذه البداية فقط للترحيب بك في الجحيم.. وما إن ننتهي منك حتى لتعجز أمك عن معرفتك والتعرف إليك.. وأطلق ضحكة كمن يستمتع بما هو قادم من تعذيب..

تقدم الشاب الأصغر سناً من الطاولة ولف حول أصابع رجليها شريطاً جلدياً، وأمسك بكماشة ظفر إبهام قدمها وبدأ يسحبه من الجلد بشكل بطيء ليزيد من عذابها وألمها.. فصاحت زهراء: «يا الله ارحمني....» لشدة الألم..

ضحك الجلادون الأربعة وتقدم قائدهم منها قائلاً: «أنا إلهك.. ولكن قبل أن أرحمك وقبل أن أشوه جسمك الجميل هذا علينا أن نقتلع ظفراً آخر.. لأنك زهرة قبل وبعد كل شيء..».

فعوى الأربعة بضحكة عالية ثم تقدم الشاب واقتلع ظفراً آخر من أحد أصابع قدمها، ما جعلها تطلق صرخة تكاد تمزق رئتيها.. وتناوبت فترات التعذيب ما بين صدمات كهربائية، سطل ماء بارد ثم صدمة أخرى يليها سطل حتى بدأت زهراء تفقد وعيها للمرة الثانية، وكانت تعتقد أنها قوية وصعبة المراس غير أن هذا النوع من التعذيب اللاإنساني قد حقق الغاية منه بكسر شكيمتها واستسلامها للغيبوبة، وفي هذه الغيبوبة كانت تفكر بشكل مشوش بأسرتها، وأحمد ومستقبلهما معاً الذي يكاد يكون قد تحطم، وخامرها شك بأن نهايتها باتت قريبة وأنها ستمون في عداد الشهداء الذين سبقوها للشهادة على يد جلاوزة النظام الظالم الطائفي العنصري البغيض.. وفي لحظة من لحظات الصحوة الآنية من المرض كانت تردد بصوت مرتجف وعالٍ: «اقتلوني.. اقتلوني.. أرجوكم اقتلوني....» فقد شعرت بأن موتها هو الخلاص الوحيد من هذا العذاب والألم غير المحتملين.. ولمحت لثانية واحدة أحد الجلادين الأربعة يرفع مطرقة حديدية ثقيلة ويهوي بها على رجلها اليمنى، وتوسلت لخالقها أن ينقذها، فكان أن فقدت إحساسها تماماً، وكأنما

البرودة هو الكفن الحقيقي الذي سيلفُّها إلى المقبرة.. ولم تعد تشعر بالألم.. وبدأ الضوء الساطع فوق رأسها يخبو بريقه تدريجياً إلى أن غابت تماماً عن الوعي.

مضى أربعة أيام على اختطاف زهراء وأصاب الإعياء أسرتي عصام ومصطفى، وباءت محاولات عصام المتكرر ة للاتصال باللواء سليمان بالفشل، وأمضى عصام وعبير تلك الأيام الأربعة في بيت مصطفى يحاولان قدر المستطاع أن يخففا عنهما وطء المصيبة.. وأنَّى لهم بلوغ ذلك الأرب.. وبمحض الصدفة اتصل عصام باللواء سليمان، وقدَّم نفسه وذكَّره بمكالمته الليلية ليلة اختطاف زهراء.. فجاء صوت اللواء سليمان بعنجهية وعجرفة: نعم عصام ما الأمر..؟؟

فأسرع عصام يشرح الأمر بكل مهانة وتواضع: لقد اختفت ابنة صديق عزيز علي منذ أربعة أيام بينما كانت تزور إحدى صديقاتها.. وكنا خلال هذه الفترة نحاول أن نعرف أين انتهى بها الأمر.... فقال اللواء بتعالٍ ملحوظ:

- حسناً.. اختصر.. أنا مشغول.... فأجابه عصام بكل أدب وكياسة:

- نعم سيدي.. اسمها زهراء قدسي.. وقد بلغني أنها معتقلة لدة المخابرات الجوية فرع حلب.

فجاءه الجواب:

- لا بد وأنها مشاكسة وتخلق مشاكل.. فرد عصام بسرعة:

- ولكن يا سيدي.. إنها مدرِّسة.. ولم تكن لها أية مشاكل على الإطلاق.. من فضلك سيدي..

- حسناً حسناً.. سأرى ما يمكنني عمله.. ما اسمها..؟

- زهراء قدسي يا سيدي، أشكرك جزيل الشكر.. وأسأل الله أن يحميك وأسرتك..

- حسناً.... وانقطعت المكالمة.

يعيش اللواء سليمان مع أسرته في منطقة مميزة من أحياء دمشق الراقية، وقد فرشت الشقة بأثاث فاخر اشترته زوجته من أرقى الغاليريات في أوروبا خلال رحلات التسوق المتكررة إلى أوروبا، والشرق الأوسط ودبي، تطل شرفته الواسعة على بيوت أغنياء وأثرياء دمشق من العائلات الراقية والعريقة. غير أن أغلب ساكني هذا الحي اليوم من أزلام النظام والذين أُثروا مما سرقوه وابتزوه وجمعوه من الفساد والرشوة حتى غدوا من أغنى الأغنياء، غير أن هذا لم يخلصهم من عقدة الدونية التي عاشوا ولا يزالون يعيشون بها.. فهم يدركون أنهم ليسوا إلا خدماً كابراً عن كابر.. والآن يريدون أن يلبسوا ثوب الأسياد، وهيهات لهم أن يصبحوا أسياداً وقد قال المثل (القرش ما بيغطي شرش) أي أن المال لا يغطي الأصل.. لقد رحل معظم السكان الأصليين بعيداً عن حيهم أو هاجروا بأموالهم إلى شتى أصقاع الأرض.. ونظراً لرغبة هؤلاء اللصوص حديثي النعمة في أن يتباروا في شققهم فقد بلغ سعر الشقة الواحدة ما لا يقل عن ثلاثة إلى خمسة ملايين دولار.. وأحياناً أكثر من ذلك.. وكانوا يدفعون المبالغ من دون تردد.. فهو مال مسروق لا يكلفهم جنيه النصب والتعب، وإذا أردنا أن نقيس هذا الأمر على دولة ثرية في العالم مثل الولايات المتحدة الأمريكية، فإن أعلى ضابط في الجيش الأمريكي لا يجرؤ أن يشتري بيتاً بهذا المبلغ أو حتى بأقل منه بكثير.. أما في سوري حيث لا يزيد راتب اللواء عن ٥٠٠٠٠ ل.س أي أقل من ١٠٠٠ دولار في الشهر، فمن الممكن تحقيق هذه المعجزة لسبب بسيط هو تعرض المسؤول في أمريكا للمساءلة عن مصدر الأموال.. بينما يشجع المسؤول في سوريا على السرقة كسباً لولائه للسلطة..

الجنرال سليمان يملك بالإضافة إلى هذه الشقة في دمشق.. شاليه على شاطئ البحر المتوسط، وشقة في مالقا بإسبانيا، وأرسل أولاده للدراسة في أفضل الجامعات في أوروبا وأمريكا.. وتقف أمام باب بنايه أربع سيارات حديثة، اثنتان منها BMW واثنتان مرسيدس بنز.. وهي مسجلة باسمه شخصياً، ويقال أنه في آخر رحلة تسوق قامت بها زوجته إلى باريس صرفت ما يقارب /١٧٥,٠٠٠/ يورو، هذه الصورة المترفة ينعم بها فقط رجال الدائرة الضيقة المحيطة بالأسد الأب والآن الابن.. طبعاً يأتي مع المال قدر كبير من السلطة والقوة دون نقاش أو مساءلة.

وبينما كان يرتشف قهوة الصباح، دخلت زوجته من غرفة نومها إلى غرفة الجلوس، ترتدي ثياباً برتقالية اللون تشف عن سروال وحمالة صدر سوداوين، وعلى وجهها آثار المساحيق التي وضعتها مساء الليلة الماضية لحضور حفلة في بيت رامي مخلوف، ابن خال الرئيس، والذي يعتبر أغنى رجل في سوريا الآن، بل وأكبر لص وسارق لخيرات البلد.. وسألت بعصبية ظاهرة: من هذا الأبله الذي اتصل في هذا الوقت المبكر؟؟

– إنه ليس مهماً.. أحد الأشخاص يريدني أن أساعده في إطلاق سراح ابنة صديقه من السجن وتخليصها من ورطة كبيرة..

– وهل أعرفه..؟؟

– لا أظن ذلك.. اسمه عصام الهندي، وخدم معي بضع سنوات في حرستا، وقد كان ضابطاً ضعيفاً كغيره من ضباط السنة..

– أعتقد أن اسمه مألوفاً لدي.. لا أعتقد أني أعرفه.. بل سمعت عنه..

– من المحتمل.. له ولد اسمه أحمد كان يلعب مع ابننا الأكبر علي.

– صحيح.. تذكرت الآن.. وقد سمعت أنه قد قتل في تلكلخ حديثاً من قبل الإرهابيين..

– هل أنت متأكدة من ذلك..؟؟

– نعم أنا متأكدة.. وقد شاهدت ذلك على التلفاز عندما أذاعوا أسماء الشهداء..

رفع اللواء هاتفه الجوال وطلب أحد المراكز الأمنية، وسأل عن أحمد الهندي.. وجاءه الجواب على وجه السرعة، فأعاد هاتفه الجوال إلى موضعه على طاولة القهوة. وقال بعصبية بادية:

– إنه خائن ومنشق.. وليس شهيداً لعيناً..

– ولكن لماذا أذاعوا اسمه بين الشهداء..؟؟ فغضب الجنرال قائلاً:

– أين كنت تعيشين طوال الفترة الماضية يا امرأة.. أخرجي رأسك من أكياس التسوق ولو للحظات وانظري ما يحدث حولك.. إذا لم تدركي حتى الآن أننا في مأزق خطير.. فأسأل الله لنا العون جميعاً.. غادر اللواء الغرفة غاضباً وأغلق الباب بنزق ظاهر وغادر الشقة ونزل الدرج وخرج من البناية يرافقه حارسان مسلحان يلبسان الزي الخاص بالحرس الجمهوري ويضعون إشارته على أكتافهم. فتح السائق الباب الخلفي وانطلقت السيارة باتجاه مكتبه بينما كان يفتش عن رقم عصام في جواله، ثم طلب الرقم فأجاب عصام: ألو... فابتدره اللواء دون أية مقدمات:

– اسمع يا ابن العاهرة.. إن كنت تظن أنني حماراً لأنقذ ابنة صديقك من ورطتها فأنت غلطان.. ولكن دعني أقول لك ما سأفعله: قل لي أين ابنك أحمد المنشق

وبإمكانك أن تأخذ العاهرة. وإلا فسوف أتأكد من أنها ميتة.. هل فهمت كلامي..؟؟ فأجابه عصام:

–ولكن يا سيدي.. ابني أحمد استشهد مع باقي زملائه.... فنهره اللواء وقال:

– اخرس وإلا سوف أدفن كل أسرتك أحياء.. ولن يعثر عليكم أحد ولو بعد ألف سنة.

– حقاً أنا لا أعلم أي شيء يا سيدي..

– اتصل بي غداً صباحاً بنفس الوقت لتعلمني عن مكان تواجده وإلا....

سألته زوجته عبير التي كانت تقف إلى جانبه: وماذا يريد من ابننا أحمد الآن..؟؟

أخبرها عصام بالمكالمة.. فلبسوا ثيابهم على عجل وأسرعوا باتجاه بيت القدسي..

تحلَّقت الأسرتان حول مائدة الطعام في شقة مصطفى وكان التوتر يعم الجو، حيث جلس عدنان على أحد نهايتي الطاولة ووليد إلى الطرف الآخر، وشعر أفراد الأسرتين باليأس والقنوط، وأدركوا جميعاً أن أخشى ما كانوا يخشونه قد حدث. فهم يعيشون نفس التجربة الميرة التي عاشها قبلهم الآخرون، ووعوا أن النظام قد استثمر في قمع التفكير الحر والمستقل والرغبة في التغيير، وقد أتى هذا الاستثمار بنتائج مرضية للنظام في سوريا، كما حدث في عدة دول تحكمها فئة دكتاتورية ظالمة باغية ومجرمة....

بدأت لمى بالبكاء، وتساءلت: هل سنبقى هنا مكتوفي الأيدي ولا نقوم بأي عمل؟؟

فقالت عبير: إن أحمد لن يعود إلى سوريا أبداً.. وقد اتصلت ناهد عبر السكايب البارحة لتخبرنا بإمكانية سفر أحمد إلى كندا.

فسألت لمى باكية: وماذا عن ابنتي زهراء.. من سينقذها..؟؟

فأجابها عدنان بكل ثقة: سوف نخرجها بإذن الله يا أماه.... ولفَّها بذراعيه محاولاً تخفيف معاناتها.

– ستخرج!! ومن يستطيع أن ينقذها من براثن هؤلاء المجرمين؟؟ وحتى لو خرجت، فكيف ستكون نفسيتها.. وأين لنا أن نذهب بها؟؟.. قالتها لمى وهي تنتحب بالبكاء وعدنان يحاول تهدئتها ولكنه لا ينقطع عن التفكير في أخته.

وهنا تكلم عصام ببعض الثقة: حسناً.. علينا أن نبدأ بحشد المساعدة من الجماعة التي حولنا.. فسأله مصطفى مستغرباً:

– عن أي جماعة تتكلم يا أخي؟؟ فأجاب عصام مع بعض الثقة في قوله:

– إمام المسجد.. إنه شيخ فاضل، سأتصل به وأطلب مساعدته، ولنرى ما يمكنه عمله.. وأخرج دفتر الهواتف الصغير من جيبه وأدار قرص الهاتف قائلاً:

– السلام عليكم حاج محمود.. أنا العقيد عصام الهندي.. فأتاه الرد:

– وعليكم السلام أبو أحمد.. كيف حالك..؟ يؤسفني أن أسمع نبأ استشهاد أحمد.. ولكنه الآن في صحبة الرسول وصحابته الكرام في جنات النعيم.. فنحن ندافع عن بلدنا ونصد عدوان أعداء الله.

– شكراً لكلماتك المطمئنة حاج محمود.. ولكنني أحتاج إلى مساعدتك واستعمال نفوذك في قصية لا أرى أحداً باستطاعته مساعدتنا إلّاك....

– نعم أخي أبو أحمد.. تفضل.. تكلم.. فأنت وأسرتك تستأهلون كل عمل نستطيعه لما دفعتم من ثمن في سبيل الوطن الغالي..

– نعم.. ولكن هذا الأمر يتعلق بصديقي مصطفى القدسي.. أعتقد أنك تعرفه.

– طبعاً أعرفه.. إنه رجل محترم جداً.. كيف لي أن أخدمه..

– لقد تم اعتقال ابنته من أربعة أيام، وهي في مقر المخابرات الجوية.. ونتمنى لو استطعت من تحريرها من السجن..

ساد الصمت التام طرفي خط الهاتف إلا من صوت التنفس الثقيل، ثم قال الشيخ:

– يا أبا أحمد.. لن أسألك عن سبب اعتقالها، فمن المعلوم أن يثيرون الشغب ومن يسمونهم المشاغبين ينقلون إلى مقر المخابرات الجوية.. ولهذا فلا أعتقد أنني أو أي أحد آخر قادرٌ على مساعدتك في هذا الأمر المريع.. وكل ما يمكنني أن أعمله أن أرجو الله لها أن يرحمها ويعطف عليها.. وآمل أن تعذرني يا أبو أحمد.. عليَّ أن أنهي هذه المكالمة للحاق بالجامع لصلاة الظهر.. والسلام عليكم..

لم يكن عصام بحاجة لشرح تفاصيل المحادثة، فتعابير وجهه تنبئ عن المضمون.... وهنا قال وليد في سخرية بادية على صوته ووجهه:

– دعني أخمِّن يا بابا فحوى الحديث.. إنه يعتقد أنها مجرمة. فنهره أبوه قائلاً:

– اصمت ولا تنبس ببنت شفة عن الشيخ محمود.. فهو إنسان طيب.. غير أنه غير قادر على المساعدة، وكما يقول المثل: (العين بصيرة واليد قصيرة..)..

بكت لمى بحرقة وقالت في محاولة لكسب عطف الآخرين: سوف أبيع كل مجوهراتي وكل ما أملك في سبيل أن أخرج ابنتي من السجن.... فصرخ عدنان بعد أن أقفل جهاز الكمبيوتر.

– هذه هي الفكرة الصائبة فهؤلاء الأوغاد لا يعرفون سوى لغة الرشوة والفساد.. سوف نتصل بهم في المخابرات الجوية لنعلم ما هو ثمنهم، وأنا واثق أنه لن يكون بخساً.. غير أنني أعرف أن المسؤولين الصغار الذين يقومون بالأعمال القذرة لهؤلاء العصابات سوف يفعلون أي شيء في سبيل المال.. لكل منهم سعراً خاصاً من الرأس حتى أخمص القدم.... فانبرى مصطفى وعلامات الغضب بادية على وجهه قائلاً:

– هذا سخف يا ابني.. إن كان صحيحاً ما تقول، فما أسهل من إطلاق سراح المعتقلين من أبناء الأسر الميسورة.... فردَّ عدنان بإصرار:

– بلى يا أبتي.. لعل الأمر يبدو سخيفاً في نظرك.. ولكن ثق تماماً أن هذا ما يجري في سوريا، بإمكانك عمل أي شيء تريده طالما أنك قادر على دفع الثمن.. ألا تذكر ذلك اللص الذي قتل السيدة بعد أن سرق كل مجوهراتها؟ لعلك تعجب إن قلت لك أنه حرّ طليق الآن.. بالله عليك كيف من الممكن أن يطلق سراحه بعد أن حكم عليه بالإعدام شنقاً. غير أن الذعر والخوف يرهبان الناس من الاتصال بالمخابرات الجوية، بل ويمنعهم من مجرد التفكير بذلك. ولذلك فإنني واثق من أن محاولتي سوف تنجح..

فسأله مصطفى وعلامات اليأس ترتسم على وجهه: ولكن أنَّى لنا الأموال.. ألا ترى أن راتبي التقاعدي بالكاد يسد رمق الأسرة.

فانبرت عبير قائلة بحماس: يمكننا أن نبدأ بما تقتنيه الأسرتان من مجوهرات..

فقاطعتها لمى برفض مطلق: لا أبداً يا عزيزتي. ليس عليك أن تدفعي أي شيء.. فردت عبير:

- ولكنها ابنتنا أيضاً.. فنحن أسرة واحدة علاوة على الصديقة القديمة البريئة.. وإن لم نساعد بعضنا في ظرف كهذا فما معنى صداقتنا وارتباطنا..!!

وتعانقت السيدتان عناقاً يعبر عن صداقة خالصة وحب وتفانٍ....

وهنا أعلن عدنان عن عزمه بالذهاب إلى مقر المخابرات الجوية هذه الليلة، وقال: سأبدأ بدفع الرشوة للحرس ثم أطلب مقابلة أحد المسؤولين.. فإن تمكنت من ذلك فسأخطو الخطوة الثانية بالتحدث إلى أحد المساعدين والضباط الصغار المناوب، وأبدأ معه بطرح الفكرة بشكل مباشر.. فقال له أبوه: سأذهب معك.. وتطوع عصام بمرافقته أيضاً، وصاح وليد: وماذا عني.. ألن تأخذوني معكم.. فقال له مصطفى بوجوب بقائه إلى جانب السيدتين.

سأل عدنان: ولكن هب أننا تمكنّا من إخراج زهراء.. أين سنأخذها من هناك..؟؟ فإحضارها إلى هنا يعرضها إلى خطر الاعتقال ثانية حالما يكتشفون تهريبها....

فاقترح وليد: ما رأيكم ببيت ابن عمنا مروان في صلنفة، فهي بعيدة عن هنا وقريبة من الحدود التركية إذا ما اضطررنا لتهريبها عبر الحدود.

فوافقت عبير فوراً على تلك الفكرة الرائعة.. وأن الأسرتين سوف تتناوبان على العناية بها إذ لا بد وأنها بحاجة ماسة للرعاية..

فقالت لمى باكية: لن أترك جانب ابنتي.. طفلتي.. حبيبتي..

قال عدنان: بإذن الله سوف نخرجها من السجن الليلة.. وطلب إليه أبوه أن يؤمن سيارة تكسي لتأخذهم إلى مقر المخابرات الجوية، وأن يعلم سائق التكسي عن احتمال سفرهم فوراً إلى صلنفة.

فقال عدنان: مع كل الاحترام لرأيك يا أبي.. فإنني أفضل أن لا أخبر أحداً عن وجهتنا.. بل نطلب من التكسي أن يأخذنا إلى سراقب.. ومن هناك نتدبر أمرنا.. فقد يكون السائق عنصر مخابرات متخفِّي بزي سائق تكسي..

فوافقه والده على الفور.. والتفت إلى عصام قائلاً: أبو أحمد.. هل لك أن تتصل بابن أخيك.. وتستأذن منه بالسفر إلى صلنفة وتطلب منه مفتاح الشقة..؟؟

فأجاب عصام: لا أرى ضرورة لذلك فمفتاح الشقة معي.. وقد غادر ابن أخي إلى أمريكا بشكل نهائي مع بداية الأحداث..

فقال مصطفى بصوت ملؤه الحزن والانقباض: يبدو المخطط جيداً ومحكماً.. وسنعود جميعنا مع زهراء بإذن الله..

وقال عصام محاولاً حقن الثقة في نفسه: اطمئن يا أخي أبو عدنان.. فالله معنا ولن يخذلنا.. حاشا لله أن ينسى عبيده المستضعفين المظلومين.. وعانقه بشكل أخوي وحب مع علمه التام بأن هذا الكلام وهذه المظاهر لن تقلل من قلقه وعصبيته شيئاً خوفاً على ابنته..

أمضى الأسرتان فترة بعد الظهر يجمعون مدخراتهم ومجوهراتهم وأي شيء ذو قيمة فباعوا ما يمكن بيعه بالسرعة الممكنة لجمع رشوة معقولة لإطلاق سراح زهراء وإنقاذها من هؤلاء الوحوش المتدثرين بثياب آدمية.. وقاموا بتأمين التكسي، واتصلوا بأقاربهم الأقربين..

وأخبروهم عن عزمهم السفر إلى تركيا للتسوق، وذلك لتضليل قوات الأمن إذا قاموا باستجواب الأقارب..

اجتمعت العائلتان عند الغروب في بيت مصطفى، ووضعوا كل ما أمكنهم جمعه على طاولة غرفة الطعام من أموال ومجوهرات باقية.. ولم يبق معهم إلا أوراق ملكية الشقق التي يسكنونها.. مع أنهم فكروا ببيعها في إحدى اللحظات..

دخلت لمى تحمل فناجين القهوة وقالت: لقد هيأت بعض الثياب للسفر وبعض ما قد نحتاجه للمكوث في صلنفة مع زهراء لمدة أسبوع..

قال عصام: حسناً.. ما هو المبلغ المتوفر لدينا الآن..؟؟

فأجاب عدنان: لقد زرت محل المجوهرات في الجوار وأخذ قيمة تقريبية حوالي نصف مليون ليرة سورية.. ولدينا مليون ليرة نقدي.... ووضع كل شيء على الطاولة..

فقال مصطفى: ليس علينا سوى الانتظار الآن..

فقال عدنان: سأبقى هنا في البيت.. ولتذهب أنت وماما مع زهراء إلى صلنفة..

فقالت عبير: وسأذهب أنا معكم.. ورمقت زوجها كمن يطلب منه الإذن.. فأومأ برأسه بالإيجاب وقال: حتماً سوف تذهب أم أحمد معكم..

صفقة خطيرة

بدأ الليل يرخي سدوله فوق حلب.. حلب التي شهدت في السنوات الأخيرة نمواً سكانياً مخيفاً.. فقد ارتفع عدد سكانها من أقل من مليون نسمة في ستينات القرن الماضي إلى خمسة ملايين ونصف حسب آخر إحصائية، ولا سيما في السنوات الأخيرة حيث وفد إليها عدد من اللاجئين العراقيين يقرب من نصف مليون.. إضافة إلى هجرة أهل الريف الذين هربوا من موجة الجفاف والتصحر في السنوات الأخيرة، وعدم وجود برنامج في وزارات الدولة كلها لمقاومة التصحر باستعمال المياه المتوفرة في سد الطبقة، وذلك بسبب فقد أكثر من ٣٥٪ من أراضيها الزراعية الخصبة نتيجة ما يسمى قانون الإصلاح الزراعي.. والفساد المستشري في كل مفاصل الدولة واستحواذ المسؤولين على قسم من الأراضي الزراعية وسرقتها من ملاّكها الأصليين الذين كانوا يرعونها ويستعمرونها حسب أحدث الوسائل العلمية، فجاء هؤلاء اللصوص تحت مسميات مختلفة واستولوا على الأراضي من دون وجه حق وأهملوا زراعتها ومعالجتها وسقايتها كما يجب فتحولت إلى أراضٍ صحراوية أو شبه صحراوية. لم يقف الحد عند الزراعة بل تعداه إلى العديد من النشاطات الاقتصادية التي تفخر حلب بريادتها.. فمثلاً كانت حلب رائدة في صناعة الغزل والنسيج، فجاء حزب البعث المجرم ودمر البنية التحتية لكل من زراعة القطن ومعامل النسيج والغزل تحت مسمى التأمين، وبالتواطؤ مع نقابات العمال الجهلة الذين استغلهم المسؤولون الفاسدون والمفسدون.. وبذلك فقدت حلب مركزها الريادي في هذا المجال..

ومما زاد الانهيار الاقتصادي والزراعي في حلب بدء مطالبة الشعب بالحرية والعدالة والتساوي في الحقوق والواجبات، والسيطرة على اللصوص من المسؤولين، فقد النظام هذا الشعب بشكل وحشي، وتفشَّت عمليات الخطف ليل نهار، مما أجبر جميع الناس على

الانزواء في بيوتهم فور حلول الظلام من الليل.. كما أدى انقطاع التيار الكهربائي المتكرر إلى توقف معظم المعامل، حتى من كان محتاطاً بمولدة كهربائية قد تتوقف نظراً لغلاء أسعار المازوت، فخوت الشوارع من السيارات والمارة إلا ما ندر.. وفي هذا الجو المشحون بالرعب والذعر والإرهاب اقترب عصام وعدنان من مقر المخابرات الجوية السيء السمعة والمحاط بحواجز إسمنت، وينتشر حوله جلاوزة النظام المدججين بالسلاح، رغم أن المنظر الخارجي يوحي بأنه بناء يكني عادي، بينما كان بداخله وحوش بهيئة بشر، مصابون بعار السادية المطلقة، وما هم إلا عينة من رجال النظام الذين تم اختيارهم لقدرتهم بل وتلذذهم في تعذيب أبناء الوطن الأبرياء بطرق لم تخطر لإبليس من دون ضمير أو وازع ديني وأخلاقي.. راح قلب مصطفى يدق بعنف رغم أنه أخذ الأدوية الموصوفة له من طبيب القلبية.. خوفاً ورهبة من هذا المكان، وجف ريقه وبدأ يتصبب عرقاً.. وكل ما كان يرجوه أن تكون ابته لا زالت على قيد الحياة.. وطبعاً لا يمكنه أن يتجرأ على أن يرجو أكثر من ذلك.. أما ابنه عدنان فقد كان شاباً وسيماً، طويلاً، وحسن الهندام يفرض احترامه على محدثيه، لم يكن ليهتم بالأمور السياسية ولكنه كان مقتنعاً كبعض أصدقائه بأن نظام الأسد قدرهم ولا يملكون القدرة على تغيير هذا الواقع، وأن الثورة دخلت معركة غير متكافئة لا سياسياً ولا عسكرياً ولا قيادياً، تقدم عدنان من المبنى وكان يخطر على باله هو سلامة أخته وكيفية إطلاق سراحها.. وأخشى ما كان يخشاه هو أن يتم اعتقالهم هم الثلاثة وسرقة الأموال التي بحوزتهم وقتلهم ودفن الجريمة بصمت دون أن يدري أحد عنهم شيئاً.. تقدم يحمل الحقيبة التي تحوي المبلغ النقدي إضافة إلى المصوغات، وقد أقلهم التكسي إلى هذا المكان، وبدا سائق التكسي قوي البنية ذو نظرة إيجابية للحياة ولم يتوقف عن الكلام من البيت إلى مبنى المخابرات الجوية، مما أزعج عدنان الذي كان يركز على مهمته شبه المستحيلة، غير أنه كظم غيظه، ولم يصغِ إلى ما كان يقول السائق عن جرائم النظام ووحشيته، ورغم أن قلة من سائقي التكسي يغامرون في الذهاب إلى هذا المكان المرعب إلا أن السائق لم يكن يأبه، بل كان من الشجاعة أقدم على القيام نقلهم دون أي تردد. أما عصام الذي صحبهم في هذه المهمة شبه المستحيلة فقد كان يتوقع ما هو أسوأ نظراً لأنه ضابط متقاعد وولده أحمد قد انشق عن الجيش، واللواء سليمان هدده

بكل صراحة بقتله وقتل أسرته، ولم تمنعه كل هذه الهواجس من مصاحبة صديق عمره وابنه في محاولة لإنقاذ خطيبة ابنه أحمد..

توقفت سيارة التكسي في بدء الشارع الذي يؤوي البناء اللعين، ونزل الركاب الثلاثة، وساروا باتجاه المحرسين على جانبي مدخل البناية، ولاحظوا فوراً الأسلاك الشائكة المحيطة بالبناء، والمدفع الرشاش محاطاً بأكياس الرمل مع أربعة رجال قائمين على تأدية واجبهم إذا دعت الحاجة بقتل أي جسم يشتبه به عند اقترابه من البناء.. وسمع الثلاثة بعض الأغاني تصدح من جهاز راديو في أحد المحرسين..

– قف.. لا تتحرك.. لا تقترب أكثر من ذلك.. إياك أن تخطو.. جاء صوت من أحد المحرسين.. فتجمد الرجال الثلاثة في أمكنتهم دون حراك، وتقدم منهم حارس تبدو على محياه علائم الغلظة والتجبر يحمل رشاشاً AK47 ويتمنطق بحزام مليء بالذخيرة. وتوقف على بعد خمسة أمتار وسدد بندقيته باتجاههم، سألهم بخشونة:

– ماذا تريدون.. هذه منطقة محظورة أيها البلهاء.... صعق الرجال الثلاثة لهذه المواجهة الباكرة والتي لم يكونوا مهيأين نفسياً لها، فدبَّ فيهم الخوف ما شلَّ تفكيرهم عن الرد، وتلعثموا وهم ينظرون في وجوه بعضهم يبحثون عن جواب لهذه العنجهية والعدائية البادية على وجه ولغة الحارس، فجمع عصام شجاعته المتبقية قائلاً:

– إنني العقيد المتقاعد عصام هندي، ونرغب في التحدث إلى الضابط المناوب، هل لنا أن نقابله ونتكلم معه، وأؤكد لك أننا لن نضيع وقته سدى.. غير أن الحارس الشرس لاح ببندقيته في وجوههم وقال: ارجعوا، لا أحد يريد التحدث إليكم، هلمُّوا.. تابعوا سيركم.... فرد عليه عصام بإصرار: سنعوضك بما أنت أهل له..

تغيرت لهجة الحارس فأخفض بندقيته، وما إن لاحظ عصام بعض الاعتدال في موقف الحارس حتى تابع قائلاً بصوت أبوي: أنا كضابط قديم، أدرك مدى إرهاقك في العمل لساعات طويلة في هذا الجو القاسي.. وإننا نقدر قيمة وقتك وسنعطيك شيئاً مقابل هذه الخدمة التي ستسديها لنا.. وهنا أخرج من جيبه رزمة أوراق نقدية ولاح بها في

وجه الحارس، فنظر إليها الحارس وتلفت حوله ليتأكد من أنه بعيد عم مجال رؤية زملائه، فأمره أن يضعها أرضاً.. وما إن وضعها عصام حتى التفت الحارس إلى زملائه يطمئنهم بأن الزوار هم عمه وأقرباؤه، واقترب من عصام أن يعطيه الحزمة الرزمة، فمد عصام يده بحذر وناوله إياها بطريقة تظهر لمن يراقبهما أنهما يتصافحان، خاصة أن الظلام الدامس يخيم على المكان، أخذ الحارس الرزمة ودسَّها بسرعة في فتحة بين أزرار قميصه، وسأله: كيف يمكنني أن أخدمكم..؟؟

فأجاب عصام وهو يستجمع قواه وشجاعته..

– إن ابنة صديقي هذا زهراء، موقوفة لديكم وكم نتمنى لو نستطيع أخذها للبيت، فهي الابنة الوحيدة، ووالداها يعانيان من أمراض مزمنة زادت شدتها منذ احتجازها لديكم، وأنت تعلم يا بني كم هو صعب وشاق على الوالدين أن تسجن ابنتهم لا لشيء سوى لتقرير كيدي من إحدى زميلاتها المدرسات.. وأؤكد لك أنها لم ولا يمكن أن تفعل أي شيء مؤذٍ.. ولكن غيرة الزميلات أوقعتها في هذه الورطة.. وأراك تتفهم الأمر جيداً..

فقال الحارس وقد اطمأنَّ للمحدِّث: ولكنك تحتاج لمبالغ كبيرة لتحقيق ذلك، فالضابط المساعد الموجود في الزنزانات طمَّاع كبير.. وسأذهب وأسأله وإذا وافق فعليكم إحضار أكثر مما أعطيتمونيه. ونظر إلى عصام ليرى ردة فعله.

فقال عصام: حسناً.. لا أرى مشكلة في ذلك.. وإن معنا ما تطلبانه كلاكما، ولكن هل لي أن أطلب منك أن تقنع المساعد بعرضنا هذا.

– من المؤكد سوف أفعل.. ماذا قلت اسم الفتاة..؟؟

– زهراء قدسي..

– سأذهب فوراً.. وأريدكم أن تقفوا على حافة الرصيف، وابتعدوا ما أمكنكم عن باقي الحراس ولا تكلموهم أو تقتربوا منهم وإلا فستفسدون الصفقة.. مفهوم.؟؟

– حتماً.. لقد فهمنا.. سوف نتبع تعليماتك حرفياً..

وقف الرجال الثلاثة على حافة الرصيف.. واستدار الحارس ودخل البناء، كانت الساعة حوالي الثامنة مساءً، واعترى مصطفى الخوف مما جعله عصبي المزاج، ويتصبب عرقاً رغم برودة الطقس، وهو يتصور أسوأ الاحتمالات، وأعجب واستغرب من شجاعة وتفاني صديقه عصام وكيفية إقناعه الحارس..

فسأله عدنان عما إذا كان يعاني من أية أزمة مرضية.. فنفى ذلك مع أن وجهه ينبئ عن قلق يكاد يقتله، وأبدى امتنانه وإعجابه لعصام على ما قام به، فرد عصام ممازحاً لا بد وأن يتعلم الرجل بعض الأمور ويكتسب بعض الخبرات من خلال خدمته في الجيش تلك السنين الطويلة..

مضى على انتظار الرجال الثلاثة وسائق التكسي الملحاح ساعتين ونصف، حتى كادت أقدامهم تتخدر من البرودة والوقوف الطويل، ولا يزالون يأملون في إجابة من الحارس. وطفق السائق يحدثهم عن بعض تجاربه مع رجالات النظام، ومع أنهم لم يكونوا مهتمين لما يقول، غير أنهم سايروه بلباقة لكي لا يتركهم وينصرف، ومع هذا الانتظار الطويل ألمح مصطفى إلى احتمال أن يكون الحارس قد نسيهم أو أخذ المبلغ واختفى من باب آخر للبناء.. فأكد له عصام بأنه لا يمكن أن ينساهم ولا سيما وأنه قد ذاق طعم المال ووُعِد بما هو أكثر.. وأنه ولا بد وأن يعقد الصفقة مع رئيسه ويحاول إقناعه.. فقال مصطفى والشك يغمره:

– ربما لا يريد الخروج إلا بعد أن يتأكد من مغادرتنا المكان.

– بالله عليك يا أبا عدنان فكر بشكل إيجابي.. ولا تقلق..

فهمهم مصطفى دون أن يقتنع..

تم تغيير الحراس مرتين خلال فترة الانتظار، ولاحظ الرجال الثلاثة والسائق معهم بعض التحركات العادية أمام البناء، وسمعوا الحراس يتضاحكون وأصوات الراديو لا زالت تصدح بالأغاني إلا من بعض الأخبار القصيرة وتقرير عن الأحوال الجوية..

وأخيراً.، ظهر الحارس الموثوق في مدخل البناء، وتلفت حوله بحذر واتجه إليهم بخطىً حذرة وكلمهم بصوت خافت:

– لقد كانت عملية إقناعه عسيرة جداً.. غير أنه وافق الآن على الصفقة.. إنه يطلب مليون ليرة سورية، ويفضل أن يكون المبلغ بالدولار..

فقال عصام بلهجة أبوية:

– ولكن يا ابني انت تعلم الظروف المادية في سوريا الآن.. وليس لدينا مليوني ليرة.. ويمكننا أن نعطيه مليون ليرة نقداً.. وأن تحتفظ بالمصوغات كلها لك، والتي لا بد أنها تساوي مليون ليرة أو أكثر.. وهذا كل ما أمكن لأسرتين جمعه طيلة عمرهم، وأراك بحاجة إلى هذا المبلغ لسداد ديونك وتدبر أمورك المادية، ولا بد وأنك ستتزوج يوماً ما وستحتاج إلى ما تطلبه العروس وأهلها..

– لا أعتقد أنه سيقبل بذلك.. ولكن دعني أرى المجوهرات..

فتح عدنان المحفظة، ومد الحارس يده ليتفحص محتوياتها وكأنه خبير بالمجوهرات، وليتأكد أن حصته من الرشوة تستأهل هذا العناء.

سأله مصطفى بلهفة: بالله عليك قل لي.. هل ابنتي بخير..؟؟ فأجابه:

– لا أدري شيئاً عنها. ولم أرها.. غير أن المساعد يعرفها جيداً.. عليَّ أن أعود للداخل فهو ينتظرني.... وهرع إلى داخل البناء.

وقف الرجال الأربعة ينتظرون بصبر وقلق، والبرد يلفُّهم حتى تكاد أصابعهم تتجمد.. ولم يطل الانتظار هذه المرة حيث خرج الحارس من المبنى واتجه إليهم يبشرهم

بموافقة المساعد على الصفقة شريطة أن تتم بعد منتصف الليل، حوالي الساعة واحدة أو الثانية فجراً، وسوف ننفذ الخطة من الباب الخلفي، فسأله عصام مستفسراً على عجل: وأين الباب الخلفي..؟؟ فأجابه الحارس بسرعة:

– اذهب إلى آخر الشارع ثم التف حول البناية وادخل البوابة الضيقة من الطرف الآخر للشارع، وانتظرني ريثما أستلم نوبة الحراسة على ذلك الباب، أحضروا التكسي معكم، وتأكدوا من إحضار المبلغ والمجوهرات معكم وإلا فسيغضب المساعد، ولا أراكم تودون إغضابه.... فسأله عصام:

– وكيف لنا أن نعرف أنك استلمت نوبة الحراسة..؟؟

– سوف أشعل الضوء وأطفئه مرتين عند الباب الخلفي.. ثم أخرج.. وعليكم أن تكونوا جاهزين.. هل هذا واضح؟؟ وتفحص وجوههم ليتأكد من أنهم فهموا الخطة جيداً، وهزَّ رأسه واستدار ودخل ليدخل البناية..

شعر عدنان ومصطفى ببعض الارتباك من المخطط، غير أن عصام شرع يطمئنهم بأن الأمل كبير الآن.. وعليهم الصبر والصلاة، والطلب إلى الله بالمساعدة، واتباع تعليمات الحارس حرفياً.. فأجابا: إن شاء الله..

رجع الثلاثة إلى حيث ينتظرهم سائق التكسي، ودار بهم السائق إلى الطرف الآخر من الشارع، فشاهدا البوابة الضيقة بين البنايتين، ولم يكن يقف أي حارس على الحاجز، وتوقف السائق بسيارته عند البوابة خلف البناية المشؤومة.. وشاهدا الباب يعلوه ضوء خافت، وإلى جانبه ضوء آخر غير مضاء تماماً كما وصفه لهم الحارس.. وشاهدا كاميرات مراقبة على الزوايا الأربع للشارع، غير أنها كانت ساكنة ولا تتحرك، أوقف السائق سيارته وأوقف المحرك حسب طلب عدنان، وحملق الجميع في الباب والضوء الذي فوقه في ترقب وحذر....

جلس عدنان إلى جانب سائق التكسي الذي بدا متعباً من طول الانتظار.. وخلفهما جلس كلاً من مصطفى وعصام يتحدثان ليمررا وقت الانتظار المخيف، ولكي يشغلوا أنفسهم عن هذه الصفقة الخطيرة والتي يدركون خطورتها غير أنها الأمل الوحيد، وبينما هم كذلك سمعا شخير السائق يغط في نوم عميق، فوكزه عدنان ليوقظه ويبقيه في حالة تأهب.

وحوالي الساعة الثانية فجراً أشعل الضوء فوق الباب مرتين.. فأمر عدنان السائق أن يتحرك باتجاه الباب، وطلب إلى والده أن يهيئ المال والمجوهرات، فلم يكن أي منهم مستعداً لإضاعة أي لحظة من الوقت، فقام بمساعدة عصام بفرز الرشوة.. وشاهدا الباب يفتح ويخرج منه الحارس، وأشار لهم بالاقتراب وعاد إلى الداخل تاركاً الباب مفتوحاً وراءه وعاد بعد ثوان، ومعه الفتاة مغطاة ترتكز على كتفه، وتعثرت في خطواتها مما جعله يساعدها على النهوض.. قفز عدنان من السيارة ليساعد أخته على السير ودخول السيارة، بينما مان الحارس يترنح تحت ذلك العبء الذي يحمله، حملها عدنان وحملق في وجهها المليء بالكدمات وآثار التعذيب حتى كاد أن لا يعرف أخته، أعطى مصطفى الحقيبة لعصام وسلمها للحارس شاكراً إياه وواصفاً له بملاك الرحمة. وقال هذه هدية لك وللمساعد، وأنا واثق من أن الله لن يضيع أجر عملكم هذا...

فشكره الحارس وقال له أرجوك أن تخرجها من حلب، إذ لابد لهم أن يبحثوا عنها فور اكتشافهم اختفاءها.. وأضاف: هل لديكم مكان في التكسي..؟؟ فسأله عصام عن قصده.. فقال: علي أن أنشق عن هذا الجيش بعد هذه العملية.. فسيتم قتلي رمياً بالرصاص غداً صباحاً حالما يكتشفوا فعلتي التي فعلت.. فقد كان علي أن أقتل المساعد الذي رفض الصفقة.. وكذلك قتلت الحارسين الآخرين.. فقال عدنان: أسرع بالدخول واحشر نفسك إلى جانبي.. وجلس عصام ومصطفى وزهراء في الخلف.. فسأل عدنان عن وجهتهم وكاد أن يسحق بوزن وحجم الحارس إلى جانبه، الذي أعاد الحقيبة قائلاً لهم: إليكم هداياكم التي لن أحتاجها فأنا سوف ألتحق بالجيش الحر.. وأسأل الله أن يحمينا جميعاً.. صعق الصديقان لهذا الموقف من الحارس، وقال عصام: «لا يزال الخير في

هذه الأمة.. ولا يزال هناك أناس يؤثرون الحق على الباطل، وأسأل الله أن يبارك فيك لما أقدمت عليه من عمل شجاع وجريء..».

وما إن وصلت السيارة إلى باب البناية حيث منزل مصطفى حتى نزل منها عدنان بسرعة خاطفة لإحضار السيدتين ومعهما وليد، وما إن شاهدت لمى ابنتها حتى صرخت بشكل هستيري..: حبيبتي زهراء.. هل أنت بخير..؟؟ ما فعل بك هؤلاء المجرمون.؟؟..

نزل الحارس من السيارة موجهاً بندقيته إلى السائق وأمره بالنزول.. فوقف بجانب سيارته بقامته المديدة أمام الحارس، وسأله: هأنذا.. ماذا تريد..؟؟ فنظر الحارس إلى وجوه الرجال الثلاثة وقال: لا بد وأن هذا السائق سوف يبلغ النظام عما حدث اليوم.. ماذا تريدون أن نفعل به..؟؟ فأجاب السائق بكل ثقة وطمأنينة:

– لا تقلق مني أو عليَّ يا بطل.. فأنا إلى جانبكم.. وابن عمي جمال عضو في الجيش الحر.. إن كنت سوف تتوجه إلى حمص فسوف تتعرف عليه.. إنه بطل مثلك تماماً، والله تعالى أسأل أن يبارك فيكم ويحميكم..!!

أخفض الحارس بندقيته وترقرقت دمعته في عينيه.. وتعانق الرجلان.. فتابع السائق قائلاً: لقد أمضيت أربعة عشر عاماً في سجن تدمر المشؤوم بتهمة غاشمة، بأنني عضو في الإخوان المسلمين، وكنت حينها لا زلت شاباً يافعاً ولم أكن أدري ما تعني كلمة الإخوان المسلمين.. فأنا ضحية كما هو باقي الشعب السوري....

أخذ مصطفى مبلغ مئة ألف ليرة وأعطاها للحارس وقال: لا بد وأنك بحاجة إلى بعض المال لتصل إلى حيث ت ريد الوصول إليه.... فأعاد الحارس المبلغ بدعوى أنه ليس بحاجة إليه.. فأصر مصطفى ودسَّ المبلغ في جيب الحارس وقال: لا يمكن لنا أن نشكرك بما يكفي لما فعلت هذه الليلة.... نظر الحارس إليهم جميعاً نظرة استحياء وخجل.. فقال عدنان: علينا التحرك فوراً..

فسأله السائق: إلى أين..؟؟ فأجاب عدنان: إلى سراقب.... فاعترض السائق بلطف قائلاً: ولكن السيارة لا تسعنا جميعاً وأرى أن عليَّ أن أتصل بأخي ليحضر السيارة الأكبر (الفان)، فأجاب عدنان: لا وقت لدينا.. علينا إخراج النسوة إلى مكان آمن.. والتفت إلى الحارس وسأله عن اسمه.. ودعاه «يا أخي..».

فأجاب الحارس: هاني.. فقال: حسناً يا هاني.. ابق أنت في التكسي مع السيدات وسيذهب وليد معكم.. أين تريد أن تذهب..؟؟ فأجاب:

إنني من إدلب.. وسأنزل قبل سراقب بمسافة قليلة وهناك سألتقي بإخواني أفراد الجيش الحر.. فقد قمت ببعض الاتصالات مساء الليلة، وحددت زمان ومكان اللقاء..

– عظيم.. وأنت ما اسمك يا أخي..؟؟

– عبد الرزاق.... أجاب السائق..

– هل لديك هاتفاً جوالاً للاتصال بأخيك ليحضر السيارة الكبيرة فسوف ننتظره هنا.. وأنت عليك أن تتوجه إلى صلنفة بعد أن توصل هاني إلى المكان الذي يقصده.. وأعطاه مبلغ /٢٥٠٠٠/ ل.س لقاء أتعابه، وورقة عليها عنوان المنزل في صلنفة.. وأخذ عبد الرزاق الورقة وأعاد المبلغ رافضاً، واعتبر ما يقوم به واجب يمليه عليه ضميره وشرفه وأخلاقه..

فأصر عدنان على إعطائه المبلغ بحجة شراء البنزين الباهظ الثمن للسيارة.. فأخذ المبلغ على استحياء وشكره داعياً له بالسلامة. وقام بالاتصال بأخيه وأكد لعدنان أنه سوف يصل بعد فترة قصيرة.. غادرت السيارة التكسي مسرعة وكل من مصطفى وعصام وعدنان ووليد بانتظار السيارة (الفان..)..

جلست زهراء في المقعد الخلفي بين والدتها وعبير، وكانت الملاءة التي تلفها ملوثة بدرجة كبيرة وتصدر عنها رائحة مزيج من المجاري والبول وكل ما هو مقزز، مما يدل بوضوح على ما عانته هذه المسكينة خلال تلك الأيام.. وكانت عارية تماماً تحت هذه

الملاءة القذرة، وظهر على فخذيها بقع الدم الجافة وجروح عميقة، وعدة حروق من أعقاب السجائر على ثدييها، وأما عينها اليسرى فكانت متورمة حتى لتكاد تخرج من مكانها.. وأنفها كان مكسوراً، وفمها محاط بكدمات زرقاء تحيط بشفتيها المتورمتين وبدت كمن يحتضر....

استمرت والدتها بالبكاء والنحيب، وتردد: ماذا فعلوا بك يا حبيبتي.. كيف لهؤلاء المجرمين أن يفعلوا ذلك بآدمي أو حتى بحيوان.. وحاول كل من عبير وعبد الرزاق طمأنتها، وأنها لا بد وأن تعرض على طبيب لتضميد جروحها واستعادة عافيتها.. وصلت السيارة إلى مشارف سراقب حيث نزل هاني بعد أن شكره الجميع على حسن صنيعه، واختفى في عتمة الليل.. وتابع عبد الرزاق السير لمدة ساعتين ونصف متحاشياً الحواجز الأمنية المنتشرة بكثرة على الطريق.. كان خلالها يدردش مع السيدتان خلفه واللتان لم تكونا مهتمتان بما يقول، غير أنهما كانتا تردان عليه باقتضاب لمجرد مسايرته في الحديث..

وفي أحد المنعطفات قال عبد الرزاق: إلى الشمال من هذا المكان يقع جبل الزاوية الذي حرره الجيش الحر من عساكر النظام، ولا يزالون يقاتلون بشجاعة منقطة النظير ضدهم، وأسأل الله لهم الصبر والنصر..

وسألته عبير عن ابن عمه عضو الجيش الحر في حمص.. فأجابها: نعم.. إنه هناك.. وقد بلغني أنه ترقى إلى رتبة نقيب.... وتابع مفتخراً بابن عمه: إنه شاب قوي وشجاع ولا يهاب إلا الله.... فتساءلت عبير عما إذا كان يعرف ابنها أحمد ولم تكن متأكدة من وجوده هناك في حمص..

– من المحتمل أن يعرفا بعضهما.. وبلغني أن الجيش الحر يزداد عدده بشكل كبير يومياً لتزايد أعداد المنشقين عن الجيش النظامي..

– وهل ابن عمك جمال رجل ضخم..؟؟

– ليس ضخماً بالمعنى المطلق.. وإنما طويل وذو عضلات وعريض المنكبين..

- أعتقد أنني لمحته حينما كلمنا أحمد على السكايب، وطلبت إليه أن يعتني بأحمد الذي لم يعتد الحياة العسكرية الشاقة.. وأعتقد أن اسمه كان جمالاً.. وكان واثق الكلام وطمأنني عن أحمد..

- ربما.... إنه عالم صغير.. وكأني بك تصفين ابن عمي جمال.. فهو يؤثر الآخرين على نفسه.. إنه كما يقول المثل (ملح على الأرض..).

وصلت السيارة إلى صلنفة ووقفت أمام باب الفيلا حسب العنوان المذكور في الورقة، فتح عبد الرزاق البوابة الحديدية ودخل بالسيارة إلى أن وقف أمام الباب، حيث نزلت عبير وفتحت بالمفتاح الذي كان بحوزتها.. ساعدهم عبد الرزاق بحمل بعض الحقائب، ثم ساعدهم بحمل زهراء إلى داخل الفيلا.. وبعد لحظات وصلت السيارة (الفان) ونزل منها مصطفى وعصام ووليد وعدنان، حيث تحلّقوا حول زهراء المستلقية على إحدى الأرائك.. وغادر عصام وعبد الرزاق لإحضار الطبيب، وغادرت السيارة (الفان) فور إيصال الرجال..

كان عصام يعرف طبيباً من حلب تقاعد حديثاً ونقل سكنه إلى صلنفة، وكان قد زاره من فترة في مكان إقامته بعد التقاعد..

تقع صلنفة (المنتجع الصيفي لأثرياء اللاذقية وحلب) على السفح الغربي لجبال النصيرية، وتبعد حوالي /٥٠ كم/ عن الساحل، وتشرف على المنحدر الذي يودي إلى اللاذقية والبحر الأبيض المتوسط، مما يجعل المنظر هناك أخّاذاً لاكتظاظ الأشجار دائمة الخضرة وبعض أشجار الفواكه في بعض البساتين المحيطة بالفيلات.. ولا تبعد عن الحدود التركية إلى الشمال إلا بضعة كيلو مترات قليلة بعد قرية (كفريا) مروراً بسلمى وهي امتداد طبيعي لسلسة جبال طوروس التركية التي تفصل الساحل التركي عن هضبة الأناضول إلى الشرق.. وترتفع مدينة صلنفة /١١٠٠/ متر عن سطح البحر، مما يجعل فصل الصيف فيها منعشاً بنسيم البحر الذي يهبُّ من الغرب.. أما في الشتاء فبردها قارس، وخاصة ليلاً حيث تبلغ درجات الحرارة تحت الصفر.. وتذكر الأساطير أن من يستطيع التسلق

حتى يبلغ ذروة الجبل (١٣٠٠ متر) فسيحظى ببركات النبي يونس الذي يذكر العهد القديم أنه أحد أنبياء بني إسرائيل والذي عاش قبل الميلاد بثمانمائة عام. وهو الشخص الرئيس في سفر يونس، وورد اسمه في العهد القديم وتكرر ذلك في القرآن الكريم، أنه ابتلعه الحوت ثم لفظه على الشاطئ..

وقف عصام على باب أحد البيوت جنوبي صلنفة وقرع الباب بلطف شديد احتراماً للبيت وساكنيه في هذه الساعة المبكرة من الصباح، فتح الباب رجل في العقد السابع من العمر يلبس البيجاما ويتغطى بمعطف، نظر للرجل الواقف على الباب فلم يتذكره للوهلة الأولى، ثم فاجأه خطابه مازحاً بعد أن عرفه:

– أهلاً بك أبو أحمد.. ما الذي جاء بك بعد طول الغياب وبُعد الشقة.. هربت منكم لكي أنعم بأيام التقاعد والكسل وها أنتم تلاحقونني.. ودعاه للدخول... فاعتذر عصام بشدة لإزعاجه باكراً في منتجعه ومخبئه، ولكن (صاحب الحاجة أرعن) كما يقول المثل، وهو بحاجة ماسة وملحَّة لخدمات صديقه القديم..

دخل الطبيب ليحضر حقيبته وما تحويه من بقايا ممارسته للطب، وغيَّر ملابسه على عجل ثم ركب التاكسي وانطلق عبد الرزاق بهما باتجاه البيت.. وشرح عصام لصديقه الطبيب وضع زهراء وخطورة إصاباتها.. وصلا الفيلا ودخل الطبيب ليرى زهراء مستلقية يحيط بها والداها وأخواها وعبير يخففون عنها الآلام ويدثرونها بما لديهم من الأغطية.. طلب الطبيب خروج الجميع إلا لمى التي أصرت على البقاء إلى جانب ابنتها، بدأ الطبيب بفحص زهراء فحصاً متأنياً ودقيقاً، بينما وقف الرجال خارج الغرفة ينتظرون بقلق، وفي ذات الوقت ذهب عدنان إلى المطبخ وأعدَّ الشاي للجميع..

استغرق الطبيب ساعة ونصف في فحص وعلاج بعض الجروح والحروق المتناثرة في جسد زهراء، ووضع جبيرة على ساعدها الأيسر، وأعطاها حقنة مسكِّنة علَّها تنام لفترة تستعيد فيها بعض قوتها.. جمع حاجياته واتجه إلى غرفة الجلوس حيث الجميع بانتظاره، فوقف الجميع احتراماً له، وهرع إليه مصطفى وقدم له نفسه أنه أبو زهراء وسأله عن

حالتها.. فاعتذر عصام لعدم تعريفهم ببعض، وقدَّم الدكتور مجيب ملَّاح كصديق منذ الطفولة لعصام، صافح الطبيب مصطفى ولمى وصمت برهة في محاولة لانتقاء كلماته بعناية، وقال:

- سيكون كل شيء على ما يرام، لست متأكداً من الفترة التي تعرضت لهذه الرضوض، غير أنني متأكد تماماً من أنها عذبت بشكل وحشي وقذر من هؤلاء المتوحشين، ولم أجد ولله الحمد أية إصابة أو نزيف داخلي، ويبدو أن ساقها الأيمن قد تم سحقه بجسم ثقيل، لعله مطرقة، ولا أدري مدى إصابتها العظمية مما يضطرنا إلى إجراء صورة شعاعية والتي بالإمكان تدبيرها من قبل طبيب أشعة هنا في المدينة، كما أن ذراعها مكسور مع بعض الجروح المتنوعة هنا وهناك.. إضافة لبعض الحروق في أنحاء متفرقة من جسمها.. وصمت قليلاً ليعطيهم المزيد من الأخبار السيئة فقال: كما وجدت لديها بعض الالتهابات المهبلية ووضعت لها بعض العقاقير.. وهذه الالتهابات ناجمة عن جروح وقذارات سببها الاعتداء الجنسي العنيف.. وعلى كل هذا وبالرغم من كل ما ذكرت فستشفى بإذن الله بفضل رعايتكم وعنايتكم بها.. ومع ذلك فأنا أقترح أن تنقلوها بالسرعة الممكنة إلى تركيا حالما تستطيع الحركة، وأتوقع ذلك بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع..

كانت الأخبار التي تلفظ بها الطبيب مزعجة وصاعقة بالنسبة للأسرتين الذين أصغوا لكل حرف قاله الطبيب، أرعد عدنان وأزبد وتوعد بالانتقام، غير أن والده هدأه، وسمعت لمى ما قيل فانفجرت ببكاء هستيري.

تابع الطبيب قائلاً: سوف أزوركم يومياً للاطمئنان على حالتها وسوف أرسل لكم ممرضة جيدة جداً لتضميد جراحها، وهي موثوقة جداً ولن تبوح بأي كلمة لأيٍّ كان.. بالإضافة إلى أنها من مدينة حلب.. أما بالنسبة للطعام فلا بأس من البدء ببعض الحساء على أن لا تجبروها، وأرى أن صلنفة مكان ممتاز للاستشفاء.. وسوف أطلب لها بعض الفحوصات الدموية حالما أثق بالمخبر والفني الذي يعمل فيه بعد يوم أو يومين..

غادر الطبيب بسيارة عبد الرزاق التي عاد بها إلى الفيلا قبل أن يغادر صلنفة إلى حلب، وعرض عليهم خدماته في أي شيء يطلبونه ووعدهم بالعودة للاطمئنان عليهم كلما سنحت له الفرصة.. تبادل الجميع أرقام الهواتف لسهولة التواصل فقد جمعتهم المصيبة الكبرى في بلد تحكمه عصابة شرسة لا إنسانية متوحشة..

تغير عالم زهراء كلياً خلال هذه الأيام الأربعة في جحيم المخابرات الجوية بحلب، وتركت فيها بصمات وندبات دائمة جسمية ونفسية، وحتى لو التأمت جروح جسمها فأنَّى لها أن تمحو تلك الصدمات اللاإنسانية على جسمها وكرامتها ونفسيتها.

لقد دفعت زهراء ثمناً باهظاً جداً فقط لكونها نبيلة وحرة التفكير، وقد لا يدرك الآخرون معنى أن تكون حراً في انتقاء خياراتك، وهذا الثمن سوف يغير حياة أسرتها في المستقبل ولأجيال قادمة.. وقد صمدت خلال تلك الأيام الأربعة، ورغم كل ما تعرضت له، وأبت أن تتنازل عن حقها وحق الشعب السوري عامة في الحرية.. لقد حاول الجلادون مراراً وتكراراً إجبارها أو إقناعها بالتوقيع على وثيقة تعترف بها أنها إرهابية وأنها تتلقى الدعم المادي من دول خارجية معادية لسوريا لتقوض دعائم النظام والدولة فلم تستكن لسياطهم وصدمات الكهرباء واعتدائهم الجنسي عليها، ورفضت أن تعطيهم متعة الحصول على اعتراف كاذب أخذ بالقوة، وأثناء وبعد كل حفلة جلد وتعذيب «الله أكبر.. تحيا سوريا حرة من الاستبداد الأسدي المجرم..»، وكررت ذلك مرات ومرات، وكلما كررتها زادت شدة العقاب ووحشية التعذيب، مما جعلها تصيح بصوت أعلى ثم أعلى كي تسمع كل المساجين الذين كانوا يرددون خلفها نفس النداء، وكانت مقتنعة بأنها لن تغادر هذا المكان المشؤوم حية.. لذا.. فعليها أن تنفس عما اعتمل فيها من غضب تجاه ظلم النظام وجلاوزته وزبانيته..

وبالرغم من الثمن الباهظ الذي دفعته زهراء لإيمانها بالحرية فقد كثيرون غيرها حياتهم ثمناً لمعتقداتهم، فسجناء الرأي يعدون في سوري بعشرات الآلاف، وكثيرون فقدوا حياتهم في سجون هذا النظام المجرم، وستبقى آثار هذا النضال في سبيل الحرية راسخة في ذاكرة الوطن والمواطنين سنين عديدة لا يعلمها إلا الله.. ومن الصعب أن يتصور أحد ما

أن يقتل الناس في القرن الواحد والعشرين لمجرد رغبتهم في التعبير عن رأيهم، وكأن نظام العبودية الذي كان سائداً قد أخذ شكلاً جديداً باستعباد والمفكرين والمثقفين لخدمة الأنظمة الدكتاتورية الفاشية والسيطرة على جموع الناس.. ومن الملاحظ أن دماء المواطنين غدت وقوداً تغذي جذوة الثورة منذ بدئها في آذار ٢٠١١م، فكلما أوغل النظام في وحشيته وشراسته ازداد عدد المنضوين تحت راية الثورة، وكلما ازداد حماس المتظاهرين وازدادت جرأتهم في مواجهة رصاص وقذائف النظام، وبالمقابل ازداد عدد العناصر الشريفة المنشقة عن الجيش من ضباط وصف ضباط وجنود، وأخذ الجيش الحر على عاتق حماية المواطنين العزل من هجمات النظام الوحشية على المدن والقرى، وشن هجمات انتقامية على مناطق تواجد الجيش النظامي وإيقاع خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، ما أجبر النظام على البدء بعد ضحاياه، وتزايدت شعبية الجيش الحر وتعداده بعدما أخذت الثورة منحى آخر، فبعد أن خذلهم مجلس الأمن ومجلس جامعة الدول العربية قررت قيادته أخذ زمام الحسم بأيديهم دون الاعتماد على أو انتظار الحلول الخارجية، فالدول الغربية لا تحرك ساكناً حيال تلك المذابح اليومية وانزلاق سوريا إلى حرب أهلية شاملة، رغم عدم اعتراف بعض الدول بأن ما يجري في سوريا هو حرب أهلية بكل معنى الكلمة..

بدأت زهراء تستعيد بعض عافيتها تدريجياً، فقد بدأت الجروح الجسدية بالاندمال أما جروحها النفسية فستستغرق وقت أطول للاندمال فيما إذا اندملت... وكان الدكتور مجيب يزورها يومياً للاطمئنان على تطور حالتها، إضافة إلى الممرضة التي كانت تزورها يومياً لتضميد جراحها والكشف على ساقها وذراعها.. وبعد أن أجرى لها صوراً شعاعية أرسلها إلى زميل له يتمتع بثقة لأخذ رأيه في الكسور، وما إن جاءه جواب الاستشارة حتى سارع بوضع جبيرة جبسية على ساقها وصلت إلى ما فوق الركبة، وجبيرة أخرى على ذراعها لمنعها من التحرك، فكانت تتحرك وتنتقل بمساعدة أفراد الأسرة إلى أن أصبحت قادرة على استعمال العكاز، وأكثر ما كان يزعج أهلها هو صمتها المطبق عن الكلام.. والتحديق في الأفق بشكل دائم.. ولما سألوا الطبيب عن وضعها طمأنهم بأن معظم من يتعرضون إلى هذا النوع من الرض النفسي والجسدي يلجؤون إلى هذه الآلية الدفاعية بعدم التكلم مع أحد حتى مع أقرب الناس، وذلك كي لا تتذكر أي من الأحداث التي

مرت بها مما شوَّه خُلُقها وخَلَقها، وكانت ترمق البحر الأزرق الصافي من خلال أغصان ووريقات الشجر عندما كانت تجلس في الشرفة، وحدَّقت في السماء الصافية إلا من بعض الغيوم، رافعة رجلها والجهاز الجبسي على كرسي، وتحجب عيناها بنظارة سوداء وترخي رأسها إلى الوراء.. جلست والدتها إلى جانبها تقرأ القرآن بخشوع بادٍ على وجهها، وجلس والدها مصطفى يتسلى بقراءة كتاب ما في يده، وانتابها شعور بالأمان والاطمئنان في كنف والديها، بعد أن كانت لأيام مضت مرتعاً لوحشية هؤلاء الأوغاد، فهي الآن في أحضان والديها وحمايتهم. ومع ذلك لم تغادر مخيلتها ذكريات تلك الأيام الاربعة، وكانت تعاودها الكوابيس متتالية حتى غدت مدمنة على تذكر الماضي القريب، لدرجة أنها كثيراً ما كانت تنتفض من منامها لتصرخ دفاعاً عن نفسها أمام ذلك الوحش ذي القميص الأصفر والآخران اللذان أذاقاها الويل من سياطهما وصعقاتهما الكهربائية.. وكثيراً ما كانت ترتجف وتردد بعض الكلمات غير المفهومة إلا بعد فترة، إذ تبين لهم أنها تردد «الله أكبر.. عاشت سوريا حرة من الأسد المستبد وزبانيته وأزلامه..» وكانت لا زالت ترفض أن تقبل بواقع الحال بأن عذريتها وشرفها قد دُنِّسا من قبل هؤلاء الأوغاد، ولكن كيف لها أن تقاوم وتدافع عن شرفها وهي مقيدة اليدين والرجلين ومربوطة إلى زوايا الطاولة الأربع، فكانت تحاول مسح هذه الذكريات من عقلها الباطن وإقناع نفسها بأن هذا الأمر لم يحدث إطلاقاً، فلم تعد تفكر في أحمد، إذ أن فقدها عذريتها قد يبعد أحمد عنها إلى الأبد وينهي علاقته بها، وإذا شعر بأنها دونه وغير أهل لتكون زوجته فقد يفسخ الخطوبة.. والغريب في الأمر أن والدا زهرا كانا يفكران بنفس العقلية، وبحثا الموضوع مع والدي أحمد اللذان رفضا مناقشة الفكرة نهائياً..

وبعد ثلاثة أيام قرر عصام وزوجته عبير ووليد العودة إلى منزلهم في حلب التي ما إن وصلوها حتى تم توقيف عصام، واحتجز ليلة واحدة لدى جهاز الأمن للتحقيق معه وأطلق سراحه في الصباح بعد أن سُئل عن مصير ابنه أحمد، ولم يرد أي ذكر لزهراء خلال الاستجواب، مما يعني أن الأجهزة الأمنية لا تملك آلية موحدة للتقصي والتحقيق.. وتقاربت الأسرتان بشكل كبير بعد هذه المأساة التي حلت بزهراء، ومر أسبوعان على هرب زهراء دون أن يسمعوا شيئاً عن أحمد أو عنه، وترددت شائعات عن قيام رجال

الجيش الحر بعمليات نوعية ضد عناصر النظام الذين أُخذوا على حين غرة في أنحاء متفرقة من البلاد، وكانت النتائج إيجابية ومشرفة، مما رفع معنويات المقاتلين وحاضنتهم الشعبية، بينما كان مجلس جامعة الدول العربية لا زال يبحث في حل تفاوضي، مما أعطى نظام الأسد فرصة بعد أخرى في الإيغال في القتل والتشريد والتخريب والدمار، وكذلك كان النظام الروسي داعماً للنظام بشكل غير محدود عسكرياً ومادياً وعن طريق الخبراء الذين قدموا إلى سوريا للإشراف على سير العمليات لإجهاض الثورة.. وكانت الم ظاهرات تخرج يومياً تحمل لافتات كبيرة تطالب الغرب بفرض منطقة حظر طيران سوري، فتم تجاهل كل نداءات الاستغاثة، وأضيف إلى ذلك استعمال حق النقض في مجلس الأمن لإجهاض أي قرار يدين النظام وعنفه وشناعته..

مدينة حمص - حي بابا عمرو

وضع الجيش السوري الحر للتحرك للأمام

جلس جمال خلف مكتبه المتواضع يتفحص خريطة لمدينة حمص في ما يمكن تسميته غرفة عمليات الكتيبة، التي هي غرفة من مدرسة اليعربية التي تحولت إلى مركز القيادة في بابا عمرو، وجلس أمامه كلاً من علي الذي لا يزال يتعافى من جراحه، ومقاتلان آخران يتناولون طعام الفطور (بيضة مسلوقة وبعض كسرات الخبز مع الشاي) إضافة إلى بعض الشباب الذين يراقبون المكان من النوافذ وقد ركنوا أسلحتهم على الحائط في حالة تأهب، دخل أحمد على الغرفة وسلم على من بداخلها وخاصة جمال قائلاً:

- صباح الخير جمال باشا.. وشفع السلام بابتسامة كبيرة.

- صباح الخير أحمد.. كيف كان مشوارك إلى هنا..؟؟

- ليس بدرجة سوء مشوار البارحة.. سمعنا بعض طلقات القناصة دون أن نتمكن من تحديد المصدر..

- لقد تخلصنا من ثلاثة قناصة البارحة بعد الظهر، ويبدو أنه قد تم تعويضهم.. وهذا هو المتوقع من النظام المتوحش، وأنا واثق من أن شبابنا سوف يمارسون التسديد عليهم هذا اليوم.. أخبرني أحمد كيف الأوضاع مع الرائد

— على ما يرام.. إنه رجل ثروة للمجاهدين، ومنذ أن زودنا بأجهزة اللاسلكي (الثريا) بات بإمكانه الاتصال والتنسيق معك ومع باقي كتائب المجاهدين.

- نعم.. هذا هو الواقع.. ونحن ممتنين لإخوتنا وإخواننا المغتربين الذين موَّلوا صفقة الأجهزة اللاسلكية.... التفت أحمد إلى علي قائلاً:

-كيف حالك يا أخي علي..؟؟ فرد مبتسماً:

– أنا بخير.. ولله الحمد.. شكراً.. لقد بات عندي مكان مريح أنام فيه هنا..

– لقد أحضرت لكم بعض المؤونة وبعض الذخيرة أيضاً، وهذه رسالة من الرائد إليك يا جمال..

أخذ جمال الورقة وقرأ محتواها: «الليلة الساعة /٢١,٠٠/ علينا أن نحضر لمهمة إنقاذ بعض المدنيين من مشفى الحياة، فمجرمو النظام يعذبون الجرحى هناك، وقد قتلوا ثلاثة منهم حتى الآن ورموا جثثهم في الشارع.. أنقذ أكبر عدد ممكن منهم..» رفع جمال رأسه وسأل الشباب عمن يمكنه تحددي موقع مشفى الحياة. فأجابه أحدهم:

– إنه في ملتقى شارعي شكري القوتلي والكورنيش... عاد جمال إلى الطاولة ليتفحص الخريطة، وأشار بأصبعه إلى موقع المشفى وبدت قريبة جداً من المشفى الوطني.. فصحح علي المعلومة أن المشفى الوطني أبعد قليلاً إلى الشمال.. فتوجه جمال إلى الشباب:

– حسناً يا رجال.. لدينا مهمة الليلة، ولا بد وأنكم سمعتم أن وحوش النظام يأخذون المرضى من المشافي ويقومون بتعذيبهم ثم قتلهم ورميهم في الشوارع. مهمَّتنا الليلة أن نستخرج أكبر عدد ممكن من المرضى وإحضارهم إلى هنا مع بعض الأدوية والأجهزة الطبية، وطبعاً كل ما يمكننا الاستيلاء عليه من الأسلحة والذخائر.. إنا بحاجة إلى متطوعين اثنين لكي ينخرطا بين الزوار في المشفى، ويستكشفا مواقع الحرس وما نوع الأسلحة التي يحملونها، كم عددهم داخل أو خارج المشفى.. والأهم من كل هذا مواقع القناصين إن وجدوا فوق الأسطح.

وفوراً تطوع اثنان من المقاتلين فأمرهم جمال بمغادرة الموقع إلى المشفى فوراً.. فطلب جمال كمن علي أن يؤمن لهم وسيلة نقل إلى المشفى.. ثم طلب شابين آخرين لتجهيز الأسلحة والذخيرة وطلب حضور جابر وبندقيته ذات المنظار لقنص بعض المتمركزين على أسطح البنايات المجاورة، ورجا أن يبلغ أحدهم الطبيب أن تكون موجودة الساعة /٢١,٠٠/ أي الساعة التاسعة مساءً.

ودبت الحركة في المكان.. فمن الشباب من بدأ بتحضير الأسلحة والذخيرة، ومنهم من بدأ بإعداد المكان لاستقبال المرضى والجرحى وذلك بتحضير الأسرة في الغرف المجاورة.. وفي تلك الأثناء كان أحمد يحاول التكلم مع جمال على انفراد دون أن تسنح له الفرصة إلا بعد حين، إذ قال له:

– جمال.. هل لي أن أطلب منك خدمة بسيطة. فسأله جمال عند الخدمة دون أن ينظر إليه، إذ كان مشغولاً في دراسة الخريطة والمقع.. فقال أحمد:

أريد أن أستعمل جهاز الكمبيوتر لأنني أتوقع مكالمة ضرورية عبر السكايب من أختي في كندا.. فأجابه جمال:

– لا بأس.. هل تعرف كيفية العمل به أم تريدني أن أساعدك في ذلك..

– دعني أجرب أولاً.. فإن فشلت فسأطلب مساعدتك..

– حسناً.. لك ذلك.. وحمل أوراقه وغادر الغرفة ليعطي أحمد الخصوصية الضرورية لمكالمة عائلية.

فتح أحمد الكمبيوتر وشغل السكايب، وفجأة ظهرت أخته ناهد:

– السلام عليكم أحمد.. كيف حالك الآن..

– إنني بخير ولله الحمد.. وماذا عنك..

– كلنا بخير هنا.. إلا زهره.. إنها بخير الآن.. وأكّدت على كلمة الآن.. مما أثار حفيظة أحمد فتسارعت دقات قلبه، وسأل أخته مستفسراً عما تعنيه بقولها: إنها بخير الآن.... فأجابته:

– لقد تم اعتقالها وتعذيبها.. وهي تعاني من بعض الأذيّات..

– أخبريني ما الذي حصل تماماً..؟؟

– لن أخبرك شيئاً ما لم تهدأ.... أخذ أحمد نفساً عميقاً ثم سأل:

– ولماذا تم اعتقالها.. هل كان ذلك بسببي..؟؟

– لا.. لا علاقة لك بذلك.. وليس من الضروري أن يكون هناك سبب ما للاعتقال والتعذيب والإهانة والإذلال في سوريا.. ولا أرى ضرورة للبحث في الأسباب.. المهم أنها اعتقلت.. وعُذبت، وأعتقد أنها اغتصبت.. وحمداً لله فقد تمكنت أسرتها من إطلاق سراحها، ولكنها الآن مطاردة والنظام يبحث عنها الآن في كل مكان..

امتلأت عينا أحمد بالدموع وحاول كظم غيظه.. وتابعت أخته:

– أحمد.. اسمعني جيداً.. تمالك نفسك.. زهراء تحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى، لقد عانت الأمرين وأعتقد أنها لا زالت في حالة صدمة ولا تستطيع أن تستوعب ما جرى لها..

– وأين هي الآن..؟؟ أجابته بعد تردد:

– إنها في صلنفة في مخبأ آمن مع أسرتها، ولكن علينا أن ننقلها إلى تركيا.. وبالمناسبة فقد دبرت أمور أوراقك في كندا لكي تستطيع العودة ودخول كندا، فقد نسقت لك مع مكتب اللاجئين.. وبهذا يمكن لزهراء أن تأتي معك أيضاً.. والآن أريد أن أسألك سؤالاً مهماً: هل لا زلت تريد الزواج من زهراء.. لم نعد أطفالاً.. وأريد أن تعي تماماً القرار الذي ستتخذه بالنسبة لزهراء.. هل لك أن تقبلها بوضعها الحالي وأن لا تعيِّرها مستقبلاً بما جرى لها.. إنها بأشد الحاجة إلى جواب صريح وصادق...... تعثر أحمد في الجواب ثم قال:

– نعم.. نعم.. أريدها.. سوف أكلمها شخصياً إن تمكنت من تأمين المكالمة..

– طبعاً.. سوف أحاول.. ولكنني لست متأكدة من أنها ترغب في محادثة أحد الآن، فلم تنبس بكلمة واحدة منذ خروجها من المعتقل الرهيب.. سأحاول.. هل تستطيع إعادة مكالمتي على السكايب بعد ساعة..؟؟

– سأحاول.. حتماً سأحاول..

– حسناً.. علي إقفال الخط الآن.. وأتوقع اتصالك بعد ساعة.. وإذا سارت الأمور على ما يرام فسأعطيك بعض المعلومات بشأن تركيا.. السلام عليكم..

وبالمناسبة أحب أن أذكرك بأنك أنت وزهراء كلاكما هاربان من النظام وملاحقان من عصاباته وجلاوزته..

– وعليكم السلام أختاه.... أحس أحمد بعد إنهاء المكالمة بتشوش فكري رهيب مما سمعه عن زهراء ومعاناتها.. دخل جمال الغرفة بعد أن سكن الصوت.. ووجد أحمد في حالة صدمة نفسية يرثى لها، فداعبه محاولاً إخراجه من حالة الصدمة بأنه كان يتوقع أن يكون سعيداً بعد هذه المكالمة، وسأله عما إذا سمع بعض الأخبار غير السارة.. فأجابه أحمد بالإيجاب بطريقة مقتضبة جداً.. ثم أخبره بتفاصيل المكالمة ولم يخفِ عنه شيئاً.. وكان كالغريق يطلب طوق النجاة من جمال، فهو بحاجة إلى من يرشده لا سيما وأنه يثق بجمال وحنكته وحكمته، فأرعد جمال قائلاً:

هؤلاء الأوغاد.. أولاد العاهرات.. لا يعرفون حدودهم.. وأقسم بالله لننتقمنَّ لكل من أوذي أو أهين في سوريا من قبل هؤلاء الأشرار.. ولسوف يكون النصر حليفنا بإذن الله.. أخي أحمد سوف أُخلي الغرفة لك للمكالمة التالية.. هل لي أن أقدم أية خدمة أخرى..؟؟

– لا شكراً.. لقد كفَّيت ووفَّيت.. ولكنني أتمنى الخروج معك الليلة..

– تريد الخروج معي في مهمتنا..؟؟.. قالها بلهجة استغراب من قرار أحمد.

– نعم.. في المهمة.. أجدني راغباً في عمل شيء ما لأجل زهراء.... فعاجله جمال:

– كلا.. لن تذهب معنا.. إنك في هذه الحالة تشارك في المهمة لأجل زهراء وليس لأجل سوريا أو الشعب السوري.. وأنصحك بأن لا تخلط الأمور ببعضها.. إضافة إلى ذلك فمن المتوقع أن تكون مع عروسك خلال بضعة أيام في تركيا، ولا أراني يا عريس أعرِّضك لأي خطر الآن.. وابتسم وربت على كتف أحمد.. وغادر الغرفة تاركاً أحمد على انفراد يسمع دقات قلبه وتنفسه المحموم..

وفي فترة الانتظار للمكالمة التالية كان أحمد غارقاً في أفكاره التي تناوبت بين رغبة عارمة في الانتقام، والتي لم تكن من طبيعته، وبين التريث والتعقل والتصرف بحكمة كما نصحه جمال.. وبدأ يفكر (بعد أن هدأ..) بما سيقول لزهراء فيما لو وافقت على التكلم معه.. وأخذ يمضي الوقت على الأنترنت يطالع أخبار الثورة والثوار ووضع حي بابا عمرو وما آل إليه وضع السكان من حرمانهم من الماء والكهرباء والخبز وكل ما هو ضروري للكائن البشري ليعيش بكرامة وعزة، وفجأة رن جرس السكايب على الكمبيوتر فهرع أحمد للإجابة، وفجأة ظهر وجه مصطفى وملى وسألاه عن صحته ووضعه، فأجابهما بأدب، وكان يتمنى لو شاهد زهراء معهما، وكانت ناهد تشارك أحياناً في الحديث، وقالت لهما: لقد أبلغت أحمد بكل شيء.. وكما أخبرتكما منذ لحظات إنه يرقب وبشوق للتكلم مع زهراء من بعد إذنكما طبعاً.... فسألها مصطفى مستغرباً:

– هل أخبرته بكل شيء.. فأجابته ناهد بالإيجاب.. وهنا تدخل أحمد ووجه حديثه إلى مصطفى:

– نعم يا عماه.. لقد أبلغتني كل شيء.. إنني أحب بنتك زهراء.. والآن أحبها أكثر من أي وقت مضى.. وأُكنُّ لها من الاحترام ما لا يمكن تقديره.. فهل لي بعد إذنك وإذن خالتي لمى أن أطلبها كزوجة لي منكما بشكل مباشر..؟؟.. وفجأة ظهر وجه زهراء على الشاشة ترتدي حجاباً على رأسها، وترتدي نظارات سوداء كبيرة على عينيها والتي فشلت في إخفاء كل معالم التعذيب التي تعرضت له.. حدَّقت في عدسة الكاميرا ثم رفعت النظارات عن وجهها لتكشف له المزيد من الكدمات والرضوض وخاصة لعينيها.. ولم تنبس بكلمة واحدة.. بل استمرت في التحديق بالكاميرا.. حاول أحمد أن يكبت شعوره غير أن الدموع بدأت تنحدر على وجنتيه دون إرادة منه.. وبادرها قائلاً:

– زهراء.. يا حبيبتي.. يا مستقبلي.. يا حياتي.. كم آسف لتعرضك لهذا التعذيب الوحشي من هؤلاء الأوغاد، وأعدك بأنني سأحميك من كل سوء.. ولن يستطيع أحد أن يمسك ما دمت حياً.. أعدك.. وأعدك بأنني سأحبك إلى الأبد.. سوف أكون زوجاً صالحاً فهل تقبليني زوجاً لك..

سادت فترة من الصمت كاد أن يشك أحمد في قبول زهراء لعرضه.. وفكر في أن يكرر عرضه عله يقنعها.. وفجأة تكلمت زهراء ولأول مرة من خروجها من المعتقل:

– نعم.. أقبل..

وبدأ الجميع بالبكاء فرحاً لكسرها صمتها ولقبولها عرض أحمد بالزواج.. وشعر الجميع أن هذه أول خطواتها للشفاء ورغبتها بالاستمرار في الحياة مع زوج يحبها ويحترمها.... فقفز أحمد عن كرسيه فرحاً وصاح بأعلى صوته: أحبك.... وحاولت زهراء

بذل جهد استطاعتها لزرع ابتسامة على وجهها، وطبعت قبلة على يدها ووضعتها على عدسة الكاميرا مما جعل أحمد يطير فرحاً لهذه الحركة الرومنسية منها.. وسألها فوراً:

– هل تقبلين بالسفر إلى كندا..؟؟.. فجاء الجواب دون تلكؤ:

– نعم يا حبيبي. سأذهب حيثما تذهب.... فكانت لحظات رائعة بالنسبة للجميع، فجاء صوت ناهد:

– أخي أحمد.. بعد بضعة أيام.. وحالما تستطيع زهراء السفر سوف تغادر إلى تركيا، أما أنت فأرجو أن تعلمني عن إمكانية السفر إلى تركيا والموعد المتوقع وصولك فيه.. وما إن أعلم أنكما قد عبرتما الحدود حتى أرتب مكاناً لكي نلتقي فيه جميعاً، ثم أبدأ ترتيبات السفر إلى كندا..

فسألت لمى: هل أستطيع القدوم معها..؟؟ فأجابت:

– بكل تأكيد خالتي.. سوف أحاول تأمين تأشيرة دخول.. والآن علي أن أذهب.. تهاني لك يا أخي.. وتهاني خاصة مشفوعة بالشكر لله عز وجل على سلامتك يا زهراء.... فسألها أحمد عن موعد المكالمة التالية، فأجابته:

– في أي وقت شئت يا أخي.. ألست تحتفظ برقم هاتفي الجوال..؟؟

– نعم.. حتماً.. بكل تأكيد أحتفظ به.. أحبك يا أختاه أكثر مما تتصورين وأكثر مما تعرفين.... ثم سمع صوت مصطفى يقول:

– حسناً يا بني.. اعتن بنفسك.. وأرجو أن تبقى على اتصال معنا لكي لا نقلق عليك.. وسوف أخبر والديك بهذه المكالمة.. والسلام. ولكن.. انتظر لحظة واحدة فحماتك المستقبلية تريد أن تقول شيئاً ما.. فقالت لما:

– عندما أخرجنا زهراء من حلب ساعدنا رجل شهم، وشجاع، اسمه عبد الرزاق.. فقال إن له ابن عم اسمه جمال مع أبطال الجيش الحر.. وقد والدتك أنها لمحته يوماً ما في إحدى مكالماتك على السكايب.. فهل تعرفه..؟؟

– نعم يا خالتي.. انتظري ثانية واحدة وسأحضره.... وأسرع خارج الغرفة منادياً جمال وبأن أحداً ما يريد أن يكلمه، مما أثار استغراب جمال عمن عسى أن يكون ذاك.. فنظر في شاشة الكمبيوتر ليرى لمى وخلفها زهراء.. فابتدرته لمى بالسلام، فرد عليها بأدب معهود، فقال أحمد:

– خالتي.. هذا هو جمال.. وهو بطلنا وقدوتنا هنا.. فقالت:

– كلكم أبطال بالنسبة إلينا.. لقد طلب إلي عبد الرزاق أن أبلغك تحياته.. إنه رجل شهم وشجاع مثلك.. ولولا مساعدته لنا لما أمكننا الوصول مع زهراء إلى هنا.. لقد غدا واحداً منا فهو يتصل بنا بشكل مستمر للاطمئنان عنا، ووعدنا بزيارة قريبة إذا سمحت ظروفه وأسأل الله العلي القدير أن يحميه وعائلته لما عمله من أجلنا..

– نعم.. بالتأكيد إنه رجل شهم ومقدام.. ولقد وثقت به لترحيل أسرتي إلى تركيا..

– وأود أن أشكرك لرعايتك لأبنائنا الشجعان.... فوكزتها زهراء بلطف، فأضافت لمى: ابنتي زهراء ترغب في محادثتك يا بني..

اقتربت زهراء من عدسة الكاميرا مع إبقائها النظارات على وجهها، وقالت:

– سيد جمال.. هل تعلم أن صديقك قد وعدني بأن يعود إلي سالماً.... فابتسم جمال.

– لا.. لا أعلم ذلك.. والتفت إلى أحمد الذي كان يصغي إلى المكالمة بشغف.

– بل.. لقد قال لك.. وسنذهب إلى كندا معاً.. أريدكما أن تعداني بأن تعتنيا بنفسيكما وببعضكما.. وأرجو أن تعرفا أن كل أفراد الجيش الحر في قلوبنا ووجداننا جميعاً.... صمت الشابان إعجاباً بشجاعة ودأب زهراء التي تابعت:

– سيد جمال.. هل هناك ما يمكننا أن نعمله لمساعدة أسرتك في تركيا..

– شكراً جزيلاً.. أرجو أن تسألي عبد الرزاق إن كان بإمكانه تأمين مكالمة على السكايب مع أسرتي في تركيا..

– بكل تأكيد.. سوف أتصل به فوراً وأطلب إليه ذلك.. وما إن نصل إلى تركيا حتى نبدأ في البحث عن أسرتك.. أسأل الله لكما الحفظ والسلامة.

أنهى مصطفى المكالمة ببعض النصائح الأبوية.. وشكر أحمد وجمال...

تنفست زهراء الصعداء وشعرت كمن أزاح حملاً ثقيلاً عن كتفيه، فقد خشيت أن تغير الأحداث رأي أحمد بها.. وانتابها شعور غامر بالفرحة والأمل لما سمعت تأكيد أحمد بحبه لها، كما شعر أبوها بالفرحة وبهذا التغيير المفاجئ الذي طرأ على ابنتهم وكأن معجزة حصلت في البيت للتو.. ألحت زهراء على والدها للاتصال بعبد الرزاق وإبلاغه رسالة جمال بضرورة تأمين اتصال بالسكايب مع عائلة جمال في تركيا.. وقد نفَّذ مصطفى طلب ابنته للحفاظ على ما تشعر به من سعادة وهناء..

كان البرد في هذه السنة قاسياً بشكل غير مسبوق، قد يكون بسبب الاحتباس الحراري أو فقد الأراضي الزراعية الخضراء وزحف الصحراء إلى الضواحي القريبة من المدن.. وقد أصيب الجمال السوري بعاصفتين ثلجيتين شلَّتا طرق المواصلات، إذ لم تكن

الدولة لفسادها مستعدة لمواجهة الثلج أو حتى المطر الغزير.. وإذا ما استعرضنا الطقس في صلنفة القابعة في الجبال على ارتفاع /١١٠٠/متر فوق سطح البحر فإن الطقس أشد برودة وأقسى من الأماكن الأخرى في السهول.. غير أن المناظر الطبيعية والهواء النقي كانا من العوامل الضرورية لشفاء زهراء وتعويضها عن مأساتها.. وقد حاولت جاهدة أن تصرف نفسها عما يزعجها من ذكريات بقراءة ما توفر من الكتب في الفيلا.. وتصفح بعض الصحف على الإنترنت لمتابعة أخبار الثورة والثوار.. ونظراً لما بعثته مكالمة أحمد في نفسها من تفاؤل راحت تبحث عن كندا جغرافياً ومناخياً، وخاصة مدينة تورنتو حيث تسكن ناهد وحيث من المتوقع أن تنتقل مع أحمد..

كما أنها بدأت تتدرب على الطباعة على الكمبيوتر، وكانت المهمة شاقة في البدء، ثم بدأ تعتاد عليها تدريجياً، فقررت أن تكتب مذكراتها عما عانته وعاناه ولا يزال يعانيه الشعب السوري تحت هذا الحكم الظالم الطائفي العنصري، وذلك لينزاح عن كاهلها العبء وقد تكون بمثابة معالجة نفسية لها.. فكانت تلك المحاولة في الكتابة مزيجاً من القصة الذاتية والتحليل السياسي للأحداث..

اشترى هذه الفيلا ابن أخ عصام (السيد مروان) منذ زمن وأعاد ترتيب ديكوراتها، واستغل الموقع الرائع في أعلى التل ليبني شرفة عريضة تطل على البحر، ولكي ينعم السكان والزوار بمنظر غروب الشمس الأخاذ، وزرع فيها الأشجار الباسقة، وأحاطها بسياج حديدي ذو بوابة محكمة الإغلاق، وجعلها مكتفية ذاتياً بالماء والكهرباء، فهناك خزان ماء كبير ومولدة كهرباء خاصة، واستخدم الطاقة الشمسية لتدفئة المياه للاستعمال اليومي، كما خزَّن كمية من الحطب لكي يشعله في المدفأة أيام الشتاء القارسة، يضاف إلى ذلك صحون لاقطة لجهاز التلفزة ومكتبة زاخرة بالكتب.. وبمعنى آخر لم يكن السكان مضطرون لمغادرتها إلا مرة أو مرتين في الأسبوع إلى سوق الخضار والفواكه لملء

الثلاجة بما يلزم لبضعة أيام، وقد يظن أي زائر للفيلا أنه يعدُّها لتكون مقرَّ إقامته الدائم بعد أن يتقاعد، فقد أمضى معظم حياته خارج أرض الوطن ويحلم دائماً بالعودة والاستقرار في وطنه، ومع أنه لم يكن يطيل المكوث في الفيلا أثناء زياراته، إلا أن أحد المسؤولين الذين أخذ بإزعاجه ليستولي على الفيلا، حتى أنه هدده ذات مرة بأن يصمه عميلاً أجنبياً أو جاسوساً إن لم يدفع له مبلغاً من المال عنوة لقاء كف أذاه عنه، وتسمى هذه الضريبة في سوريا (خوَّة)..

وفي إحدى الليالي اضطر مصطفى وعدنان السفر إلى حلب لإحضار بعض الحاجيات الضرورية من البيت، والأهم من كل ذلك جوازات السفر التي سيحتاجونها للسفر إلى تركيا، ويحتم عليه الطريق المرور ببعض القرى التي يسكنها العلويون ويحرسها الشبيحة بالإضافة إلى القوات النظامية الذين ما تركوا أسلوباً لإزعاج جيرانهم من السنيين إلا واستعملوه بقذارة ووحشية.. فكانوا لا يتورعون عن قتل أسرة بكاملها مثلاً لنشر الذعر والرعب في باقي الأسر، ويستولون على ممتلكاتهم، وإلى الشمال من الطريق يقع جبل الزاوية الذي يسيطر عليه الجيش الحر، فكان الشبيحة يمعنون في إيقاف أية سيارة متجهة إلى حلب أو إدلب ويستجوبون الركاب والسائق وسرقة ممتلكاتهم، وبلغ بهم الحقد والخِسَّة أنهم قتلوا بعض الركاب لمجرد أنهم اشتبهوا بالاسم أو بالوجهة التي ينوي الراكب السفر إليها.. وقد حاولت القوات النظامية اختراق الجبل والوصول إلى معاقل الجيش الحر دون جدوى لما يتمتع به أفراد الجيش الحر من خبرات قتالية (حرب عصابات) وخاصة في تلك المناطق الوعرة، وقلة خبرة الجيش النظامي بهذا الأسلوب الحربي واعتمادهم على الآليات والمجنزرات.

تحلق جمال وجابر وعلي مساءً حول الخريطة لمراجعة تفاصيل العملية بناءً على المعلومات الاستخبارية التي وصلتهم من الكشَّافين الذين وصلوا صباحاً، وكانوا يدرسون

عدداً من الاحتمالات للتقليل من عدد الضحايا، ما أمكنهم ذلك، ليؤمنوا وصول الجرحى الستة المتواجدين في الطابق الأول وفي القبو بشكل آمن، ذكر الكشافان تواجد أربعة حراس من النظام على الطابق الأول وستة حراس خارج المدخل الرئيس للمشفى، إضافة إلى ثلاثة شاحنات صغيرة، ولاحظا تمركز ثلاثة قناصين على أسطح البنايات على مسافة غير بعيدة من المشفى، وأكدا تواجدهم بعد إفادات السكان في المنطقة الذين شاهدوهم بأم أعينهم يطلقون النار على المدنيين لمنعهم من الوصول إلى المشفى الذي يقع على تقاطع شارعين رئيسيين مزدحمين بالمارة، ولم يكن بالإمكان معرفة إن كان هناك قناصون آخرون.. ولكي يضمن النظام إبقاء خط الإمداد مفتوحاً لعناصره، فقد بذل رجالهم جهدهم في السيطرة على كل تقاطعات الطرق المؤدية إلى قلب المدينة.. لذا فإن هذه العملية تحمل من الأخطار ما لا يحصى، وعلى جمال أن يكون قائد المجموعة بشكل شخصي للتأكد من تنفيذها لإنقاذ الجرحى..

تكلم جمال مع رجاله كقائد خبير: تقع المشفى على الزاوية الشرقية الشمالية من التقاطع.. وحسب التقرير الاستخباراتي فإن القناصة يقبعون على الطرف الشمالي من الشارع، والسؤال الذي يخطر على بالي هو لماذا لم يغطوا الطرف الجنوبي من الشارع..؟؟ مع أن المركز الرئيس للمولدات الكهربائية التي تغذي حمص لا يبعد إلا مسافة شارعين فقط.. وعلى الزاوية الجنوبية الغربية تقع بناية مديرية التعليم.. وأعتقد شبه جازماً أن هاتين البنايتين محميتين بعدد وفير من القناصة.. وعلينا أن نحسب حسابهم..

سأله علي: سيدي.. ليس لدينا العدد الكافي من الرجال لتغطية هذه المساحة الواسعة، فكيف لنا أن نغطي الطرف الجنوبي..؟؟

أشار جمال بأصبعه على الخريطة وقال: بالتأكيد و لكن ليس علينا أن نغطي الطرف الجنوبي.. وإنما علينا أن نسير إلى المستشفى غرباً عبر شارع الرياض، ثم نقطع

الكورنيش بدقة وحذر، ثم نهاجم من الحارة الضيقة شمال المشفى.. لذا فأنا أريدك يا جابر أن تتمركز على الزاوية الجنوبية الشرقية من التقاطع، أي مقابل المشفى حيث لن يحجبك رؤية أي شيء من رؤية الأسطح المقابلة ومدخل المشفى، وعليك أن تأخذ مقاتلاً آخر معك ليساندك.. وأعتقد أن ذلك الشاب نبيل سيكون مناسباً ليرافقك..

– عُلِم.. وسأله جابر: هل أن مستعد لإعطاء التعليمات لباقي الفريق..

– نعم.. أرجو إحضارهم الآن..

دخل الجميع وتحلَّقوا حول جمال وعلي.. نظر جمال إلى أحد رجاله وقال:

– ممدوح.. كل المركبات جاهزة ومؤمنة..؟؟

– نعم سيدي.. جميعها جاهزة.... تابع جمال:

سوف يكون هناك عدد من سيارات النظام أمام المشفى.. هذا لا يعنينا كثيراً غير أنني أتمنى أن نستولي عليها ونسوقها إلى المقر.. هنا.. وغالباً ما يحتفظ الرجال ببعض الأسلحة والذخيرة والطعام في تلك السيارات بالإضافة إلى امتلاء خزاناتها بالوقود، والذي نحن بأشد الحاجة إليه.. سوف نبدأ مهمتنا حالما يتمركز جابر في مكانه المحدد وسنصل بعد نصف ساعة.. ولذا فمن يتطوع منكم لإيصال جابر وفريقه إلى موقعهم ويبقى على الطرف الجنوبي من شارع الكورنيش لكي يؤمِّن انسحابهم..؟؟

نهض ممدوح بشجاعة ونشاط وقال: أنا سأقود فريق المقدمة.. ونظر إلى جابر مع إشارة الثقة.

– ممتاز.. إذن أنت سوف تؤمن جابر ونبيل.. ثم تابع: والآن سيدخل فريق الاقتحام المشفى من هذه النوافذ المفتوحة جزئياً من قبل عناصرنا المزروعة في الداخل..

هل من أسئلة..؟؟ وتابع: سوف ينقسم فريق الاقتحام إلى زمرتين، إحداهما تقتحم الطابق الأول والثانية القبو.. ستكون العملية خاطفة.. ادخلوا بسرعة البرق.. استقصوا المكان بسرعة البرق.. اقضوا على كل من يعترض طريقكم.. اجلبوا الجرحى إلى المدخل الشمالي للبناية حيث ستكون نقطة التجمع ثم ننطلق عائدين.. أما فريق المقدمة (جابر ونبيل) فعليكم مغادرة المكان حالما تغادر أول سيارة الموقع، وسينتظركم ممدوح في النقطة التي ترككم فيها.. وإذا ما طرأ أمر غير متوقع فعليكم استعمال حذاقتكم باستعمال الشوارع الخلفية للعودة إلى القاعدة.... هزَّ ممدوح رأسه بالموافقة، وسأل علي:

– من الذي سيتعامل مع الحارس أمام المشفى..؟؟ فأجاب جمال:

– لن يطلق جابر النار إلا بعد دخولنا البناية، وعليك بالقضاء على القناصة على الأسطح المجاورة بأكبر سرعة ودقة، ثم تتعامل مع الحارس في المدخل إذا سمح لك الوقت.... ونظر إلى جابر مؤكداً: ربما علينا أن نتساعد إذا أسرعوا بدخول البناية.. أنا أدرك أنها عملية ليلية.. ولذا علينا أن نرتدي ألبسة مدنية، ثم نضع الكفيات والأقنعة ساعة الهجوم، وأرجو أن تزيلوا أي دليل عن شخصيتكم.. هل من أسئلة..؟؟

أضاف علي معلومة جديدة ومفيدة: لدينا طبيبين متطوعين جديدين الليلة وسوف يصلان بعد فترة قصيرة بإذن الله.. إذ لا بد أن الضيوف الجدد سيحتاجون إلى عناية مكثفة وسريعة.. فردَّ جمال كعادته:

– عظيم.. دعهم يفحصونك أنت أيضاً.. أريد أن أركِّز بشدة على ضرورة عودتنا جميعاً سالمين.. فلا نستطيع أن نخسر أي فرد منا.. هل هذا واضح..؟؟ وأضاف بعد أن نظر إلى أحمد وسأله: هل ستبقى هنا لمساعدتنا عند العودة..؟؟ فلا شك أننا بحاجة إلى مساعدة كبيرة..

- بكل تأكيد سوف أكون متواجداً.. وسأبذل جهدي مع علي لمساعدة الفريق الطبي..

غادر جمال ومقاتليه الغرفة، وشرع أحمد وعلي بتحضير الغرفة بالأسرَّة والطاولات اللازمة لعودة الفريق مع الجرحى.. ولم تكن الإمكانيات مثالية من الناحية الطبية كالتعقيم والأناقة، غير أن الظروف تحكم بما هو متوفر. فإما أن يقضي الجرحى على يد الشبيحة أو أن يعانوا من بعض الالتهابات هنا.

وبعد فترة قصيرة حضر الطبيبان الشابان في أواخر العشرينات من العمر، يحملان بعض الأدوية والضمادات وغيرها مما قد يلزمهم في إسعاف القادمين الجدد.

تقع المستشفى في منطقة تجارية معروفة في حمص يحيط بها بنايات متوسطة الارتفاع والدكاكين والمكاتب ومنازل سكنية.. ويعتبر شارع شكري القوتلي شارعاً رئيسياً في حمص، عريض ومقسّم للسير في الاتجاهين، وحشد النظام في هذا الشارع عدد لا بأس به من قواته وآلياته كـ T725 وZSU23-4S وBMB وBTR .. كما أقاموا حواجز إسمنتية على معظم تقاطعاته مع الشوارع الفرعية الأخرى، ونشروا عدداً من القناصة على أسطح البنايات على طول الشارع.

كان جمال يدرك خطورة العملية، ولا سيما وأن رجاله لا يحملون سوى بعض الأسلحة الخفيفة، إلا أنهم يتمتعون بمعنويات عالية وسيواجهون تلك القوة النظامية الهائلة، كان الرجال مؤمنون ومصممون على ضرورة التخلص من هذا النظام الهمجي الوحشي الذي يقتل المدنيين الأبرياء العزل دونما أي ذنب اقترفوه.. انتشر الشباب على ثلاث مجموعات وأخذ كل منهم طريقاً مختلفاً عن غيرها باتجاه المشفى، أسرع جابر ونبيل خطاهما ليأخذا موقعهما قبل وصول باقي الشباب، وكان عليهما أن يتخفيا بالظلام

لتأمين الحماية والتغطية لباقي الشباب ساعة وصولهم.. أنزلهما ممدوح في المكان المحدد ثم أوقف سيارته على الجانب الشرقي من شارع الكورنيش.. أخرج جابر بندقية من الكيس وتفحَّص مسدسه على خصره.. وتفحص نبيل من أن بندقيته الـ AK47 جاهزة وملقمة.. أسرع جابر ويتبعه نبيل ودخلا البناية المحددة لهما من قبل جمال.. كانت البناية مظلمة وباردة نظراً لخلو الشوارع من المارة بعد غروب الشمس.. صعد الشابان الدرج إلى أن وصلا السطح على الطابق الخامس وهما يتلمسان ويتحسسان الجدران في تلك الظلمة الدامسة، وما إن وصلا السطح حتى دفع جابر الباب الحديدي محدثاً صريراً مزعجاً أعقبه فوراً صوت من مكان ما على السطح:

- سليم.. هل عدت؟؟.. أين كنت.. لقد تأخرت كثيراً..

تجمَّد الشابان في محلهما وساورهما الشك أنهما دخلا بناية غير البناية المحددة لهما.. غير أن جابر كان واثقاً من الموقع، وأكد لهما جمال حسب تقرير الكشافان خلو السطح من أي قناص أو شبيحة، طلب جابر من نبيل أن يتجه إلى اليسار وأن يتهيأ لأية مفاجأة، وكان يريد أن يعرف عدد العناصر المعادية الموجودة على السطح.. وفجأة سمع صوتاً آخر مختلفاً:

- قد يكون أحد السكان هلَّا ذهبت وتأكدت..؟؟

أخرج جابر مسدسه من قرابه وشاهد رجلاً ضخماً يرتدي زياً عسكرياً وتحته الصدرية المقاومة للرصاص مما زاد في ضخامة جسمه يتجه نحو الباب.. انحنى نبيل قليلاً ليثير انتباه جابر وأعطاه إشارة ففهمها جابر فوراً، وقف نبيل واختبأ خلف الباب الحديدي، في حين ابتعد جابر واختفى في الظلام خلف برميلين معدنيين يستعملهما السكان لتخزين الماء.. تعثر الرجل بشيء أحدث صوت انكسار، نظر إلى الأسفل وردد

بعض الشتائم واللعنات ورفس ذلك الشيء بقدمه فارتطم بالجدار الحجري وأحدث صوتاً آخر، استغل نبيل هذه الجلبة البسيطة وقفز على الرجل وأمسك برقبة الرجل ووضع سكينه في خاصرته حيث لا تغطي الصدرية المضادة للرصاص ذلك الجزء من البدن، وأطبق يده على فم الرجل، غرس نبيل سكينته مرتين في خاصرته ثم لوى رأسه وخر على الأرض دون حراك.. زحف جابر على بطنه بحثاً عن الرجل الآخر، ترك كيسه مع نبيل وأخذ بندقيته واستمر بالزحف ولاحظ أن الرجل الثاني يجلس في مواجهة الشارع وأمامه بندقية أوتوماتيكية مع منظار مركزة على حامل ذي ثلاثة قوائم، مما يؤكد أنه قناص يكمن في هذا المكان.. وبدون تردد أدار جابر البندقية وانهال بضربة من عقبها على عنق الرجل فوقع فوق الحامل، قفز نبيل من مكانه وغرز سكينته مرتين في عنق الرجل الذي فقد الحياة فور انفجار الدم من عنقه.. حمل جابر ونبيل جثة الرجل ووضعاها في القسم الخلفي من السطح، وأسرع جابر قائلاً:

– علينا الآن أن نقضي على سليم فور عودته، فقد كان هذان يتوقعان عودته....

اقترح عليه نبيل بأن يستعد جابر في موقعه بينما يختبئ نبيل بين البرميلين في انتظار سليم.. وافق جابر واتجه إلى البندقية والحامل وتفحصهما ووجدهما في حالة ممتازة فآثر آن يستخدم سلاح وذخيرة النظام في حماية زملائه وقتل جنود النظام ثم سوف يأخذهم كغنيمة إلى القاعدة.. نظر من خلال المنظار وحدد مكان وجود ثلاثة قناصين على أسطح الأبنية المجاورة، كما شاهد ستة مع BTR يتمركزون في مدخل المشفى مع ثلاثة سيارات شاحنة صغيرة، هيأ سلاحه والسلاح الذي غنمه من القناص، وقرر أن يتخلص من القناصين الثلاثة قبل كل شيء، ثم سوف ينزل مع نبيل إلى الشارع للمجابهة المباشرة مع العناصر على مدخل المشفى حال وصول جمال ورجاله إليها، حمل جابر حاملة الرشاش ونقلها إلى جانب الطرف الجنوبي من السطح وهيأ نفسه وسلاحه للتسديد والقنص، وجه بندقيته عبر المنظار إلى أبعد القناصين عنه، ولم يأبه لصوت إطلاق

الرصاصة لأنه أمر شائع جداً في حمص أن يسمع صوت الرصاص ليلاً ونهاراً، اختار هدفه وسدد عليه وانتظر خمسة دقائق ريثما يصل جمال ورفاقه إلى مواقعهم، بحث من خلال منظاره عن عناصر معادية في الشارع وفي الزقاق الضيق دون أن يعثر على أي عنصر، وارتاح أكثر عندما شاهد سيارة الهروب تقف في الشارع المواجه للمشفى وممدوح بداخلها، وتساءل عن سبب وقوفه بالسيارة عبر الشارع وليس في المكان الذي أنزلهم به، وطمأن نفسه بأنه لا يمكن لأحد أن يشك بوجود عنصر من الجيش الحر على أسطح أحد البنايات، وصلت ثلاث سيارات شاحنة صغيرة متزامنة إلى الزقاق الموازي للجانب الشمالي للمشفى، ولكح جمال يخرج من إحدى السيارات ثم تبعه باقي الرجال وانتشروا في الزقاق، ونظر في ساعته فخامره شك إما أن توقيته خطأ أو أنهم وصلوا قبل الوقت المحدد لهم، تنبه الحارس على باب المشفى لحركة جمال ورفاقه وشرعوا يطلقون النار باتجاههم، فسدد جابر بندقيته باتجاه الهدف الأول وأطلق رصاصة فجَّرت رأس الشبيح، ثم نقل تهديفه إلى الهدف الثاني وقضى عليه برصاصة واحدة.. وفي هذه اللحظة اشتد إطلاق النار بين جمال ورفاقه وبين حراس المشفى، مما جعله يرتجف قليلاً فسدد على الهدف الثالث وأطلق رصاصتين دون أن يصيبه لأنه كان مشغولاً بإطلاق الرصاص باتجاه فريق الاقتحام، فحاول جابر للمرة الثالثة وتمكن من إصابته بشكل مباشر جعلته يقع من سطح البناية على أرض الشارع.. ولما أنهى مهمته بقتل القناصة الثلاثة حمل الرشاش وحامله بيده ووضع كيسه على ظهره واتجه إلى الباب حيث قابل نبيل ونزلا بسرعة على الدرج، وما إن خرجا من باب البناية حتى شاهدا دبابة T72 ظهرت فجأة عبر الشارع، فدفع نبيل إلى البناية مرة ثانية، ولاحظ أن الدبابة تسدد سبطانة مدفعها باتجاه الفريق، وفجأة أطلقت قذيفة من عيار ١٢٥ ملم أصابت سيارات الفريق إصابة مباشرة لأنها كانت تقف في مدخل الزقاق، مما أثار كرة نارية إثر انفجار السيارات الثلاثة وتساقطت كتل معدنية من السيارات وغمر المكان غيمة كثيفة من الدخان، أدرك جابر على الفور

أن جمال وفريقه في مأزق حرج، ولا بد من وقوع بعض الضحايا جراء هذا الانفجار، ووصل إلى قناعة بينه وبين نفسه إلى أن المجابهة مع حرس المشفى بشكل مفاجئ ومباشر والقذيفة من الدبابة قد تجعل إنقاذ الفريق أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً، نظر حوله فلاحظ اختفاء ممدوح وسيارته من موقعها مما جعلهما في نفس ورطة جمال ورفاقه فقال لنبيل: دعنا نساعدهم من موقعنا هذا ونأمل أن العناصر في الدبابة لن يلاحظوا وجودنا أو يحددوا مكاننا.... فسأله نبيل: وماذا بعد ذلك..؟؟ فأجابه: سوف نلتحق بالفريق حالما تسنح لنا الفرصة.. فلا بد وأن انضمامنا لهم سوف يساعدهم على تخطي هذه الأزمة. فسأله نبيل:

- وكيف لنا أن ننضم إليهم..؟؟ فأجابه جابر:

- سوف نركض عبر الشارع إلى المشفى، وبدا وكأنه يشرح ما ليس بحاجة إلى شرح، ركض الاثنان مسافة قصرة ليكونا في مقابل المشفى وانبطحا أرضاً، أعاد جابر تخزين رشاشه، وهيأ نبيل الـAK47، رصد جابر الحرس وأحصاهم جميعاً، لكنه لم يعرف كم عنصراً في الـBTR، ثم فجأة لاحظ عنصراً مختبئاً خلف الشاحنة فأطلق عليه طلقة جعلته يترنح ويسقط بين عجلات الشاحنة، ثم أصاب عنصراً آخر لحق بمن سبقه.. أما نبيل فقد قضى على عنصرين في خط مرماه دون أن يعرفا أنهما يتعرضان لهجوم عبر الشارع.. أدارت المركبة الـBTR سبطانة مدفعها، فقفز الرجلان باتجاه الـ BTR، وكان هدفهما الوصول إلى المدخل الرئيس للمشفى قبل أن تصلهم نيران الـBTR..

لاحظ الشباب أن الدبابة T72 تقترب أكثر فأكثر، حتى بلغت المسافة بينها وبين المشفى مسافة لا تزيد عن ٢٥٠ متراً، ولاحظوا جميعاً وجود ٨ – ٩ عنصر مشاة يحيطون بها وخلفها، وصل جابر ونبيل بسلام إلى باب المشفى فدخلاها ونزلا فوراً إلى القبو، وهناك التقوا بفريق الاقتحام الذين كانوا يستعدون للصعود إلى الطابق الأرضي..

بدأهم جابر بالسلام ثم قال: حمداً لله على سلامتكم يا رجال.. ويبدو أننا قد هُيِّئنا لنكون هدفاً لهذه الهجمة غير المتوقعة.. لا بد وأن يكون بيننا جاسوس أعطى المخطط للعدو، ولكننا سوف نتدبر أمره بعد أن ننتهي من ورطتنا هذه وننجز مهمتنا..

نظر جمال لوجوه رجاله ولاحظ أن بعضهم يرتجف خوفاً لاعتقاده بأنها النهاية، بينما رفض آخرون قبول الانسحاب أو التراجع..

قال جابر موجهاً كلامه إلى جمال: لقد قضينا على بعض الحراس ولست متأكداً من عدد المتبقين ولا من عدد المتواجدين في الـBTR... فسأله جمال عن عدد السيارات الممكن استعمالها في الخارج؟ أجابه جابر: ثلاثة سيارات إضافة للـBTR.. لكن هناك مشكلة الدبابة.. أجابه جمال بثقة:

– لا عليك من الدبابة.. فلن يطلقوا النار على جماعتهم.. اصعد للطابق الأول وابحث عن ضيوفنا.. وأشار إلى عنصرين من العناصر ليفتشا الغرف المجاورة أولاً، وأشار إلى ثلاثة غرف، ففتح الشباب الأبواب الثلاثة ليتفاجؤوا بأن الغرف خالية تماماً، وفي هذه اللحظة عاد العنصران الآخران من الطابق الأول ليبلغوا جمال خلو الغرف هناك من أي مرضى.. فقال نبيل بصوت مرتجف: يا له من كمين.. أعتقد أننا انتهينا هنا....

فنهره جمال قائلاً: كف عن هذا يا غلام.. سوف نخرج من هنا جميعاً..

وبينما هما يتبادلون النظرات إذ أصابت قذيفة ثانية من الدبابة الطرف الأقصى من المشفى، مما أثار غمامة من الحطام والغبار غطت المكان بأسره..

وهنا أصدر جمال أوامره الصارمة وابتدأها بقوله: لن نعود إلى القاعدة خاليي الوفاض يا شباب.. ثم أمر اثنين من أفراد فريقه بالتوجه إلى مدخل المشفى وأن لا يشتبكوا مع الـ BTR إلا حينما يكون جمال ورفاقه جاهزين لذلك..

أما الباقين فانتظروا خمس دقائق تماماً، وابحثوا عن أية مواد طبية تجدونها في المشفى، أسلحة.. ذخائر، أو أي شيء آخر ترونه، خذوا كل ما يمكنكم حمله تحركوا.. انتشر الشباب في المشفى وبعد خمس دقائق تماماً أعادوا تجمعهم وهم يحملون أكياس القمامة أو ملايات الأسرة مليئة بما عثروا عليه.. وقدم أحد العناصر يحمل بضع القنابل اليدوية ورشاش AK47 وبندقية مزودة بمنظار..

– رائع يا شباب.. من منكم يتطوع ليخلصنا من الـ BTR.. فانبرى نبيل كما هي عادته دائماً متطوعاً لهذه المهمة.. فقال جمال: سوف نحميك.. عليك أن تزحف إلى خلف الـ BTR ثم تفتح الفتحة العلوية وتلقي قنبلتين يدويتين في داخلها، ثم اقفز وعد إلينا.. ثم سوف نأخذ أي سيارة يمكننا استعمالها باتجاه القاعدة.. تذكروا يا شباب عليكم أن تنتشروا باتجاهات مختلفة في طريق العودة إلى القاعدة.. ثم أمرهم بالتحرك فوراً دون أن يضيع الوقت في البحث فيما قد يعترضهم من عقبات، هرع الجميع باتجاه باب المشفى، ثم حمل نبيل ثلاثة قنابل يدوية وقفز دون تردد إلى أعلى الـ BTR وفتح النافذة العلوية وألقى إحدى القنابل اليدوية إلى داخلها، وفيما كان يحاول النزول علق إحدى رجليه في أحد الكلاليب، وبينما هو يحاول تخليص قدمه انفجرت القنبلة وانفتح غطاء النافذة العلوية وألقاه الانفجار بعيداً عن العربة على وجهه، ركض بعض زملائه لمساعدته في حين ركض آخرون لأخذ السيارات الموجودة في المدخل.. ساعد كلاً من جمال وجابر باقي الشباب في حمل نبيل ووضعه في مؤخرة الشاحنة، وكان واضحاً أنه أصيب جراء الانفجار، غير أنهم لا يعرفون بعد موضع الإصابة، ومع أنه كان واعياً غير أنه لم يكن

بكامل قواه العقلية، وبدت بعض الحروق على ظهره ويديه دون أي نزيف يذكر، ركب الرجال جميعاً السيارات الثلاث وانطلقوا بسرعة كبيرة باتجاه الجنوب الغربي عند التقاطع، حيث افترقت السيارات في اتجاهات مختلفة.

لم تحقق مهمة الشباب هدفها بإنقاذ المرضى من المشفى لسبب طالما كان يفشل المهمات في الحروب، ألا وهو الخيانة، فالتخطيط والتنفيذ تمَّا على أكمل وجه وبأدق التفاصيل، غير أن كل هذا لا يعني شيئاً إذا تسربت المعلومات من أحد العناصر إلى العدو، وعادةً ما يترافق فشل المهمات بخسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، ومع ذلك فقد تمكن جمال بحسن قيادته وسرعة بديهته أن يحافظ على الشباب وجعل الخسائر تكاد لا تذكر، فإصابة نبيل كانت بسبب تصرف بطولي تردد غيره في التطوع له، وحالما يصلون القاعدة فسيتمكن الطبيب من تحديد مدى إصابته ثم معالجتها بما هو متوفر من امكانيات محدودة...

جلس جمال في مقدمة إحدى السيارات التي كانت تشق الطريق بسرعة كبيرة في شوارع حمص التي يكتنفها الظلام، وكان صامتاً يفكر في مصدر تسريب أخبار العملية للعدو، خطر بباله أول ما خطر اختفاء أحد السائقين، ممدوح، وراح يراجع الخطة، التحركات والأوامر منذ أن أسندت إليه المهمة، وراح يتذكر بعض الهنات التي كانت كلها تشير إلى ممدوح بالاتهام، وصلت السيارة إلى بوابة الموقع وفتحت البوابة الحديدية وتبعتها السيارتان الأخريان بعد لحظات، وكان نبيل في إحداها مغطىً ببطانية بوجه شاحب ويبدو يقظاً، هرع أحد الأطباء إلى نبيل وسأله عن سبب إصابته وكيفية حدوثها، فأجاب جابر باختصار أن ثلاثة قنابل يدوية انفجرت في الـ BTR وقذفه الانفجار بعيداً على الأرض.. أمرهم الطبيب بعدم تحريكه إذ قد يكون يعاني من إصابة في العمود الفقري أو النخاع الشوكي، وأمرهم أن يضعوه على سطح خشبي قاسٍ لنقله إلى الداخل، أحضر

أحد المتطوعين ما يشبه النقالة مغطاة بمنشفة سميكة وحمله الشباب بحرص شديد إليها، ثم لف الطبيب رقبته بمنشفة كما لو كانت جبيرة لتثبيت عنقه، وحمل أربعة شباب النقالة وأدخلوها ونبيل مستلقٍ عليها إلى الداخل وشرع الطبيب بتقييم حالته فوراً..

بحث جمال عن جابر وطلب ضباط الصف لاجتماع عاجل في إحدى غرف التدريس وأغلق الباب، مما أثار فضول الشباب عن سبب هذه العملية في الاجتماع وإغلاق الباب، وقف جمال في وسطهم وابتدأهم قائلاً:

يا شباب.. وحملق في وجوه الجميع.. تعلمون جيداً سبب وجودنا هنا والغاية من كل هذه الثورة، فنحن نخوض حرباً، وفي كل الحروب هناك من يربح وهناك من يخسر.. في كل جيوش العالم هناك معارك يتم ربحها ومعارك يتم خسارتها، وكل ما يهم في النهاية هو ربح الحرب.. في هذا اليوم لقد خسرنا المعركة.. ومع أن الخسارة كانت ضئيلة غير أنها ستؤثر على معنوياتنا..

توقف جمال لثوان قليلة ليستجمع أفكاره ثم تابع: لم نخسر هذه المعركة لنقص قدراتنا، ولكننا خسرناها لأن واحداً منا في هذه الوحدة قد خاننا.

توقف جمال بعد هذه الكلمة ونظر في وجوه الشباب نظرات ثاقبة، فبدى له الاستغراب وحتى الاستهجان مما يقول.. هزَّ رأسه وتابع:

– نعم.. أحد أفراد المجموعة خاننا.. فمن المؤكد أن لا أحد إطلاقاً يعلم خطة هذه المهمة، وهذه الخيانة سوف تتسبب بتغيير خطير.. أكبر بكثير من خسارتنا الحرب كلها.... سأله جابر فوراً:

– وهل تشك بأحد منا..؟؟ أجاب جمال:

– لن أتهم أي أحد حتى استكمل استقصاءاتي، وأنصحكم أن تكونوا واعين لكل ما تقولونه أو تفعلونه.. تأكدوا ممن يستمع لمحادثتكم.. وأرجو أن لا تذكروا شيئاً لباقي الرجال حتى أنهي تحقيقاتي.. هل هذا مفهوم..؟؟

– نعم يا سيدي..

– انتهى الاجتماع..

غادر الرجال الغرفة وتوجه جمال ليطمئن عن حالة نبيل، وفاجأ الطبيب بأنه غير مطمئن لوضعه الصحي رغم خلو عنقه وعموده الفقري من أية إصابة واضحة، وبما أنه شاب قوي فلا بد أن يستعيد صحته بعد فترة وجيزة، وقد يكون لا يزال يعاني من صدمة الانفجار والتي تزول بعد فترة طويلة أو قصيرة، نبيل صاحٍ غير أنه لا يعي تماماً ما يدور حوله ولا يستجيب للمؤثرات الصوتية حوله.. علينا الانتظار وتشجيعه على الحركة بعد فترة وجيزة. لكي لا ندع خوفه والصدمة التي لحقت به بعد الانفجار تؤثران في نفسيته وتشلّان حركته.. فقال جمال:

– مع كل الاحترام يا دكتور.. هل تعتقد أننا نفهم ما تقوله.. إن كل ما يهمني معرفته هل سيكون نبيل بخير وهل سيشفى..؟؟

– من الناحية الجسمية نعم سوف يشفى.. قد يصاب بفقد سمع لمدة ما..

– شكراً يا دكتور.. أرجو إعلامي إن احتجت لأي شيء لأجل نبيل فقد أحضرنا معنا من المستشفى بعض المواد والمستلزمات الطبية وسوف أطلب من الشباب وضعها تحت تصرفك.... خرج من الغرفة وأمر اثنين من الشباب بنقل المستلزمات وكل الأكياس

من الشاحنات إلى المستوصف، وشرع الطبيب يرتبها على الأرفف ليسهل العثور على ما يريده بسرعة.

حمل جمال جهاز الهاتف الجوال وأرسل رسالة إلى قيادة موقعه:

- هل ممدوح لديكم..؟؟ وجاء الرد:

- كلا..

- هل عاد أحمد..؟؟

- نعم.. إنه هنا..

- أعتقد أن ممدوح (عصفور).. أي جاسوس يعمل لصالح النظام..

- كم ابتعد بطيرانه..؟؟

- بعيداً جداً.. كل المسافات..

- كن حذراً وأعده إلى القفص..

- بالتأكيد.. سوف أفعل.. ثم جاءت رسالة أخرى:

- هل عاد الأولاد جميعاً من الملعب..؟؟

- وقع أحدهم عن المرجوحة.. وقرر الآخر أن يطير كالعصفور..

- ممدوح..؟؟

- نعم.. يجب أن أرى والده.. (أي الرائد فراس..).

– سوف أنتظرك.. وضع جمال الهاتف جانباً وطلب من جابر أن يرافقه.. أعادا تخزين سلاحيهما واستقلا إحدى الشاحنات وتوجها إلى مركز القيادة التي وصلاها بعد لحيظات، حيث كان الرائد فراس وأحمد في انتظارهما..

داعب جمال أحمد قائلاً: ظننتك ترغب في البقاء معنا.. فقد كانت لديه مهمة تقصي بعض الحقائق هنا عن بعض الشباب.. وسأل فراس النقيب جمال: يبدو من رسالتك أنك تشك بممدوح..

– نعم.. بالتأكيد.. فلم أجده حين وصلنا المشفى، ولا بد وأنه غادر قبل ذلك بفترة لا بأس بها.. ويبدو أنهم كانوا يتوقعون وصولنا فقد كانوا بانتظارنا مدجَّجين بأسلحة ثقيلة.. ولا أدري من أين أتت دبابة الـ T72.. هناك كم هائل من المصادفات.. وفشلت كل خطتنا.. لقد أمرت ممدوح بأن يعتني بالمواصلات وأن يوصل الفريق المتقدم إلى موقعه.. وكان موجوداً طوال فترة إعطائي التعليمات.. ويعلم كل التفاصيل..

– لا حاجة لنا بأن نفقد أعصابنا.. دعنا نستجمع قوانا العقلية ونفكر في الخلاص مما نحن فيه.. فقد فقدنا ثلاثة شباب من مقاتلينا اليوم بسبب اختراق أمني، فلم يعد أي من مقاتلينا الذين أسندت لهم مهمة في باب سباع.. فقد بلغني بأنهم قُتلوا بكمين نصب لهم في الطريق.. ويبدو أن أحداً سرَّب تحركاتهم وتنقلاتهم إلى أفراد النظام الذين كانوا بانتظارهم وقضوا عليهم.... نظر أحمد إلى وجه الرائد الذي هزَّ رأسه بالموافقة ثم شرع يقول: بأنهم قد قبلوا عدداً كبيراً من المتطوعين في بدء الحرب نظراً لحاجتهم الماسة للرجال دون أن يتأكدوا من صدقهم أو انتمائهم.. وعليهم الآن أن يكونوا أشد حرصاً في قبول المتطوعين، وإلا فستتكرر المأساة لاحقاً.. سأل جمال:

- ماذا نعرف عن ممدوح..؟؟ إنه لا يتصرف أحيانا كجندي مدرَّب بل يتصرف كأزعر.. يختلق الخلافات والمشاجرات مع كل الشباب.. وخاصة علي الذي تشاجر معه لسبب تافه بسيط لا أذكره لتفاهته.. حتى أنه استلَّ سكسناً في وجه علي مما اضطرني للتدخل وفض الخلاف.. هذا الرجل من المفترض أن يكون إلى جانبنا.... أجاب الرائد:

- دعنا ننتظر الليلة. فإن لم يحضر للصباح فلا بد وأن تكون شكوكنا صائبة.. وقد أخبرني أحد العناصر لدينا وكان مجنداً في الشرطة العسكرية بعض الأشياء عن ممدوح.. فخرج أحمد للفور وأحضر أحد العناصر، وطلب إليه أن يخبرهم ما يعرف عن ممدوح.. فانبرى قائلاً:

- نعم سيدي.. ممدوح من دير الزور.. أي من نفس مدينتي.. وأعلم أنه كان السائق الشخصي لمدير فرع المخابرات الجوية هناك اللواء جميل حسن.. ولما رأيته هنا وسألت عن سبب تواجده أخبروني أنه كان من أفراد الحرس الجمهوري وهذا ما فاجأني، ويعلم جميع سكان دير الزور أنه ليس من أفراد الحرس الجمهوري.. سأله جمال:

- وهل جابهته بهذا الأمر..؟؟

- نعم.. لقد سألته ولكن نفى أن يكون من دير الزور أصلاً وادعى أنه من الحسكة..

شكره الرائد وعاد المقاتل إلى موقعه.. قال أحمد وقد عمَّ الشكُّ ملامحه:

- لا بد وأنه هو.. ممدوح.. كم يا ترى من جواسيس الأسد تم دسّهم بيننا... فقال الرائد:

– علينا أن نتأكد من كل المتطوعين الجدد ونستقصي خلفيتهم المسلكية قبل أن نلحقهم بالثوار.. وعلينا أن نبحث عن ممدوح في الصباح ونستمع لما سيقوله.. ومن الآن علينا أن نحضِّر العمليات مع الضباط وصف الضباط فقط.. فسأله جمال:

– وما عساها تكون أوامرك إن حضر في الصباح..؟؟

– إذا التحق بوحدتك صباحاً اتصل بي، ولا تتصرف قبل وصولي.. أرى أن الساعة باتت متأخرة.. أرى أن تأخذ حقك من الراحة..

– حسناً سوف أغادر الآن وأخبرك صباحاً عما يستجد معنا..

– وبالمناسبة يا جمال أرى أنك بحاجة لبعض الراحة.. وأقترح أن تأخذ إجازة لبضعة أيام تسافر فيها إلى تركيا وتنعم بصحبة أسرتك في تركيا التي لا بد وأنها اشتاقت إليك كما اشتقت أنت إليهم....

– ولكن كيف يمكن ذلك..؟؟

– يمكننا تدبر الأمر بأخذك عبر جبل الزاوية..

– لا يمكنني أن أترك واجبي هنا يا سيدي..

– أنا أقدر لك هذا الدأب والتصميم.. غير أنني سوف أعيّن نائبك ليأخذ مكانك ريثما تعود.. وسوف لن يطول غيابك لأكثر من ٢٤ ساعة.. أرجو أن تفكر في الأمر وتخبرني حالما تكون جاهزاً..

– شكراً لك يا سيدي.. وعمت مساءً..

غادر جمال وسائقه قيادة الموقع وعاد إلى وحدته يغمره الفرح والحبور لاحتمال الاجتماع بأسرته قريباً، وأمضى أكثر ليلته حتى الفجر يفكر في أسرته وأولاده والمستقبل الذي ينتظرهم.. وأمضى معظم الليلة يتقلب إلى أن أعياه النعاس فاستسلم لنوم عميق..

وصلت الأنباء في صباح اليوم التالي عن دعم روسيا المطلق للأسد ونظامه وبغض النظر عن قرار جامعة الدول العربية أو الدول الغربية لحل الأزمة.

و يبدو أن قيمة الصفقة العسكرية الأخيرة مع روسيا حوالي نصف مليار دولار لشراء أربعين طائرة هجومية، إضافة إلى بعض الأسلحة الأخرى التي بلغت قيمتها سبعمائة مليون دولار مما يفسر دعمها للأسد ونظامه.. لقد أثبتت الثورة السورية أنها الأكثر دموية بين ثورات الربيع العربي. كما أن الإصابات والتدمير التي ارتكبها النظام قد بلغت أرقاماً تدعو للدهشة والعجب.. وخلال كل هذه الأزمة وقف العالم صامتاً ساكناً حيال حق النقض الذي مارسه الروس وتبعهم الصينيون مما شل حركة باقي الدول، وكبد الشعب السوري خسائر فادحة في الأرواح والأموال ودمار البيوت والقرى والمدن، إذ فتح هذا الفيتو الباب أمام تجار السلاح الروس إلى بيع المزيد من الأسلحة للنظام السوري الذي أمعن بقتل الشعب وتدمير البنى التحتية بطريقة غير مسبوقة في التاريخ، وأضاف انقسام وتشرذم المعارضة واختلافهم على بعض المسائل الشكلية والسطحية إلى تجاهل الغرب، دولاً كانت أو مؤسسات دولية، مطالب الشعب ومعاناته، ولم يبق للشعب سوى أمل واحد في استعادة كرامتهم وحريتهم، ألا وهو الجيش السوري الحر، وساد الاعتقاد بأن خسارة الجيش الحر لهذه الحرب سوف تحول هذه الثورة الى مجرد رقم إحصائي يضاف إلى ما سبقها من ثورات كثورة حماة عام ١٩٨٢، لا أكثر ولا أقل..

بدأ هذا الصباح، أضافة إلى الأخبار السيئة، بقصف مدفعي من دبابات ومدافع النظام الثقيلة لتدمير مدرسة اليعربية وما فيها من عناصر الجيش الحر.. وكان النظام

يهدف إلى رفع عدد ضحايا المدنيين إلى /٢٠٠/ أو أكثر يومياً، بدأ القصف ساعة جلوس الثوار لتناول الإفطار المؤلف من الخبز والشاي، ومع تواضع ما يقدم لهم فقد كانوا مصممين على الاستمرار في معركتهم لأن الجيران يعانون الأمرَّين لإحضار الطعام لهم، خاصة وأن المؤن باتت قليلة بل نادرة..

بات نبيل تلك الليلة بحالة مستقرة، وكان القرار قد اتخذ لنقله إلى تركيا أو لبنان لمتابعة العلاج تحت ظروف طبية أفضل نسبياً، أما جمال فقد بات مشغول الفكر بقضية ممدوح وغيابه.. ومع ذلك فقد ارتدى الزي العسكري بعد أن قام بروتينيه اليومي من حلاقة الذقن، تنظيف الأسنان وغيرها من العادات التي باتت متأصلة فيه، وشرع يسأل عن ممدوح عما إذا رآه أحد دون أن يحظى بإجابة (نعم)، دخل غرفة العمليات حيث بعض الثوار يتهيؤون لنوبة الحراسة وآخرون ينظفون أسلحتهم كما عودهم جمال على ذلك يومياً، جلس أمام جهاز الكمبيوتر وراح يستمع إلى بعض الأخبار من قناة الجزيرة وتحلَّق بعض الشباب حوله للاستماع، ولم تتعد الأخبار عما يجري في سوريا إلا قليلاً وعن منجزات الجيش الحر في أنحاء مختلفة من سوريا، فمازح جمال الثوار من حوله قائلاً:

– هل أسعدتكم الأخبار؟؟.. ها أنتم تصبحون ببطولاتكم محور الأخبار العالمية، وفي هذه اللحظة دخل جابر الغرفة ونظر في عيني جمال وطلب إليه الحضور لرؤية أمر ما.. نهض جمال وتابع جابر إلى النافذة حيث أشار برأسه إلى الشاحنة البيضاء وبجانبها ممدوح يتكلم بعفوية مطلقة مع بعض الحراس، وما إن رآه حتى أرسل رسالة مشفرة على الهاتف: «لقد عاد العصفور.. وهو معنا هنا..».

وبعد ثوانٍ جاء الردُّ: انتظر.. نحن في الطريق إليكم.... فأخبر جابر بقدوم الرائد وطلب إليه أن يراقب ممدوح دون أن يلفت انتباهه.

وصل الرائد فراس يرافقه أحمد وعنصران من الثوار، نزل أحمد والرائد من السيارة وتبعهما العنصران اللذان توجها إلى ممدوح مباشرة حيث قيدا يديه بشكل مفاجئ مما شلَّ تفكيره أو مقاومته وقاداه إلى مدخل إحدى الغرف ليواجه الرائد، وأحمد وجمال وجاب، وبادره أحمد بالسؤال: «أين كنت ليلة البارحة..؟؟».

– كان علي أن أغادر.. فقد انكشف موقعي من قبل قوات النظام.. غير أن الذعر والرعب بديا ظاهرين على صوته.... فقال جابر:

– ولكنك غادرت قبل أن يبدأ الالتحام بفترة طويلة.. فأجاب:

كنت مذعوراً.. خائفاً.. غادرت لأنني كنت خائفاً.. فسأله أحمد:

– وأين أمضيت ليلة البارحة..؟؟.. فأجاب والخوف يسيطر على أجوبته:

– ذهبت إلى منزل أحد أصدقائي.. فسأله أحمد:

– ولِمَ لم تعد إلى القاعدة حسب الأوامر.. فأجاب:

– ألم تكن الطرق مقطوعة بالحواجز الأمنية.. توقف أحمد عن الأسئلة وفاجأه الرائد بسؤال مباشر:

– هل تعرف اللواء جميل حسن..؟؟.. جاء السؤال ليضفي عليه غمامة من التردد والتشويش بالفكر.. فحاول الهرب باتجاه البوابة.. أخذ جمال مسدسه بسرعة البرق من قرابه وسدد باتجاه ممدوح الذي تغلب عليه الحارسان ولطمه أحدهما على رأسه، ثم أعاده للوقوف أمام الضباط، فقال الرائد:

– إذن أنت تعرفه.. وكان صمت ممدوح ونظره للأسفل الجواب الكافي.. وتابع الرائد: وكم من المعلومات أعطيته عن وحدتنا.. فتلعثم قليلاً ثم أجاب:

– لقد أجبروني على التجسس عليكم صدقاً سيدي.. لقد أجبروني..

فسأله أحمد: ومنذ متى التحقت بالشبيحة.. فأجاب باكياً:

– للتو سيدي.. فأنا رجل فقير وبحاجة للمال.. أرجوكم ارحموني فلدي أربعة أولاد وأسرة أعيلها.. فسأله جمال:

– أربعة أولاد.. ماذا عساهم يقولون أو يفكرون أن والدهم قد خان شعبه وباع قضيتهم بدريهمات تافهة.. فسأله أحمد عن مدينته ومسقط رأسه فأجاب: الحسكة. ففاجأه أحمد بسرد بعض التفاصيل عنه:

– إذن.. الفيلا المسجلة باسمك في دير الزور.. ليست ملكاً لك.. والشقة التي تساوي عشرين مليون ليرة ليست ملكاً لك.. والشاب المدعو حسين ويدرس في الولايات المتحدة ويكلف خزينة الشعب السوري عشرة آلاف دولار شهرياً ليس ابنك.. والسيارة المرسيدس أما الشقة في دمشق ليست لك.. والزوجة التي اسمها بثينة والتي تصرف عشرات الآلاف من الدولار في جولاتها التسوقية في أوروبا ليست زوجتك.. وأن الشخص المدعو ممدوح أبو الزين المولود في دير الزور في ١٩٦٥/٤/٢ الذي يعمل لدى اللواء كحارس شخصي منذ عشر سنوات حتى الآن هو ليس أنت!؟!؟

أعجب الرائد وجمال بهذه المعلومات التي سردها أحمد وبالأسلوب الذي استخدمه لاستجواب ممدوح، انفرد الرائد بجمال وأحمد للتداول فسأله فراس عن مصدر كل هذه المعلومات الدقيقة عن ممدوح، فأجاب بكل صراحة:

– سيدي.. قد لا أكون مقاتلاً بارعاً ولكنني قد أكون قادراً على القيام بأشياء أخرى ببراعة.. وقد قمت ببعض التحريات..

فمازحه جمال قائلاً: كان حرياً بك أن تكون محامياً لا مهندساً.. أعاد أحمد سؤاله ثانية:

– والآن.. هل لي أن أسألك مرة ثانية.. هل تنوي أن تعلمنا حول مدى معرفة النظام عن وجودنا هنا وما يحويه موقعنا..؟؟ لا سيما وأننا قد توصلنا لمعرفة أكيدة أنك جاسوس..

وقف ممدوح وعدَّل هندامه واستعاد ثقته بنفسه وفاجأهم بقوله:

– أنتم أيها الكلاب.. سوف نقطعكم إرباً إرباً ونرميكم في المجارير بعد أن يفرغ من قتلكم قائدنا الفذ الممجد بشار الأسد.. ثم صاح بأعلى صوته: سوريا هي بشار.. لا إله إلا بشار، ولن يغير ذلك أحد إلى ألف سنة، يعيش بشار الأسد إلى الأبد..

ولم يتردد الرائد فراس ثانية واحدة خشية من أن يسمع الجيران نباح هذا الكلب المسعور يصدر من مقر قيادة الجيش الحر.. فأخذ مسدسه من قرابه ووجهه إلى جبهة ممدوح وأطلق رصاصة واحدة اخترقت رأسه وخرجت مع بعض أجزاء دماغه من الخلف، وخر الخائن الخسيس مضرجاً بدمائه النجسة..

سحب الجنديان الحارسان الجثة إلى الخارج، ووضعاها في الشاحنة الصغيرة وغادرا الموقع مسرعين دون أن ينبسا بشفة..

استدار الضباط الثلاثة حولهم ودخلوا البناية دون أن يتكلموا، وقد شهد معظم الثوار في مفرزة جمال تنفيذ الإعدام بهذا المجرم، وقد تغيرت لديهم صورة الرائد الرقيق

الناعم، حتى أن جمال لم يكن يتوقع أن يقدم رئيسه على عمل يتطلب شجاعة وبأساً كهذا الذي قام به للتو.. أما أحمد فكان يدرك تماماً أن لا خيار آخر بقي للرائد فراس، وآمن كجميع الحاضرين بأنه لا بد من معاقبة هذا القذر الخسيس.. وكان تنفيذ الإعدام بهذا الشكل رسالة لكل من تسول له نفسه الخيانة بأن العقاب بالانتظار.. وبما أنه لا يمكن ترميم ما أفسده ممدوح فإن على الأبطال المجاهدين أن يتقبلوا خسارتهم بشجاعة وواقعية.. وبأن الجواسيس لا بد من تواجدهم في كل مكان وزمان مهما بلغت سرية العمل، ولهذا فعليهم أن يتوخوا الحذر في كل مرة تردهم دفعة جديدة من المتطوعين..

لقد كان تصرف الرائد فراس تصرفاً حكيماً وأنموذجاً لكل قائد ميداني ليفرض الاحترام والطاعة على عناصره، وكأنه يعلم بأن أية محاكمة عسكرية لشخص مدني ما، ما هي إلا إضاعة للوقت.. كما أنه في حالة حرب.. وفي الحروب كثيراً ما تحدث اختراقات أمنية.. ومع أنه لم يكن سعيداً بتنفيذ الحكم غير أنه رأى أن واجبه كقائد أن يقوم بتنفيذ ذلك شخصياً لكي يفرض احترامه على جميع عناصره.. وتوجه إلى جمال وأحمد ويداه ترتجفان وقال:

– لن أقبل بأية خيانة من عناصرنا.. فأجاباه:

– بالتأكيد سيدي.. سوف نقوم بتقييم جميع عناصرنا كما قررنا سابقاً.. قال فراس:

– علينا أن نعود إلى المقر الرئيس ونفكر بتغيير المكان بكامله بعد هذا الاختراق..

وهنا تكلم أحمد وكأنه يحاول أن يعدِّل مزاج الحاضرين فقال: أرى أن من واجبي أن أعطي جمال بعض الأخبار السارة.. ونظر إلى جمال نظرة مشفوعة بابتسامة خفيفة..

فسأله جمال: ما هي هذه الأخبار.. قل لي بسرعة.. فأجاب: سوف تكلم أسرتك في غضون /٤٥/ دقيقة من الآن..

فابتسم جمال ابتسامة عريض وتأكد من قول أحمد الذي أكد له وقال: استعمل هذا الاسم على السكايب.. وأعطاه قطعة ورق عليها بعض الكلمات.. وأضاف: لقد أمنت زهراء هذه المكالمة وقد أبقت عبد الرزاق عندها حتى أكد لها الموعد والوقت المحدد للمكالمة.. أرجو أن تتمتع بسماع أصوات ورؤية وجوه أفراد أسرتك جميعاً.... قال فراس موجهاً كلامه لجمال:

– أسعدني أنك ستنعم بمشاهدة وسماع أصوات أسرتك.. ولكن علينا بعد ذلك التفكير بإعادة التموضع.. فلنذهب في إحدى الشاحنات ونبحث عن موقع آخر.. وسنتحرك حوالي الساعة /١٤,٠٠/... وغادر المكان يتبعه أحمد

جلس جمال في الغرفة يمني نفسه برؤية زوجته وأولاده والتحدث إليهم.. فقد طال غيابه عنهم وتاقت النفس إلى لقائهم، وكم كان ممتناً لزهراء على هذه الترتيبات، وما إن مضت الدقائق الخمس والأربعون حتى ظهر وجه رشا (زوجته) على شاشة الكمبيوتر باسمة ودمعتين ترقرقان في عينيها:

– سلاماً يا حبيبي.. لقد تاقت نفسي لرؤيتك.. وكذلك الأولاد في أشد الشوق لرؤيتك ومكالمتك..

– لقد افتقدتك يا أم نائل.. أين الأولاد..؟؟.. وفجأة ظهر الوجوه الثلاثة الصغيرة وملأت الشاشة وهم يتدافعون ويتضاحكون، وكانت فرح متوسطة بين أخويها.. وابتدرته كمن تعاتبه:

– لقد اشتقت إليك يا بابا.. لماذا لم تأتِ لعندنا..؟؟

– نعم يا أميرتي الصغيرة.. وأنا افتقدتك وأمك وأخويك.. أرجو أن تكوني فتاة رائعة وتساعدي أمك..

– حتماً.. بالطبع.. غير أن ماما لم تكن فتاة جيدة.. وأخواي عفريتان وأشقياء ولا يصغيان لأوامري.. فسأله وقلبه ينبض بسرعة ووجهه تملؤه ابتسامة تنمُّ عن مدى سعادته بهذه المحادثة البريئة مع أميرته:

– ولماذا لم تكن أمك فتاة جيدة..؟ أجابته كمن يشتكي أمراً جليلاً:

– إنها تطعمني طعاماً لا أحبه.. وتجعلني أخلد للنوم قبل الولدين.

– سوف أحضر لك كل الطعام الذي تحبينه عندما أحضر لزيارتكم.. أما بالنسبة لموعد نومك المبكر فأرى أن ماما على حق.. فبما أنك الأصغر فجسمك بحاجة لساعات نوم أكثر من أخويك.... قاطع نائل الحديث بين والده وأخته وسأل والده: بابا.. هل أطلقت النار على بعض الأعداء..؟ أحرج السؤال جمال وتردد في الإجابة.. وشعرت رشا بذلك فقالت لنادر: هيا أخبر والدك عن مدرستك في تركيا.. فسأل جمال:

– ماذا تعنين.. مدرسة في تركيا.. أجابت:

– نعم.. يوجد هنا في أنطاكية بضع عائلات سورية استأجروا شقة وحولوها لما يشبه المدرسة، حيث التعليم كله باللغة العربية.. فكل التلاميذ من اللاجئين السوريين، وبلغني أنهم أقاموا مدرسة في المخيم أيضاً.. حيث يدرس الأولاد كما لو كانوا في مدارسهم الاعتيادية تقريباً.. ومما يُفرح ويثلج الصدر أن كل المعلمين والمعلمات من المتطوعين..

- هذا رائع يا شباب.. أخبروني ماذا تعلمتم..؟؟ فأجاب نادر:

- لقد تعلمنا علم الجبر.. ولعلمك فإن نائل لا يجيد علم الجبر بعد.. فرد نائل:

- لا.. لا.. هذا ليس بصحيح.. فأنا أفضل منه.. فصاحت فرح:

- أنا أفضل منهما الاثنين.. فقاطعتهم رشا وطلبت منهم مغادرة الغرفة لكي تنفرد بمحادثة جمال، فسألتها فرح بسذاجة الأطفال:

- ولما تكلمينه على انفراد.. أنا الابنة المفضلة والمدللة لديه. فرد عليها جمال:

- هذا صحيح يا حبيبتي.. فأنت المفضلة والمدللة.. ولكننا سنتكلم كلام كبار... وأرسل لها قبلة عبر السكايب..

- لقد تاقت نفسي إليك يا جمال.. وأنا أفكر بك ليل نهار.. أنت كل شيء في حياتنا.. كم أتمنى لو نجتمع معاً..

- وأنا كذلك يا رشا.. كم تاقت نفسي لرؤيتكم.. ولنأمل أن فترة فراقنا لن تطول كثيراً، فقد دفع الشعب السوري البطل أثماناً باهظة في سبيل الحصول على حريته وكرامته..

- كيف تدبر أمورك..؟؟

- نحن بخير والحمد لله.. ونحقق نجاحات أفضل من توقعاتنا..

- أنا أعرف يا حبيبي، وأعرف أنك لن تقول لي ما تعانيه.. أحبك.. اشتقت إليك.. وأريد أن تكون معنا..

– أجل.. أجل.. قريباً بإذن الله.. هل لي أن أرى الأولاد ثانية..؟؟

ظهرت وجوه الأولاد الصغيرة وضحكاتهم تملأ الشاشة وأصوات قهقهاتهم تنبئ عن سعادتهم مع والدهم، وحيوا والدهم تحية الوداع على أمل اللقاء.. ثم ظهر وجه رشا التي كانت تغالب دموعها دون جدوى، فقد كانت تحلم بضمة من زوجها أو لمسة حنان تحمل معها الأمان والحماية التي يضفيهما وجوده على كل أفراد الأسرة.. ورجته مراراً وتكرارً أن يتصل بها ثانية وبشكل دائم.. ثم أنهى جمال المحادثة بقبلة على الشاشة مع تمنياته لها وللأولاد ووعد غير مؤكد بالاجتماع قريباً.. وودعها كمن يودع أغلى ما يملك.. زوجته وأولاده.. فبالرغم من قسوته وجبروته كعسكري فإن زوجته وأولاده يشكلون النقطة الأضعف لديه..

أحب جمال زوجته رشا حباً لا مثيل له.. والأهم أنه يحترمها لما قدمته له من سعادة وتفهم لوضعه، فلم تشعره يوماً أنه دون غيره لسبب قلة الأموال بين يديه، إذ أنه كان عسكرياً محترفاً.. ولم تغيره الأساليب الملتوية أو الفساد الذي يعم كافة قطاعات الدولة والجيش خصوصاً بأن يلجأ إلى تقبل الرشاوى أو السرقة (سرقة الأكل واللحمة والسكر والبطانيات والشراشف وبيعها في سوق الحرامية المعروف في كل مدينة في سوريا..) رغم عوزه في بعض الأحيان لبعض المال الإضافي لتدبير أمور أسرته.. بل ظلَّ شامخاً مرفوع الرأس معتمداً على الله وعلى قناعة زوجته رشا في حياة يملؤها الحب والعطف والحنان، ولم تكن تملؤها المجوهرات والدولارات المنهوبة من قوت الشعب.. لقد كانت رشا ولا زالت عوناً وسنداً له على تحمل أعباء العمل، فلم تشكُ يوماً من قلة المواد.. ولا من ضيق وصغر الشقة التي يستأجرونها.. ولا من غيابه المتكرر في مهمات يفرضها عليه وضعه العسكري كجندي محترف..

وكان يعلم أنه نادراً ما كان يعرب لها عن مدى حبه لها، غير أنها كانت تعي أنه يعرب لها عن حبه وتقديره بأسلوبه الخاص، والذي يمكن تلخيصه بالاحترام والعطف و الحنان والانجذاب اللامتناهي لها... وقد طالما شجعته على أن ينهي دراسة الحقوق، واستمعت إلى آرائه التحررية والتي تتنافى مع تربيتها المحافظة.. وأعجبت بأفكاره وأحلامه، ولطالما أعجبت بدأبه وحرصه على بلوغ الأمثل من كل شيء.. فلقد كانت معجبة بأسلوبه فيما يناقش مع زملائه من أمور سياسية أو اقتصادية أو حتى دينية.. لقد كان جمال بالنسبة لها البطل الذي هو أكبر من الحياة منذ أول يوم رأته.. وجمال بادلها المشاعر وإنما بطريقته هو....

جمال كان يعلم تمام العلم أن الشعب السوري دفع ثمناً باهظاً لنيل حريته، وأن ما يجري الآن مجرد البداية، وسيستمر هذا النزيف لفترة طويلة.. وقد تكون طويلة جداً لأن الشعب قد قرر أن يتخلص من هذه العصابة الأسدية ومن لف لفها من الفاسدين والمفسدين من أقارب وأتباع حازوا على امتيازات وظيفية ومالية، وجردوا باقي أفراد المجتمع من أحلامهم وآمالهم، ويعلم أيضاً أن هذه الثورة سوف تكون أكثر دموية من ثورة تونس ومصر وليبيا وحتى العراق، وكل ما كان يحلم به أن يعيش ليرى نهاية هذا العهد الديكتاتوري الظالم المجرم..

أما بالنسبة لجثة الخائن ممدوح فقد وجدها الشبيحة ملقاة على قارعة الطريق بين حمص وحماة أمام مبنى المخابرات الجوية، ولم يتبنَ الجيش الحر عملية إعدامه لكن الرسالة من خلال هذه الجثة كانت واضحة للنظام وأزلامه.. انتقل الرائد فراس وقيادته من موقعهم بعد أن اعترف ممدوح بإبلاغ النظام عن موقع العناصر المتواجدة فيه إلى موقع جديد قريب من مسجد الزبير بن العوام.. فانتقل جمال وفصيلته إلى مكان مجاور لمقبرة بابا عمرو كموقع متقدم على طريق دمشق – حلب، الذي يشكل جزءاً من مسرح

العمليات للانقضاض على الحواجز الأمنية المنتشرة في الجوار.. فكانت غرفة الرائد فراس أصغر من سابقتها وأقل تأثيثاً، فالبناء مؤلف من طابقين تبرع به أحد رجال الأعمال الداعمين للثورة، وكان يتوسط الموقع نافورة ماء تجمدت بفعل البرد القارس، وحوَّل المجاهدون الغرف العلوية إلى نقاط مراقبة مجهزة بأسلحة رشاشة تحسباً لما قد يأتي من مفاجآت.. أما الغرف السفلية على مستوى الشارع فقد أعدت كغرف نوم للمجاهدين، ووضع حاجز من أكياس الرمل على مدخل البناء، وموّهت السيارات في الأزقة المجاورة والمقابلة للموقع.. يعود المكان لجد المتبرع به والذي كان يمارس التجارة فيه، فكان يستقبل عدداً كبيراً من الزوار الذين يحضرون بضائعهم فيمكثون ليوم أو أيام ريثما يتم تصريف البضاعة ويقبضون أثمانها، واستمر هذا المكان لأكثر من قرن من الزمن يتعاقب عليه أولاد وأحفاد الجد المؤسس وسط حقول زراعية خضراء إلى أن طغى البناء الحديث حوله فقزَّمه فغدا بيتاً عتيقاً إذا ما قورن بما حوله من أبنية شامخة.. أخذ جمال وزمرته الكشافة موقعهم غربي مقبرة بابا عمرو قريباً من مدرسة أبو تمام التلّي يحيط به بعض البيوت المتواضعة يقطنها السكان من ذوي الدخل المتوسط، كما هي حال معظم سكان بابا عمرو، وحوَّل جمال وزمرته مخزن المحاصيل القديم إلى مقر للمجاهدين وعتادهم، وحوَّلوا بعض الغرف إلى مكاتب ومقر للاتصالات والعمليات، ونام بعض المقاتلين تحت سقيفة من الألمنيوم نظراً لضيق المكان.. وهرع الشباب إلى تنظيف المكان وإزالة القوارض والأقذار قدر المستطاع وباستعمال ما هو متاح لهم من مواد تنظيف.. وتبرع عدد من السكان ببعض البطانيات وفرن للطبخ حتى غدا المكان بعد يومين مقراً لأكثر من خمسين مقاتلاً.. وزع جمال المهام على عناصره، فكان جدول المناوبة للمراقبة يغطي الـ٢٤ ساعة ويرأس كل نوبة حراسة ضابط أو صف ضابط، وكلف علي بتوثيق كل تبرع أو مساهمة أو نفقات بدقة.. كما وثق العمليات مفصلة مع تحديد أسماء المصابين وطبيعة الإصابات، ونظم جدولاً يومياً للرياضة (إذا سمح لهم الوقت) والصلاة لمن يرغب بأدائها، وإجازات قصيرة لمن يرغب

زيارة أهله والاطمئنان عليهم، كل ذلك حسب الظروف القائمة.. وكان يشحذ هممهم بالتشجيع، وزرع فيهم الأمل، مما رفع معنويات المقاتلين المنهكين بعد كل عملية يقومون بها.. ولم يكن ليقبل أي متطوعين مدنيين في وحدته، بل أصر على الانتقاء من المجندين أو المتطوعين الذين خبروا الحياة العسكرية ويقدرون أهمية مهمتهم.. وكان يحدثهم عن ويشاركهم بعض ما تعرض له خلال فترة تطوعه بالجيش من إهانة ومذلة على يد الضباط العلويين العنصريين، وكيف أن ضابط صف صغير علوي كان أكبر تأثيراً في القطعة من أكبر ضابط سني، كما كان يلقنهم خلال هذه الأحاديث بعض التكتيكات الحديثة والقواعد الأساسية في حرب الشوارع التي يخوضها مع رفاقه المجاهدين.. وكان الشباب يلتفُّون حوله ويصغون له إليه بشغف واهتمام مما جعله قائداً متميزاً ومحبوباً ومطاعاً من قبل عناصره.. وكانت عمليات المجاهدين اليومية بما لديهم من أسلحة خفيفة ومعنويات عالية مؤثر على معنويات عصابات الأسد وتؤلمهم وتكبدهم خسائر جسيمة في العتاد والأفراد، ليس في بابا عمرو فحسب، بل وفي الخالدية والحميدية، بل وخارج حمص كجبل الزاوية والزبداني ودرعا وإدلب ودير الزور، مما أفقد النظام رشده وراح ينتقم من الحاضنة الشعبية للثورة بقصف المناطق المأهولة بالسكان لتدمير المباني وإسقاط أكبر عدد ممكن من الضحايا، فكان الضحايا المدنيين الأبرياء العزل يسقطون بالمئات يومياً، ولم تثن هذه المجازر الوحشية الشعب عن دعمه للثورة والثوار، بل بالعكس زادتهم إيماناً بقضيتهم وطلبهم للحرية والمساواة وإيمانهم بالنصر باهظ الثمن ولكن غير مستحيل بل وقريب المنال.. وبات واضحاً أن النظام غير قادر على مجابهة الجيش الحر الذي اخترق جيش النظام بعمق وبات يهدد بالسقوط الوشيك، لا سيما وأن الجيش الحر اتبع أسلوب الكر والفر فلم يعد النظام قادراً على حفظ ماء وجهه أمام داعميه من روس وإيرانيين، فزاد عدد ضحايا النظام باضطراد عقب كل مجابهة مع الجيش الحر، مما زرع الرعب في نفوس جنوده وتحطمت معنوياتهم إلى الحضيض، وتحاشياً لانهيار آني اتبع النظام الأسلوب الذي

اتبعه عام ١٩٨٢ في حماة، أي قصف عشوائي يدمر كل البنى التحتية ويوقع أكبر عدد ممكن من القتلى المدنيين..

في الساعة الواحدة من فجر يوم الثالث من شباط شرع النظام بعملية إجرامية غير مسبوقة بقصف ثلاث مناطق من حمص هي: بابا عمرو، باب السباع، والخالدية، قصفاً مريعاً مستخدماً الدبابات T72، المدافع الثقيلة ومدافع الهاون بشكل وحشي دون أي اعتبار لأرواح المدنيين أو الممتلكات، واختار الجيش الحر، بعد دراسة الموقف، عدم الرد بالمثل بل آثر الدفاع عن النفس ومساعدة المدنيين وإسعاف الضحايا في المشفى الميداني في بابا عمرو، وكشف الصبح نتائج هذا القصف الوحشي عن مائة شهيد و/١٣٠٠/ جريح، عدا عمن قضى تحت الأنقاض وتعذر إخراجهم فامتلأت المشافي الميدانية بالجرحى وأصبح الوضع مأساوياً بكل معنى الكلمة، وزاد من مأساوية الوضع منع النظام لأي سيارات إسعاف أو رجال إسعاف أو سيارات الإطفاء من دخول المناطق المقصوفة، إمعاناً منه في رفع عدد الضحايا وتعطيل إسعاف الجرحى والمطمورين تحت الأنقاض، بل وأطلقوا النار على كل من حاول الهرب من هذا الجحيم.. استنفرت كل وحدات الجيش الحر وأمرت بالتوجه إلى المناطق المنكوبة لتقديم يد العون للمواطنين العزل الأبرياء.. تحرك جمال ورجاله الخمسين بسرعة لإخراج الجرحى وجلبهم إلى المشافي الميدانية رغم كثافة القصف العشوائي، ورغم إعطاب الجيش النظامي كافة المركبات والشاحنات التي قد تستخدم في نقل الجرحى، لكن جمال ورجاله تمكنوا من انتشال بعض الجرحى من تحت الأنقاض وكانوا أحياناً يستخرجون أجزاءً من جثث مزقتها قذائف قوات النظام الوحشي، وكانت حصيلة ذلك اليوم إنقاذ عدة مئات من الضحايا أطفالاً ونساءً وشيوخاً لم يوفر النظام المتوحش أي أسلوب في ضربهم وقتلهم.. وأشاع النظام قرب سقوط بابا عمرو في يده، لا سيما وأن المجاهدين مشغولين بإنقاذ ضحايا القصف وإسعاف من بقي حياً منهم.. وفي نفس الوقت كان جمال ورجاله يهيئون ويخططون إلى هجمة انتقامية من

الجيش الباغي والظالم، فكان يفكر بمهاجمة نقاط ضعف النظام وحواجزه، ولكن بعد التفكير المديد وتحليل المعلومات الاستطلاعية قرر مهاجمة الحاجز في قلب منطقة الخالدية حيث يتواجد حوالي عشرين عنصراً من ضباط وصف ضباط وعناصر مخابرات، إضافة إلى كمية مغرية من الأسلحة والذخائر التي كانت تمدُّ الحواجز الأخرى على الطرف الشمالي الشرقي من المدينة..

خطط جمال للقيام بعملية انتقامية في وضح النهار وأثناء قيام المواطنين بمظاهرتهم اليومية، وكانت يهدف من وراء التوقيت أن يثبت للنظام وزبانيته وإلى المواطنين قدرة الجيش الحر على القيام بأي عمل وباختيار الزمان والمكان.. وكان مخطط العملية أن يأسر أكبر عدد ممكن من عناصر النظام والشبيحة على الحاجز في الساعة الثالثة ظهراً، وقام بالتنسيق مع اللجنة المحلية باصطناع مظاهرة في الساعة الثالثة بعد الظهر لتتزامن مع موعده بالانقضاض على الحاجز.. خلد إلى بعض الراحة ليوفر قوته وطاقته لمخطط الغد.. وراجع كل تفاصيل العملية وشدد في ذهنه على السرعة والتوقيت وبلوغ الهدف من العملية، وحوالي الساعة الثانية عشر ظهراً بدا الجميع مستعدون للتحرك وتحلقوا حول جمال الذي زاد عدد الحراس حول الموقع تحسباً لتحرك الدبابات T72 والـ BTR باتجاه بابا عمرو فابتدأهم بالحديث قائلاً:

– يا شباب.. رغم معرفتي بشوقكم واستعدادكم للمشاركة في هذه العملية اليوم.. غير أنني لا أحتاج غير ثمانية مقاتلين وأربعة سائقين للقيام بالمهمة على الوجه الأكمل.. ومع أن بعضكم قد يصاب بخيبة أمل.. غير أن ما ستقومون به هنا من تنظيف وتوضيب المكان تحسباً لما هو قادم من أحداث لا يقل أهمية عن مشاركتكم الفعالة في المهمة.. وسأقود هذه القوة الصغيرة بسرعة البرق لنأسر جميع العناصر على الحاجز أمام المتظاهرين، لأبين لهم أنا هنا لحمايتهم والثأر لمن فقدوا من أحبابهم، وسنتحرك بسرعة خاطفة لأننا

نملك عامل المفاجأة لأسر كل العناصر المتواجدة في الحاجز على مفترق طرق أساسي في المدينة.. ونظر في وجوه رحاله المتحفزين للمشاركة، فسأله أحدهم: أهو حاجز دوار القاهرة..؟؟ بين الخالدية والبياضة.. فأجابه جمال بالإيجاب... فقال العنصر: مع كل الاحترام لمخططك يا سيدي ولكن هذه عملية انتحارية.. فأجاب جمال: ليس لدي مدفعية أو دبابات أو راجمات صواريخ أو سلاح بحرية أو قوة جوية أو جيش مؤلف من ربع مليون جندي.. ولكننا حتماً نملك الإرادة والشجاعة على الانتصار، لا نعتمد في قوتنا على الدعم اللوجستي، ولكن على الله أولاً ثم تصميمنا وعزمنا على العيش بحرية وكرامة.. لقد بدأنا السير في هذا الطريق ولن ندع الخوف أو التردد يثنينا عن الاستمرار لبلوغ النصر بإذن الله.. ولذا فأنا أطلب ممن يجد في نفسه الشجاعة والقدرة على خوض هذه المهمة الانتحارية فليتقدم خطوتين إلى الأمام.. فلطالما توقف المقاتل عن التفكير في موته فلسوف يخضع الانتصار لإرادته.. وما إن كاد ينهي حديثه حتى تقدم كل أفراد الفصيلة إلى الأمام رافعين أيديهم علامة الرغبة في التطوع.

التفت إلى المساعد لأول وطلب إليه أن يختار المتطوعين منهم....

المساعد الأول مالك في الأربعينات من عمره، ولكنه يبدو أكبر من عمره قليلاً لاجتياح الشيب شعره، تم إفراز إلى فصيلة جمال من سلاح المدفعية في الدفاع الجوي في الرستن، وكان يفتقر إلى الشخصية القيادية رغم خبرته العسكرية الطويلة، مما جعل العناصر لا يأخذونه على محمل الجد دائماً، فقرر جمال تغيير شخصية مالك ونظرة العناصر له مذ وصوله إلى وحدة جمال قبل أسبوع، فاستدعاه جمال وألقى عليه محاضرة أخوية حول توقعاته منه وكيف أن الانضباط يغير في معنويات العناصر، إضافة إلى أنه كان يريد أن يفرض عليه إمرته، فقد كان مالك يستهين بجمال قليلاً لأنه أحرز الرتبة بناءً على ترفيع إداري ميداني.. باشر مالك بمهمته دون تردد وبدأ يختار ثمانية رجال من أفراد

الفصيلة الذين كانوا يتدافعون مقدمين أنفسهم ليختارهم للمهمة الانتحارية إلى أن انتهى من اختيار الثمانية الذين أمرهم بالتوجه إلى جمال، الذي كان يتكلم مع الرائد فراس عبر الهاتف الجوال اذ كان يعطيه الأوامر للمهمة بلغة مشفرة، وانتظروه بضعة دقائق ريثما ينتهي من مكالمته، فاتجه إليهم ونظر في وجوههم وأخبرهم أن هذه المهمة تطوعية وغير إلزامية، ولمس فيهم جميعاً رغبة جامحة في المساهمة، فشرع يشرح لهم التفاصيل المهمة خطوة خطوة بكل تفاصيلها الدقيقة، فقال: إن الحاجز يقع على الجانب الغربي والجنوبي من دوار القاهرة، كما توجد بعض العناصر على الطرف المقابل، ولكن القدر الأكبر من عناصر النظام على الطرف الجنوبي الغربي مع بعض الاستحكامات شبه الدائمة.. وكان أثناء ذلك يشير إلى خريطة على شاشة الكمبيوتر لتوضيح ما يقوله، فأشار إلى أنهم سيتجهون إلى الحاجز في الساعة /١٥,٠٠/ من اتجاهين مختلفين بآن واحد، وأنهم سوف ينقسمون إلى فريقين على بعد /٥٠٠/ متر من الحاجز، ويقصدون الحاجز من الخلف من الشمال والغرب، وإذا ما صادف وجود عناصر من النظام في طريقهم فسوف يدافعون عن أنفسهم، وإلا فسوف يتحركون سريعاً..

وتوقف لثوانٍ قليلة ليستوعب الرجال أوامره، ثم تابع: سوف تنقلنا السيارات إلى نقطة على هذا الشارع (و أشار بيده) الموازي لشارع القاهرة، مما يعطينا وقتاً كافياً للانقضاض على الهدف، والتي أتوقع أن تبلغ ستة دقائق قبل الساعة الثالثة، وسوف تنتظرنا السيارات في نقطة الانطلاق، وإذا سارت الأمور كما نتوقع لبلوغ الهدف فسوف تتقدم السيارات بعد عشرة دقائق إلى الهدف، وعليكم أن لا تترددوا في الانقضاض بكل ثقة، حتى لو احتاج الأمر إلى الركض.. يا شباب إن سلاحنا الأهم هو السرعة والمباغتة، ولسوف يعتمد ردُّ فعلهم على السرعة التي تنقضون بها عليهم، فلا تسمحوا لهم ولا حتى طرفة عين واحدة وإلا فسيقضى علينا جميعاً.. ثم أعاد التأكيد على أهمية عامل السرعة والمباغتة، وإن وجد أحدكم نفسه غير مؤهل جسمياً لهذه المهمة الرجاء الانسحاب الآن

دون الشعور بالخجل أو الفشل، فذلك أفضل بكثير من البطء أثناء العملية وتكبيدنا خسائر بشرية لسنا مستعدين لتحملها.... فلم تبدُ أي مؤثرات التراجع على أي من الرجال.. فأضاف: سوف أكون مع الفريق الذي سيتجه شمالاً، وسوف يرافقني ثلاثة مجاهدين، أما الباقين فسوف يرافقون مالك إلى الدائرة الغربية، وتذكروا أن علينا أن نجمع أكبر عدد ممكن من الغنائم من سيارات وأسلحة وذخائر وطعام وأية لوازم طبية نجدها في الموقع.. وسوف نعود إلى سياراتنا في الساعة الثالثة وعشرة دقائق تماماً، مصطحبين معنا كل الأسرى إلى موقعنا هنا.. أنا أدرك أنها عملية دقيقة جداً ومحددة الوقت والمكان، غير أنها ستكون ضربة موجعة لمعنويات قوات النظام.. صمت قليلاً بعدما أعطى كل ما يمكن من التعليمات والتوجيهات، وسأل عن أي استفسار حتى هذه اللحظة دون أن يسمع أحداً منهم.. فاتجه إلى مالك وسأله ما إذا كان يريد أن يضيف أية ملاحظات على العملية.. فقال: يا شباب لا أرى ضرورة لتذكيركم بنظام الأخوة بينكم.. فسوف نلبس أقنعة أو كفيّات، ونرفع علم استقلال سوريا على موقع العدو بإذن الله، وأعطى العلم لأحد عناصره.. فأعلن جمال انتهاء الاجتماع وراح كل رجل يهيئ سلاحه وذخيرته للقيام بالعملية على أكمل وجه..

توجه جمع كبير من المتظاهرين (حسب الاتفاق مع اللجنة المحلية) إلى دوار القاهرة قادمين من الجهة الجنوبية للأوتوستراد يسيرون ببطء، ويرددون بصوت يهز الأرض: (الله أكبر..) وترددت أحياناً بعض النداءات ضد النظام والقتل العشوائي، وكانوا جميعاً عزَّل من السلاح ويرددون (سلمية.. سلمية..). أخذت عناصر النظام مواقعها فوراً وأشهروا أسلحتهم استعداداً للمواجهة الدموية.. وبينما كان آمر الحاجز يصدر أوامره للجنود بالقتل العمد، وصلت أربع شاحنات صغيرة تابعة للجيش الحر إلى مواقعها خلف الحاجز دون أن يلفتوا أنظار الجنود واختلط العناصر مع الجماهير المتظاهرة دون أن يلحظهم أحد، وبدأوا يركضون باتجاه الشمال، ثم انفصلوا إلى فريقين على بعد /٣٠٠/ متر من

الحاجز، وكانوا يركضون بسرعة البرق، ووصلوا إلى الحاجز بعد أقل من ثلاثة دقائق بتزامن دقيق.. قاد جمال الجناح الشمالي وقفز فوق الحاجز الاصطناعي بحمل بندقيته بيده، وفاجأ العناصر المتواجدة الذين ذهلوا من المفاجأة، فعاجل أحدهم بضربة من يده أفقدته صوابه وضرب آخر بعقب البندقية، وتابع ركضه فلحق بفريق مالك، ووجه بندقيته إلى صدر أحد الضباط مما أجبر باقي العناصر على رفع يديهم عالياً مستسلمين، ودخل باقي المجاهدين إلى خيمة ذات سقف معدني كانت تستخدم كمركز قيادة للحاجز، ولاحظ جمال هروب أحد العناصر من المكان راكضاً عبر الدوار فلحقه جمال وصارعه وطرحه أرضاً وأعاده إلى الموقع ليعرف بعد لحظة أنه الضابط المسؤول عن الحاجز.. جمع جمال أسراه وسارع بهم مع باقي الأفراد المجاهدين باتجاه سيارات النقل التي وصلت في الوقت المحدد، وأجبر المجاهدون عناصر النظام على جمع وحمل أسلحتهم وذخيرتهم وكل ما وجدوه من طعام ومستلزمات طبية، إضافة إلى سيارتي شبيحة كانوا مشغولين بإثارة الرعب في المتظاهرين.. رفع المجاهدون علم الثورة فوق الحاجز لتراه جموع المتظاهرين الذين صاحوا بأعلى صوتهم: الله أكبر.. الله أكبر..

استغرقت العملية سبع دقائق تماماً دون الحاجة لإطلاق رصاصة واحدة.. واتجهت السيارات مع حمولتها إلى مركز القيادة باتجاهات مختلفة وبسرعة خاطفة، فوصلت جميعها في تمام الساعة /١٥:٣٠/، حيث كان الرائد فراس وأحمد وعلي في انتظارهم، فاستقبلوهم بابتسامات تنم عن فرحهم بالنصر المبين..

نزل جمال وفريقه من السيارات واقتادوا الأسرى إلى زاوية في المستودع وجُرِّدوا من معاطفهم الواقية وأحزمتهم وكل مقتنياتهم التي سيستعملها المجاهدون الذين لا يملكون أية ألبسة واقية

استقبلهم فراس قائلاً: لا بد وأنكم فخورون بما أنجزتموه اليوم.. فصاح الرجال جميعاً: «يحيى جيش سوريا الحر..»، وبدا الفرح على وجوه المجاهدين الذين لم يتح لهم المشاركة في العملية، ثم فجأة دخل عدد من السكان ليشاهدوا بأم أعينهم فوز المجاهدين بالمعركة التي انتشرت أخبارها في كل أرجاء المدينة، بعد أقل من ساعة على بدئها، فراح الناس يرددون قصص شجاعة المجاهدين وكيف أن حفنة صغيرة منهم أسروا أكثر من خمسين أو مئة أو أكثر من ذلك من جنود النظام وشبيحته دون إطلاق رصاصة واحدة.. وكما هو معروف عن المنتصرين راحت الأرقام تتزايد في كل نقل للخبر من شخص لآخر.. ومشى جمال ورجاله بفخر واعتزاز بين صفوف المجاهدين والمدنيين مفعمين بنشوة النصر..

قرر فراس وجمال بدء مباحثات لاستبدال الأسرى بمعتقلين مدنيين لدى جلاوزة النظام.. وما طفق القصف العشوائي من عناصر النظام أن بدأ كالمطر دون توقف طوال فترة بعد الظهر، وشارك بالقصف الطائرات المروحية بما تحمل من مدافع وبراميل متفجرة، وكم تمنى أفراد الجيش الحر لو امتلكوا صواريخ سام٧ التي تحمل على الكتف لاصطياد هذه المروحيات التي كانت تحوم فوقهم دون هوادة.. وشرع النظام، بعد هذه الضربة الموجعة، بحشد قواته المدفعية والدبابات حول بابا عمرو وباب السباع لطرد المجاهدين من هاتين المنطقتين اللتين هبَّ أهلهما طلباً للحرية والكرامة، فيما وقف العالم بأجمعه يتفرج على هذه المجازر دون أن يأتي بأي عمل لمنع المزيد من المجازر..

اجتمع الرائد فراس بجمال ذات يوم وأبلغه قرار القيادة بضرورة نقله إلى جهة جبل الزاوية الذي كان يأخذ نصيبه من ضربات وقذائف النظام المجرم، وأن استلامه أحد المراكز القيادية هناك سوف يخفف ضغط مجرمي النظام عن حمص ودرعا وحماة ودير الزور وغيرها من مراكز الثورة، حاول جمال أن يعترض على قرار القيادة غير أن فراس أقنعه بضرورة

تواجده هناك، وأن ثلاثة ضباط سوف يحلون مكانه إذ توفر لديهم عدد كبير من الضباط مع توالي موجات الانشقاقات الأخيرة.. وتم الاتفاق على أن يغادر كلاً من جمال وأحمد في أقرب فرصة تسنح لهم، وسيأخذون الطريق الغربي إلى معرة النعمان إحدى أكبر مدن الجبل، وكان متوقعاً أن يغادروا في غضون الأربع وعشرين ساعة القادمة، مما أعطاهم الوقت الكافي لجمع أغراضهم وأسلحتهم.. وفي اليوم التالي وصلت دفعة جديدة من المنشقين إضافة إلى بعض عناصر من جنود النظام اللذين آثروا الانضمام إلى جنود الثورة والثوار، وكان بديل جمال نقيب في سلاح الجو، فاعترض جمال على قلة خبرته الميدانية، غير أن فراس لم يكن ليرفض أوامر القيادة.. فأذعن جمال للأوامر بانضباطه المعهود فيه، وأخذ النقيب الجديد وأعطاه أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الفصيلة ورجالها، ثم أخذه في جولة ميدانية، فمرا على كل الحواجز التي أقامها الجيش الحر في مواقعهم، وأراه الزقاق المسمى بزقاق القناصة، والذي عُرف بهذا الاسم لكثرة ما فقد السكان الأبرياء حياتهم وهم يحاولون اجتياز الشارع هرباً من القصف العشوائي المستمر.. وتمت عملية الاستلام والتسليم بين النقيبين بسلاسة ودون أية معيقات، غير أن جمال لا زال يشك في خبرة القادم الجديد وقدرته القيادية، غير أنه كجندي لا يمكنه أن يعترض على أوامر صدرت من القيادة..

استمر القصف الوحشي والعشوائي على حمص عموماً وبابا عمرو وباب سباع خصوصاً، ما زاد في أعداد الضحايا بشكل طغى عن قدرة الجيش الحر، ولم يعد يستطيع استيعاب المصابين لقلة المستلزمات الطبية وندرة الأطباء والمسعفين المتطوعين.. وامتد القصف إلى منطقة الإنشاءات، وازداد حشد قوات النظام وأسلحتهم الثقيلة، واستمر القصف التمهيدي يوماً كاملاً قبل اجتياح المنطقة.. هذا التكتيك يُتبع عادةً في مجابهة بين جيشين نظاميين، وليس بين جيش نظامي مدجج بالسلاح الثقيل يدمر ما يجده في طريقه من مساكن وأبنية فوق رؤوس ساكنيها ثم يعقبها مباشرة بمجزرة أو مجازر لا تبقي

ولا تذر.. فقد دمَّر الجيش النظامي الحجر والبشر.. وللغرابة قد يتساءل شخص ما لِمَا لم يطلق الجيش النظامي هذه الأسلحة والذخائر باتجاه هضبة الجولان المحتلة.. وإنما أُطلقت بإحكام تام في حماة عام ١٩٨٢م، وفي حمص ومعظم المدن السورية وأريافها عام ٢٠١١ وما بعده...

ونتيجة لهذا القصف العشوائي المستمر بدا الموقف حرجاً جداً، فازدادت أعداد المصابين عن القدرة الاستيعابية للمشافي الميدانية، وأرهق العمل المتواصل الطواقم الطبية على ندرتها وقلة العاملين فيها، وبدأت المستلزمات الطبية تنضب. فكان النظام يرتكب مجازر جماعية حسب التعريف العسكري للمجازر الجماعية.. كل هذا والدول الغربية والعربية مشلولة الرغبة والإرادة في المساعدة وتقف عاجزة حيال الفيتو الروسي والمدعوم من الصين في مجلس الأمن، حتى أن الحلول البديلة التي كانت متوفرة تبخرت، فرئيس الوزراء التركي أرغى وأزبد دون أي عمل ملموس، ذلك لأن النظام السوري الخبيث استعمل حزب العمال الكردستاني ليثير الشغب والاضطرابات في تركيا.. أما إيران فقد أعلنت أنها ستقوم بكل ما يمكنها القيام به للحفاظ على الأسد ونظامه الشرس الفاسد.. أما روسيا فلديها رغبة قاتلة في الانتقام من الغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لفرطها عقد الاتحاد السوفياتي في تسعينات القرن المنصرم، كما أن سوريا تشتري منها بما يقارب المليار دولار سنوياً أسلحة وذخائر ومعدات، ولذا، ولذا فإن مصلحتها الاقتصادية أولاً والانتقامية ثانياً تفرضان عليها الوقوف إلى جانب النظام الفاشي الظالم، خاصة وأن مصطلح (حقوق الإنسان) غير موجود في قاموسهم، ولا يعنيهم موت مئات بل آلاف المواطنين السوريين الأبرياء من قريب أو بعيد. أما الصينيون فهم يحاولون أخذ مكان لهم في الساحة الدولية يتناسب مع تعداد سكانهم واقتصادهم النامي، ويتمتعون برؤية ميزان القوى ينحرف عن الغرب، وخاصة أن الولايات المتحدة الأمريكية مدينة للصين بمبالغ هائلة من الدولارات، وليست في صدد مواجهتهم في أمر لا يهم أي منهما.. وقد طغت في ربيع ٢٠١١ قصة المواطن الصيني الضرير (تشن غوانغ تشينغ) الذي لجأ إلى السفارة الأمريكية في بيجين على مرآي من وسائل الإعلام العالمية واستحوذ على اهتمام كبار

المسؤولين في كلا البلدين حتى بلغ المكتب البيضاوي في البيت الأبيض لمنع أية مواجهة مع الصين، وخاصة أن الولايات المتحدة لا زالت تحاول كسب الصين إلى طرفها في مشكلتها مع كوريا الشمالية وإيران وقدرتهما النووية الآخذة في الازدياد.. وإن مما يدعو للاستغراب والعجب أن تأخذ قصة مواطن صيني واحد لجأ مع عائلته إلى سفارة الولايات المتحدة في بيجين هذا القدر من الاهتمام، في الوقت الذي يتجاهلون جميعاً آلاف القتلى الأبرياء والعزل شيوخاً وأطفالاً ونساءً، ولا تكاد أخبارهم تذكر إلا لماما ولم يحرك أحد ساكناً لتخفيف معاناة شعب بكاملة من براثن رئيس مجرم وعصابة مصابة بالسادية تقتل الناس دون أن يرف لها جفن.. أما المراقبين الدوليين فليسوا أكثر من نكتة سمجة. ولقد تحولت رغبة الغرب والعرب جميعاً في مساعدة الشعب المظلوم إلى صيحة صامتة من ضمائرهم، فلم يكونوا قادرين على تعرية النظام وكذبه المكشوف المتكرر واستمراره بالقتل والتدمير، أما الخيار الساذج بالتحاور مع النظام وخيار المشاركة في الحكم الذي تقدم به وزير خارجية روسيا خلال زيارته لدمشق لم يلق أي استجابة من الأسد ونظامه.. وظل الشعب يتساءل لماذا أصيب العالم كله بالصمم لنداءاتهم المتكررة بالمساعدة وإيقاف هذا الشلال من الدماء البريئة..

و الآن وبعد هذا القدر من القتل والتدمير، وبالرغم من العقوبات الاقتصادية، وبالنظر لعدم رغبة الغرب بالتدخل العسكري، بل ورفض الشعب السوري بمجمله للتدخل العسكري الخارجي.. فعلى رجال الثورة السورية أن تعرف وتعي أن الخطوة الأولى والأساسية لحل الأزمة السورية وإيقاف هذا النظام المجنون عن متابعة جنونه، هي بالقضاء على بشار الأسد ونظامه وزبانيته تماماً كما فعلوا بصدام حسين في العراق منذ سنوات قليلة ماضية، وأن الأقليات الحاكمة يجب أن تواجه نفس العقوبات والمحاكمات القانونية كما واجهها من سبقهم ممن ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية..

تورنتو – كندا دار البلدية القديم

وقفت ناهد تخطب في حشد من السوريين وبعض العرب المهاجرين إضافة إلى عدد من الكنديين المارين صدفة أمام دار البلدية في تورنتو بكل حماس قائلة:

«سيأتي النصر حتماً نتيجة إرادة الجيش السوري الحر، ولسوف يرى العالم شجاعتهم واستبسالهم وتضحياتهم عندما ينتصر الحق ويزهق الباطل. لم ولن يمد أحد يد المساعدة للجيش السوري المظلوم والمسحوق من النظام الفاشي الغاشم، من بشار الأسد وزبانيته إلا ما عاهد الجيش السوري الحر عليه الله والشعب، بأن يزيل عن كاهله هذا الكابوس المخيف الذي جثم على صدورهم أكثر من أربعة عقود يمارس الطائفية والاضطهاد والظلم والقمع على أبشع صوره، ولسوف يكون الجيش الحر القوة العسكرية الوطنية الوحيدة التي ستدافع عن الدستور الذي سيحمي الحريات والديمقراطية في أنحاء الوطن.. ولن يكون أداة في يد نظام أيديولوجي أياً كان، إن ساعة الفرج باتت قريبة وسيزول كابوس النظام القمعي على يد هؤلاء الشباب الأحرار الشجعان، سواء مارست روسيا الضغوط الدولية لحمايته أم لا..».

كانت تلك الخطبة أمام البلدية بمناسبة مرور ثلاثين سنة على مجزرة حماة عام ١٩٨٢م ولتأييد الثورة والثوار في سوريا الذين يعانون من القصف والتدمير والقتل منذ آذار ٢٠١١م، وتجاوب الحاضرون معها وهتفوا بسقوط النظام ورحيل الأسد وزبانيته فيما كانوا يرفعون علم الاستقلال السوري إلى جانب العلم الكندي، ووقف بعض المارة من الكنديين يستمعون لما يجري ويتعاطفون مع الشعب السوري المظلوم، ويشاهدون بعض الصور عن فظاعة النظام وشراسته بارتكاب المجازر الشنيعة بحق أُسر الجنود والضباط

المنشقين عن النظام، أو أُسر بعض المعتقلين في أقبية فروع المخابرات المتعددة، ويتمنون النصر المؤزر للشعب السوري وكل من يطلب الحرية والعيش بكرامة..

وفي ذات الوقت كان فريد زوجها يعمل على تصوير المظاهرة والمتظاهرين على الفيديو لنشرها عبر اليوتيوب ليطلع أكبر عدد ممكن من الناس على مدى تأييد الشعب السوري لجيشه الحر، ولما كانت لديه موهبة فذة في التخاطب والتواصل مع الناس فكان يشرح للمراقبين أسباب الثورة ومجرياتها اليومية وأهدافها وما حققته حتى الآن.. فكان محطة تلفزيونية كاملة بمفرده، فهو المصور وهو المنتج وهو سيد العلاقات العامة.. وراح بعض الأطفال يلعبون على المرج الأخضر، وهو منظر غير مألوف في تورنتو في شهر شباط.. وكان وناهد مثالاً حياً للزوج المثالي فكانا يكملان بعضهما باختلاطهما بالجالية والمجتمع، فكانوا يصطحبون أولادهما الاثنين إلى كل مكان يزورونه حتى المظاهرات، لأنهما يؤمنان بضرورة تعرض الأطفال ومشاركتهم بكل فعاليات الجالية.. ولاحظ الجميع أن معظم السيدات اللواتي ساهمن في التظاهرة من المحجبات إلا ناهد التي كانت مقتنعة بعدم فرضية الحجاب.

تنعم كندا والشعب الكندي وحتى المقيمين والزوار بحرية إبداء الرأي والتصرف ضمن حدود القانون، ولطالما مارس العرب عامة والسوريون خاصة هذه الحرية لتعطشهم إلى تذوق طعمها في بلادهم التي لا يأمن الإنسان فيها كبيراً كان أم صغيراً، فقيراً كان أم وزيراً، لا يأمن اعتقاله من رجال الأمن من دون أي ذنب أو جريرة وقد يغيب سنوات دون أن يعرف عنه أحد شيئاً، وأسوأ من ذلك، دون أن يجرؤ أحد أن يسأل عنه، و يعود لأسرته، هذا إن عاد، إما مثخناً بجراح وكدمات ورضوض جسمية ونفسية، أو أن يلقى أمام بيت أهله معبأ في كيس بلاستيكي أسود جثة هامدة.. أما إن تجرأ أحد على

المشاركة في مظاهرة أو أحزاب فلا يعلم مصيره إلا الله، وغالباً ما ينتهي أمره إلى بضع قطع من الأعضاء المبتورة الممزقة ملقاة في إحدى حاويات القمامة..

أما في هذا اليوم بالذات حيث تجمهر الناس حول ناهد وهي تخطب فيهم خطبة نارية ضد النظام، فلم ينعم السوريون المشاركون بما هو حق شرعي وقانوني لهم، وذلك لوجود رجلين في أربعينيات العمر يقبعان خلف زجاج مقهى (ستاربكس) على زاوية شارعي (باي) و(كوين) مواجه دار البلدية، يغطيان عينيهما بنظارات سوداء، ويحمل أحدهما آلة تصوير دقيقة وتبدو باهظة الثمن، وكان يمسح بآلته الجمع أمامه ويلتقط بعض الصور لأشخاص بعينهم، وخاصة المتحمسين منهم في ترديد الشعارات المعادية للنظام، محاولان التخفي عن أنظار المتظاهرين قدر الإمكان.. وفي نفس الوقت تظاهر عدد من الناس على الجانب الجنوبي من شارع (كوين) يهتفون بحياة بشار الأسد ويرددون ما يردده زبانيته في بعض شوارع دمشق ومدن أخرى (بالروح بالدم نفديك يا بشار، الأسد أو لا أحد، تحيا سوريا الأسد.. إلخ..).. وكان تموضعهم واختيار الزمان يهدف إلى تشويش الرأي العام الكندي في الموقع، فلا يستطيع المواطن الكندي أن يميز بين من هو مع أو من هو ضد النظام الفاسد.. وحصلت مناوشات خفيفة بين متظاهري الطرفين، مما استدعى تدخل عناصر الشرطة لفض الاشتباك دون أن يصاب أحد بأي أذى..

خرج أحد الرجلين من مقهى (ستاربكس) وقطع الطريق باتجاه ناهد واختلط بالناس دون أن يلحظه أحد، وما إن اقترب من ناهد حتى أخرج قطعة ورق من جيبه وصدم ناهد بكتفها عمداً ليفقدها توازنها، ودسَّ في جيبها الورقة وتابع سيره، حيث التقى زميله على بعد أمتار قليلة وأخذا بالتقاط الصور للمتظاهرين ورجال الشرطة، ثم اتجها شرقاً إلى مركز أيتون للتسوق واختفيا.. ويبدو أن أنصار الأسد نجحوا في إفشال مظاهرة ناهد وفريد بإثارة الشغب وإشغال الشرطة بتفريق المتظاهرين حفاظاً على أمن الموطنين،

ولكنها علمت بعد ذلك أن أحد المارة من الكنديين قد جابه أنصار الأسد ونعتهم بأقذع الصفات وبكونهم ورئيسهم مجرمين محترفين.. ذلك لأنه كباقي الشعب الكندي يؤمن بالديمقراطية وحرية الرأي التي حرم منها الشعب السوري لعقود طويلة. دعت ناهد وزوجها فريد بعض الأصدقاء لاحتساء القهوة في منزلهما لدراسة الوضع والتخطيط لما هو آتٍ، فركبا سيارتهما وتبعهما بعض الأصدقاء في ثلاث سيارات باتجاه (ميسيساوغا) Mississauga إحدى ضواحي تورنتو، والتي يقطنها جاليات من دول مختلفة كالهنود والباكستان والعرب وغيرهم، وبالصدفة كانت العائلات العربية على وجه العموم تعيش في الغربي من المدينة وينتشرون إلى الجوار كـ (أوكفيل ولندن – اونتاريو..) تحولت ميسيساوغا وأوكفيل من منطقة صناعية إلى سكنية عبر السنين، مما جذب المهاجرين إليها لأناقة منازلها ورخص أثمانها واتساع شوارعها وتوفر كافة الخدمات اللازمة للمهاجرين الجدد، فكان هذا الخليط من الجاليات المختلفة، إذ لا تجد فيها أي كندي من الجيل الثالث أو الرابع، وقد أتاحت لهم البلدية حرية العيش الكريم والمدارس لأبنائهم والأشغال للرجال والنساء على السواء، فأُنشئت مراكز العبادة على اختلافها، وأتيح لهم استعمال المركز الاجتماعي لعقد بعض اجتماعاتهم، عاشت ناهد وفريد في الجانب الغربي من تورنتو مذ وطأت أقدامهما الأرض الكندية عام /٢٠٠٠م/ وهنا نمت أسرتهم وتعرفوا على عائلات أخرى من أصل سوري، خاصة بعض أفراد أسرة فريد الذين استوطنوا المنطقة قبلهم بسنوات، وكما هو معتاد فإن الجالية السورية كانت منقسمة حيال الأحداث الجارية في سوريا، فمنهم من يرفض الفساد الذي عم البلاد ولم يعد يتحمله أكثر من أربعة عقود، ومنهم من كان مقتنعاً بما هو حاضر ويخشى ما هو آت، إضافة إلى اختلاف المعتقدات الدينية والمذهبية، وكثيراً ما كانت الحوارات والنقاشات التي تجري، سواء في البيوت أو المقاهي تنتهي بخلافات قد تتعمق إن لم يتم حلها آنياً بين الأطراف، وقد يعود ذلك لتمتع المهاجرين هنا بحرية لم يتمتعوا بها في أوطانهم ولم يمارسوها مذ خُلقوا. ومن الملاحظ

أن الجالية السورية لم تتمكن من استغلال هذه الحرية والديمقراطية لخلق جوٍّ من التفاهم والتلاحم، إذ تمزقت الجالية بين تفضيل الأفراد لمصالحهم الشخصية وخاصة المادية فوق مصالح الجالية، رغم الجهد الكبير الذي بذله بعض ذوي الرأي الحسن والنظر البعيد للتعايش في بيئة مدنية لا انتماء سياسي لها، ولسوء الحظ فقد فشلت كل مساعيهم، واستمرت المشاحنات والخلافات سائدة بينهم، وكان العامل الوحيد الذي لمَّ شمل بعضهم هو عامل الدين، إذ لا خلاف على ما نزل من وحي ولا ما ورد عن الرسول ﷺ من أحاديث، ومع التزام بعض الناس دينياً فقد اختلفوا بالتفسير والتطبيق إلى حدٍّ ما. لوحظ التمام عناصر من الإخوان المسلمون غرب تورنتو وخاصة في ناحيتي ميسيساوغا ولندن، فأنشأوا المدارس والمراكز الاجتماعية التي تستقطب الأطفال وبث تعاليم الإسلام فيما بينهم، ونشطوا كثيراً في ترتيب النشاطات الاجتماعية وخاصة ما يجذب الأطفال، فكانوا يذهبون في نزهات جماعية إلى أحد الحدائق العامة، والقيام بألعاب ومسابقات بين الأطفال وإقامة الصلاة في الموقع.. كما أنهم كانوا يساهمون في دعم الحفلات الخيرية مادياً ومعنوياً.. وفي الوقت ذاته كانت الجالية السورية الأرثوذكسية تمارس بعض النشاطات الاجتماعية غير أنها لم تكن لتختلط بعناصر أخرى خارج نطاق الكنيسة، حتى بلغ بهم الأمر إلى نشوء خلافات مع كنائس أخرى تتبع مذاهب مختلفة، وكانت نتيجة هذا التمزق فشل السوريين الكنديين في التلاحم في بيئة مدنية ديمقراطية ووعى قسم كبير منهم أنه لا حل لمشكلتهم إلا بالاندماج في المجتمع الكندي وتبني قيمه وأخلاقياته ومثله العليا وأسلوب حياته، وأدركوا أن التكيف و التماهي مع المجتمع الكندي يكسبهم تفهم الحياة الكندية ويسهِّل عليهم حياتهم.. وكانت ناهد وزوجها ممن أدركوا هذا الأمر منذ البداية، فلم يتعمقوا في الأمور الدينية، وآمنوا أن الدين لله والوطن للجميع، فكانوا يمارسون الدين بشكل فردي، وبالنظر لعدم وجود الدافع الديني وراء تظاهراتهم فقد كان الفشل متوقعاً بل ومحتملاً، وجعل من مؤيدي النظام قوة مكافئة لقوتهم وعاملاً من عوامل الفشل،

ودليل ذلك أن جماعة الإخوان المسلمين نظموا مظاهرة في اليوم التالي وفي نفس المكان خرج فيها آلاف المشاركين إذ لعب العامل الديني الدور الأكبر في جذب الناس إلى المظاهرة.

جلست ناهد إلى جانب زوجها في السيارة ووراءهما بعض الأصدقاء بسيارتهم إلى أن وصلوا البيت.. وما إن مدت ناهد يدها إلى جيبها لتستخرج مفتاح البيت حتى وجدت قطعة الورق التي دسها الرجل في جيبها أثناء المظاهرة، فأخرجتها وقرأتها وأصيبت بجمود لاحظه زوجها فوراً فسألها عن محتواها، فناولته الورقة وقرأ ما فيها: «سوف نقتلك.. سوف نقتلكم جميعاً.. أخوك أحمد بحكم الميت في حمص، وسوف نفعل به أسوأ مما فعلناه بخطيبته زهراء.. سوف نقتل أولادك هنا في هذا المكان.. ما أنت إلا إرهابية عاهرة.. انتظري وسوف ترين وفاءنا بالوعد....».

وقف الجميع صامتين واجمين يلفهم الذعر والخوف لما عهدوه من شراسة ووحشية النظام ورجاله حتى في موطنهم الجديد الذي كانوا يمنون أنفسهم بالعيش فيه بسلام وأمان وحرية.. فالتعذيب والسجن، بل والتصفية الجسدية تأكل آمالهم وطموحاتهم.. ويبدو أن الديمقراطية ليست إلا أسطورة صعبة المنال..

وما إن اطلع الضيوف على محتوى الورقة حتى هبَّ خليل قائلاً علينا أن نتصل بالشرطة ونخبرهم بأمر التهديد الصريح والعلني.. ووافقته على الفور زوجته داليا.. وبما أنه يعمل في جهاز الشرطة في تورنتو فقد استأذن فريد وناهد في إجراء هذا الاتصال الهاتفي المهم.. وأعطياه موافقتهما على الفور.. صعدت ناهد إلى غرفتها في الطابق الثاني ودخلت الحمام وغسلت يديها ووجهها بالماء البارد وصعقت لمنظرها في المرآة، فقد بدت شاحبة مذعورة.. وسرحت في ذهنها تتوقع الأسوأ لوالديها وأخيها الصغير.. وراحت تسأل نفسها عن أخيها أحمد ومكان وجوده.. وتذكرت وجه زهراء على شاشة

السكايب.. ناداها فريد من الطابق السفلي فأجابت بعد تردد.. تحلق الجميع يتباحثون بأمر المظاهرة والعناصر المؤيدة للنظام، واقترح فريد أنه ربما كان عليهم المكوث في الشارع فترة أطول.. فأجابه أمير (طبيب الأسنان) أنه لم يكن لديهم أي خيار، لا سيما بعد أن فرقت الشرطة المتظاهرين من كلا الجانبين، غير أنه تمنى لو أنه أبلغ الشرطة عن وجود موافقة الشرطة على التظاهر في الموقع.. فقالت هبة: إن بعض المتظاهرين تفوهوا بعبارات ضد مؤيدي النظام مما أجبر رجال الشرطة تفريق الطرفين تجنباً لمجابهة تتطور إلى عراك بالأيدي.. فوافقها خليل الذي عاد لتوه من مكالمة قسم الشرطة المحلي، وقال إن سيارة الدورية سوف تمر بعد قليل ليطلعوا على الورقة، كما أنني اتصلت برئيسي في مركز المدينة الذي أعطاني رقم هاتف ونصحني بالاتصال على الرقم وإعلامهم بالأمر.. فسأل فريد عما إذا كان هناك من ينبغي الاتصال بهم؟.. فأجاب خليل على الفور:

- نعم.. جهاز المخابرات والأمن الكندي

CSIS (Canadian Security & Intelligence Services)

فهم مسؤولون عن مثل هذه الأمور.

سرحت ناهد بخيالها بعيداً عن النقاش الدائر بين المجتمعين تفكر في طريقة لإخراج أحمد وحطيبته من سوريا واستقدامهما إلى كندا قبل أن يمسهما سوء، ولكن شخصيتها القوية ودعمها للثورة والثوار أعاداها إلى وعيها وقررت الانخراط في النقاش حول أحداث اليوم وحول الثورة في سوريا....

وصلت سيارة الشرطة وتبعتها بعد لحظات سيارة المخابرات والأمن الكندي وفيها عناصر الأمن.. ومع أن كلاً من الشرطة والأمن يعملان في جهازين مختلفين غير أن هدفهما واحد، ألا وهو أمن المجتمع وسلامة المواطنين.. راح الجميع يراقبون الفلم الذي

صوره فريد بحثاً عن أية إشارة إلى من دسَّ الورقة في جيب ناهد.. ورغم أن الصورة كانت تهتز نوعاً ما غير أن ناهد لاحظت شيئاً فطلبت من زوجها إيقاف الشريط، وأشارت إلى رجلين في الفلم يضعان نظارتيهما ويحمل أحدهما آلة تصوير على الطرف الشرقي من المظاهرة.

– نعم.. هذا الشخص اقترب مني ودفعني.. ولا أدري كيف وصل إلى وسط المظاهرة.. وأعتقد أنه ارتطم بي في أواخر دقائق المظاهرة..

فسألها رجل الأمن: هل أنت متأكدة من أنه هو الذي ارتطم بك.. فأجابته بالتأكيد، وسألت عما إذا كان رجل الأمن يعرفه، فقال:

– نعم نعرفه.. فهو أحد فريق الملحق العسكري في السفارة السورية في أوتاوا..

فسأله فريد: هل هذا ممكن ومعقول أن يتحرك بحرية ويبث الرعب في نفوس المواطنين دون أن يمنعه أحد.. فأجابه رجل الأمن:

– إنه يتمتع بحصانة ديبلوماسية.. ولا نقدر فعل شيء حيال ذلك، ولكنه وضع تحت المراقبة مع عناصر أخرى.. فسألته ناهد:

– المراقبة..؟؟ فقط المراقبة.. أما من شيء نفعله أو تفعلونه الآن..!؟

أجابها: هذا صحيح.. فيجب أن تأتي الأوامر من الجهات المختصة العليا نظراً لحساسية الأمر..

غادر رجال الشرطة المنزل بعد أن سألوا بضعة أسئلة متعلقة بالحدث.. أما رجل الأمن فقد سأل بضعة أسئلة أخرى أجابت عليها ناهد.. ثم تطرقت إلى معاناة أخيها في سوريا وعن انشقاقه عن الجيش وعن سعيها الحثيث لإعادته إلى كندا مع خطيبته،

فاستمع لها رجل الأمن.. ثم غادر وباقي الزوار المنزل تاركين ناهد وفريد وحيدين . . لم تضع ناهد أي وقت بل ذهبت إلى جهاز الكمبيوتر تحاول الاتصال بأهلها عبر السكايب دون جدوى رغم تكرار المحاولات.. وحاولت بالهاتف العادي مرات ومرات أيضاً دون جدوى.. وأخيراً أرهقتها أحداث اليوم وغلبها النعاس فاستسلمت على أمل إعادة المحاولات في اليوم التالي..

أشرقت شمس اليوم التالي على نفس الأخبار المتكررة من قتل وتدمير ومجازر شنيعة، وبدا واضحاً أن الجامعة العربية لم تعد تضغط على مجلس الأمن لاستصدار قرار بإرسال قوات حفظ سلام إلى سوريا، وتراجعت بعض الدول الغربية عن عزمها في التدخل بأي شكل كان، وإن كانت تدعم رغبة الشعب السوري في العيش بأمان وكرامة وحكومة ديمقراطية.. فقد غدا العرب كالرجل الشيخ الذي يرغب بمكان هادئ يقضي أيام تقاعده دون أن يتدخل فيما يجري حول العالم متعللاً ببزوغ نجم الشرق روسيا والصين اللتان تحولان التحكم في الشرق الأوسط ومقدراته حسبما يخدم مصالحها.. أما ما يقال إعلامياً عن حقوق الإنسان السوري لم تكن سوى للاستهلاك الإعلامي..

أما في سوريا فقد انخفض عدد المنشقين عن الجيش النظامي نظراً لندرة الأسلحة لدى الجيش الحر، وعدم وجود أماكن آمنة يلجأ إليها العناصر الجديدة، ومع تزايد أعداد الأفراد الذين يرغبون في الانشقاق غير أنهم لم يستطيعوا الالتحاق بالجيش الحر، فمنهم من لجأ إلى القرى المجاورة في ريف دمشق ومنهم من هرب إلى قريته، وقليل منهم انخرطوا في وحدات الجيش الحر رغم ضيق المكان لاستيعابهم والأسلحة والذخائر لتحميهم.. استيقظت ناهد كسلى ومرهقة نفسياً وجسدياً وراحت ترشف قهوتها وهي ترقب الأخبار عبر قناة الـ CNN وتشاهد الدمار الذي حل بحمص وريفها، وحيرة الساكنين فيها بين ترك منازلهم إلى المجهول أو البقاء تحت تهديد الصواريخ التي تطمرهم تحت ركام الأبنية أو

عن وجهتهم إذا ما بقوا أحياء وأصيبوا بجراح، وهل سيستمر نزيفهم حتى يقضوا وتزهق أرواحهم.. ثم راحت تقلب القنوات مثل الجزيرة والعربية والـ BBC وFrance24 فقد كان القلق والاضطراب باديين عليها.. فقد غدت تكنولوجية الاتصالات نعمة بتقريب الأحداث ووضعها في غرفتها، ونقمة لأنها تظهر كل المآسي التي يعيشها العالم، وخاصة سوريا الجريحة..

بدأت ناهد برنامجها اليومي المعتاد بتهيئة الأطفال للمدارس، وإعداد الإفطار لفريد ثم القيام بزيارات لبعض المحال التجارية والمنزل الذي تعاقدت على تصميم وتنفيذ ديكوراته (نظراً لأنها مهندسة ديكور وتعمل في بيتها..) وأما ما تبقى من وقت فتقضيه في الثورة ودعم الثوار واللاجئين خارج الحدود السورية والنازحين ضمن أرض الوطن.. فكانت تقضي معظم وقتها تجمع التبرعات والألبسة والألعاب وكل ما يمكن أن تحصل عليه من الجالية أو المتعاطفين ثم تقوم بتوضيب الحاجيات وشحنها إلى مخيمات اللاجئين في تركيا.. وكانت دائماً تشعر بضرورة القيام بأكثر مما قامت به، رغم أن ما قامت به يفوق أضعاف أضعاف ما قام به الآخرون.. أرسلت رسالة نصية إلى زهراء تطلب فيها ضرورة التحدث على السكايب فوراً.. وجاءها الجواب فوراً بالإيجاب، وحددتا موعداً الساعة /٩,٠٠/ بتوقيت تورنتو مما يعطيها الوقت الكافي للقيام بواجباتها المنزلية الصباحية.. وفي الوقت المحدد تم الاتصال وتخاطبت الفتاتان:

– صباح الخير يا زهراء.. كيف أنت يا حبيبتي.. واستغربت لهذا التحسن الملحوظ على وجه زهراء عبر الشاشة ونفسيتها عبر السكايب..

– صبح الخير ناهد.. أنا بخير الحمد لله.. ولا ينقصني إلا رؤياك وزوجك وأولادك.. كيف حالهم جميعا؟

– نحن جميعاً بخير.. هل سمعت عن أحمد مؤخراً..؟؟

– ربما سمعت آخر الأخبار عن تشديد النظام من قصفه على حمص وضواحيها، والوضع متأزم جداً في الأيام الأخيرة.. والفضل يعود للفيتو الروسي والصيني الذي أعطى الأسد فرصة مفتوحة للاستمرار في المجازر والتدمير..

– هل من وسيلة للاتصال به.. أريد أن أخرجكما من سوريا في أقرب وقت ممكن.

– أنا على استعداد تام. فأنا أقوم بالتمارين اليومية لأستعيد قوتي.. فقد أصبحت أستطيع المشي على العكاز الآن وأشعر بتحسن مضطرد.. سوف أفتقد أسرتي.. هل بإمكاني إحضارهم معي؟؟..

– لقد تمكنت بعد لأي و جهد أن أجهز أوراقك وأوراق أحمد للقدوم إلى هنا.. ولكن بمجرد أن تختمي أوراق الزواج في تركيا، وتحضران إلى هنا فبإمكانك استقدام أهلك بتقديم طلب إلى إدارة الهجرة..

وشعرت بالأسى لتركها أسرتها بعدما عانوا ما عانوه لأجلها.. وسألت:

– على أي حال متى تتوقعين مغادرتنا سوريا..؟؟

– حالما نستطيع إخراج أحمد إلى تركيا سوف أطير إلى استانبول ثم أنطاكيا، حيث سنلتقي في فندق أنطاكيا الكبير، بإمكانك البحث عنه على الإنترنت. وسوف أقوم بالحجز حالما أعلم موعد خروج أحمد من سوريا..

– شكراً لك يا ناهد على كل ما فعلتيه وستفعلينه من أجلنا..

– رجاءً.. لا ضرورة للشكر.. وأضافت مازحة: إن كنت ستتزوجين أخي فأنا عليَّ واجب الشكر. ضحكت الفتاتان.. ثم أضافت:

– سوف أبقي السكايب مفتوحاً ٢٤/٧ أي أربعة وعشرين ساعة سبعة أيام في الأسبوع لأستقبل مكالماتك أو مكالمة أحمد.. هل ترغبين بشيء ما الآن..؟؟

–كلا يا حبيبتي، شكراً.. وأرجو أن تبلغي تحياتي لفريد وأن تُقبّلي الأولاد عني.

– مع السلامة الآن.. والله يحميك من كل سوء..

– مع السلامة ناهد..

جلست زهراء تفكر في المستقبل وكيف ستترك أسرتها التي تعشقها فرداً فرداً، وكيف ستغادر سوريا التي أحبتها طوال حياتها، وكيف أنها ناضلت على أمل أن تكون جزءاً من المستقبل المشرق لسوريا.. ولكنها أقنعت نفسها بأنها من الممكن أن تكون أكثر نفعاً وهي خارج الحدود في بلد حر وديمقراطي.. وهذا ما هدَّأ خاطرها.. خرجت من الغرفة تنظر إلى الأفق الغربي البعيد فلم تلمح إلا وجه أحمد في الغرب البعيد.. في الموطن الجديد.. كندا..

أما ناهد فقد انخرطت في أعمالها اليومية كالمعتاد مع التفكير المستمر بأخيها وخطيبته وما عساه يعمل ليله وكيف يقضي نهاره في الجبهة مع المقاتلين الأشداء.. وتمنت على الله أن يحفظه من كل سوء.. ثم بدأت تبحث عن الرحلات الجوية إلى استانبول، وعن سيدة تساعد فريد في العناية بالأطفال خلال فترة غيابها.. وشجعها فريد على السفر حالما يحين الوقت، وأكد لها أنه سيكون والأطفال بألف خير..

شعرت ناهد بالثقة وبأنها سوف تنقذ أحب الناس إليها من جحيم نظام بشار الأسد الوحشي الشرس، وتحضرهم معها إلى بلاد الأمن والأمان والحرية والعيش الكريم...

هروب ومراوغة

استمر النظام وزبانيته بقصف مدينة حمص وضواحيها ليلاً ونهاراً دون توقف لسحق الثورة والثوار ومعنويات المواطنين، فجاس رجال النظام والشبيحة وعناصر الشرطة ورجال الأمن والمخابرات خلال الشوارع واحداً تلو الآخر دون تحديد يطلقون الرصاص على المنازل والنوافذ ويكسرون أقفال المنازل والمحلات التجارية ويسرقون كل ما هو غالٍ، ويحطمون ما لم يتمكنوا من سرقته، أما إذا ما سقط جرحى أو مصابين فيتم توقيفهم أو تصفيتهم آنياً. فسيطر الرعب على سكان تلك المناطق.. ولم يجرؤ هؤلاء المجرمون على دخول بعض الأحياء أو الأزقة التي يسيطر عليها الجيش السوري الحر، لأنهم أجبن من أن يواجهوا شباب المقاومة الذين لم يعودوا يخشون النظام ورجاله، فقد كسروا حاجز الخوف من جلاوزة النظام، وحتى لم يعودوا يخشون الموت.. ومع استمرار القصف بالدبابات T72 ومدافع الهاون ارتفع عدد الإصابات فكنت ترى جثث الضحايا ملقاة في الشوارع ومتفسخة ولا يجرؤ أحد على الاقتراب منها لدفنها وستر عوراتها، إذ أن القناصة لهم بالمرصاد، وسيلقى من يقترب من الجثث ذات المصير.. وغالباً ما كان أهل القتيل يحضرون في الليل تحت ستار الظلام لأخذ جثة أخيهم أو أبيهم أو حتى أمهم أو أختهم لدفنها في مكان ما دون أي علامة تدل على المكان أو المدفون.. كان هذا تحت أنظار العالم الذي كان يراقب هذه المجزرة الممنهجة ضد الشعب السوري المسالم والأعزل، دون أن يحرك ساكناً لإيقاف هذا الإجرام المجنون من النظام وزبانيته.. ومع أن تعويض من يستشهد من أبطال المقاومة كان يجري فوراً، غير أن المأزق الذي كان يقلقهم ويزلزلهم هو قلة الأسلحة والذخائر، إضافة إلى التشرذم بين فئات المقاومة، وتشبث كل فئة بأيدولوجياتها ورفضها المطلق لباقي الأفكار والآراء من الفئات الأخرى، وقد استغل النظام الخبيث هذا التشرذم

ووظفه لمصلحته وليظهر للعالم مدى ضحالة تفكير المقاومة وصبيانية القائمين عليها وافتقارهم لأي برنامج سياسي أو اجتماعي لخدمة الوطن والمواطنين..

فشلت محاولات جمال وأحمد المتكررة لعدة ساعات للخروج من المنطقة المنكوبة والوصول إلى الأراضي الزراعية غربي موقعهم، وكان من المفترض أن يرافقهم فريق حراسة لضمان سلامة وصولهم، وكان من أهم أسباب فشلهم وجود حواجز أمنية عند كل مداخل الشوارع وتقاطعاتها فكانت الدبابات مصطفة معترضة الشارع لمنع أي فرد من دخول المنطقة أو الخروج منها، وكما لو كان جلاوزة النظام قد صمموا أن لا يخرج أي عنصر من الجيش الحر حياً من هذه المنطقة. كان جمال وصحبه يتنقلون من بناية إلى أخرى بشكل متعرج وبسرعة هائلة لكي يضيعوا الفرصة على القناصين من تركيز التهديف وتصفيتهم، قبع جمال خلف سيارة محترقة وانتظر الآخرون إشارة منه للحاق به، وبعد مسح دقيق للمنطقة أعطاهم إشارة بأن ينتشروا للوصول إلى النقطة التالية فيما هو يحميهم من موقعه، وما إن تحرك الشباب ليجتازوا ال شارع حتى سمعوا زئير قذيفة مدفع ثقيل تشق الهواء في طريقها إلى موقعهم، فصاح بهم جمال أن يلجؤوا إلى مكان ما فانصاعوا لأمره وتسمَّروا في مدخل بناية إلى جانبهم، فأصابت القذيفة جانب البناية محدثة غيمة من الدخان والغبار والركام المتناثر غطَّت الشباب الذين لم يصابوا بأي أذى.. وما إن انقشعت الغيمة حتى سمعوا صراخ طفل من البناء تبين لهم أن الانفجار هدم واجهة ذلك البيت، فقال جمال: هلمُّوا نسعف سكان هذا البيت.. هرع جمال وأحمد بصعود الدرج المتهدم جزئياً، فيما بقي الرجال مكانهم دون حراك.. وصل أحمد إلى الشقة فوجدها مخربة تماماً وتتبع صوت بكاء الطفل فلم يجد شيئاً إلى أن وصل إلى الغرفة التي سقط جدارها المطل على الشارع، فوجد الطفل ملقى تحت كومة من المفروشات المكسرة والركام، فشرع جمال برفع بعض القطع الكبيرة عن صدر الطفل، بينما بحث أحمد عن أحياء آخرين في الشقة، فوجد امرأة مضرَّجة بالدماء والتراب تحت قطعة إسمنتية هائلة،

فأمسكها من كتفيها وبدأ سحبها بعناية فائقة، ولمحه جمال وهو يسحب الجزء العلوي من جسدها، فيما كان ما تبقى من جسدها مفصول تماماً وبالكامل عن الجزء العلوي، فأمره بالتوقف.. فاستغرب أحمد ونظر حيث ينظر جمال فشاهد منظراً مرعباً ومفجعاً في آن مما جعله يترك ما بيده ويصاب بصدمة نفسية سلبت منه عقله ولم يعد يدري ما يفعله، بل استمر يحدق في هذا الجسد الممزق.. فصاح به جمال: أحمد.. أريد مساعدتك الآن.. فوراً.. استجاب لندائه مع أنه كان لا يزال مصعوقاً بمنظر أمعاء السيدة خارج بطنها.. أخرج جمال الفتاة الصغيرة ذات الخمسة أعوام من تحت الأنقاض ولم تكن إصابتها شديدة، وكلف أحد الشباب بأخذها إلى المشفى الميداني بينما بحث الآخرون عن أحياء داخل الشقة، فلم يجدوا سوى جثتين لطفلين تحت الأنقاض.. وانتبه جمال بعد أن نظر إلى ساعته بأنهم تأخروا عن موعدهم مع السيارة التي ستقلُّهم خارج حدود حمص، فأمر الرجال بالتحرك بسرعة رغم استمرار القصف الذي لم يتوقف، فأخذوا بالركض بين البنايات تحاشياً لشظايا القذائف ورصاص القناصة، وفي مكان ما طلب من الرجال الافتراق عنه وعن أحمد والاتجاه إلى القاعدة مع الطفلة، في حين ا ستمر مع أحمد في الركض نحو الجهة الشمالية الغربية من المدينة. وتعرضوا إلى قصف شديد في منطقة الإنشاءات، والتي مع أنها شبه خالية من عناصر الجيش الحر إلا أن مجرمي النظام كانوا مصممين على معاقبة المدنيين بقصف عشوائي ليزيدوا معاناتهم وآلامهم.. قطع المقاتلان شارع البرازيل باتجاه الغرب حيث توقفا ليعيدا رصد المكان واستكشاف خطواتهما التالية، فقد كانت المنطقة مكتظة بعناصر النظام المزودين بآليات ثقيلة إضافة إلى أنها منطقة سهلية ومكشوفة، فقررا الانتظار ريثما يحل الظلام ثم يتابعا سيرهما، فكانا يسمعان من مخبئهما أمام فرن الإنشاءات بعض أحاديث رجال النظام والشبيحة المدججين بالسلاح والسترات الواقية وهم يخططون لشن هجوم كاسح على المدنيين العزل.. وما إن حلَّ الليل

حتى كان جمال قد أنهى دراسة خطة العبور من خلال الشوارع الضيقة غربي حمص والتفت إلى أحمد قائلاً:

– نقطة لقاؤنا التالية ستكون الجهة الغربية لمدرسة الخنساء تلك التي أمامنا.. هذا إذا ما انفصلنا عن بعض.. ثم نتجاوز جامع الضبعة ثم استمر بالاتجاه الشمالي الغربي لمسافة شارعين.. هل هذا واضح..؟؟

– واضح تماماً.. أرجو أن لا تقلق بشأني.. أجاب أحمد.. فتابع جمل توجيهاته:

– توجد حديقة غربي المدرسة، فإذا ابتعدنا عن بعض فسوف يكون اللقاء في تلك الحديقة، وإلا فعليك الاستمرار حتى شارع الوفاء، حيث سنلتقي في السيارة التي ستقلُّنا في الحقل الزراعي على بعد /٧٠٠/ متر تقريباً جنوب المدخل الغربي للأوتوستراد.. هل لديك أية أسئلة..؟؟

– بلى.. وكيف لنا أن نميز السيارة التي ستقلُّنا..؟؟

– ستكون نفس السيارة البيضاء التي أحضرتنا إلى هنا من وادي خالد وفيها نفس الشباب..

– عظيم.. سنكون بخير إن شاء الله.. لقد قال لي رجل عظيم ذات يوم: إن عليَّ أن أكون متفائلاً دوماً..

– بلى.. أعتقد أننا سوف ننجو من هذه الورطة..

ومع حلول الظلام، خفَّت حدة القصف شيئاً ما، وهيّأ الرجلان نفسيهما للتحرك.. قال جمال بلهجة قيادية:

– حالما آذن لك.. سوف تركض إلى تلك الزاوية (وأشار إلى إحدى البنايات)، وتقف هناك لتحميني من أية مفاجأة.. وفجأة قال جمال: جاهز.. انطلق..

فركض أحمد ووصل إلى النقطة المحددة والتفت حوله يتفحص الشارع وأشار إلى جمال بالتحرك.. تابع الرجلان هذا التكتيك من شارع إلى شارع ومن زاوية إلى أخرى حتى وصلا مدرسة الخنساء حيث توقفا لحظات التقطا بها أنفاسهما، فلم تعد المسافة بينهم وبين المصرف طويلة.. ولذا فعليهما عدم إضاعة أي وقت.. ولا سيما وأنهما اجتازا منطقة الشبيحة، ولا يوجد سوى بضع دوريات من رجال النظام يجولون في الشوارع المهجورة، وقبع السكان في بيوتهم أو نزلوا إلى الأقبية التي حوّلوها إلى ملاجئ، تابع الرجلان سيرهما باتجاه الهدف حذرين من أي تقاطع طريق أو أي شارع رئيسي إلى أن وصلا إلى شارع جبل عرفة، حيث توقفا ليعيد جمال تقييم الوضع، فهو يعلم أن القناصة منتشرين بكثافة فوق أسطح البنايات في هذا الشارع حسب المعلومات الاستخبارية، وهم يستعملون نواظير للرؤية الليلية وصلتهم حديثاً من روسيا.. خشي جمال اجتياز هذا الشارع وراح يبحث عن بديل رغم أنهما لا يبعدان أكثر من /١٠٠/ متر عن الحقل الزراعي غربي موقعهم، ولم يكن لديهم أي بديل وقررا المغامرة رغم علمهم بوجود عدد غفير من قوات أمن النظام متمركزة في ملعب كرة القدم وإلى الشمال من موقعهم عدد من الدبابات والشبيحة يملؤون الشوارع والتقاطعات..

ركض جمال أولاً وبندقيته على ظهره ووصل إلى النقطة المحددة من زاوية البناية، واختبأ في ظل البناية وجهز بندقيته تحسباً لأية مفاجأة.. ثم أعطى أحمد إشارة الانطلاق متتبعاً خطوات جمال، وفيما هو يقفز فوق بعض الحجارة على الشارع سمعا فجأة صوت طلق ناري مجهول المصدر، ومرت رصاصة أمام أحمد وهو يعدو باتجاه جمال.. شاهد جمال ومضة الضوء إثر إطلاق الرصاصة، وكانت صادرة عن قناص في أعلى البناية على

الشارع المقابل، وقرر عدم الرد عليها كي لا ينكشف موقعهما.. وصل أحمد بأمان وكاد نفسه أن ينقطع خوفاً وجهداً، وسأل أحمد عن سبب عدم الرد على القناص، كما لو كان يعاتبه لعدم حمايته، فشرح له جمال أنه ليس الوقت المناسب للرد، إذ سيعلمون أننا اثنان على الأقل.. والآن علينا التحرك فقد أضعنا ما فيه الكفاية من الوقت.. هلم..

– انتظر.. ودعني ألتقط أنفاسي..

– لا وقت لدينا.. فأنا تواق لرؤية زوجتي وأولادي.. أولست تواقاً لرؤية زهراء وأسرتك؟؟.. ورفع أحمد من إبطيه وتابعا سيرهما باتجاه الغرب نحو الحقل الزراعي يمنيان نفسهما برؤية الأحباب.. فبالنسبة لأحمد ستنتهي كل مشاكله عندما يجتاز الحدود ويصل تركيا، أما جمال فمصيره ومصير الآخرين مرتبط بنتائج هذه المقاومة المسلحة للتخلص من هذا النظام الطائفي الفاسد المفسد.. وكان قد خاب أمله لنقله من حمص، غبر أن الحافز لقبوله الانتقال كان لقاء أسرته في تركيا.. ثم بقاؤه قريباً منهم في جبل الزاوية..

وصل الشابان إلى الطرف الشرقي من شارع الوفاء الذي تحيط به بنايات شاهقة، فيما غطت بعض الأشجار الباسقة منظر الحقل الزراعي، ولم تعبر الشارع إلا بعض السيارات القليلة، والتي كانت تنهب الأرض نهباً ليتحاشى السائقون أي قناص أو طلقة من شبيح يركن على حافة الشارع قطع الشابان المسافة على دفعتين كما كانا يفعلان قبلاً، وما ان بلغا صف الشجر حتى بدا لهم الحقل الزراعي مع بعض الأنوار الخافتة هنا وهناك، وتمكنوا من معرفة الطريق الزراعي الذي يسلكه الفلاحون في رواحهم ومجيئهم.. في هذه الأثناء لاحظ أحمد شيئاً أبيض عندما مرت سيارة وكشفت أنوارها هذا الشيء، فنبه جمال إلى ما شاهده فأخذ جمال ناظوره ونظر إلى الجهة التي ظن أحمد أنه رأي فيها شيئاً، فلمح الشاحنة الصغيرة وفيها رجلان عندما مرت سيارة أخرى انعكست أنوارها على الشاحنة وأكد ما رآه أحمد وأنها الشاحنة التي ستقلهم، ركض الشابان إلى الطرف

الآخر من الحقل متخفين بين الأشجار، وتفحصا الشاحنة، وتعرف أحمد عن بعد على أحد الرجلين فيها، ووقف الشابان وتوجها مسرعين إليها، وأعطاهما جمال كلمة السر، فرد أحدهما بكلمة سر مقابلة، فتصافح الرجال وأثنى جمال على الرجلين فيما يبذلانه من جهد في نقل المجاهدين في كلا الاتجاهين، فبادرهم جمال بضرورة التحرك فوراً.. وافق السائقان وبينما هم يهمون بالصعود إلى السيارة، إذ سمعوا صوت أزيز قذيفة انفجرت على بعد ثلاثة أمتار من الشاحنة، فارتطم جمال بالسيارة بينما كان أحمد يهم بالصعود على الطرف الآخر من الشاحنة، ارتمى أحد الرجلين في الشارع بينما سقط الآخر عن ظهرها أسرع السائق في دخول الشاحنة و أدار المحرك بينما أسرع الثلاثة الباقون ليحشروا أنفسهم داخل الشاحنة، فتتالت القذائف حولهم وأصابت ذاك الذي سقط عن ظهر الشاحنة وقتلته على الفور وازدادت رشقات القذائف حولهم وسمعوا أصوات طلقات القناصة بكثافة رهيبة، تفقد أحمد فلم يعثر على أية إصابة جسدية، نظر إلى جمال فوجده مضرجاً بدمائه التي كانت تنبع من صدره، وأدرك أن إصابته مميتة لا محالة فقد لمح بعض أحشاء صدره بارزة من جرح واسع وعميق فرفعه أحمد وساعده الآخر ووضعا جمال في مؤخرة الشاحنة وانطلقت الشاحنة بسرعة مذهلة والقذائف تطاردها إلى أن ابتعدوا عن مجال خط النار.. فقطعت الشاحنة الطريق الزراعي ووضع أحمد رأس جمال في حجره فسمعه يتمتم بحشرجة بضع كلمات تبين أنها أسماء أسرته: رشا، فرح، نائل، نادر...

شُدِه أحمد لهذا المنظر الرهيب وفكر كيف أن الموت أصبح أمراً اعتيادياً في هذا الوطن الجريح وهذا الزمن القبيح، فلم يعد أحد في مأمن من الموت حتى الأبطال كجمال.. ولم يستطع أحمد بما لديه من خبرة محدودة في الإسعاف الأولي أن ينقذ جمالاً الذي انضم إلى قائمة الشهداء الأبطال الذين قضوا يطلبون حريتهم وبعض الديمقراطية في بلدهم.. لسوف يفتقده رجال المقاومة كرجل أسطوري، ولسوف يبقى حياً في ذاكرة كل

من عمل معه من أفراد الجيش الحر.. لقد دفع جمال الثمن الأغلى، دفع حياته ثمناً لمبادئه وإيماناً بالحرية والديمقراطية في بلد لم يذق شعبها الحرية لأربعة عقود خلت..

جلس أحمد مذهولاً في مؤخرة الشاحنة بين شهيدين يشعر ببعض الذنب وكثير من الأسى والحزن.. وراح يفكر في مستقبل أسرة جمال وكيف سيتدبرون أمورهم الحياتية بعدما فقدوا أعزّ ما يملكون.. ورغم أنه أدرك أن الحرب قد انتهت بالنسبة لصديقه جمال وقريباً سوف تنتهي بالنسبة إليه غير أنه لم يتمكن من عدم التفكير في أسرة جمال.. وراح يمني نفسه بما ستؤدي هذه التضحيات من خدمة للأجيال القادمة.. وما سيكون عليه مصير هذا النظام و أزلامه وشبيحته المجرمين فيما لو تم انتصار المقاومة....

شن النظام في ذلك اليوم هجوماً شرساً ووحشياً بالمدفعية والدبابات والطائرات على معظم أرجاء سوريا، وخاصة دير الزور والزبداني وحمص وحلب وريف دمشق وجبل الزاوية وحماه ودرعا بشكل غير مسبوق.. هذا النظام الذي لم يجرؤ في يوم من الأيام على مجابهة إسرائيل رغم اختراقها الأجواء السورية مرات عديدة وتدميرها عدة مواقع استراتيجية.. هذا النظام ذاته يوجه سبطانات مدفعيته ودباباته وقناصيه وقذائف طائراته وصواريخه لقتل شعبه الأعزل لأنه طلب شيئاً من الحرية والديموقراطية.. وقد حاول الجيش الحر بما لديه من أسلحة خفيفة والإيمان بعدالة مطلبه ومطلب الشعب أن يدافع عن المواطنين الأبرياء بشن عمليات استشهادية ضد جلاوزة النظام ولحماية المواطنين والتظاهرات السلمية والمشافي الميدانية..

وصلت الشاحنة إلى معرة النعمان بعيد منتصف الليل، فتم دفن جمال ورفيقه في الشهادة في قبر غير ذي علامة تميزه خارج المدينة، فلم يكن هناك تكريم عسكري ولا إطلاق مدفعية لتكريم هؤلاء الشهداء الأبطال، بل كانت جنازة متواضعة جداً وصلاة

مختصرة أمها أحد المجاهدين على أمل أن تكرم الأجيال القادمة هؤلاء الذين جاهدوا وماتوا لتنعم الأجيال القادمة بالحرية و الديمقراطية والكرامة..

تم تهريب أحمد عبر الحدود إلى تركيا، وفي اليوم التالي اجتمع بقائد الجيش السوري الحر في تركيا وأعطاه فكرة مفصلة عن الوضع في حمص، وأعطاه فكرة كاملة عن آخر ساعات قضاها مع جمال، ثم تم نقله إلى أنطاكيا حيث اجتمع شمله مع خطيبته زهراء وأفراد أسرتها، وبعد بضعة أيام وصلت أخته ناهد من كندا وانضمت إليهم..

لقد انتهت الحرب بالنسبة لأحمد ولكنه ظل يردد ما كان قاله له جمال في يوم ما كنصيحة وحكمة بالغة مقتبسة عن المهاتما غاندي:

«يجب أن تكون جزءاً من التغيير الذي تود أن تراه في العالم»..

غيرت الأحداث أحمد بشكل كامل ودائم، كما غيرت الثورة ملايين السوريين الذين عايشوها في سورا بل و في الخارج.

الثورة لم تكتمل بعد

في جو استنبول الغائم، ودرجة الحرارة المنخفضة والأمطار التي تتردد في الانهمار والتوقف.. في هذه المدينة التي عاشت و عاصرت التاريخ مند الأزل، حيث تجد فيها مواقع أثرية لما قبل الميلاد بقرون.. ومراكز تسوق التي تنافس أكبر مراكز التسوق العالمية.. والمساجد التي تشهد كل حضارة درست ولم تبق إلا آثارها، والمطاعم التي تقدم أشهى المأكولات التركية والحلويات المشهورة في العالم، والمقاهي حيث يقدم الشاي التركي الأصيل بكاسات تركية مميزة.. ولمن يرغب بالمتعة يجد ملاهي متنوعة من ملاهٍ تقدم الرقص الشرقي والأغاني التركية التراثية.. إلى ملاهٍ تقدم النمط الغربي من الفن والموسيقى إلى ديسكو يسمع رواده أصخب موسيقا ويرون هستيريا الرقص في أحلى صورها.. وبالخلاصة فإن استنبول تجمع في جوانبها بين التاريخ السحيق في قدمه والحاضر المتنوع، وحتى بعض لمحات من المستقبل.. فهي بلد التاريخ كما هي بلد الجغرافية حيث آسيا وأوروبا لا يفصلهما إلا البوسفور الذي يمتد فوقه جسرين معلقين من أعظم الجسور في العالم، إضافة إلى العبارات التي تجوبه ليل نهار بين طرفي المدينة..

بدأت نهضة استنبول منذ أوائل القرن العشرين حيث نفض كمال أتاتورك عنها صدأ الامبراطورية العثمانية الذي تراكم لقرون عديدة، وقرر أن يجعل من تركيا الحديثة لاعباً رئيسياً على الساحة الدولية حضارياً وصناعياً واقتصادياً، فكان له ما أراد وكانت لبناته الأولى أساس النهضة الشاملة التي نراها اليوم، فقد تعاقبت الحكومات على تركيا بعد كمال أتاتورك وكانت كل حكومة تضيف لبنة جديدة حسب استطاعتها للنهوض بهذه الدولة.. فكان عدنان مندريس أول من حاول العودة إلى الحظيرة الإسلامية.. ودفع حياته ثمناً لها إذ أعدم من قبل العلمانيين الذين يرفضون أي خطوة إلى الوراء، ثم جاء بعد

فترة نجم الدين أربكان الذي كان أشد حماساً من مندريس وشرع بالتبشير بالثقافة الإسلامية والعودة إلى تعاليم الدين الحنيف، مما جعل الجنرالات والعلمانيين يقصوه عن منصبه كرئيس للوزراء واستبداله بمن هو أقل حماسة للإسلام.. أعقبه تورغوت أوزال المثقف في ألمانيا والمشبع بالحضارة والانضباط الألمانيين مع تمسكه بالإسلام المعتدل، وراح يبني في صرح الدولة التركية بركائز متجذرة وصامدة، واختار من تلاميذه شابين لإدارة بلدية استنبول هما رجب طيب أردوغان وعبد الله غول، فحول هذان الشابان المثقفان استنبول إلى ما يشبه خلية نحل بالمشاريع الإسكانية والتجارية والصناعية، وغدت استنبول درة بين عواصم العالم.. وأفادها موقعها الجغرافي أيما فائدة، فغدا فيها مطار أتاتورك الدولي عقدة الوصل بين الشرق والغرب، بل وبين الشمال والجنوب.. وأصبح من أكثر مطارات العالم تنظيماً وخدمة رغم اكتظاظه بالمسافرين والشحنات، وفي هذا المطار الأعجوبة ربضت طائرة بوينغ (٧٧٧) تحمل شارة شركة الطيران التركية، ورقمها (٠١٧) وراحت تتهاوى باتجاه المدرج (٣٦ يمين)، ثم انتظرت في المدرج بانتظار الإذن لها بالإقلاع من برج المراقبة الجوية.. ولكسب الوقت فقد ظهرت على شاشة التلفاز أمام المسافرين تعليمات السلامة ووقف المضيفون والمضيفات يعرضون على المسافرين كل ما يلزمهم من توجيهات السلامة.. ثم تم الاتصال من البرج:

- التركية ٠١٧ الريح الهادئة.. يمكنك الاقتراب من المدرج ٣٦ يمين أعلمنا بإقلاعك..

تحركت الطائرة إلى المدرج وبدأ صوت هدير محركاتها، وازدادت سرعتها تديجياً إلى أن أقلعت بمن عليها من المسافرين، الذين كان بعضهم يرتجف خوفاً لأنها المرة الأولى التي يستقل فيها طائرة، إلا أحمد الذي جلس على كرسيه يمسك بيد زهراء، وبجانبها الآخر جلست ناهد تمسك بيدها الأخرى لزيادة الطمأنينة.. وما إن بلغت الطائرة الارتفاع

المحدد لها حتى سمع الركاب عبر مكبرات الصوت قائد الرحلة يخاطبهم: صباح الخير سيداتي وسادتي، هذا قبطان الطائرة يحيكم.. اسمي محمد قبلاي ومساعدي الأول رشاد فاتح، أرحب بكم على الرحلة ٠١٧ على الخطوط الجوية التركية والمتجهة إلى تورنتو.. سوف نتابع اليوم طريقنا كالتالي فوق أوروبا ثم شمال المملكة المتحدة، إيسلاند ثم إلى الجنوب من غرين لاند ثم نتجه إلى الشمال الغربي إلى غاندر وأخيراً تورنتو.. وسوف تستمر رحلتنا عشر ساعات وربع ومن المتوقع أن نصل إلى تورنتو الساعة /١٥:٢٠/ حسب التوقيت المحلي، سوف نحلق على ارتفاع ٣٦ ألف قدم، ومن المتوقع أن تكون درجة الحرارة في تورنتو ٣ درجات مئوية.. أرجو أن تسترخوا وتستمتعوا بالرحلة بضيافة شركة الطيران التركية..

حاول أحمد جاهداً أن يذكر نفسه بأنه خارج كابوس الحرب الذي استهلك سنة من عمره دون جدوى.. وأنه الآن في طريقه إلى الحرية والكرامة.. وقدم المضيفون والمضيفات أصنافاً عديدة من الطعام والشراب.. وكان أحمد معظم وقته ممسكاً بيد زهراء ويغمرها بالابتسامات والقبلات الهوائية.. فلم يمض على زواجهما إلا سويعات قليلة في حفل متواضع في أنطاكيا بحضور كلا العائلتين الذين كاد يغمرهما شعور مختلط بين فرح العرس وخلاص العر وسين من هذا الكابوس المرعب وحزن الوداع والفراق.. ولم تغب صورة جمال ولا ما تكبده من عناء للخروج من سوريا عن ذهن أحمد للحظة واحدة.. وعاد بذكرياته لأيام ثلاثة خلت عندما ذهب مع بعض ضباط الجيش الحر ليقابل رشا زوجة جمال وأولادها الثلاثة فكانت من أسوأ لحظات عمره أن يسوق لرشا خبر أن زوجها ومعيل أولادها لن يعود إليهم ثانية.. وكيف أن رشا أصيبت بجمود مطلق فلا هي قادرة على أن تتقبل الخبر المفجع ولا هي قادرة على السيطرة على نفسها من البكاء.. والغريب أن زهراء رافقته في هذه المهمة الأليمة فيما أخذت ناهد الأطفال وراحت تلهيهم عما يجري في الغرفة المجاورة، وتذكر كيف أنه تردد عدة مرات قبل أن يخبرها الخبر المفجع،

ولاحظت رشا في وجه أحمد وتصرفاته أنه لا بد وأن أمراً سيئاً قد حصل لجمال .. لا سيما وجود بعض الضباط المرافقين لأحمد الذي حاول جهد استطاعته أن يبلغها الخبر بأرفق طريقة ممكنة.. وطفقت رشا تكرر مرة بعد مرة كأنها لم تصدق ما يقال: كيف له أن يموت.. إنه أقوى من أي شيء في الدنيا.. ثم رفعت رأسها وعيناها محتنقتان وينهمر منهما شلال من الدموع وسألت: من الذي سيعتني بنا الآن؟؟ ثم انفجرت ببكاء شديد يشبه العويل، مما أثار الأطفال لمعرفة سبب بكاء والدتهم وعويلها، فما كان من زهراء وناهد إلا أن أخذتا الأولاد خارج الشقة تجنباً لتعرضهم لهذا الموقف المؤلم.. لقد كانت الكارثة التي حلت برشا أكبر من أن يقدرها أي إنسان، فقد فقدت بفقده محور حياتها وحياة أطفالها فضلاً عن أنه كان حبها الأول.. ولسوف يكون حبها الأخير.. فكر أحمد بما يمكن أن يقدمه لرشا وأولادها لعلمه التام بعدم وجود إمكانية لدى الجيش الحر ليدفع لأهالي الشهداء أية تعويضات على عكس الجيش النظامي الذي يدفع /٥٠٠/ ألف ليرة سورية لأسرة كل ضحية منهم.. وهنا سمع أحمد صوت زهراء تناديه قائلة: أحمد.. لا تقلق سوف نقوم نحن بمساعدتها وأولادها..

واقتربت منه لتمسك يده وتشد عليها كمن يعيد له الثقة بنفسه لأنه شعر بأنه لم ولن يستطيع تقديم أي شيء لهذه الأسرة التي ضاقت بها سبل العيش وراح يبكي صامتاً ويمسح دموعه المتألمة.. وما إن رأته أخته ناهد يبكي حتى انبرت قائلة:

– أعتقد أن بإمكاني مساعدتهم للقدوم إلى كندا.. فسألته زهراء باستغراب:

– حقاً وكيف يمكنك ذلك؟؟

– بما أنهم الآن لاجئون في تركيا وليس لهم أمل في العودة إلى سوريا في المستقبل المنظور لأن ذلك يهدد حياتهم جميعاً، فالأمر بالنسبة للحكومة الكندية إنساني بحت.

– هذا أقل ما يمكن أن نقدمه لتلك الأسرة تخليداً لذكرى والدهم جمال..

وساهم أحمد في الحديث بحماس واضح:

– أرجو أن تعلميني حالما نصل كندا كيف يمكن أن أبدأ بخدمة أسرة جمال وجميع الأسر المنكوبة في سوريا... فقاطعت ناهد حماسه قائلة:

– تمهل يا أخي، إن لديك مهمة كبيرة ومهمة جداً، وسوف تكون مساهمتك بأسلوب آخر.. فعليك أن تعلن أمام الملأ أجمع ما عانيته من جلاوزة النظام ومشاهداتك في السجون القمعية الأسدية.. ولسوف تلقي محاضرات في حفلات جمع التبرعات التي تقيمها الجالية السورية والعربية بشكل متكرر من تورنتو وأنحاء أخرى من كندا.. وعليك الظهور على التلفاز لشرح معاناة الشعب السوري وإذكاء الشعب الكندي بمجريات الأمور والكوارث التي يصبها هذا النظام المتوحش على شعبه.. فأجابها أحمد ولا يزال يتقد حماسة:

– عظيم.. يبدو أنني سوف أكون مشغولاً بالمحاضرات والندوات والمقابلات، وسأشرح للرأي العام الكندي كل ما عانيته ومررت به من تجارب قاسية وما عانيته مع جمال وكل جنود والضباط الذين انشقوا عن النظام المجرم، وآثروا الانشقاق والتشرد في أرجاء المعمورة على أن يقتلوا أبناء وطنهم أياً كان دينهم ومذهبهم وانتماءهم السياسي.. وقد يعينني الله في تأليف كتاب مفصل عن كل ما يجري. فتدخلت زهراء مقاطعة:

– لقد بدأت بالفعل بكتابة مذكراتي عن محنتي ومحنة الشعب عامة.. فسألتها ناهد:

– وماذا سيكون عنوان الكتاب..؟؟ تنفست زهراء ثم قالت:

- «الثورة لم تكتمل بعد..» فقال لها أحمد بحماس وهو ينظر إلى ناهد:

- عنوان عظيم وملفت.. لقد كان اختياراً موفقاً..

وزع طاقم الطائرة الطعام على الركاب الذين كانوا مزيجاً من الشرق أوسطيين وهنود وأوروبيين.. وانشغل الركاب بين من يحاول النوم بهدوء ومن يفضل القراءة إما لعدم قدرته على النوم أو لشغفه وتوقه للوصول، ومنهم من آثر مراقبة التلفاز أمامه واختار فلماً أو برنامجاً رياضياً أو حفلة موسيقية وهذا ما اختاره أحمد إذ فضل الاستماع إلى الأغاني التركية ذات الموسيقا العذبة والعاطفية رغم جهله بالكلمات.. شعر أحمد بالإرهاق والتعب بدآ يؤثران عليه فلم ينم منذ اجتاز الحدود إلا سويعات قليلة و مبعثرة. وما إن أطفئت الأنوار في الطائرة حتى غط في نوم عميق، ولم توقظه أصوات محركات الطائرة ولا بعض الأحاديث بين المسافرين في جواره ولا صراخ بعض الأطفال وبكاءهم من حين لآخر..

بذل طاقم الضيافة في الطائرة قصارى جهدهم لتأمين كل ما يريح المسافرين من خدمات فالطعام والشراب والوسائد والحرامات كانت تقدم دون تردد مشفوعة بابتسامة عريضة من المضيفة حتى أن إحدى المضيفات حملت طفلاً رفض أن يتوقف عن البكاء كي لا يزعج المسافرين، فحملته المضيفة وراحت تروح وتجيء به في ممر الطائرة حتى خلد إلى النوم.. وكم تمنى ركاب الطائرة من السوريين لو كانت هذه الخدمات تقدم على الخطوط الجوية السورية التي نخرها الفساد والسرقات وانعدام الصيانة، وهو ما قلص عدد طائرات الأسطول الجوي السوري إلى أربع طائرات فقط خصصت إحداها لتنقل الرئيس وأسرته واستأثر المسؤولون العلويون ورجال الأمن والمخابرات مع أسرهم بالثلاثة الأخر في ترحالهم إلى أوروبا للتسوق وقضاء بعض أيام لتهريب الأموال التي سرقوها من الشعب المسكين إلى البنوك الأوروبية.. وليس سراً ولا مستغرباً أن تلغى تذكرة مسافر ما ليأخذ

مكانه عنوة ودون أي اعتذار أو حتى مكالمة هاتفية لإعلامه عن إلغاء تذكرته، أحد المسؤولين لا سيما وإن كان علوياً.. فلهم كل الحقوق.. وليس لأحد أن يسأل أو يعترض.. وإلا فالاعتقال والسجن والاختفاء مؤقتاً أو إلى الأبد أو التصفية الجسدية ستكون مصيره المحتوم..

كم كان أحمد وغيره من السوريين لو كانت شركتهم للطيران وموظفيها يعكسون اعتزازهم وفخرهم ببلدهم، ولكن أنَّى لهم ذلك وسيف المخابرات والطائفية مسلط فوق رقابهم... كان أحمد يستيقظ من نومه بشكل مفاجئ بين الفينة والفينة يفكر بجمال وأسرته والوطن والدمار الشامل الذي ألحقه بشار الأسد و زبانيته بالبلد.. فيلتفت ليؤنس نفسه بنظرة شاعرية وحب إلى وجه زوجته وهي مغمضة عينيها ومستسلمة لنوم هنيء.. و أحياناً يبتسم ضمنياً ويعاتب نفسه على تجاهلها طوال تلك الفترة الماضية من السنين وفكر بإنسانة سطحية تافهة العقل والفكر كخطيبته السابقة.. وطمأن نفسه بنفسه بأن بلسم جراحه النفسية والجسدية تجلس إلى جانبه هانئة مطمئنة.. وقضى معظم وقته بين نوم ويقظة وتفكير بما هو آتٍ بينما كانت الطائرة تقطع أوروبا والمحيط الأطلسي والذروة الجنوبية من غرينلاند بسلاسة ويسر وأضفت الظلمة الداخلية والخارجية جواً من السكينة جعلت معظم المسافرين يغطون في نومهم كما ناهد وزهراء.. وما إن دخلت الطائرة المجال الجوي الكندي حتى هب الطاقم بإضاءة الأنوار الداخلية وقدموا وجبة غنية تعكس كرم الضيافة، أما أحمد فقد ظل في مقعده يغالب التعب والنعاس لنومه المتقطع، فنظر إلى زهراء ووجدها تبتسم ابتسامة تحمل في حناياها كل معاني الحب والسعادة لكونها إلى جانبه.. أما ناهد فقد رمقتها بنظرة عابرة كيلا تقحم نفسها فيما هم فيه من سعادة، ولكنها كانت تشعر بالفخر بما أنجزته لهما من ارتباط ببعض وإخراجهما من كابوس قاتل وجعلهما جزءاً من عالمها ومستقبلها.. رفع أحمد يد زهراء إلى شفتيه وقبلها بحنان جعل زهراء ترتجف كعصفور يبتغي الطيران ليبلغ الجوزاء.. بدأ طاقم الضيافة بتوزيع بطاقات

دائرة الهجرة والجوازات والجمارك على الركاب، فأخذت ناهد البطاقات وقالت أنها سوف تقوم بإملاء المعلومات إذ أن عليها أن تشرح لضباط الأمن في المطار بعض الأمور عن أوراق الهجرة الخاصة بهما.. وأخذت الطائرة بالانخفاض من ارتفاعها بشكل تدريجي إلى مطار بيرسون الدولي، وصدر الأمر من برج المراقبة «التركية ٠١٧ يسمح لك بالهبوط على ILS 24 يمين. يرجى الاتصال حالما تثبت نفسك..».. وحطت الطائرة بأمان على مدرج المطار بعد أن أعطاها البرج سرعة الرياح واتجاهها....

تجهز المستقبلون في الصالة الأولى من مطار بيرسون الدولي لاستقبال المسافرين من أهل وأصدقاء ورجال أعمال، فكان المستقبلين ينتهزون فرصة خروج بعض المسافرين ليفتح الباب الزجاجي وتلتقي الأعين وترتفع الأيدي بالتحية. وكان فريد وبعض أصدقائه الذين يقرب عددهم من /٥٠/ رجلاً وامرأة في انتظار ناهد ومرافقيها، وكان بين المرافقين خليل وزوجته اللذين رفعا لافتة تقول: «أهلاً بكم يا أبطالنا..»، «تحيا سوريا حرة..»، بينما رفع آخرون علم الاستقلال، ورفع أحدهم لافتة «أهلاً وسهلاً بكم في بلاد الحرية..».. وبعد حوالي ساعتين خرج الثلاثة عبر الباب الزجاجي وأمسكت ناهد بيدي أحمد وزهراء ورفعتهما عالياً كما يفعل حكام مباريات الملاكمة لكي يعبروا عن فوزهم وانتصارهم على المجرم بشار الأسد ونظامه الفاسد والعنصري والطائفي..

وطفق الجميع يُقبّلون الواصلين ويعانقونهم بين مبتسم وضاحك وباكٍ فرحاً بقدومهم وسط صخب وجلبة كلمات الترحيب والتهنئة بسلامة الوصول..

لقد تغلب أحمد وزهراء على كل ما اعترضهما من عقبات.. وغادرا سوريا مشبعين بذكريات مؤلمة وندبات نفسية وجسدية سوف تبقى تلازمهما طوال الحياة.. ولم تكن تجربتهما هذه إلا تجربة اثنين من آلاف الشباب والصبايا الذين يقبعون في غياهب سجون الأسد الأب والابن دون ذنب اقترفوه سوى أنهم حاولوا تنسم الحرية وطالبوا ببعضها..

لقد غادر أحمد وزهراء سوريا آمنين ولكن ماذا عن بقية الملايين هناك.. الذين لا حول لهم ولا قوة.. ماذا عن الذين يقتلون لمجرد أنهم كانوا في المكان الخطأ في الوقت الغلط.. فالقنابل ترمى من الطائرات بشكل عشوائي تصيب كل من كان حظه عاثراً وتواجد في منطقة سقوطها دون اعتبار لسن او جنس أو دين أو مذهب أو عقيدة.. فالقتل في سوريا يحصل بهدف القتل فقط.. أما التدمير للبنى التحتية والفوقية فهو تدمير ممنهج لكي تتحقق مقولة زبانية النظام: الأسد أو لا أحد

الأسد أو نحرق البلد

لا إله إلا بشار.. ولا دين إلا العلوية..

لا زال العالم يقف شاهداً على ذلك الجحيم الذي فرضه بشار الأسد وزبانيته على سوريا.. يحلمون بأن تغير روسيا والصين مواقفهما في مجلس الأمن.. وأنَّى لهم ذلك وهما من عُرف عنهما تاريخهما المخزي في مجال حقوق الإنسان.. ففد عانى شعباهما لسنين طوية ولا يزالون يعانون مطالبين ببعض الديمقراطية والكرامة الإنسانية كما عانا ولا يزال يعاني الشعب السوري الأشم..

لا يزال الجيش السوري الحر يقاتل بمفرده وبما لديه من عتاد لا يجاري ما يملكه النظام من أدوات ووسائل جهنمية دون أي دعم من الغرب أو الدول العربية أو الإسلامية، إلا النزر اليسير من مساعدات إنسانية لا تسمن ولا تغني من جوع.. وستبقى الثورة والثوار يذكرون أبطالهم وأساطيرهم الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الحرية والكرامة.

٢٠١٣/٢/٢٣

المحتوى